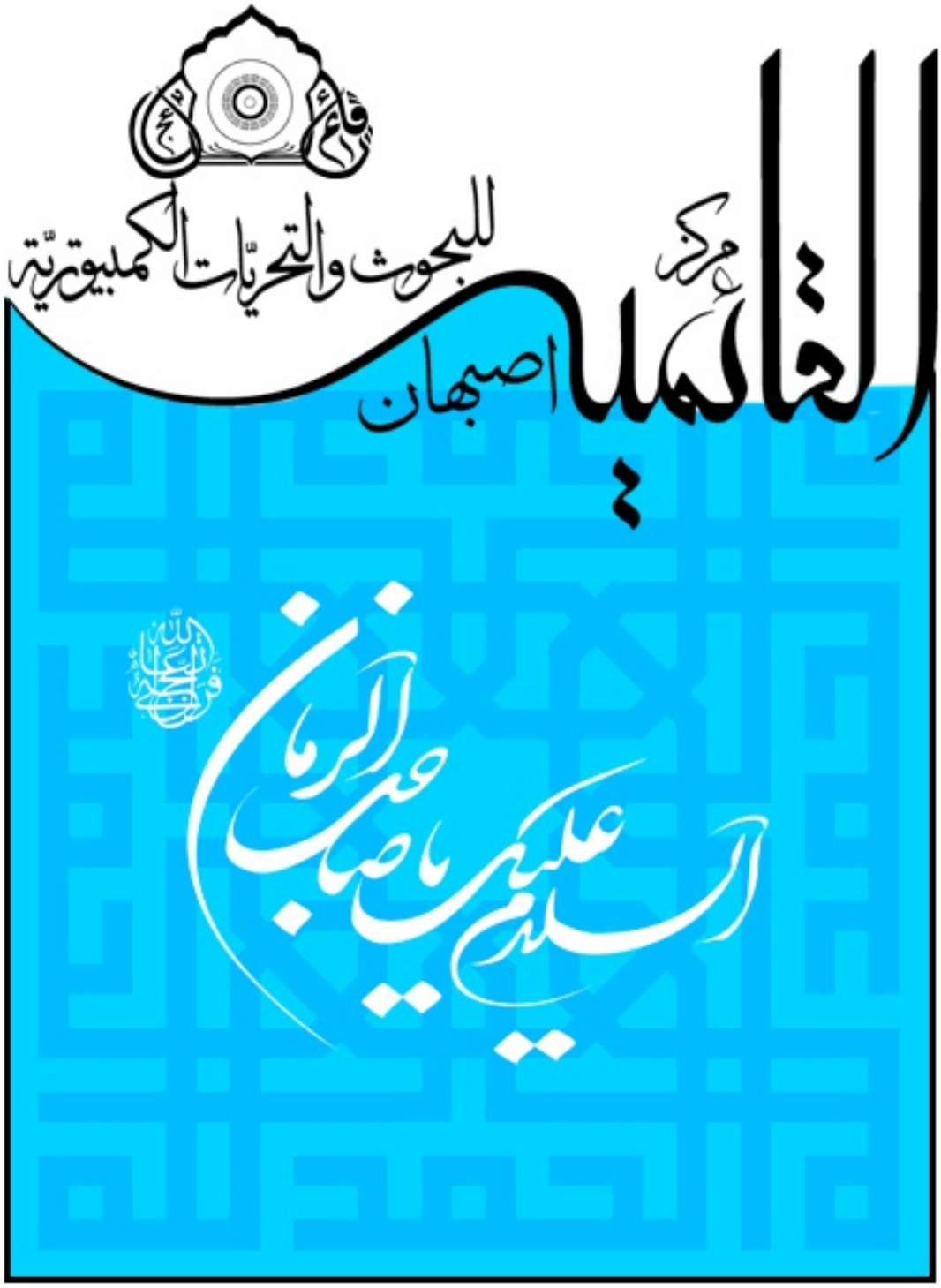

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الإمام
جعفر الصادق
عليه السلام

إمام المسلمين

تأليف

الدكتور محمد الجميلي الحلو

نقله
محمد الشبيبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الامام جعفر الصادق (ع)امام المسلمين

كاتب:

المستشار عبدالحليم الجندى

نشرت فى الطباعة:

انصاريان

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الامام جعفر الصادق (ع)امام المسلمین ----- ۱۰
اشارة ----- ۱۰
مقدمة ----- ۱۰
تمهید ----- ۱۰
پاورقی ----- ۱۲
ظهور الاسلام ----- ۳۵
اشاره ----- ۳۵
اخو النبی ----- ۳۵
اشاره ----- ۳۵
اخو النبی ----- ۳۶
بین الخلفاء الراشدین ----- ۳۷
الشیعة ----- ۴۰
ابوالشهداء ----- ۴۱
اشاره ----- ۴۱
ریحانة النبی فی کربلاء ----- ۴۴
بین السلطان و الإمام ----- ۴۸
اشاره ----- ۴۸
اهل‌البیت ----- ۴۹
اشاره ----- ۴۹
بین ابناء علی و بنی‌العباس ----- ۵۱
الرجلان ----- ۵۶
امام المسلمین ----- ۶۱

اشاره ----- ۶۱
فی المدینة المنورة ----- ۶۲
اشاره ----- ۶۲
اهل المدینة ----- ۶۵
زین‌العابدین ----- ۶۷
الباقر ----- ۶۹
امام المسلمین ----- ۷۰
اشاره ----- ۷۰
مجالس العلم ----- ۷۲
التلامیذ الأئمة ----- ۷۴
کل العلوم ----- ۷۷
مع القرآن ----- ۷۹
مع أهل الکوفة و أبی‌حنیفة ----- ۸۱
المذهب الجعفری ----- ۸۳
المدرسة الکبری ----- ۸۴
اشاره ----- ۸۴
المدرسة الکبری ----- ۸۵
اشاره ----- ۸۵
المصحف الخاص أو کتاب الأصول ----- ۸۵
مصحف فاطمة ----- ۸۶
التدوین ----- ۸۶
مشیخة العلماء ----- ۸۹
التلامیذ من الشیعة ----- ۹۱
الدرس الکبیر ----- ۹۵

اشاره ----- ۹۵
السنة ----- ۹۷
الامامة ----- ۹۹
اشارة ----- ۹۹
امور خلافیة فی الفقه ----- ۱۰۳
اشاره ----- ۱۰۳
الجمع بین الصلاتین ----- ۱۰۴
الاذان ----- ۱۰۴
المسح علی الرجلین ----- ۱۰۴
اشارة ----- ۱۰۴
الزواج و الطلاق ----- ۱۰۵
فی الزواج ----- ۱۰۵
فی الطلاق ----- ۱۰۵
زواج المتعة: (الی أجل معین) ----- ۱۰۵
المیراث ----- ۱۰۶
متعة الحج ----- ۱۰۶
التفسیر بالتأویل ----- ۱۰۶
البداء؛ و مفهومه الشائع: الظهور بعد الخفاء ----- ۱۰۷
الرجعة ----- ۱۰۸
المنهج العلمی ----- ۱۰۸
اشاره ----- ۱۰۸
التجربة و الاستخلاص ----- ۱۰۹
اشارة ----- ۱۰۹
فی السیاسة و الاجتماع ----- ۱۱۸

اشاره ----- ۱۱۸
فی الدولة و قواعدها ----- ۱۱۹
المساواة اساس الدولة ----- ۱۱۹
العدل، و نزاهة الحکم ----- ۱۲۰
الشوری و العنایة بالعامة ----- ۱۲۱
الحکام ----- ۱۲۲
المجتمع الجعفری ----- ۱۲۳
الجهاد ----- ۱۲۵
اشارة ----- ۱۲۵
فی المجتمع و دعائمه ----- ۱۲۶
الأسرة ----- ۱۲۶
الأخوة ----- ۱۲۷
المرأة ----- ۱۲۸
العلم ----- ۱۲۹
الدعاء ----- ۱۲۹
المنهج الاقتصادی ----- ۱۳۰
اشاره ----- ۱۳۰
العمل ----- ۱۳۱
المضطرب بماله و المترفق بیده. أو: التجارة و الصناعة ----- ۱۳۲
التجارة ----- ۱۳۳
المال ----- ۱۳۵
العبادة و انفاق المال ----- ۱۳۵
اداء حقوق الآخرین فی المال ----- ۱۳۶
کنز المال ----- ۱۳۷

التعاون ----- ۱۳۸
الخاتمه (إلى الرفيق الأعلى ----- ۱۳۸
اشاره ----- ۱۳۸
عدالة السماء ----- ۱۴۰
الاسماعيلية ----- ۱۴۲
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۱۴۵

الامام جعفر الصادق (ع)امام المسلمين

اشارة

المؤلف: المستشار عبدالحليم الجندى

تحقيق: كمال السيد الطبعة:الاولى

طبع فى سنة: ۱۴۲۷ ق / ۲۰۰۶ م

الناشر : نشر انصاريان

مقدمة

عاش الامام الصادق فى زمن التحولات الكبرى، و شهد زوال حكم دموى رهيب، و قيام حكم غاشم نهض على جماجم الضحايا. و كان - عليه‌السلام - فى طليعة الذين صنعوا تلك الحقبة الحساسة من التاريخ الاسلامى. و اذا عرفنا «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»، أدركنا عمق الدور الهام الذى اضطلع به الامام الصادق فى ايقاف حالة التداعى الفكرى التى عصفت بالأمة يومذاك. ففى عهده عليه‌السلام استكملت مدرسة أهل‌البيت ملامحها و بدأت تخرج العلماء و العباقرة الذين تصدوا لمنازلة زعماء العقائد المنحرفة و الضالة؛ و من ثم تجذير الحالة الاسلامية التى كانت تهتز بشدة. أدرك آلام امته، فانتهج طريقه اللاحب لا يحيد عنه قيد شعرة؛ و تماسك الأمة، و وحدتها تلزمه قاعدة فكرية صلبة، و الصراع الفكرى فى ذروته، فانطلق الصادق عليه‌السلام يفجر ينابيع العلم تفجيرا، فسالت أودية على قدر كيف نجا الامام عليه‌السلام من براثن حكم قام على أشلاء مذبحة عاشوراء؟! و كيف أمكنه ان يروض حكما قاسيا لا يعرف للرحمة معنى؟! ذلك هو السر فى شخصية الامام الصادق عليه‌السلام. كانت الأرض تهتز تحت قدميه بعنف... الجيوش القادمة من الشرق تحمل رايات سوداء و تبشر بدولة جديدة... شعارها الرضا من آل محمد، و آلاف المؤامرات و الدسائس تحاك فى الظلام. و فى عصر قلق لا يعرف الثبات، ثبت الامام الصادق عليه‌السلام و ظل كما هو يشق طريقه بعيدا عن ألاعيب الساسة و مؤامرات ذوى الطموح. أحرق رسائل الذين دعوه للزعامة السياسية. كانت الوقائع مثيرة... مزلزلة، عاصفة... و كان [صفحه ۱۰] الصادق عليه‌السلام مطمئنا؛ لأنه كان يعيش فى عالم الحقائق لا الوقائع... كان ينظر الى ماوراء الحوادث، و كان همه الدائم الحفاظ على كيان الأمة. فالأمة تحتاج الى فكر عميق و قاعدة صلبة، فشمر عن ساعديه وراح يرفع القواعد من البيت. هكذا عاش الصادق... معلما للانسان... حياته حياة الأنبياء، و روحه العظيمة تنطوى على ذات الأسرار التى انطوت عليها روح محمد و على و الحسين. الكتاب الذى بين يديك عزيزى القارى، يمثل - فى الحقيقة - رحلة فى عمق التاريخ و الانسان، ارتأت (مؤسسة أنصاريان) اعادة طبعه و بحلة جديدة بعد اجراء بعض التصحيحات اللازمة فيما يتعلق ببعض الحوادث التاريخية، اضافة الى التخفيف من حدة الاسلوب التبريرى الذى يخدش الذوق المنطقى، خاصة فى الحقبة التى استوعبت وقائع صدر الاسلام... و من هنا جاء نشر الكتاب تحت عنوان: «طبعة جديدة» كمال السيد [صفحه ۱۱]

تمهيد

لقد تتلمذ أبوحنيفة و مالك للإمام الصادق، و تأثرا به كثيرا، سواء فى الفقة أو فى التفكير. و مالك شيخ الشافعى. و الشافعى يدلى إلى أبناء النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) بأسباب من العلم و الدم. و قد تتلمذ له أحمد بن حنبل سنوات عشر. فهؤلاء أئمة أهل السنة الأربعة، تلاميذ مباشرون أو غير مباشرين للإمام الصادق. غير أن تعاقب الأئمة الأربعة لأهل السنة، و تقارب مذاهبهم فى تعبيرها

عن فقه «أهل السنة»، دفعا إلى وجه آخر. فظهرت كتبنا عنهم بين سنتى ۱۹۴۵، ۱۹۷۰ للميلاد. و إلى ذلك فقد تأكد فى كتابنا «توحيد الأمة العربية» سنة (۱۹۶۵) أن «وحدة القاعدة القانونية» هى الطريقة المثلى لربط المسلمين، فى شتى أقطارهم، بتشريع إسلامى شامل تتضاءل أمامه التشريعات المعاصرة فى الغرب و الشرق. و الفقه «الشيعى» واحد من النهرين اللذين تسقى منهما حضارة الإسلام، و إليه لجأ الشارع المصرى فى هذا القرن لإجراء إصلاحات ذات بال فى نظام الأسرة المصرية. و الإمام جعفر الصادق يقف شامخا فى قمة فقه أهل‌بيت النبى عليه الصلاة و السلام هو فى الفقه امام. و المسلمون اليوم يلتمسون فى كنوزهم الذاتية مصادر أصيلة للنهضة؛ غير خليطة و لا- مستوردة. هو الإمام الوحيد من «أهل البيت» الذى أتيحت له امامة دامت أكثر من ثلث قرن، تمحض فيها مجلسه للعلم، دون أن يمد عينيه الى السلطة فى أيدى الملوك. و بهذا التخصص سلم الأمة مفاتح العلم النبوى. و منه يبدأ التأصيل الواضح لمنهج علمى عام للفكر الإسلامى، نقلته أمم الغرب و وصلت الى ما وصلت اليه. و عمل به بين يديه، ثم [صفحه ۱۲] أعلنه، تلميذه جابر بن حيان أول كيميائى كما تبايع له «أوربا الحديثة»، و هو «منهج التجربة و الاستخلاص»، أى الاعتبار بالواقع و تحكيم العقل، مع النزاهة العلمية. فالإمام الصادق هو فاتح العالم الفكرى الجديد، بالمنهج العقلانى و التجريبى، كأصحاب الكشوف الذين فتحوا أرض الله لعباده فدخلوها آمنين. و الإمام الصادق هو الإمام الوحيد فى التاريخ الإسلامى، و العالم الوحيد فى التاريخ العالمى، الذى قامت على أسس مبادئه «الدينية و الفقهية و الاجتماعية و الاقتصادية» دول عظمى. و مصر تذكر منها أكبر دولة عرفها التاريخ فيها منذ عهد الفراعنة – الدولة الفاطمية – التى امتد سلطانها من المحيط الأطلسى الى قناة السويس. ولو لا هزيمة جيوشها أمام الأتراك لخفقت أعلامها على جبال الهملايا فى وسط آسيا. و العالم كله مدين لها بمدينة القاهرة. و المسلمون يدينون لها بالجامع الأزهر، الذى حفظ القرآن و السنة و اللغة العربية، و علومها كافة. و يدينون لتعاليم الإمام بقيام دولة كبيرة فى ايران. و مجتمع عظيم بالعراق. و معاهد علمية يتصدرها النجف الأشرف، و شعوب قوية فى الهند و باكستان و اليمن و أفغانستان و وسط آسيا و لبنان و سورية و كثير سواها. و هو الإمام الذى علم بالمواقف التى وقفها، قدر ما علم بالمبادى التى أرساها. فالمواقف أعمال. و هى أعلى صوتا من الأقوال. و لقد يعدل الموقف الواحد جهاد عمر كامل، أو مهمة حياة رجل. و هو، بمكانه من «أهل البيت»، و حقه فى الخلافة، و امامته للفقهاء بلا استثناء، كان غرضا يطلبه اعظم خلفاء بنى‌العباس ليضيفه الى قوائم القتلى من صناديد القادة، أو الشهداء من «أهل البيت». و كان درسا من السماء أن يسيطر الإمام على الميزان اذ يلتقيان، فيضعف الطالب عن المطلوب، و يرتفع الإمام الصادق بالخليفة القاتل الى مستوى الحاكم العادل. و المستقبليون الذين يتكلمون اليوم عن الأخذ بأسباب النهضة العلمية، [صفحه ۱۳] كالسياسيين الذين لا يرون النهضة بالغة شأوها الا أن تكون شاملة لأمور الدين و الدنيا – هؤلاء و أولاء، بحاجة الى الاطلاع على حياة الإمام الصادق، ليروا مقدار ما تفلح الدعوة الصادقة بالمبادئ الصحيحة، و الخطط الرشيدة، فى اقامة دول، و مجتمعات، قوامها الدين و العلم و العدل و الاقتصاد. و الله نحمد: لقد غيرت مصر فى سنة ۱۹۷۱ دستورها، و نصت على أن «الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع» و هى دعوة صادقة لتقوم القوانين المطبقة جميعا على أساس الشريعة. و بعد: فالكتاب الحالى يبلغ غرضه اذا كان صوتا يدعو الى الوحدة. و المسلمون تجمعهم أصول فكرية واحدة، و ان اختلفت الفروع أو تعددت الآراء. و فى تعدد الآراء ثراء. و لما عرض تلميذ لأحمد بن حنبل تسمية كتاب له «كتاب الاختلاف» قال له «سمه كتاب السعة». ألا: و انه لا صلاح للمسلمين و العرب اليوم فى مواجهة التحدى العالمى الا بالوحدة. و العالم الغربى الذى تهز الأفكار المادية و الإلحادية عقائده، و يزعزع الرعب النووى استقراره، بحاجة الى مبادئ الإسلام، و عرض شريعته علميا، كهيئة ما عرضها الإمام الصادق على ملحدى عصره فكانوا يسلمون، و كمثل ما علم تلاميذه و معاصريه قواعد العلم و الفقه و الاقتصاد التى تكفل للمسلمين النماء الفكرى و الاجتماعى و الاقتصادى. و العالم الغربى، الذى يحسب للعالم الإسلامى حساب الطاقة التى خزنتها السماء فى الأرض الإسلامية، التى جعلها الله مقرا لبيته العتيق، و حساب المعادن التى تعكس الأقمار الصناعية لمعانها و اشراقها كلما صورت أرض المسلمين، العالم الغربى الذى جمعته الحروب الصليبية فى مواجهة العالم الإسلامى، و الذى خططت حدوده الحالية حروب و معاهدات دينية، و ازدهت قاراته الجديدة بعد هجرات تجرى فى جذورها [صفحه ۱۴] النوازع

الدینیة، هذا العالم الغربی جدیر بأن یواجهه المسلمون کالبنیان المرصوص. حیاة الإمام تنقسم فی ترجمتها الی قسمین: الأول عن الرجل، و الثانی عن علمه. و علی ذلک وردت الصورة التی صورنا فیها هذه الحیاة فی قسمین. کل منهما فی ثلاثة أبواب. یدور القسم الأول حول ظهور الإسلام و تألق «علی» و أولاده من «فاطمة الزهراء» فی الصدارة من الاشخاص و الأحداث، و البیئة التی نتج فیها الإمام الصادق؛ فتعاونت علی اعداده ظروف الوفاء، أو العداء، لأهل البیت، لتهیئ منه إماما خصیصته تعلیم العلم الذی تلقاه عن جدیه، و طریقته الأسوة الحسنة فی أعمال حیاته، و تحمل التبعات حیث تزوغ الأبصار. و یعرض القسم الثانی من الکتاب تصور المؤلف للعلم الذی علمه الإمام، و المدرسة التی أنتجته، و المنهج العلمی، العالمی، الذی أخذ به العلماء و الفقهاء ، و الریاضیون و الفلکیون و الکیمائیون و علماء الطبیعة الإسلامیون، و نقله عنهم ریاضیو الوسیطة فی اوربا، لیصیر «منهج التجربة و الاستخلاص» الذی یعمل به الفکر المعاصر، بعد إذ ترجم من العربیة فی جنوب فرنسا و اسبانیا و صقلیة و سواها من جامعات أوربا، و سبق إلی التنویه به «روجیر بیکون» ثم نسب إلی «فرنسیس بیکون» بعد ثلاثة قرون - و کذلک المنهج السیاسی و الاجتماعی و الاقتصادی الذی نهضت علیه الدول العظمی و المجتمعات الإسلامیة التی یباهی بها المسلمون فی العصر الوسیط و فی العصور الحدیثة. و فی هذا القسم باب أخیر تبدو فیه عدالة التاریخ مصححة لانحراف الأعداء و افتیاتهم علی أبناء علی، کما یظهر فیه نصر الله للمسلمین إذ یتحدون. و الله نسأل أن یقینا الزلل. [صفحه ۱۷]

پاورقی

[۱] العرب تسمی ابن‌العم الشقیق أخا.

[۲] روی جمیع بن عمیر التیمی قال «دخلت مع عمی علی عائشة فسألت: أی الناس کان أحب إلی رسول الله؟ قالت فاطمة. قیل من الرجال؟ قالت زوجها. أن کان ما علمت صواما قواما» و فی مسند الإمام أحمد عن علی أنه قال: دخل علی رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم)، و أنا نائم، فاستسقی الحسن أو الحسین فقام النبی إلی شاة لنا بکیء (قلیلة اللبن) فحلبها قدرت فجاء الحسن فنحاه النبی فقالت فاطمة: یا رسول الله. کأنه أحبهما قال: لا ولکنه استسقی قبله، ثم قال «أنا و ایاک و هذین، و هذا الراقد، فی مکان واحد یوم القیامة». توفیت بعد رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم) بستة أشهر و قیل ثلاثة. و قیل بسبعین یوما عن تسع و عشرین سنة أو ثلاثین.

[۳] لا یتسع المقام فی هذا الباب إلا لبعض أمثال: - قاضاه خصم إلی عمر و ناداه عمر: قم یا أباالحسن. و لا حظ عمر أنه تألم فسأله. فقال «تألمت إذ کنیتنی و لم تکن خصمی فلم تسو بیننا». - و قاضاه یهودی - و هو خلیفة - فی درع - و لم تکن للخلیفة بینة. فقضی القاضی ضده، فأسلم الیهودی لما رأی من العدل. - و أودع قرشیان مائة دینار - لدی قرشیة علی ألا تدفعها لأحدهما دون الآخر. و لبثا حولا ثم جاء أحدهما وادعی أن الآخر مات. فدفعت إلیه المال. ثم جاءها الآخر فأخبرته. فترافعا إلی علی. و عرف علی أن الرجلین مکرا بها. فقال للرجل: أ لیس قلتما لها لا تدفعی لواحد دون صاحبه؟ قال بلی. قال اذهب فجیء بصاحبک. فذهب و لم یرجع. و هذه اللفتات المرتجلة تصدر عن وحدة فکریة فی أمور الإثبات و الإجراءات و إدارة الجلسات و هی دلائل متضافرة علی اقتدار مقطوع القرین «لعقل قضائی» أجمع الصحابة العظماء علی أنه أقضاهم.

[۴] الأشتر أول من قال العبارة الشهیرة فی شأن معاویة حین سئل: أشهد معاویة بدرا؟ فأجاب: نعم من الجانب الآخر (أی جانب المشرکین).

[۵] روی الأنباری فی تاریخ الأدباء أن سبب وضع علی کرم الله وجهه لهذا العلم ما روی أبوالأسود الدؤلی (۶۷) حیث قال: دخلت علی أمیرالمؤمنین علی فوجدت فی یده رقعة فقلت ما هذه یا أمیرالمؤمنین فقال: إنی تأملت کلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (یعنی الاعاجم) فأردت أن أضع شیئا یرجعون إلیه ثم ألقی إلی الرقعة و مکتوب فیها (الکلام کله اسم و فعل و حرف

فالاسم ما أنبأ عن المسمى و الفعل ما أنبى به و الحرف ما أفاد معنى) و قال لى انح هدا النحو و أضف إليه ما وقع عليك و اعلم يا أباالأسود أن الأسماء ثلاثة... ظاهر و مضمر و اسم لا ظاهر و لا مضمر. و إنما يتفاضل الناس يا أباالأسود فيما ليس بظاهر و لا مضمر (أراد بذلك الاسم المبهم) قال وضعت بابى العطف و النعت ثم بابى التعجب و الاستفهام إلى أن وصلت إلى باب ان و أخواتها فكتبتها ماخلا «لكن» فلما عرضتها على أميرالمؤمنين (عليه‌السلام) أمرنى بضم (لكن) اليها. و كلما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية. فقال ما أحسن هذا النحو الذى نحوت فلذا سمى النحو. و ان المرء ليلاحظ أن هذا الفتح العظيم فى العلم كان من اهتماماته و هو أمير للمؤمنين، ليس لديه يوم واحد خلا من معركة أو استعداده لمعركة. و ان أباالأسود هو واضع علامات الإعراب فى المصحف فى أواخر الكلمات بصبغ يخالف لون المداد الذى كتب به المصحف. فجعل علامة الفتح نقطة فوق الحرف. و الضم نقطة إلى جانبه و الكسر نقطة فى أسفله و التنوين مع الحركة نقطتين ثم وضع نصر بن عاصم (۸۹) تلميذ أبىالأسود النقط و الشكل لأوائل الكلمات و أواسطها ثم جاء الخليل بن أحمد (۱۷۵) فشارك فى إتمام بقية الإعجام... و الخليل شيعى كأبى الأسود. و هو واضع علم العروض و صاحب المعجم الأول و واضح النحو على أساس القياس. فاللغة العربية مدينة لعلى و تلاميذ على. و كمثلها البلاغة العربية. و يعد على من ابرز خطباء التاريخ العالمى بخطبه و المناسبات التى دعت إليها.

[۶] لم يورث الخليفة الزهراء من أبيها. و قصد إليها مع عمر يذكران لها حديث الرسول فى حرمانها من ميراثها. قال أبوبكر: إنى سمعته (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) ثم قال: و الله إن قرابة رسول الله أحب الى من قرابتى. و إنك أحب الى من عائشة (بنته). قالت: ارايتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه و تعملان به؟. قالا: نعم. قالت: ألم تسمعا قول الرسول «رضا فاطمة من رضاى و سخط فاطمة من سخطى». قالا: سمعنا. قالت: إنى أشهد الله أنكما استخطتمانى. و ما أرضيتمانى. و لئن لقيت رسول الله لاشكونكما إليه... و خرجا يبكيان. فلقد كانت تبكى.

[۷] و منذئذ كانت لعلى شيعته. قال أبان بن تغلب «قلت لجعفر بن محمد (الصادق) جعلت فداك. هل كان أحد من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أنكر على أبىبكر فعله؟ قال: نعم اثناعشر رجلا من المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص و سلمان الفارسى و أبوذر الغفارى، و المقداد بن الأسود و عمار بن ياسر و بريدة الأسلمى. و من الأنصار: أبوالهيثم بن التيهان. و سهل و عثمان ابنا حنيف. و خزيمة بن ثابت و أبى بن كعب. و أبوأيوب الأنصارى.

[۸] قرية على مبعدة ثلاثة ايام من المدينة.

[۹] كان أبوسفيان إحدى تبعات معاوية، أرسل معه من دمشق أموالا و أغلالا إلى عمر ليظهره على الأغلال التى كان أسارى المسلمين مقيدين بها فى حصون الروم. فلما رجع أبوسفيان إلى المدينة ذهب إلى عمر بالأغلال و لم يذهب بالمال. فسأله عمر: أين المال؟ قال: كان علينا دين و مؤنة، و لنا فى بيت المال حق. فإذا أخرجت لنا شيئا؟ قال عمر: اطرحوه فى القيود حتى يأتى بالمال... فأرسل أبوسفيان من جاء بالمال.]

[۱۰] عبد شمس أخوهاشم جد النبى و هما ابنا عبد مناف. و لعبد شمس بنون منهم: حبيب جد عبدالله بن عامر. و منهم أمية أبوحرب والد أبىسفيان، والد معاوية. و منهم أبوالعاص و له أبناء منهم عفان أبوعثمان. و الحكم أبومروان. و مروان كاتب عثمان. و منهم أبوعمر و له أبناء منهم أبومعيط جد الوليد بن عقبة الذى حده عثمان للخمر، و هو وال له. و منهم العاص أبوسعيد أحد ولاة عثمان. و منهم أبوالعيص جد عتاب بن أسيد عامل النبى على مكة. حيث ولى النبى أعداءه السابقين و لم يول أهله.

[۱۱] شهد صفين مع على ألفان و ثمانمائة من الصحابة... منهم سبعة و ثمانون من أهل بدر و تسعمائة من الأنصار و من بايعوا بيعة الرضوان.

[۱۲] و جاءه يوما جماعة فأكثروا القول و أطالوا فى خلافة على فرفع إليهم رأسه و قال: إن الخلافة لم تزين عليا ولكن عليا زينها. و مثل الشافعى رأى المسلمين عندما قال رجل «ما نفر الناس على إلا لأنه كان لا يبالى بأحد» فبهته الشافعى بقوله «كان له أربع خصال لا

تكون واحدة منها لإنسان إلا و يحق له ألا يبالى بأحد: انه كان زاهدا، و الزاهد لا يبالى بالدنيا و أهلها. و كان عالما، و العالم لا يبالى بأحد. و كان شجاعا، و الشجاع لا يبالى بأحد. و كان شريفا، و الشريف لا يبالى بأحد». و أما الخوارج على جيشه فكانوا ثمانية آلاف دعاهم ليزيل شبهتهم. فأبوا أن يجيئوه إلا- أن يقر بالكفر على نفسه ثم يتوب. فحاربهم و نصره الله عليهم. ثم حاربوا الأمويين و العباسيين. و مع تكفيرهم الكثيرين من جمهور المسلمين بدعوى التهاون فى الدين فالمسلمون لا- يكفرونهم لانهم متأولون. و أميرالمؤمنين على يعلم المسلمين ذلك بقوله عنهم: «إخواننا بغوا علينا». وفقه على فى معاملة العدو و فى الحرب عنوان على علم الإمام و حلمه. فهما من علم النبى و حلمه. إذا كانت هند بنت عتبة (أممعاوية) مثلت بجثة أسد الإسلام حمزة يوم أحد، و قال النبى يومذاك «ما وقفت موقفا قط أغيظ لى من هذا» فلما جاءه يوم فتح مكة «وحشى» قاتل حمزة اكتفى بقوله «ويحك غيب عنى وجهك». و عفا عن هند و قال للأعداء «أنتم الطلقاء»، فلقد صنع على صنيعه (يوم الجمل) عندما ظفر بابن الزبير فاكتفى بأن قال له «لا أرينك بعد اليوم» و ظفر بسعيد بن العاص فأعرض عنه. و ظفر بأهل البصرة فصفح الصفح الجميل.

[۱۳] بنو أمية: معاويه (۶۰ – ۴۱) يزيد (۶۴ – ۶۰) معاوية بن يزيد (ثلاثة اشهر فى سنة ۶۴). مروان بن الحكم ۶۵ – ۶۴، عبدالملك بن مروان ۸۶ – ۶۴. الوليد بن عبدالملك ۹۶ – ۸۶، سليمان بن عبدالملك ۹۹ – ۹۶. عمر بن عبدالعزيز ۱۰۱ – ۹۹، يزيد بن عبدالملك ۱۰۵ – ۱۰۱. هشام بن عبدالملك ۱۲۵ – ۱۰۵، الوليد بن يزيد ۱۲۶ – ۱۲۵. يزيد بن الوليد ۱۲۶، ابراهيم بن الوليد ۱۲۶. مروان بن محمد بن مروان ۱۳۲ – ۱۲۷ ه.

[۱۴] كان المحرض على قتل الحسين و أهل‌البيت شمر بن ذى الجوشن رقيب ابن‌زياد على قائد الجيش. و هو القائل أوقر ركابى فضة و ذهبا فقد قتلت السيد المحجبا قتلت خيرالناس أما و أبا و خيرهم إذ ينسبون نسبا.

[۱۵] اشتركت السيدة زينب أخت الحسين من ابيه و أمه معه فى المعركة. و كان أثرها فى مصير أهل‌البيت عظيما. كانت زوجا لابن عمها عبدالله بن جعفر و كان قد أذن لها فى الخروج مع الحسين فكانت تمرض المصابين فى الصفوف أثناء القتال. و لقد هم شمر بن ذى الجوشن بقتل زين‌العابدين، فاحتضنته لتقتل معه، فانصرف المجرم مذموما مدحورا. و لما انتهت المعركة اقتيدت بين الأسرى إلى ابن‌زياد فى الكوفة و إلى يزيد فى دمشق و معها زين‌العابدين تكلؤه بعناية الله على يديها لينجب، فيتسلسل منه أئمة أهل‌البيت الاثنا عشر، بل كل نسل الحسين من الرجال. و كانت مثال الشجاعة و البلاغة العلويتين فى وجه ابن‌زياد و يزيد. و لما أعيد الأسرى إلى المدينة أمر يزيد بإبعادها إلى مصر فسارت إليها، فاستقبلها أهل مصر فى بلدة بلبيس على مبعدة عشرات الأميال من الفسطاط، و على رأس مستقبليها أمير مصر «مسلمة بن مخلد» فعاشت فى مصر عاما. ثم ماتت سنة ۶۲. و قبرها فى الحى المعروف باسمها و هو من أقدم أحياء القاهرة. و على مقربة منها حى السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن. جاءت إلى مصر مع زوجها فى المائة الثانية للهجرة و لقيها الامام الشافعى و لما مات حملت جنازته إليها فصلت عليها و قالت (رحم الله الشافعى) و يحمل اسم السيدة نفيسة حى معروف بالقاهرة، كما يحمل اسم «الحسين» المسجد الأشهر بالقاهرة و الحى الذى يمجد عاصمة مصر و تتعالى فيه معاهد الجامع الأزهر و غيره من آثار الدولة الفاطمية و الدولة الأيوبية و دولتى المماليك.

[۱۶] الشاعر محمد إقبال شاعر الهند و باكستان.

[۱۷] و تعلم عليهما صلاح الدين فى حربه مع الصليبين يوم أرسل طبيبه إلى الملك رتشارد قلب الأسد قائد الصليبين. و أين من قواعد الحرب الإسلامية قواعدها عند الأوروبيين. إن ابقراط أباالطب اليونانى الذى ورثت اوربا قسمه الشهير كل طبيب قل اداء واجبه بالنزاهة و الأمانة، عدم التعصب – لكن أبقراط علم الأوربيين درسا آخر حين رفض أن يعالج مرضى الطاعون فى الجيش الفارسى قائلا إن شرفه يمنعه من معالجة عدو لبلاده!.

[۱۸] قادها سليمان بن صرد الخزاعى احد صحابة الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم).

[۱۹] لم تمض أعوام حتى انهارت الدولة الأموية، و نبش العباسيون قبور معاوية و ابنه يزيد و عبدالملك بن مروان فلم يجدوا فيها ما

يصنعون فيه مثلة. أما قبر هشام فوجدوا فيه جثة هشام لم تبل بعد، فصنعوا فيها أكثر مما صنع برأس زيد. إذ أمر السفاح بضربها بالسياط و صلبها و حرقها و تذريتها فى الهواء.

[۲۰] خرج عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى‌طالب على بنى مروان سنة ۱۲۷ فى الرى بخراسان ثم استسلم لأبى مسلم بعد إذ ظفر الأخير بجيوش بين مروان. و كتب إليه يستعطفه بقوله «من الأسير يديه بلا ذنب إليه و لا خلاف عليه. فان الناس من حوضك رواء و نحن منه ظماء رزقنا الله منك التحنن... فإنك أمين مستودع ورائد مصطنع. و السلام عليكم و رحمة الله» و لم يطلقه أبومسلم، بل أورده حتفه. و قيل سمه.

[۲۱] مالك بن أنس - عبدالحليم الجندى - طبعة دار المعارف ص ۲۳۸ حيث تفصيل الواقعة.

[۲۲] كان صاحب فقه و أدب. سأل عن صاحب له فقيل تركناه يريد أن يموت فضحك قوم، فقال: لقد ضحكتم منها عربية! قال عزوجل «فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه» يعنى يكاد أن ينقض. فوثب أبوعمرو بن العلاء فقبل رأسه و قال «لا نزال و الله بخير مادام مثلك فينا» و أبوعمرو من أئمة اللغة الأولين.

[۲۳] فى ضواحى مدينة الحلة العراقية.

[۲۴] يروى مالك أنه استدعاه فدخل فوجد عنده ابن أبى‌ذؤيب (۱۵۹) و القاضى ابن‌سمعان، فسأل مالكا عن حكمه (حكم المنصور) هو عدل أم‌جور فاستعفاه مالك من الجواب. فسأل ابن‌سمعان عن حكمه فأثنى عليه. فسأل ابن أبى‌ذؤيب فأجاب: أنت والله عندى شر الرجال... استأثرت بمال الله و رسوله و سهم ذوى القربى و اليتامى و المساكين و أهلكت الضعيف و أتعبت القوى و أمسكت أموالهم. فما حجتك غدا بين يدى الله؟. قال المنصور: ويحك! ما تقول؟. قال: رأيت أسيافا و إنما هو الموت و لابد منه. عاجله خير من آجله. قال مالك: ثم خرجا و جلست. فقال المنصور: أجد رائحة الحنوط عليك؟ قلت: أجل، لما نمى إليك عنى مانمى و جاءنى رسولك ظننت أنه القتل. قال: أو ماترانى اسعى فى أود الإسلام و إعزاز الدين عائذا بالله... يا أبا عبدالله انصرف إلى مصرك راشدا مهديا... و إن احببت ما عندنا فنحن ممن لا يؤثر عليك أحدا. قلت: إن يجبرنى على ذلك أميرالمؤمنين فسمعا و طاعة، و إن يخيرنى اخترت العافية... قال: انصرف إلى أهلك معافى مكلوءا. فلما أصبحنا أمر بصرر دنانير فى كل صرة خمسة آلاف درهم ثم دعا برجل من شرطته فقال له: تدفع إلى كل رجل منهم صرة. أما مالك إن أخذها فبسبيله، و إن ردها عليك فلا جناح عليه. و إن كان ابن‌سمعان ردها. فأتنى برأسه و ان أخذها فهى عافيته. و إن أخذها ابن أبى‌ذؤيب فأتنى برأسه و إن ردها عليك فسبيله. قال مالك: أما ابن‌سمعان فأخذها و سلم. و أما ابن أبى‌ذؤيب فردها و سلم. و أما أنا فكنت و الله محتاجا إليها فأخذتها. ثم رحل أبوجعفر متوجها إلى العراق. و روى مالك أنه استدعاه يوما و عبيدالله بن طاووس بن كيسان، و كان طاووس فقيه اليمن حتى مات فى سنة ۱۰۶ (طاووس بن كيسان تلميذ ابن‌عباس جد أبى‌جعفر). قال أبوجعفر: حدثنى حديث أبيك. قال عبيدالله: حدثنى أبى أن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى سلطانه فأدخل عليه الجور فى حكمه. قال مالك: فضممت ثيابى خوفا من أن يصيبنى دمه. فقال المنصور ناولنى هذه الدواة... ثلاث مرات. فلم يفعل. قال أبوجعفر: لم لا تناولنى؟ قال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها. قال: قوما عنى، ذلك ما كنا نبغى. قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاووس فضله منذ ذلك اليوم. و يروى الإمام الشافعى حول أساطين جامع عمرو عن عمه محمد بن على بن شافع مثل ذلك. عندما قال له ابن أبى‌ذؤيب أخذت المال من غير حله و جعلته فى غير أهله و أن المنصور رد عليه بقوله: و الله لولا أنا لأخذت أبناء الفرس و الروم و الديلم هذا المكان منك. فوالله لولا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك. أما عمرو بن عبيد فكان أبوجعفر المنصور يستقبله بالترحاب و ينشد فى نزاهته الشعر (كلكم يمشى رويد. كلكم طالب صيد. غير عمرو بن عبيد) و هو زعيم المعتزلة الذين يطلقون ألسنتهم فى الملوك و الصحابة. دخل عليه فقال له «إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها و اذكر ليلة تتمخض عن يوم لا ليلة بعده» قال الربيع بن يونس حاجب المنصور: يا عمرو غممت أميرالمؤمنين. قال عمرو للمنصور «إن هذا صحبك عشرين سنة لم يرلك عليه أن ينصحك يوما واحدا. و ما عمل وراء بابك بشىء

من كتاب الله و لا سنة نبيه» قال أبوجعفر المنصور: فما أصنع، قلت لك خاتمى فى يدك فتعال و أصحابك فاكفنى. قال عمرو: لا. أدعنا بعدلك، تتسخ أنفسنا بعونك، ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئا نعلم أنك صادق. و لما مات عمرو كان أول واحد من الرعية، و آخر واحد، ينظم فى رثائه الخليفة شعرا. و من أبياته: و إذا الرجال تنازعوا فى شبهة وصل الحديث بحجة و بيان و لو ان هذا الدهر أبقى صالحا أبقى لنا عمرا أباعثمان و الجاحظ من تعصبه لزعيمه يقول فيه «إن عبادته تفى بعبادة عامة الفقهاء و المحدثين». و ستبقى صلة المعتزلة بالدولة العباسية طويلا بعد وفاة عمرو و أبى‌عمرو و أبى‌جعفر لأن المعتزلة يمدون إلى بنى العباس سببا علميا و سببا سياسيا. قالوا: إن واصلا (و هو زعيمهم مع أخى زوجته عمرو ابن‌عبيد) أخذ أصوله عن أبى‌هاشم (۹۸) عبدالله بن محمد الحنفية - ابن‌على بن أبى‌طالب و كان أبوهاشم قدريا مثلهم - ينفى القدر - و يضيفون أن محمد بن على بن عبدالله بن عباس: ۱ - تعلم على أبى‌هاشم، ۲ - و تلقى منه الوصية بالإمامة بعده - دون بنى على بن أبى‌طالب - عندما أحس أبوهاشم بدنو أجله إذ دس السم إليه سليمان بن عبدالملك.

[۲۵] لما استخلف أبوجعفر قصد إليه عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافرى قادما من القيروان و كان زميلا له فى عهد الطلب، فعرض عليه المقام ببغداد. و قال له كيف رأيت ما وراء بابنا؟ فأجابه: رأيت ظلما فاشيا و أمرا قبيحا. قال: لعله فيما بعد من بابى. فأجابه: بل كلما قربت استفحل الأمر و غلظ. قال: ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا و قولك مقبول عندنا؟ فأجابه: رأيت السلطان سوقا... و إنما يرفع إلى كل سوق ما ينفق فيها. قال: كأنك كرهت صحبتنا؟ فأجابه: ما يدرك المال و الشرف إلا من صحبتكم. و لكنى تركت عجوزا، و إنى أحب مطالعتها.

[۲۶] يفضل أحمد بن حنبل ابن أبى‌ذؤيب على مالك لمجاهرته بالحق فى وجه أبى‌جعفر. و تقدير الشافعى لابن أبى‌ذؤيب يتراءى فى رأى تلميذه أحمد. و فى رواية الشافعى عن عمه فى صدده. أما تقدير مالك فكان عن مشاهدة أو مشاركة.

[۲۷] الدانق سدس درهم.

[۲۸] عبدالعزيز بن مروان بن الحكم، عينه عبدالملك على مصر و أفريقية. و هو الذى بنى مدينة حلوان ضاحية الفسطاط - القاهرة. و فيها عاش عمر بن عبدالعزيز زمانا. و جيوش أفريقية هى التى فتحت الأندلس بقيادة طارق بن زياد و موسى بن نصير.

[۲۹] أطلق الخليفة سليمان بن عبدالملك من سجون الحجاج فى يوم واحد ثمانين ألفا. منهم ثلاثون ألفا بغير ذنب. و منهم ثلاثون ألف أمرأة.

[۳۰] و تستمر عجلة الطغيان فى الدوران. و تتوالى مقاتل الطالبيين توالى الخلفاء العباسيين - ففى بدء عهد المأمون يقتل بالعراق: الحسن و الحسين بن زيد عند قنطرة الكوفة مع ابى‌السرايا، و الحسن بن اسحق بن على فى وقعة السوس مع أبى‌السرايا. و محمد بن الحسن بن الحسين يقتل باليمن فى أيام أبى‌السرايا. و على بن عبدالله بن محمد يقتل باليمن فى أيام أبى‌السرايا و محمد بن إبراهيم بن اسماعيل (و هو ابن‌طباطبا) الخارج مع أبى‌السرايا سنة ۱۹۹ مطالبين بالبيعة (للرضا من آل محمد). و قد انهزموا بجيش هزثمة بن أعين قائد المأمون سنة ۲۰۰. و قتلى العلويين على يد هذا الجيش كثيرون.

[۳۱] و فى عهد المعتصم خرج محمد بن القاسم... بن على بالطالقان فقبض عليه عبدالله بن طاهر و بعث به الى الخليفة. و حبس المعتصم عبدالله بن الحسن... بن جعفر حتى مات فى مخبئه. فلما جاء الواثق أمن العلويون بضع سنين، إذ جمعوا ثم حبسوا، عن الانطلاق خارج العاصمة سامرا، فتطامنوا و أطمأنت السلطة. ثم هبت عليهم فى أيام المتوكل ريح عاتية من جنون الفزع. فلقد أزال قبر الحسين (عليه‌السلام) و حرثه حتى لا يزار، و شتت شمل شيعته و فرقهم فى النواحى. فمنهم من حبسوا و منهم من تواروا حتى ماتوا فى مهربهم - و تناقل الناس أشعارا منسوبة الى ابن‌السكيت عالم النحو الكبير، و كان يعلم ولدى المتوكل. و فى هذه الأشعار: تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن‌بنت نبيها مظلوما فلقد أتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمرك قبره مهدوما أسفوا على ألا يكونوا شاركوا فى قتله فتتبعوه رميما! و ربما أراد المتوكل أن يتيقن من صدور هذا الشعر أو من ولاء العالم حين سأله: أيهما أحسن: ولداى (المؤيد و المعتز)

أم‌الحسن و الحسين؟... و لم يرضه جوابه. فأمر بقتله فقتلوه. و لم يلبث المتوكل إلا قليلا حتى قتله ابنه (المنتصر) فى مؤامرة! و إنما كانت فظاعة الجريمة الأخيرة قصاصا عجلت به السماء لمقتل عالم آثر الصدق. و لم يصلح للعلويين بال إلا أشهرا بعد مصرع المتوكل، ليعود البطش بهم الى عنفوانه فى أيام المستعين. فمنهم من خرج و خرج الناس معه، كيحيى بن عمر خرج فقتل. و منهم من خرج و لم يخرج الناس معه، فحبس ليموت سنة ۲۷۱. و هو الحسن بن محمد المعروف بالحرون. و منهم محمد بن محمد جعفر خرج و حبس حتى مات فى سامراء ليتتابع سجل الشهداء....

[۳۲] نقف عن السرد، عند أبيات لابن الرومى (۳۸۴ - ۳۲۱) من جيميته فى رثاء يحيى بن عمر بعد مقتله إذ خرج على بنى‌العباس فى القرن الرابع من جراء ظلمهم: أمامك فانظر أى نهجيك تنهج طريقان شتى؛ مستقيم و أعوج أكل أوان للنبى محمد قتيل زكى بالدماء مضرج؟ بنى‌المصطفى كم يأكل الناس شلوكم لبلواكمو عما قليل مفرج أبعد المسمى بالحسين شهيدكم تضاء مصابيح السماء فتسرج؟ أيحيى العلا لهفى لذكراك لهفة يباشر مكواها الفؤاد فينضج لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح فى أثوابها تتبرج؟ سلام و ريحان و روح و رحمة عليك و محدود من الظل سجسج ألا أيها المستبشرون بيومه أظلت عليكم غمة لا تفرج نظار لكم ان يرجع الحق راجع الى أهله يوما فتشجوا كما شجوا غررتم إذا صدقتمو أن حالة تدوم لكم. الدهر لونان. أخرج أبى‌الله إلا ان يطيبوا و تخبثوا و ان يسبقوا بالصالحات و يفلحوا لعل قلوبا قد أطلتم غليلها ستظفر منك بالشفاء فتثلج.

[۳۳] ادعى خالد بن عبدالله القسرى مالا قبل زيد و أبناء الصحابة. فدعاهم الخليفة هشام بن عبدالملك الى العاصمة و سألهم فأنكروا مزاعمه. فأعادهم الى واليه على العراق يوسف بن عمر ليستحلفهم. و قيل ان هشاما لم يرد السلام على زيد فأغلظ له زيد فى الكلام. و كان زيد فى الذروة من فقهاء العصر - و لما رجعوا الى الكوفة استحلفهم يوسف فحلفوا، لكنه أبقاهم محبوسين فى انتظار رأى هشام. فأمره بإخلاء سبيلهم فخرج زيد من الحبس قاصدا القادسية. و اجتمع اليه شيعة الكوفة و طلبوا اليه الخروج على الخليفة و تعهدوا بنصره. فخرج اليهم. فجمعوا له أربعة آلاف رجل ثم انفضوا من حوله. فحارب حرب الأبطال حتى استشهد. فكان منهم معه ما كان من آبائهم مع جده أى (فعلوها حسينية) كما قال. ثم خرج ابنه يحيى فقتل سنة ۱۲۵.

[۳۴] و لما جىء بزين‌العابدين (عليه‌السلام) فى أسرى كربلاء أقيم على درج دمشق، فقال له رجل من أهل الشام: الحمد لله الذى قتلكم و استأصلكم و قطع قرن الفتنة. قال زين‌العابدين: قرأت القرآن؟ قال الرجل: نعم. قال: قرأت ال.حم؟ قال الرجل: نعم. قال: أما قرأت (قل لا اسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) قال الرجل: فإنكم إياهم؟ قال نعم. و يقصد الامام الآية ۲۳ من سورة الشورى (ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا و عملوا الصالحات. قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى و من يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور) و أول آيات سورة الشورى (حم).

[۳۵] حج هشام بن عبدالملك فى خلافة أبيه، فرأى رجلا ينجفل الناس اليه، و يفسحون فى الطواف له، فى حين لا يحفل الناس بابن الخليفة، فسأل من هذا؟ و سمع الفرزدق السؤال؛ فأنشد ميميته الطويلة المشهورة فى الأدب العربى؛ و مما جاء فيها: هذا ابن‌خير عباد الله كلهم هذا التقى الطاهر العلم هذا الذى تعرف البطحاء وطأته و البيت يعرفه و الحل و الحرم إذا رأته قريش قال قائلها الى مكارم هذا ينتهى الكرم ينمى الى ذروة العز التى قصرت عين نيلها عرب الاسلام و العجم يغضى حياء و يغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم هذا ابن‌فاطمة إن كنت جاهله بجده انبياء الله قد ختموا الله شرفه قدرا و عظمه جرى بذلك له فى لوحه القلم و ليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت و العجم ما قال «لا» قط إلا فى تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم من معشر حبهم دين. و بغضهم كفر. و قربهم منجى و معتصم من يعرف الله يعرف أولية ذا فالدين من بيت هذا ناله الأمم و غضب هشام و أرسل زين‌العابدين (عليه‌السلام) للفرزدق أربعة آلاف درهم، ردها الفرزدق قائلا: إنما مدحتك بما أنت أهله، وردها الامام قائلا: إنا أهل‌بيت اذا وهبنا شيئا لا نستعيده.

[۳۶] يقال عن أمها «هند» أكرم الناس أحماء: أما أسماء فزوج جعفر و لها منه عبدالله. و زوج أبى‌بكر و لها منه محمد. و زوج على و

لها منه يحيى. أما أخواتها فميمونة أم‌المؤمنين و لبابة زوج العباس عم النبى وجدة خلفاء الدولة العباسية. و سلمى زوج حمزة بطل أحد و شهيدها و عم النبى. و أم‌الفضل الكبرى (أخت أسماء لأمها) أم‌خالد بن الوليد.

[۳۷] حجت أم‌فروة متنكرة فاستلمت الحجر بيدها اليسرى فقال لها رجل لا يعرفها: يا أمة الله أخطأت السنة! فأجابت: يا هذا إنا عن علمك لأغنياء.

[۳۸] و للقاسم و أبيه أكبر الصلات بأم المؤمنين عائشة، إذ ضمته اليها بعد مقتل أبيه محمد، على أيدى جند معاوية، و محمد ربيب على... سيره معها بعد وقعة الجمل الى المدينة فى كوكبة من النساء فى ملابس الرجال. و كان تسيير أخيها معها كرامة يحفظ بها أخو الرسول أم‌المؤمنين. و فى بيت عائشة سقى القاسم علمها الذى أراد عمر بن عبدالعزيز تدوينه عن طريقه، و عمر خليفة، حتى لا يضيع علم المدينة، فكتب بذلك الى قاضيه و واليه على المدينة أبى‌بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

[۳۹] يقول فيه يحيى بن سعيد (۱۴۳) تلميذ فقهاء المدينة السبعة (ما أدركنا بالمدينة أحدا نفضله على القاسم) و ابن‌حنبل يقول فى يحيى (أثبت الناس).

[۴۰] محمد بن المنكدر (۱۳۰) من معادن الصدق بالمدينة و أشياخ مالك، من بنى تيم قبيلة أبى‌بكر، و هم مشهورون بالرقة و الورع. و هم أجداد الامام جعفر عليه‌السلام - كان لا يسأل ابن‌المنكدر أحد عن حديث إلا بكى. و مالك يقول: «كنت إذا وجدت من نفسى قسوة آتى ابن‌المنكدر فأنظر اليه نظرة فأبغض نفسى أياما». و ابن‌المنكدر يقول: «كابدت نفسى فى ذلك أربعين عاما حتى استقامت». و كان من بنى‌المنكدر إخوة ثلاثة فقهاء: محمد و أبوبكر و عمر أبناء المنكدر.

[۴۱] استعصى على المسلمين حصن من حصون الروم، فتصدى له فارس ملثم فاقتحمه و تتابع وراءه المسلمون و اختفى الفارس فى الجند. و لما سئل ابن‌المبارك فيما بعد، عن إخفاء نفسه، قال «لأن من صنعت ذلك لأجله - سبحانه - مطلع عليه». و خرج الى الحج فمر بامرأة رآها تخرج غرابا ميتا من حيث ألقى به. فسألها فقالت: انها و زوجها لا يجدان ما يطعمانه. فقال لوكيله: كم معك من نفقة الحج؟ قال: ألف دينار. قال «عد منها عشرين تكفى للعودة الى مرو (عاصمة خراسان) و أعطها الباقى. فهذا أفضل من حجنا هذا العام». و رجع و لم يحج. و كان الرشيد بالرقة يوما و أقبل عليه ابن‌المبارك. فانجفل الناس خلفه و رأته أم‌ولد الرشيد فقالت: هذا و الله الملك. لا ملك هارون الذى يجمع الناس بشرطة و أعوان. و لما مات ابن‌المبارك جلس الرشيد فتقبل العزاء فيه.

[۴۲] عبدالكريم بن أبى‌العوجاء هو خال معن بن زائدة الشيبانى أحد قواد بنى‌مروان، و كبير من كبار الولاة لأبى‌جعفر المنصور. و هو الذى أنقذ أباجعفر من الموت يوم الرواندية و أبلى - و أهله بنو شيبان - أعظم البلاء فى الدفاع عن بنى‌العباس. و لما قدم ابن أبى‌العوجاء للقتل للزندقة سنة ۱۶۱ قال: «لن يقتلونى. لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحللت فيها الحرام و حرمت الحلال» لكن علماء الجرح و التعديل فطنوا اليها جميعا و استبعدوها.

[۴۳] فى القرآن مجاز كثير مثل عرض الأمانة على السموات و الأرض، يفسرها بعض العلماء أنها الطاعة. و مثل يد الله فوق أيديهم يفسرها البعض بأنها القدرة - و هؤلاء المخرجون يبدأون من أن (الله ليس كمثله شىء) و الآخذون بالتأويل يبدأون من ذلك المبدأ ثم يؤولون الآيات المتشابهة على اساس الآيات المحكمة، كقوله تعالى (الى ربها ناظرة) يفسرونها على أساس قوله (لا تدركه الأبصار) فيكون المقصود الرضى عنها. و للمؤولين تفاسير كثيرة منها فى غياهب الاهمال و بخاصة تفاسير المعتزلة ، بقى منها الكشاف للزمخشرى الفقيه الحنفى؛ و للبلاغة العربية فيه أعظم مكان .

[۴۴] يحدد الصادق عليه‌السلام الامامة بتشبيه قرآنى يفسر وجوبها، إذ يسأل عن حديث الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: «من مات و ليس له امام فميتته ميتة جاهلية» هل هى ميتة كفر؟ فيجب: «ميتة ضلال» - و كذلك يحدد جده زين‌العابدين عليه‌السلام معنى العصمة بحد قرآنى إذ يسأل عن معنى المعصوم فيقول: «هو من اعتصم بحبل الله المتين أى القرآن. فلا يفترق الامام عن القرآن الى يوم القيامة. فالإمام يهدى الناس الى القرآن، و القرآن يهدى الناس الى الامام بقوله تعالى «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم...». و

يلاحظ أن الذى فتق الكلام فى الامامة و فصل و أصل فيها هم تلاميذ الامام. و ربما بدأ الكلام فيها فى عهده كما يقول المستشرق رونالدسن. أما التعريفات الوافية فتنسب الى الامام الرضا (۲۰۲) حفيد الامام الصادق. يقول الامام الرضا عليه‌السلام: «الامامة منزلة الأنبياء، و وراثة الأوصياء. الإمامة خلافة الله و خلافة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و الامامة زمام الدين و نظام المسلمين و صلاح الدنيا و عز المؤمنين» و الماوردى من فقهاء أهل السنة يحدد غرضها فيقول: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين و سياسة الدنيا».

[۴۵] الجبر ان الانسان مجبر على اعماله. و التفويض ان الانسان مخير فيها. و هما نظريتان لمفكرين كانوا أحياء فى بدايات حياة الامام عليه‌السلام - قال بالجبر الجعد بن درهم متأثرا بقول بيان بن سمعان. و قال بالتفويض غيلان الدمشقى و معبد الجهنى - و قد قتل الأربعة: الأولان قتلهما خالد بن عبدالله القسرى والى بنى‌أمية. و الأخيران قتل الأول منهما هشام بن عبدالملك. أما معبد فقتله الحجاج لاشتراكه عليه فى حركة ابن‌الأشعث. و تابع جهم بن صفوان الجعد. و قد قتله سالم بن أحوز المازنى بمرو فى أواخر أيام بنى‌أمية. و فى حياة الامام الصادق عليه‌السلام ازدهرت نظرية الإرجاء الى الله، حتى يكون يوم الحساب، فيحاسب الناس على عملهم مع وجوب قيامهم بالعمل الصالح. قال بها سعيد بن جبير و حماد بن أبى‌سليمان شيخ أبى‌حنيفة و مقاتل بن سليمان - و هو من السابقين الأولين فى التفسير - و هؤلاء مرجئة السنة. أما مرجئة البدعة فيرجئون الحساب و لا يوجبون العمل الصالح. و الأولون يقولون ان الله يعاقب مرتكب الكبيرة لكنه قد يغفرها و لا يكفره الناس فى الحياة الدنيا لذلك الامل.

[۴۶] يلاحظ أن مدرسة المحدثين ضائقة الصدر بالقياس. و مدرسة المدينة، و على رأسها مالك، تقدح فى أهل العراق لكثرة ابداء الآراء باستعمال القياس. و لئن كان لنا ان نلاحظ تأثر أبى‌حنيفة الكامل بمنهج الامام الصادق عليه‌السلام فى الاعتبار بالآيات الدالة على الحقائق (أبوحنيفة - بطل الحرية و التسامح فى الاسلام للمؤلف صفحة ۱۷۸ طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية) أو تأثر مالك بمنهج الامام الصادق فى عدم المجازفة بالرأى (مالك بن أنس للمؤلف صفحة ۷۶ و ما بعدها طبعة دار المعارف)، اننا نقطع كذلك بأثره فى النهى عن القياس. فلقد نفع النهى القياسيين أنفسهم فضبطوا القياس و تحروا كل الدقة فيه ليتفادوا المجازفة ثم جاء الشافعى فأصله و قعده. و هو القائل «و الاجتهاد القياس». يقول الفخر الرازى «العجيب ان أباحنيفة كان تعويله على القياس و خصومه يذمونه بسبب كثرة القياسات، و لم ينقل عنه و لا عن أحد من أصحابه انه صنف فى إثبات القياس ورقة، و لا انه ذكر فى تقريره شبهة؛ فضلا عن حجة، و لا أنه أجاب عن دلائل خصومه فى إنكار القياس بل أول من قال فى هذه المسألة و أورد فيها الدلائل هو الشافعى». فأبوحنيفة استعمل القياس و الشافعى استعمله و أصله و قعد القواعد للعاملين به. و لقد أفاد الشيعة كثرة ما آل اليهم من السنة و نصوص الحديث فلم يلجأوا للقياس، كما كانت قواعدهم الاخرى كافية لبلوغ غرضهم. و من أسباب الإقبال على القياس فى العراق قلة ما سلموه من نصوص السنة. و انما اتسع فقه أحمد بن حنبل بكثرة السنن التى جمعها و اعتمد أصحابه عليها - مع تعويله على أصل الصحابة فزاد مصادر الفقه أصلا بتمامه. و القياس الذى يلجأ اليه المجتهدون من أهل السنة هو إلحاق أمر لم يرد فى حكمه نص أو إجماع بأمر ورد فى حكمه نص أو اجماع لاشتراكهما فى المعنى الذى شرع هذا الحكم من أجله؛ فثمة أركان أربعة: الأصل و هو النص ، و الفرع و هو الأمر الذى لم يرد فى حكمه نص. و المعنى: الذى من أجله شرع الحكم. و المطلوب و هو الحكم، و هم يضعون للقياس شروطا: ۱ - أن يكون حكم الأصل ثابتا بنص فى الكتاب أو السنة أو الاجماع. ۲ - أن يكون لحكم الأصل علة يدركها العقل. فمن الأحكام ما هو تنفيذى لا يجوز القياس فيه، كتحديد عدد الركعات، و مقدار الأنصباء فى الأموال التى تجب فيها الزكاة، و تحديد عدد الطواف حول الكعبة. فهذه مقدرات لا يقاس عليها لأن العقل لا يدرك علية مقاديرها. و جميع الأحكام إلا قليلا منها، كالتى سبق، يمكن للعقل إدراك المعانى التى شرعت الأحكام لأجلها. ۳ - أن يتساوى الفرع و الأصل فى المعنى الذى شرع حكم الأصل من أجله، و إلا كان القياس فيه مع الفارق. و ان يكون المعنى ظاهرا؛ لأنه معرف للحكم الخفى، و الخفى لا يعرف الخفى. ۴ - أن لا يكون فى الفرع نص أو اجماع يدل على حكم يخالف القياس. ۵ - أن لا يكون حكم الأصل خصوصية من الخصوصيات كاختصاص

الرسول بزواج من زدن على الأربع. و اختصاص خزيمة بأن تعدل شهادته رجلين. و أن لا تكون العلة قاصرة على الأصل لا يمكن تعدية حكمها الى الفرع. و بالقياس أمكن أهل السنة البناء على النصوص و استعمال العلل فى تحقيق مقاصد الشارع.

[۴۷] دخل الكميت على زين‌العابدين عليه‌السلام فأنشده قصيدته التى مطلعها: من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة و لا أحلام و قال الامام: ثوابك نعجز عنه لكن الله لا يعجز عن مكافأتك. اللهم اغفر للكميت. ثم قسط على نفسه و على أهله أربعمائة ألف درهم؛ أعطاه القسط الأول قائلا: خذ يا أبا المستهل. قال الكميت: لو وصلتنى بدانق كان شرفا لى ولكن ان أحببت ان تحسن الى فادفع لى بعض ثيابك، التى تلى جسمك أتبرك بها. فنزع ثيابه و دفعها اليه كلها ثم قال: اللهم ان الكميت جاد فى آل رسولك و ذرية نبيك بنفسه حين ضن الناس، و أظهر ما كتمه غيره من الحق فأحيه سعيدا، و أمته شهيدا، و أره الجزاء عاجلا و أجزل له المثوبة آجلا، فإنا قد عجزنا عن مكافأته - قال الكميت فيما بعد: فما زلت أعرف بركات دعائه. و لئن كان عطاء الشعراء جوائز تشجيع لهم، ان تقسيط العطاء آية سخاء فى التشجيع، و ارتباط طويل بالمودة بين من قرض الشعر و بين من أجازه. و تعجيل العطاء بالاستدانة درس تعلمه زين‌العابدين على جده (صلى الله عليه و آله و سلم) كان يمكث شهرا ما يستوقد نارا، إن هو إلا التمر و اللبن، و مع ذلك لا يرد أحدا يسأله، بل يعطيه اذا كان عنده و إلا وعده. و ذات يوم جاءه رجل. فقال عليه الصلاة و السلام «ما عندى شيء. ابتع على فإذا جاء شيء قضيناه». قال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه. فكره ما قال عمر. و قال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق و لا تخش من ذى العرش إقلالا. فتبسم صلى الله عليه و آله و سلم. و قال «بهذا أمرت».

[۴۸] و فى العصر ذاته كان سعيد بن المسيب أول فقهاء المدينة السبعة يخاف أن يكتب عن العلم. جاءه رجل فسأله عن شيء فأملاه عليه، ثم سأله عن رأيه فأجابه. و كانوا من كثرة افتائه يسمونه سعيد بن المسيب الجريء. فكتب الرجل. فقال جلساء سعيد: أتكتب يا أبامحمد؟ فقال سعيد للرجل: ناولنيها، فناوله الصحيفة فخرقها.

[۴۹] لفظ مولد من وجد، غير مسموع من العرب.

[۵۰] الطبعة الأولى - طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية القاهرة - ص ۲۶۱.

[۵۱] يذكر ابن‌النديم فى الفهرست: «و كان الشافعى شديدا فى التشيع. ذكر له رجل يوما مسألة فأجاب فيها. فقال له خالفت على بن أبى‌طالب. فقال له: أثبت لى هذا عن على بن أبى‌طالب حتى أضع خدى على التراب و أقول قد أخطأت و أرجع عن قولى الى قوله». و حضر الشافعى ذات يوم مجلسا لأحد الطالبيين فقال: «لا أتكلم فى مجلس يحضره أحدهم. هم أحق بالكلام و لهم الرياسة و الفضل».

[۵۲] يقول فيه أحمد بن حنبل: «كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس بحديث» و هو من آباء علوم الحديث، و مؤلفاته مراجع فيها - و هى علوم أوصلها الحاكم النيسابورى الى اثنين و خمسين علما، و أوصلها النووى الى خمسة و ستين.

[۵۳] يقول ابن‌قتيبة عن الجفر فى «أدب الكاتب» ان الامام الصادق عليه‌السلام كتبه، و ان فيه كل ما يحتاجونه الى يوم القيامة. والى هذا الجفر، و احتوائه على كل شيء، يشير أبوالعلاء المعرى فى شعره: لقد عجبوا لآل البيت لما أتاهم علمهم فى جلد جفر فمرآة المنجم و هى صغرى تريه كل عامرة وقفر و ربما نسبوا من أجل ذلك الى الامام علوم كشف الغيب أو التنجيم.

[۵۴] نسبة الى مدينة قم فى ايران، و هى أقدم المدن التى بدأ فيها الشيعة الإمامية فى ايران. و قد نشأت على أيدى جماعة من الناجين من جيش ابن‌الأشعث (۸۳).

[۵۵] سعيد بن جبير هو الشهيد الوحيد الذى قتل من الرعب قاتله! سأله الحجاج و هو يقدمه للقتل: أى قتلة تشاء؟ فأجابه: «اختر أنت فالقصاص أمامك». ذلك أن القصاص قتل بقتل. فكان الحجاج بعد استشهاد سعيد يهب من نومه فزعا و هو يقول: مالى و لسعيد بن جبير!! ثم مات بعده بشهر. مات فى رمضان و سعيد فى شعبان سنة ۹۵. و رفض ابن‌المسيب أن يبايع لولدى عبدالملك بن مروان - الوليد و سليمان - و تمسك برأيه فأخذوه ليقتلوه، ثم اكتفوا بضربه بالسياط و جردوه من ثيابه و طافوا به. و رفض أن يزوج بنته للوليد

بن عبدالملک، و هو ولی عهد عبدالملک، و آثر أن یزوجها تلمیذا فقیرا من تلامیذه.

[۵۶] من الطبیعی أن یکون کثرة الشعراء شیعة . فالشعر ضمیر الشعوب و صوتها الصداح. و الضمیر الاسلامی کله یثقله أو یعذبه أو یهیج قرائحه ما أصاب أهل‌البیت من ظلم الحکومات، و یخفف عنه ما یعقده حول أهل‌البیت من أمل... لهم و له. و کلما أحسن الشعب ظلما طلب الرجاء و الاقتداء بابناء النبی علیهم‌السلام - و بهذا انضاف الی الثبت الحافل السابق ذکره: ابن‌هانئ الأندلسی؛ و مهیار الدیلمی؛ و أبوفراس الحمدانی؛ و الناشئ الصغیر؛ و الناشئ الکبیر؛ و کشاجم؛ و أبوبکر الخوارزمی؛ و البدیع الهمدانی؛ و الطغرائی؛ و السری الرفاء؛ و عمارة الیمنی. بل أصبح ثناء علی الشاعر أن یقال (یترفض فی شعره) أی یتشیع. و للمتنبی و أبی‌العلاء شعر شیعی. و أما أشراف العلویین فمنهم الشریف الرضی و الشریف المرتضی. و کان الشریف علی الجمانی یقول: «أنا شاعر و أبی‌شاعر و جدی شاعر» و منهم الشریف الشجری. بل کان من الأمویین متشیعون: ابان بن سعید بن العاص؛ و خالد بن سعید بن العاص؛ و عمر بن عبدالعزیز؛ و عبدالرحمن أخو مروان بن الحکم؛ و مروان بن محمد السروجی الذی یقول: یا بنی‌هاشم بن عبد مناف أنا منکمو بکل مکان و لئن کنت من أمیة إنی لبریء منهمو الی الرحمن و أبوالفرج الاصفهانی (۳۵۶ - ۲۸۴) جده السابع مروان بن محمد آخر خلفاء بنی‌مروان؛ و أبوالفرج صاحب «الأغانی» و «مقاتل الطالبیین». و من العباسیین شیعة: المأمون؛ و المعتضد؛ و أحمد بن الموفق. و من الأیوبیین کان: الأفضل بن صلاح‌الدین. و من الفلاسفة متشیعون: الکندی فیلسوف العرب (۲۴۶)؛ و الفارابی (۳۳۹)؛ و ابن‌سینا (۴۲۸). و من الوزراء المشهورین: أبوسلمة الخلال - قتله السفاح - و یعقوب بن داود - حبسه المهدی و أفرج عنه الرشید - و الفضل و الحسن ابنا سهل - قتل المأمون الأول و أصهر الی الثانی لیستل سخیمته؛ و بنو طاهر الخزاعی؛ و وزراء المأمون؛ و أبودلف العجلی؛ و الصاحب بن عباد... الخ.

[۵۷] سأل الترمذی أحمد بن حنبل عن عائشة و الزبیر و طلحة فأجاب: «من أنا حتی أقول فی أصحاب رسول الله صلی الله علیه و آله و سلم! کان بینهم شیء الله أعلم به». فأحمد لا یسیغ قدحا فی الصحابة لورعه. و هم بأعمالهم و آرائهم أصل من أصوله... حتی انه لیبعث الی یحیی بن معین یقول له: هو ذا تکثر الحدیث عن عبدالله بن موسی العبسی و قد سمعته تناول معاویة. و قد أکثر الحدیث عنه. فقال یحیی للرسول «اقرأ علی أبی عبدالله أحمد بن حنبل السلام و قل له: أنا و أنت سمعنا عبدالرزاق (بن همام) یتناول عثمان بن عفان. فاترک الحدیث عنه، فإن عثمان أفضل من معاویة». و لم یترک أحمد حدیث عبدالرزاق.

[۵۸] ربما کان فی هذه الفترة الحرجة ما قیل من أنه دخل یوما علی المهدی، فقال المهدی: علی بالسیف و النطع. قال شریک: و لم یا أمیرالمؤمنین؟ قال المهدی: رأیتک فی منامی کأنک تطأ بساطی و انت معرض عنی، فقصصت رؤیای علی من عبرها فقال لی: یظهر لک طاعته و یضمر معصیته. قال شریک: و الله ما رؤیاک برؤیا ابراهیم الخلیل، و لا معبرک بیوسف علیه السلام. أفبالأحلام الکاذبة تضرب أعناق المؤمنین؟ فاستحی المهدی و قال: اخرج عنی، و أبعده. و کان الحقد علی أمیرالمؤمنین علی علیه‌السلام غذاء یومیا علی موائد بنی‌العباس لا تخلو منه واحدة حتی ولو کانت مائدة لخلیفة یتشیع هو المأمون. أنبأه عمه ابراهیم بن المهدی - و کان شدید الحقد علی علی علیه‌السلام - أنه رأی فی المقام علیا فمشیا حتی جاءا قنطرة فتقدم لعبورها فأمسکه ابراهیم و قال: أنت تدعی هذا الأمر بامرأة (یقصد أمر الخلافة و فاطمة الزهرا علیهاالسلام و ان علیا یتقدم بزواجه منها). فما رأیت له بلاغة فی الجواب... مازادنی علی أن قال: سلاما سلاما. فنهره المأمون علی ما افتضح من عقله الباطن فی صورة حلم. قال: لقد أجابک أبلغ الجواب. عرفک أنک جاهل لا یجاب مثلک. قال الله تعالی: «و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما». و لقد نهره أحمد بن أبی‌دؤاد مرة أخری إذ لم یتوقر فی مجلس القضاء، فقال له: «یا ابراهیم اذا نازعت فی مجلس الحکم بحضرتنا امرءا فلا أعلمن أنک رفعت علیه صوتا و لا أشرت بید. و لیکن قصدک أمما. و ریحک ساکنة. و کلامک معتدلا. ووف مجالس الخلیفة حقها من التوقیر و التعظیم». و کان مغنیا یعربد. نصبه أهله خلیفة لمدة عامین فی ثورة علی المأمون. ثم عفا عنه المأمون بعد أن ضبطوه یحاول الفرار فی ثیاب امرأة.

[۵۹] یقصد ابلیس، اشارة الی الایة الکریمة - حکایة عن قول ابلیس -: «فانظرنی الی یوم یبعثون».

[۶۰] كفروا عليا (عليه‌السلام) لقبوله التحكيم، و رأوا أن الخلافة لابد لها من بيعة الجمهور. و أنها لا تنحصر فى بيت معين و برئوا من على و عثمان و معاوية؛ الأول لقبوله التحكيم، و الثانى لمخالفة سياسة الشيخين أبى‌بكر و عمر، و الثالث لاستيلائه على الأمر بالقوة... يأخذون بظاهر العبارة من القرآن، و لا يأخذون من السنة إلا ما يرويه من يتولونهم. و عمدتهم فى الأحاديث المروية على عهد الشيخين. و كل من تعدى حدود الله عندهم فاسق. و لذلك عدوا أشياع معاوية و الذين لم يتبرأوا من على و عثمان - و هؤلاء جمهور الأمة - خارجين على الإسلام و استحلوا مالهم و قتلهم، و بهذا نفر الناس منهم.

[۶۱] من أدلة وحدة العلم أو التقارب فيه حديث، من هذه القلة، هو حديث اليمين مع الشاهد؛ و هى مسألة أريق فيها مداد كثير لفقهاء أهل السنة. جاء فى الموطأ رواية محمد بن الحسن: «أخبرنا مالك، أخبرنا جعفر بن محمد، عن أبيه ان النبى صلى الله عليه و آله و سلم قضى باليمين مع الشاهد». قال محمد بن الحسن - ذكر ذلك ابن أبى‌ذئب عن ابن‌شهاب قال سألته عن اليمين مع الشاهد فقال بدعة. و أول من قضى فيها معاوية. - و ابن‌شهاب أعلم عند أهل المدينة بالحديث من غيره. و كذلك ذكر ابن‌جريح عطاء بن رباح قال: «كان القضاء الأول: لا يقبل إلا شاهدان. و أول من قضى باليمين مع الشاهد عبدالملك بن مروان...». و هذا الحديث وارد فى سنن الترمذى و ابن‌ماجه، و رواه عن ابن‌عباس مسلم و أبوداود و النسائى و مسند أحمد، و الصحاح الخمسة تذكره موصولا - و تعمل به المدينة و مكة، و قد ذكر ابن‌جوزى أن رواة الحديث يزيدون عن عشرين صحابيا. و المذاهب الثلاثة تعمل به. و أبوحنيفة لا يعمل به.

[۶۲] و الشافعى الذى يرى زين‌العابدين (عليه‌السلام) أعلم أهل المدينة، يقول فى دفاعه العلمى المجيد عن حجية خبر الواحد فى الرسالة - «و فى تثبيت خبر الواحد أحاديث يكفى بعض هذا منها... و لم يزل سبيل سلفنا و القرون بعدهم الى من شاهدنا هذا السبيل... و وجدنا على بن الحسين (يقصد زين‌العابدين عليه‌السلام) يقول: أخبرنا عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «لا يرث المسلم الكافر» فثبتها سنة و يثبتها الناس بخبره سنة. و وجدنا كذلك محمد بن على بن الحسين (الباقر عليه‌السلام) يخبر عن جابر عن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) و عن عبدالله بن أبى‌رافع عن أبى‌هريرة فيثبت كل ذلك سنة. و وجدنا محمد بن جبير بن مطعم، و نافع بن جبير بن مطعم، و يزيد بن طلحة بن ركانة، و محمد بن طلحة بن ركانة، و نافع بن هجير بن عبد يزيد، و أباسلمة بن عبدالرحمن، و حميد بن عبدالرحمن، و طلحة بن عبدالله بن عوف، و ابراهيم بن عبدالرحمن بن عوف و خارجة بن زيد بن ثابت، و عبدالرحمن بن كعب بن مالك، و عبدالله بن أبى‌قتادة، و سليمان ابن‌يسار، و عطاء بن يسار، و غيرهم من محدثى أهل المدينة، كلهم يقول: حدثنى فلان لرجل من أصحاب النبى عن النبى أو من التابعين عن رجل من أصحاب النبى، فيثبت ذلك سنة». و إنك لتلاحظ ان الشافعى يستند الى رواية زين‌العابدين و الباقر (عليهماالسلام) فيضع زين‌العابدين فى مقام خاص به، هو الأول، و يضع ابنه الباقر فى المقام التالى لأبيه، ثم يجيء بالأبناء العلماء، للصحابة العظماء، وراء هذين المقامين، و يجيء بهم مجموعين، ثم يجيء بفضلاء التابعين بعد هؤلاء جماعات.

[۶۳] روى أحمد بن حنبل أحاديث أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فى مسنده الأعظم. و روى كذلك مسلم بن الحجاج (۲۶۱) و سليمان بن الأشعث السجستانى (أبوداود - ۲۷۵) و محمد بن عيسى الترمذى (۲۷۹) و محمد بن يزيد بن ماجه (۲۷۹) و النسائى أحمد بن على بن شعيب (۳۰۳) بقية أصحاب الصحاح كما يسميها أهل السنة. و النسائى من شهداء الوفاء لعلى (عليه‌السلام): خرج من مصر الى الشام فسألوه عن فضائل معاوية - إذ كان قد ألف فى فضائل على - و قيل إنه أجاب: ألا ترضى رأسا برأس حتى تفضل؟ أو قال: لا أعلم له فضيلة. فما زالوا يدفعونه فى خصيته حتى أخرجوه من المسجد و قد أشرف على الموت فقال: احملونى الى مكة فحمل اليها و توفى هناك.

[۶۴] كان وجود غلاة فى الشيعة فرصة للمغرضين، إذ نسبوا عمل الغلاة الى الشيعة كلهم، فأحدثوا بذلك أثرا كاذبا فى إفهام الآخرين بدعاوى هم منها براء، مثل ان الامام هو الله ظهورا و اتحادا؛ و هو غلو يبلغ مرتبة الكفر. و لقد أحرق على (عليه‌السلام) من ألهوه - بالنار - و تبرأ الصادق من أبى‌الخطاب الأسدى، و قتله جند أبى‌جعفر.

[۶۵] الزيدية: أتباع زيد بن على زين‌العابدين - أخى الباقر (عليهماالسلام) - قالوا إنه فوض فى الامامة قبل ان يستشهد الى محمد بن عبدالله بن الحسن (النفس الزكية). و كان زيد يجيز إمامة المفضول مع وجود الأفضل لمصلحة يراها المسلمون؛ و لهذا أجاز خلافة أبى‌بكر و عمر، فرفضه شيعة العراق فسموا رافضة. و منذئذ أطلق على الشيعة الامامية اسم الرافضة. و قيل سموا الرافضة لرفضهم إمامة أبى‌بكر و عمر. و الأول رأى الشهرستانى، و الأخير رأى أبى‌الحسن الأشعرى. و الشهرستانى من الشيعة و الأشعرى من أهل السنة. و زيد يقول ان الأدلة اقتضت تعيين على (عليه‌السلام) اماما «بالوصف» لا بالشخص، و يقول ان الشيوخ يختارون «الأفضل» من أولاد على من فاطمة، عموما، «بالاجتهاد». و من شروط الزيدية أن يجتهد أئمتهم؛ و لذلك كثر فيهم الأئمة المجتهدون. و من شروطهم أن يخرج الامام داعيا لنفسه. و على هذا الشرط جادل الباقر أخاه زيدا بقوله «على قضية مذهبك والدك ليس بإمام فإنه لم يخرج قط و لا تعرض للخروج». و من الزيدية اليعقوبية يقولون بولاية أبى‌بكر و عمر و لا- يتبرأون منهما و ينكرون رجعة الأموات. و بقية الزيدية تتوقف فى أمر الرجعة... لا يقولون بها و لا ينكرونها. و ظهرت فى المذهب الزيدى مذاهب منها الهادوى و القاسمى و الناصرى و الهارونى التى تخالف الأصل فى فروع يسيرة و تسير عليه فى جملة الفروع و تلتقى بمذاهب أهل السنة، و بخاصة المذهب الهادوى الذى أسسه امام اليمن الإمام الهادى (يحيى بن الحسن بن ابراهيم بن القاسم) صاحب صعدة (۲۸۹ - ۲۸۰) و كان أئمة المذهب الهادوى من عظم اتفاقهم مع المذهب الحنفى يرون الأخذ بالمذهب الحنفى إذا لم يجدوا عن الإمام الهادى نصا فى المسألة. بل يذهبون الى أبعد من ذلك فيأخذون بأرجح ما فى المذاهب الأخرى. و الزيدية ترى ان كل من دعا لنفسه من أولاد على و فاطمة (عليهماالسلام)، و كان مستكمل الصفات، وجب اتباعه. و قد كتب لهم النجاح فى اليمن و طبرستان الى الجنوب من بحر قزوين. و العرب تسمى بحر قزوين بحر طبرستان. و قد ملك طبرستان الحسن بن زيد... بن الحسن بن على سنة ۲۵۰ حتى سنة ۲۷۰. و كانت ثورة ابن‌طباطبا فى بغداد فى أيام المأمون زيدية.

[۶۶] الكيسانية يقولون بإمامة محمد بن الحنفية بعد وفاة أبيه، و ان الحسن و الحسين انم خرجا بإذنه. و من الكيسانية أشياع المختار بن عبيدالله الثقفى. (۶۷). و منهم الهاشمية الذين يقولون إن محمدا أفضى الى ابنه أبى‌هاشم بالأسرار التى افضى إليه بها أبوه. و لما مات أبوهاشم انقسمت فرقته فرقا؛ واحدة تقول: انه اوصى لأخيه على، و ان الوصية لا تخرج عنهم حتى «يرجع» محمد بن الحنفية، و واحدة تنقسم الى فرق؛ منها: فرقة تقول: انه اوصى الى معاوية بن عبدالله بن جعفر بى أبى‌طالب (و قد قتله ابو مسلم الخراسانى)، و فرقة تقول: انه اوصى الى محمد بن على بن عبدالله بن العباس. و هاتان فرقتان تخرجان الإمامة الى غير ابناء على، و تفسر اهل‌البيت تفسيرا يسع غير أبناء على.

[۶۷] و يقول ابن أبى‌الحديد فى شرح نهج‌البلاغة: «و كل من عاداه أو حاربه و أبعضه فإنه عدو لله سبحانه و تعالى و خالد فى النار مع الكفار و المنافقين، إلا من ثبتت توبته و مات على توليه و حبه. فأما الأفاضل من المهاجرين و الأنصار الذين ولوا الإمامة قبله... رأينا رضى إمامتهم و بايعهم و صلى خلفهم و أنكحهم و أكل فيئهم... ألا ترى أنه لما برئ من معاوية برئنا منه. و لما لعنه لعناه. و لما حكم بضلال أهل الشام و من كان بينهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص و عبدالله ابنه، حكمنا أيضا بضلالهم... و الحاصل أننا لم نجعل بينه و بين النبى إلا- رتبة النبوة، و أعطيناه كل ماعدا ذلك من الفضل المشترك بينه و بينه. و لم نطعن فى أكابر الصحابة الذين لم يحص عندنا أنه طعن فيهم».

[۶۸] و الشيعة تنفى قول القائلين بالصرفة و هو ما يزعمه بعض المعتزلة (النظام) من أن الله صرف المشركين عن أن يحاولوا الإتيان بمثل القرآن. فهذا القول مصيره نفى الإعجاز. و الإعجاز آية الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم).

[۶۹] اما الرواة عموما فيشترط أن يكونوا من الإمامية الاثنا عشرية يروون عن «إمام» عن النبى. وثمة من يقبل رواية غير الإمامى مادام موثقا أى أمينا عند الإمامية. قالوا: «لو كان بعض رجال السند غير امامى مصرحا بالتوثيق أو مصرحا بالمدح لابد من كون الباقى إماميا موثقا».

[۷۰] و الإرسال لا يمنع قبول الحديث عند أهل السنة. كان إبراهيم النخعى يروى الحديث مرسلا، فيقول له الأعمش: إذا رويت لى حديثا فأسنده. فيجيب: إذا قلت حدثنى فلان عن ابن‌مسعود فهو الذى رواه. و إذا قلت قال عبدالله فغير واحد. و الحسن البصرى يقول: «إذا قلت لكم حدثنى فلان فهو حديثه، و متى قلت: قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فعن سبعين».

[۷۱] الخبر الذى يحصل العلم بصدوره من قرائن داخلية أو يغيرها مطابقة لظاهر القرآن أو معانيه أو لأدلة العقل، حجة معتبرة، لا للشهرة أو الاستفاضة أو التواتر أو أى شىء آخر، بل للعلم بصدوره الذى هو حجة بنفسه - فالخبر المتواتر أو المعلوم بصدوره لا حاجة لشروط فى روايته. و إنما الشروط فى خبر الواحد. و قد يعملون بالضعيف إذا اشتهر العمل به بين الأقدمين. أما علامات وضع الحديث فهى كمثلها عند أهل السنة تقريبا. و ليس عجيبا أن تكون السنة التى يتمسك بها الشيعة فى مجموعها هى السنة التى يتمسك بها أهل السنة. فاختلاف الروايات و اسنادها او إضافة مصدر الأئمة، لم تدخل فى التراث النبوى العظيم ما يغيره. و مشايخ الامامية يوثقون المخطئين فى الاعتقاد، و الإمام الصادق (عليه‌السلام) إذ يقول: «خذوا ماروووا. و ذروا مارأوا» يقصد آراءهم. و لقد طالما رفض مجتهدوهم أحاديث ذكرت فى كتبهم، و أخذوا بما جاء فى صحيحى البخارى و مسلم لتفحصهم أحوال رجالهما.

[۷۲] يشترط الشيعة فى المجتهد (۱)- العلم باللغة. (۲) - بالكلام. (۳) - بكتاب الله و السنة. (۴) - بطرق الإستنباط. (۵) - المسائل المجمع عليها حتى لا يخالفها اجتهاد. (۶) - الفطنة و إدراك الحقائق. (۷) - العلم بمواطن الخلاف. كل ذلك (۸) - و هو إمامى.

[۷۳] آيات الكتاب (۶۲۳۶) آية على طريقة عد الكوفيين، كما ورد فى التعليق على المصحف المتداول بمصر من سنة ۱۳۳۷ هجرية ، أحصى بعض فقهاء أهل السنة نحو (۱۴۰) فى العبادات، و (۷۰) فى المعاملات، و (۷۰) فى الاحوال الشخصية و المواريث، و (۲۰) فى الجنايات، و (۱۳) فى المرافعات، و (۲۰) فى القضاء و الشهادة، و (۱۰) فى الاقتصاديات و (۱۰) فى المسائل الدستورية، و (۲۵) فى المسائل الدولية - و أحاديث أصول الأحكام عندهم نحو (۴۵۰) بين آلاف الأحاديث أكثرها بيان مجمل أو تفصيل موجز أو تشريع ما سكت عنه.

[۷۴] راجع نحو تقنين جديد للمعاملات و العقوبات من الفقه الإسلامى «من مطبوعات لجنة تجلية مبادئ الشريعة الاسلامية» - عبدالحليم الجندى - طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية الفقرات ۴۲ الى ۴۸.

[۷۵] يذكر الراغب الاصفهانى فى المحاضرات من قرون مضت: سئل رجل كان يشهد بالكفر على آخر عند جعفر بن سليمان فقال: إنه رجل معتزلى، ناصبى . حرورى. جبرى. رافضى. يشتم على بن الخطاب، و عمر بن أبى‌قحافة، و عثمان بن أبى‌طالب، و أبابكر بن عثمان، و يشتم الحجاج الذى هدم الكوفة على أبى‌سفيان، و حارب الحسين بن معاوية يوم القطائف، فقال جعفر: «قاتلك الله ما أدرى على أى شىء أحسدك؟ أعلى علمك بالأنساب أم بالأديان أم بالمقالات».

[۷۶] أخرجه الترمذى و النسائى عن جابر.

[۷۷] أخرجه الترمذى عن زيد بن أرقم.

[۷۸] أخرجه أحمد بن حنبل بطريقين صحيحين و أخرجه الطبرانى.

[۷۹] أخرجه أحمد بن حنبل و آخرون.

[۸۰] أخرجه الحاكم فى المستدرك و آخرون ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

[۸۱] أخرجه الحاكم من طريقين عن زيد بن أرقم. و أخرجه مسلم فى صحيحه حتى كلمة الحوض مع خلاف فى بعض الكلمات.

[۸۲] مسند أحمد بن حنبل - ابن‌حجر - كنز العمال - و بهذا المعنى فى المستدرك.

[۸۳] الصواعق لابن حجر.

[۸۴] أخرجه الحاكم فى المستدرك عن ابن‌عباس.

[۸۵] و من نصوص وصية النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) الصريحة بالإمامة لعلى: عن محمد بن حميد الرازى - و قد وثقه الأئمة:

أحمد، و يحيى، و ابن‌جرير الطبرى، و البغوى - عن أبى‌بريدة «لكل نبى وصى و وارث و ان وصيى و وارثى على بن أبى‌طالب» و مثله - بالمعنى مروى عن سلمان الفارسى. و قال عليه الصلاة و السلام لفاطمة: «يا فاطمة. أما ترضين أن الله عزوجل أطلع الى أهل الأرض فاختار اثنين أحدهما أبوك و الآخر بعلك». و عن ابن‌عباس ان الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) قال لها؟: «أما ترضين أنى زوجتك أول المسلمين اسلاما و أعلمهم علما و انك سيدة نساء أمتى كما سادت مريم نساء قومها. أن ترضين يا فاطمة ان الله اطلع الى أهل الأرض فاختار رجلين فجعل أحدهما أباك و الآخر بعلك؟». و منها ان النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول عن الحسين (عليه‌السلام): «ابنى هذا إمام ابن أمام أخو إمام أبوأئمة تاسعهم قائمهم».

[۸۶] يقول الشريف المرتضى فى كتابه (تنزيه الأنبياء): «قالت الشيعة الامامية: لا يجوز عليهم (الأنبياء) شىء من المعاصى و الذنوب، كبيرا كان أو صغيرا، لا قبل النبوة و لا بعدها. و يقولون فى الأئمة مثل ذلك».

[۸۷] دخل ابراهيم بن هرثمة على المنصور فتهدده لأنه يمدح أهل‌البيت. و لما خرج ابراهيم لقى علويا سلم عليه فصاح به: لا تشط بدمى. و فى سنة ۲۵۰ استعانت الجماهير بالجند ضد الشيعة. و فى سنة ۳۶۳ قتل الكثيرون من أجل اقامة الشيعة لشعائرهم. و فى سنة ۴۰۳ صدر مرسوم بلعن العلويين خلفاء مصر و إنكار نسبهم. و كانت موقعة الكرخ فتكا بأموال الشيعة و أرواحهم و أطفالهم. و فى سنة ۴۳۹ كبست دار الطوسى ببغداد. و فى سنة ۴۴۸ و ۴۴۹ أحرقت مكتبة الطوسى فترك بغداد الى النجف. و عدوان المالكية على الشافعى فى جامع عمرو مشهور. و طرد المالكية و الحنفية من أجل الشغب فى جامع عمرو بعد ذلك بأمر القاضى الحارث بن مسكين معروف. و كذلك فتنة الحنابلة فى مجلس الطبرى (۳۱۰) و فى عهد البر بهارى و فيما بعده و قد طالما أرهجت بغداد. و من الإزراء بالتعصب المذهبى تتردد على الألسن سخرية الزمخشرى، و هو حنفى اذا سألوا عن مذهبى لم أبح به و أكتمه.. كتمانه لى أسلم فإن حنفيا قلت، قالوا بأننى أبيح الطلى و هو الشراب المحرم و ان شافعيا قلت، قالوا بأننى أبيح نكاح البنت؛ و البنت تحرم و ان مالكيا قلت، قالوا بأننى أبيح لهم أكل الكلاب و هم هم و لقد طالما كفرت جماعة جماعة اخرى، بغيا عليها أو تحاملا منها فى التعبير عن الخلاف معها. كان نظام‌الملك (۳۸۵) وزيرا عظيما، ينشر العلم و ينشئ المدارس، و يعمل للوحدة، و يحاول أن يجمع الخلافتين العباسية و الفاطمية، أى أهل السنة و الشيعة الإسماعيلية، و كان يجتمع لديه علماء الفرق، فدخل عليه عبدالسلام بن محمد القزوينى شيخ المعتزلة و عنده أبومحمد التميمى و رجل آخر أشعرى، فقال له: أيها الصدر، لقد اجتمع عندك رؤوس أهل الناس. أنا معتزلى و ذلك أشعرى و هذا مشبه، و بعضنا يكفر بعضا!! و فى سنة ۴۱۲ صدر مرسوم فى بغداد كفر به الخليفة القادر المعتزلة و أمر باستتابتهم، و قد سبق منهم العمل عند الخلفاء لقهر المحدثين و الفقهاء فى عصر المأمون و المعتصم و الواثق. و فى حياة الفيروزآبادى الشافعى قامت الفتنة على الشافعية سنة ۴۷۹. و فى سنة ۵۰۷ قال قاضى الحنفية بدمشق: لو كان لى من الأمر شىء لوضعت الجزية على الشافعية. و فى سنة ۵۶۷ قال أبوحامد الطوسى المقال نفسه فى الحنابلة! و فى سنة ۵۵۴ حرقت الأسواق فى أصفهان لنزاع الحنفية و الشافعية. و فى سنة ۴۶۹ هاج الحنابلة فى بغداد إذ ولى القشيرى الوعظ بالمدرسة النظامية. و من قبل ذلك بعام سنة ۴۶۸ انتقل السمعانى من مذهب أبى‌حنيفة الى مذهب الشافعى فثار الحنفية بمدينة مرو فى خراسان فنفاه سلطانها حقنا لدمه. و فى العصر ذاته أمر ابن‌تاشفين بإحراق كتب الغزالى فى احتفال رسمى بمسجد قرطبة! و ذات يوم رأى الوالى الحنفى فى بلاد ما وراء النهر فى مخرجه للصلاة فى الصباح مسجدا للشافعية فقال: أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق؟ و فى جيلان كان القوم حنابلة إذا قدم عليهم حنفى قتلوه! و جعلوا ماله فيئا للمسلمين! و أما أهل الأندلس فكانوا مالكية يطردون من الأندلس الحنفى أو الشافعى أو الحنبلى إذا وفد عليها. فإن كان معتزليا فربما قتلوه... و من سد الذريعة أفتى البعض بتعزير من يترك مذهبا لمذهب. و فى القرن الثامن من الهجرة فصل من التدريس بمصر أبوالعباس الحنبلى (۷۱۶) لأنه ذكر أن عمر منع تدوين الحديث، و ان ذلك كان سبب تعارض النصوص فى الحديث و خلاف العلماء. و فى القرن العاشر علقت على باب زويلة رأس المولى ظهير المدين الأردبيلى لأنه قال ان مدح الصحابة ليس بفرض! و فى تركيا قتل فى عهد السلطان سليم الأول (۹۲۶) نحو أربعين ألفا من الشيعة. و هكذا تدور رحى البطش فى كل اتجاه، لكن لها قانونا لا

يتخلف هو ان الباطشين اليوم مبطوش بهم غدا.

[۸۸] أهل السنة لا يكفرون إلا من يجحد فرائض الإسلام لأنه جاحد للأصل. يقول الغزالي: «اعلم ان شرح ما يكفر به و لا يكفر به يستدعي تفصيلا طويلا. فاقنع الآن بوصية و قانون. أما الوصية فان تكف لسانك عن أهل القبلة، ما أمكنك، ماداموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله. و أما القانون فهو أن تعلم أن النظريات قسمان. قسم يتعلق بأصول القواعد و قسم يتعلق بالفروع. و أصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله و برسوله و باليوم الآخر و ما عداه فروع. و اعلم انه لا تكفير في الفروع اصلا، إلا في مسألة واحدة، و هي أن ينكر اصلا دينيا من رسول الله صلى الله عليه و سلم بالتواتر. لكن في بعضها تخطئة ما في الفقهيات...».

[۸۹] في النصف الأول من القرن الحالي جرت «المراجعات» بين شيخ الأزهر و هو الشيخ سليم البشري و بين الامام عبدالحسين شرف الدين الموسوي (۱۳۷۷ - ۱۲۹۰) مدة إقامة الاخير بمصر، و هي مراجعات أطراها الطرفان و ثبت منها التزام المسلمين جميعا أصول الاسلام، وسعة الفقه للخلاف حول الفروع. و من اتساع الفقه للخلاف وجدنا المأمون، المعتزلي الفكر، السني الفقه، يولي عهده عليا الرضا عليه‌السلام إمام الشيعة. و وجدنا الصاحب بن عباد الذي وزر للدولة البويهية ثمانية عشر عاما من ۳۶۷ الى ۳۸۵ وزيرا معتزلي الفكر لدولة زيدية العقيدة، تحكم دولة الخلافة السنية. و وجدنا الشريف الرضي نائبا للخليفة العباسي. كما وجدنا الدولة الأدريسية دولة سنية يحكمها الأدارسة و هم شيعة من نسل الحسن بن علي عليهماالسلام لكنهم لا يظهرون التشيع. و ابن‌تومرت يقول إنه - كالأدراسة - من نسل الحسن بن علي عليه‌السلام و مع ذلك لا يقسر الدولة على التشيع. و كذلك بني حمود من نسل الحسن بن علي يحكمون دولة سنية و لا يقسرونها على التشيع... بل سنجد فقهاء عظماء - كالطوسي - حجة في المذهب الامامي و في مذاهب أهل السنة. و في سنة ۵۲۵ عين الخليفة الفاطمي بمصر قضاة أربعة: ثلاثة من مذاهب السنة و رابعا شيعيا لأن الشعب كان سنيا و الدولة شيعية. و كان الحافظ السلفي (۵۷۶ - ۴۷۸) يلقي دروس الشافعية في مدرسة بناها له ابن السلام الوزير الفاطمي. و في النصف الأخير من القرن الحالي أفتى المرحوم الشيخ محمود شلتوت: «ان مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الامامية الاثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة. فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك. و أن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله و ما كانت شريعته تابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلا للنظر و الاجتهاد تقليدهم و العمل بما يقرونه في فقههم. و لا فرق في ذلك بين العبادات و المعاملات». و قال الشيخ شلتوت عن فتواه بعد... «ثم تهيأ لي بعد ذلك - و قد عهد الي بمنصب مشيخة الأزهر - أن أصدرت فتواي في جواز التعبد على المذاهب الاسلامية الثابتة الأصول المعروفة المصادر المتبعة لسبيل المؤمنين و منها مذهب الشيعة الامامية (الاثنا عشرية)... و ها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ؛ مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرر دراسة هذه المذاهب الاسلامية سنيها و شيعيها دراسة تعتمد على الدليل و البرهان و تخلو من التعصب لفلان و فلان كما انه اهتم في تكوين مجمع البحوث الاسلامية بأن يكون أعضاؤه ممثلين لمختلف المذاهب الاسلامية»... و الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ أسبق للأزهر يقول تحت عنوان (القطعيات و الظنيات): «قد علمنا من استقراء المذاهب الفقهية و آراء الفرق الكلامية ان في كل منها خطأ و صوابا، و لم نعلم مذهبا من المذاهب الإسلامية المعتبرة خطأ كله أو صوابا كله. و اذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي ان تطغى العصبية المذهبية على المسلمين. و لا ينبغي ان يكون هم الحنفي مثلا هو الانتصار لكل ما جاء في مذهب الحنفية. و لا ان يكون هم الإمامي أو الزيدي هو الانتصار و التعصب لكل ما جاء به الإمامية و الزيدية... و هكذا. بل الواجب على المسلمين أن يأخذوا بما ظهر بالبرهان صوابه و ان يكون قصاراهم الرغبة الصادقة في الوصول الى الحق دون ان يقيموا و زنا لما سوى الحق... بذلك يصبحون فعلا أمة واحدة».

[۹۰] الشيعة يستدلون على أن الأذان كان فيه عبارة (حي على خير العمل) بما هو ثابت بالسند الصحيح عن الامام جعفر عليه‌السلام «لما هبط جبرائيل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بالأذان أذن جبرائيل و أقام و عندها أمر رسول الله عليا أن يدعو بلالا فدعاه فعلمه رسول الله الأذان و أمره به» و كان أذان الإمام جعفر عليه‌السلام هكذا: الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله

الا- الله. أشهد ان لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله. أشهد ان محمدا رسول الله حى على الصلاة. حى على الصلاة حى على الفلاح. حى على الفلاح حى على خير العمل. حى على خير العمل الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله. لا إله إله الله.

[۹۱] و قد تعاقبت التصرفات فى صدد الأذان من المسلمين. كان عليه الصلاة و السلام يأمر فى فجر رمضان بأذانين أولهما يوقظ الغافلين ليتسحروا، و الثانى للصلاة. و كان أذان الجمعة فى عهده يبدأ عندما يجلس على المنبر. و هو الأذان الوحيد الذى يؤدى من مكان مرتفع بالمسجد أو القرية كسقفه و منارته. فلما كثر الناس فى عهد عثمان استحدث نداء آخر على الزوراء و بقى النداء الأول كما كان - و فى عهد هشام بن عبدالملك (۱۲۵ - ۱۰۵) اكتفى باذان المنارة. و نقل الأذان الثانى و جعله بين يدى الخطيب. هذا و ليس الكلام القليل بين يدى الخطيب، و لا عند الأذان، ليبطله.

[۹۲] ولى يحيى القضاء فى البصرة و عمره نحو عشرين سنة، فاستصغره أهل البصرة، فقال لهم: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذى وجه به النبى قاضيا على مكة يوم الفتح، و أنا أكبر من معاذ بن جبل الذى وجه به النبى قاضيا على اليمن، و انا أكبر من كعب بن أبى الذى وجه به عمر قاضيا على البصرة. و كان يحيى حسن التأتى للأمور و منها سياسة القضاء و الخلفاء؛ دخل على المأمون رجل يشكو وكيلا للمأمون انه اشترى منه جواهر بثلاثين ألف دينار، فقال المأمون: لعل الوكيل اشترى لنفسه أو سلم الشاكى المال... قال الشاكى: فإذن أدعوك الى القاضى الذى نصبته لرعيتك. وجىء بيحيى بن أكثم، فقال للمأمون: إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء. قال: قد فعلت. قال: فإنى أبدأ بالعامة أولا يصلح المجلس للقضاء... ففتح الباب - وقعد فى ناحية من الباب و أذن للعامة، ثم دعى بالرجل، فقال له يحيى: ما تقول؟ قال: أقول ان تدعو بخصمى أميرالمؤمنين. فنادى المنادى، فإذا المأمون قد خرج و معه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى و هو جالس، فطرح المصلى ليقعد عليها، فقال له يحيى: يا أميرالمؤمنين، لا- تأخذ على صاحبك شرف المجلس... فطرح للرجل مصلى آخر، ثم نظر فى دعوى الرجل. و طالب الرجل المأمون باليمين فحلفها المأمون. و وثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه. قال المأمون: ما أقامك؟ قال: إنى كنت فى حق الله جل و عز حتى أخذته منك، و ليس الآن من حقى أن أتصدر عليك... فأمر المأمون أن يحضر ما ادعى الرجل من المال، فقال له: خذه اليك، و الله يعلم ما دفعت اليك هذا المال إلا خوفا من هذه الرعية لعلها ترى انى تناولتك من وجه القدرة، و انها لتعلم الآن انى ما كنت أسمح لك باليمين و بالمال.

[۹۳] الشيخ زين‌الدين الجبعى العاملى.

[۹۴] يؤول المعتزلة الألفاظ ليفسروا معانى الآيات طبقا لأصولهم. و على ذلك أولوا الآيات التى قد تنم عن التشبيه و الجهة الجسمية. و التفسير بالرأى يقوم على قاعدة كصمام الامان للذين ينهجونه. فبالكتاب آيات محكمات و أخر متشابهات و المحكمة آيات لا يتمارى فى معناها أحد. فإذا وردت آية متشابهة فسرت على اساس الآية المحكمة؛ مثل قوله تعالى (الى ربها ناظرة) تفسر على اساس قوله تعالى (لا- تدركه الأبصار) فيكون معناها الرضى عنها و توقع النعمة من الله. و مثل قوله (أمرنا متر فيها ففسقوا فيها) تفسر على اساس قوله (ان الله لا- يأمر بالفحشاء). و أكثر المؤولين يلجأون للمجاز. و فى القرآن كثير منه مثل قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) فمعناها القدرة - و هم ككل المفسرين - يبدأون من أن الله تعالى ليس كمثله شىء. أما التفسير بالمأثور فتتصدره مدرسة الامام الطبرى: يجمع الأقوال و الآثار و يختار بها.

[۹۵] اليك مثلا- تفسير «الامام العسكرى عليه‌السلام» للحروف المقطعة مثل (ا. ل. م....) فى فواتح السور يراها تنبيها على ان هذا الكتاب الذى أنزله الله هو هذه الحروف المقطعة. و انه بلغتكم و هجائكم فأتوا بمثله ان كنتم صادقين. و ما يزال هذا التفسير فى طليعة تفسير الحروف المقطعة فى أوائل السور.

[۹۶] أصول المعتزلة الخمسة - ۱ - التوحيد الذى ينفى عن الذات صفات الاجسام و المكان. و أهل السنة يرون صفات الله خاصة به و أنه تعالى «كما وصف نفسه». فليس فى ذلك تشبيه لله بخلقه - ۲ - العدل؛ و فحواه ان الله لا يأمر إلا بالحسن و لا ينهى إلا عن القبيح. و ما يفعله الناس عمل من أعمالهم؛ و لذلك يثابون و يعاقبون. و أهل السنة يقولون ان الله خالق العمل؛ و العبد كاسب له - ۳ - الوعد

و الوعيد (أو الثواب و العقاب) ملازمان للفعل. و أهل السنة يرون التوبة قد يقبلها الله من مرتكب الكبيرة - ۴ - المنزلة بين المنزلتين. فمرتكب الكبيرة لا- مؤمن و لا- كافر بل فاسق و ان كان عقابه أقل من الكافر - ۵ - الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر مع اشتدادهم فى ذلك عندما كانت السلطة فى أيديهم.

[۹۷] (المنهج العلمى المعاصر مستمد من القرآن) للمؤلف مطبعة دار الاتحاد العربى صفحات ۱۱ الى ۵۴.

[۹۸] و الارتباط بين فروع المعرفة أحد «الأساسيات» العلمية، و هى جميعها تستعمل الطريقة التجريبية و تلتزم حقائق الحياة الواقعة و قوانين الكون التى لا- تتخلف و لا- تدع مجالا- للفراغ أو المجازفة أو الصدفة؛ كل شىء بمقدار. و كل أمر موزون - فى الانسان و الحيوان و النبات و الجماد، و فيما بينها، و فى العلوم الطبيعية و الرياضية و فى العلوم الاجتماعية و الانسانية. و العلميون يستعملون مقولات: الوحدة و التفاضل و التكامل... و اطراد العلل و النتائج. و الآخرون يستعملون مقولات الوحدة، و التناسب و التناسق، و التزاوج و الانسجام، و فى الاشياء و الأشكال و الألوان و الأحجام. و يستوى فى ذلك الذين يلتزمون بالدين أو الذين يلتزمون بإنكاره. و من الموضوعية «سلطان الإرادة» الإنسانية فى التعاقد، أى حريتها، مع تقيدها بالقانون الذى يجتمع عليه الناس. و هذا مظهر الحرية الشخصية و الفكرية التى أتاحها الله لعباده و أمرهم أن يستعملوها لأنها وسيلة للحياة الكريمة و للتقدم. و هو معلم من معالم السبق التشريعى الاسلامى.

[۹۹] بهذا كان على عليه‌السلام إمام المفسرين. قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: ألمن قتل مؤمنا متعمدا توبة؟ قال: لا. فتلوت عليه الآية التى فى «الفرقان» قال: هذه مكية نسختها آية مدنية «و من يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا». ورووا ان ابن‌عباس ناظر عليا فى الآية، فقال على: من أين لك أنها محكمة؟ قال: «تكاثف الوعيد». قال على: ان الله نسخها بآيتين آية قبلها و آية بعدها فى النظم. الأولى قوله تعالى «ان الله لا- يغفر ان يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء. و من يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما» و أما التى بعدها فى النظم فهى قوله تعالى «ان الله لا يغفر أن يشرك به و من يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا» و المفسرون يضيفون الى الآيات قوله تعالى «و الذين لا يدعون مع الله الها آخر و لا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق» الى قوله تعالى «و يخلد فيها مهانا» ثم استثنى بقوله «إلا من تاب و آمن و عمل صالحا». لكم صدق ابن‌عباس حينما سئل عن علمه و علم ابن‌عمه على عليه‌السلام فقال: كالقطرة الى جوار البحر المحيط.]

[۱۰۰] كتاب نحو تقنين جديد للمعاملات و العقوبات من الفقه الاسلامى: للمؤلف (طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية سنة ۱۹۴۷ الفقرات ۳ الى ۷۳ و الفقرات ۹۳ الى ۱۲۷).

[۱۰۱] يقول: «فليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام، و يجعلون ما يعلم بالعقل قسيما للعلوم النبوية، و هذا خطأ، ان العلم هو علم محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و علم فى ميراث محمد صلى الله عليه و آله و سلم. و غير هذا العلم لا يكون علما. لقد بين صلى الله عليه و اله و سلم - مختتما دورة الرسالة العظمى - العلوم العقلية التى يتم بها دين الناس علما و عملا، و ضرب الأمثال، فكانت الفطرة بما ينبهها عليه... و لذلك أتى الخبر من السماء - القرآن و الحديث - بهذا يبين الحقائق لا بطريقة خبرية فقط بل (بالمقاييس العقلية)، فبين التسوية بين المتماثلين و التفرقة بين المختلفين». و يضرب ان تيمية أمثالا- من الآيات للتسوية بين متماثلين و التفرقة بين مختلفين، و يقول: «و كذلك أنزل الله سبحانه الميزان فى القلوب... لما بينت الرسل العدل و ما يوزن به عرفت القلوب ذلك. فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التماثل و الاختلاف و تضع من الآلات الحسية ما يحتاج له فى ذلك. كما وضعت موازين النقد و غير ذلك... قال الله تعالى (و السماء رفعها و وضع الميزان، ألا تطغوا فى الميزان، و أقيموا الوزن بالقسط و لا تخسروا الميزان) فالميزان هو العدل و هو ما يعرف به العدل. و هو القياس القرآنى المنزل، ليتعرف به صحيح الفكر من باطله... بالإضافة الى أن نزن الأمور عامة حسية أو عقلية».

[۱۰۲] كان داود بن خلف الأصفهانى صاحب المذهب الظاهرى شافعيا ثم صار ظاهريا ينكر القياس و يعتمد على النص وحده. قالوا

انه سئل لم تركت مذهب الشافعى قال: قرأت كتاب إبطال الاستحسان للشافعى فوجدت كل الأدلة التى يبطل بها الاستحسان يبطل بها القياس.

[۱۰۳] أوغست كومت ۱۸۵۷ - ۱۷۹۸ Auguste Comte صاحب الفلسفة الواقعية فى القرن الماضى. انتفع بمؤلفات لبنتز و ديكارت و فرنسيس بيكون و القديس توماس الأكوينى و روجير بيكون؛ و الأخيران من أكبر من نشروا العلم الاسلامى و تأثروا به... و كثير من كتاباتهما تستعمل تعبيرات اسلامية.

[۱۰۴] جون ستيوارت مل ۱۸۷۳ - ۱۸۰۶.

[۱۰۵] ديكارت ۱۶۵۰ - ۱۵۹۶.

[۱۰۶] يقول جابر: «و كذلك ينبغى إذا ذهب الدهرى (القائلون: انما يخلقنا و يهلكنا الدهر - لا- الله) يمنع أن يكون العالم مكونا مصنوعا، لأنه لم يشاهد، و لا واحد من الناس، بدء تكوينه، أن يقال له: ما ينكر أن يكون وجود الناس بعد وجود العالم بوقت طويل... و تذكر كون مدينة أو قصر و لا يذكر أحد من أهل بلده ابتداء بنائه؟ فسلم أن يثبت قدم ذلك بالعلة التى أثبت بها قدم العالم. و اذا قال: انما علمت ان المدينة و القصر التى لم نشاهد، و لا من توفى، ابتداء بنائها، أنها مبنية من قبل، انى رأيت مثلها بنى، و لم أر مثل العالم مبنيا - قيل له: ان هذا بعينه ما نقول. و ندفع كونه فى طريق الاستدلال - فمن أين قلت: إن كل عالم تشاهده، و ليس له شبيه و لا مثيل، موجود. و ان كل ما لم تشاهده و ليس له شبيه و لا مثيل فليس بموجود! إذ قد بان تقصيرك و تقصير أمثالك عن مشاهدة جميع الموجودات، فأمكن أن يكون أكثر الموجودات مما لم نشاهده».

[۱۰۷] راجع مقدمة كتاب الدكتور مصطفى نظيف... مدير جامعة (عين شمس) - بالقاهرة - عن الحسن بن الحسن الهيثم البصرى أكبر عالم فى الرياضيات و الطبيعة فى العصور الوسطى. وفد الحسن من العراق الى القاهرة ليعمل مهندسا فى خدمة الدولة الفاطمية فى عصر الحاكم بأمر الله. و كان من رأيه جواز إقامة آلات على النيل يحركها تيار مياهه. و الدكتور نظيف يقول: انه ينبغى لنا أن نستبدل بأسماء روجير بيكون و مور ليكوس و دافنشى و كبلر و دلابورتا، اسم الحسن بن الهيثم. فعلى يد الحسن أخذ علم الضوء وجهة جديدة بمنهجه الاسلامى و هو (استقراء الموجودات و تصفح أحوال المبصرات و تمييز خواص الجزئيات و ما يخص البصر فى حال الإبصار. و ما هو مطرد لا يتغير و ظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس. ثم نترقى فى البحث و المقاييس على التدرج و الترتيب، مع انتقاد المقدمات و التحفظ فى النتائج. و نجعل غرضنا فى جميع ما نستقرئه و نتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى. و نتحرى فى سائر ما نميزه و ننقده طلب الحق لا الميل مع الآراء، فلعلنا ننتهى بهذا الطريق الى الحق الذى يثلج الصدور، و نصل بالتدريج و التلطف الى الغاية التى عندها يقع اليقين. و نظفر مع النقد و التحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف و تنحسم بها مواد الشبهات. فهذا جمع للاستقراء و القياس... و ما هو إلا منهج علماء الرياضيات و الطبيعة المسلمين تابعهم فيه ابن‌الهيثم و نقله علماء أوربا، ابتداء من الكندى (۲۵۲) عالم الطبيعة و الفيلسوف، و الرازى (۳۲۰) جالينوس العرب أو الطبيب الفيلسوف الذى يتخذ الإحساسات بالجزئيات أساسا لكل عمله و يدلل بالكائنات الحية على وجود الخالق. و ابن‌سينا (۴۲۸) الرئيس... أو الفيلسوف الطبيب الذى يمثل فكرة المثل الأعلى فى العصور الوسطى كما يقول سارتون. و للأخير صورتان معلقتان على جدران جامعة باريس، الآن، مع جراح العظام ابن‌زهر... راجع (الامام الشافعى) للمؤلف - ص ۱۷۵ - ۱۷۴، الطبعة الثانية، طبعة المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية. يراجع كذلك (المنهج العلمى المعاصر مستمد من القرآن) - للمؤلف - مطبعة دار الاتحاد العربى للطباعة سنة ۱۹۷۶ م حيث تفصيل الأدلة على أخذ أوربا المنهج العلمى المعاصر عن علماء المسلمين.

[۱۰۸] يقول أحمد بن حنبل: «أنا أذهب الى كل حديث جاء و لا أقيس عليه» و «سألت الشافعى عن القياس فقال: انما يصار اليه عند الضرورة». و فى حالة الضرورة هذه أباح أحمد: «أن يقاس الشىء اذا كان مثله فى كل أحواله. فأما إذا أشبهه فى حال و خالفه فى حال فأردت أن تقيس عليه فهذا خطأ. فإذا كان مثله فى كل أحواله فما أقبلت به و أدبرت به فليس فى نفسى شىء منه».

[۱۰۹] الشیخ محمدرضا المظفر.

[۱۱۰] الحسن و القبیح قضیة یمسک بطرفیها الأشاعرة فیقولون ان الشرع وحده هو الذی یعطی الفعل وصفه. و الشیعة، و یتبعهم فی ذلک المعتزلة، یقررون انهما و صفان ذاتیان یستقل العقل بإدراکهما. فالصدق و المروءة أمران حسنان. و الکذب و انعدام المروءة أمران قبیحان.

[۱۱۱] فی کتابه إعادة تکوین الفکر الدینی فی الاسلام: The Reconstruction of Religious Thinking.

[۱۱۲] فی کتاب صنع الإنسانیة Making of Humanity.

[۱۱۳] مات روجیر بیکون سنة ۱۲۹۴ و استمرت الجامعات العربیة و العرب فی الأندلس قرنین بعد ذلک، الی جوار المعاهد التی أنشئت لترجمة علومهم فی فرنسا و الأندلس و إیطالیا و ألمانیا. و کان یجید اللغة العربیة و العبریة، و یمارس التجارب العلمیة فی الطبیعة و الکیمیاء، و قاومه معاصروه لکن البابا شد أزره. و کان جزاؤه السجن فی باریس من أجل کتاباته. و هی تعتبر طلائع لکشوف علمیة حدیثة (کالعدسات و السیارات ذات المحرک البدائی و الطائرات) و هو القائل: «الفلسفة مستمدة من العربیة. فاللاتینی – علی هذا – لا یستطیع فهم الکتب المقدسة و الفلسفة إلا اذا عرف اللغة التی نقلت عنها». و من قبل ذلک بقرون – و علی التحدید فی سنة ۹۲۰، طلب ملک الصقالبة الی الخلیفة أن یبعث الیه معلمین و فقهاء فصنع. و کان الجغرافیون العرب فی أرمینیة منذ القرن التاسع للمیلاد. کذلک تلقی البابا سلفستر (۱۰۰۳ – ۹۹۹) علومه بجامع قرطبة، و کان اسمه الراهب جلبیر، قبل أن یصیر رئیسا لدیر رافنا. و هو ناقل العلوم و العربیة و الأرقام العربیة الی أوربا. و قد أنشأ مدرسة فی ایطالیا و أخری فی ریمس بالمانیا لنقل العلوم العربیة. و ثابت ان مدرسة الوعاظ فی طلیطلة نشأت مدرسة لتدریس اللغة العربیة سنة ۱۲۵۰ م ثم أمر مجلس فینا سنة ۱۳۱۱ م بتدریس العلوم العربیة فی باریس و سلامنکا و غیرها. و فی سنة ۱۲۰۷ أنشأت جنوه جامعة لنقل الکتب العربیة، و فی سنة ۱۲۰۹، ۱۲۱۵ قرر المجمع المقدس منع تدریس کتب ابن‌رشد و ابن‌سینا لما فیها من حریة فکریة. و فی سنة ۱۲۹۶ قرر المجمع اللاهوتی تحریم تدریس الفلسفة العربیة و حرمان (کل من یعتقد ان العقل الانسانی واحد فی کل الناس)... و کان الامبراطور فردریک الثانی قد أنشأ جامعة نابولی لنقل العلوم العربیة فوق ما تنقله مدرسة سالرنو المجاورة. و أنشأ العرب المطرودون من اسبانیا مدرسة مونیلیه فی بروفانس بجنوب فرنسا. و الشریف الأدریسی هو معلم روجار ملک صقلیة. صنع له کرة ارضیة من فضة، سنة ۱۱۵۳، قبل أن تعرف أوربا ان الأرض کرویة. و من الثابت أن فیبر و ناتشی Fibronacci أول عالم اشتغل بعلم الجبر قد رحل الی مصر و سویا فی عصر الملک فردریک الثانی ملک صقلیة، و ان أدلارد الباثی Adilard of bath درس علی العرب علمی الفلک و الهندسة. و ما هؤلاء إلا طلائع للعصر الذی عاشوا فیه. و فی العصر ذاته کانت مدرسة صقلیة، و کمثلها مدرسة سالرنو فی جنوب ایطالیا و جامعة نابولی التی أنشأها الامبراطور فردریک الثانی تذیع العلوم العربیة، و احتل العرب جزر البحر الأبیض ابتداء من کریت سنة ۲۱۲ الی صقلیة سنة ۲۱۶، أی فی النصف الأول من القرن التاسع للمیلاد، کما استولوا علی باری و برندیزی فی وسط ایطالیا، و توطدت سیطرتهم علی مقاطعتی کامپینا و أبروزی و أقاموا فیهما امارات عربیة. و امتد سلطان عرب الأندلس الی جنوب فرنسا فی مقاطعة بروفانس. و حاصروا روما. و کانت ملابس البابا موشاة بالأحروف العربیة. و تأثر دانتی بالثقافة العربیة واضح فی الکومیدیا الإلهیة. و هو یذکر صلاح الدین الأیوبی و الدوق جود فری (الملک جود فری ملک بیت المقدس فی حرب الصلبیین) فی کتابه. و کانت السفارات بین الملوک و الأمراء الفرنجة و السلاطین تمد الی اوربا اسباب الحضارة. و کانت کتب ابن‌رشد و الغزالی أیامئذ تقدم الغذاء العلمی للفکر الأوروبی. و کتابات القدیس توماس الأکوینی (القدیس توما) ناطقة بالتاثر الظاهر أو بالنقل الکامل. و فی سنة ۱۲۵۰ أنشأت جماعة الوعاظ فی طلیطلة – مدرسة لتدریس اللغة العربیة و العبریة بقصد تنصیر المسلمین کما ألفت الکتب للدفاع عن المسیحیة ضد المسلمین. و کان الأسقف ستیفن فی باریس یناقش کتب ابن‌رشد. و فی آخر أیام المسلمین بالأندلس أنشئت محاکم التفتیش لمقاومة العلم و الفلسفة اللذین خیف انتشارهما من کتب المسلمین. و فی بحر ثمانیة عشر عاما من (۱۴۹۹ – ۱۴۸۱) أحرقت هذه المحاکم ۲۲۰، ۱۰ رجلا

أحياء، و شنقت ۶۸۶۰. و عاقبت سبعة و تسعين ألفا. و فى سنة ۱۵۰۲ قرر مجمع لاترانا لعن من ينظر فى فلسفة ابن‌رشد، لأنه يقول بحرية العقل . يراجع الفصل الثانى؛ و عنوانه (قوة الحضارة العلمية) من الباب الأول فى كتابنا (توحيد الأمة العربية. فقرات ۴ الى ۱۸). و أول مرصد فلكى أقيم فى أوربا أقامه العرب بأشبيلية و أول مدرسة طبية فى أوربا هى التى أقاموها فى ساليرت. و منذ سنة ۹۷۰ كان فى غرناطة بأسبانيا ۱۲۰ مدرسة منها ۱۷ مدرسة كبيرة و ۲۷ مدرسة مجانية يتعلم فيها نبلاء أوربا علوما عربية. و لما سقطت طليطلة فى سنة ۱۰۸۵ فى أيدى الأسبان أقاموا المدارس لترجمة العلوم العربية فيها و لم يتوقف النقل بل أتيحت له مصادر جديدة بسقوط قرطبة سنة ۱۲۳۶ ثم بسقوط غرناطة سنة ۱۴۹۲. و كان بلاط الفونسو السادس بعد سقوط طليطلة مصطبغا بالثقافة العربية. بل هو أعلن نفسه أمبراطور العقيدتين: المسلمة و المسيحية. و كان الفونسو الخامس الملقب بالحكيم ملك قشتالة من سنة ۱۲۵۲ الى ۱۲۸۴ أكبر دعاة الثقافة العربية. و قد جمع له اليهود كل كتب العرب.

[۱۱۴] If it had my way, I should burn all books of Aristotle , for the study ofthem can lead to a loss of time , produce eror, increase ignorance.

[۱۱۵] كان بنوأمية يجعلون للعرب درجة على الموالى – و سمى العرب الموالى بالعلوج. بل قال جرير: قالوا نبيعكه بيعا فقلت لهم بيعوا الموالى و استغنوا عن العرب و المبرد يقول: «و تزعم الرواة ان الذى أنفت منه جلة الموالى هذا البيت لأنه حطهم و وضعهم». و تزوج أعجمى من عربية من بنى‌سليم فشكاهما محتسب الى والى المدينة (ابراهيم بن هشام صهر الخليفة عبدالملك بن مروان) ففرق بينهما لعدم الكفاءة، و عزر الزوج لأنه ارتكب جريمة! بأن ضربه مائتى جلدة ثم حلق لحيته و شاربه. فقالوا عن الوالى: قضيت بسنة و حكمت عدلا و لم ترث الحكومة من بعيد و ابراهيم بن هشام خال الخليفة هشام بن عبدالملك. و سأل هشام جليسه فى فاتحة القرن الثانى للهجرة عن فقهاء الأمصار. قال: من فقيه المدينة؟ قال: نافع مولى ابن‌عمر. قال: فمن فقيه أهل مكة؟ قال: عطاء بن أبى‌رباح. قال: مولى أمعربى؟ قال: مولى. قال فمن فقيه اليمن؟ قال: طاووس بن كيسان. قال: مولى أمعربى؟ قال: مولى. قال: فمن فقيه أهل اليمامة؟ قال: يحيى بن أبى‌كثير. قال: مولى أمعربى؟ قال: مولى. قال: فمن فقيه أهل الشام؟ قال: مكحول. قال: مولى أمعربى؟ قال: مولى. قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟ قال: ميمون بن مهران. قال: مولى أمعربى؟ قال: مولى. قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟ قال: الضحاك بن مزاحم. قال: مولى أمعربى؟ قال: مولى. قال: فمن فقيه أهل البصرة؟ قال: الحسن و ابن‌سيرين. قال: موليان أمعربيان؟ قال: موليان. قال: قال فمن فقيه أهل الكوفة؟ قال: ابراهيم النخعى. قال: مولى أمعربى؟ قال: عربى. قال: كادت نفسى تزهق و لا تقول واحد عربى! و من هذا التعصب للعرق و تمييز العرب ثار من عدا العرب فى خراسان (ماوراء العراق حتى وسط آسيا) و أجاء أهل خراسان ببنى‌العباس الى الخلافة بشعارين يكمل كل منهما الآخر: ۱) إعادة حكم‌الدين و تولية أهل‌البيت. ۲) مساواة الموالى و العرب. و انطبعت الدولة العباسية فى أغلب أمرها. بطابع غير عربى. يقول الجاحظ عن المائة الأولى من عمرها: «دولتهم أعجمية خراسانية، و دولة بنى‌أمية عربية أعرابية». و كان مؤسسو الدولة العباسية يشيرون الى خراسان على انها (باب الدولة). و فى خواتيم المائة الأولى، حاول الرشيد ان يستعيد مقاليد الامور من الفرس فكانت مصارع البرامكة. فلم يلبث الفرس إلا سنين حتى قتلت جيوشهم الأمين – العربى الأب و الأم – و جاءوا بالمأمون الى عرش الخلافة و أمه خراسانية. و شهدت المائة الثانية من عمر الدولة دولا قادمة من خراسان تستقل بممالكها أو تحكم الدولة العباسية كلها: بنى‌سامان (۳۸۹ – ۲۶۱) يحكمون فى الشرق من خراسان فى (۲۴۸) و الدولة الصفارية فى عهد المعتز (۲۵۲) ثم بنى‌بويه (۴۲۳ – ۳۲۴) يحكمون فارس و الرى و اصفهان و الجبل. و لم تنشأ دولة عربية إلا فى الموصل و دياربكر و ربيعة، و هى دولة بنى‌حمدان (۳۵۸ – ۳۱۷).

[۱۱۶] يراجع شرح القسم القضائى من هذا العهد فى كتابنا (المنهج العلمى المعاصر مستمد من القرآن (۱۶۰ – ۱۴۵).

[۱۱۷] و لما عهد لمحمد بن أبى‌بكر كان مما جاء فى عهده له قوله: «اعلم يا محمد بن أبى‌بكر أنى قد وليتك أعظم أجنادى فى نفسى، أهل مصر، و أنتم يا أهل مصر فليصدق قولكم فعلكم و سركم علانيتكم، و لا تخالف ألسنتكم قلوبكم».

[۱۱۸] فأما حق الله الأكبر عليك فأن تعبده و لا تشرك به شيئا. فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا و الآخرة... و أما حق نفسك عليك... و أما حق اللسان و أما حق السمع... و أما حق بصرك... و أما حق رجليك... و أما حق يدك... و أما حق بطنك... و أما حق فرجك... ثم حقوق الأفعال: و حق الصلاة... و حق الحج... و أما حق الصوم... و أما حق الصدقة... و أما حق الهدى - ثم حق الأئمة... فأما حق سائسك بالسلطان... و أما حق سائسك بالعلم... و أما حق سائسك بالملك. ثم حقوق الرعية... فأما حقوق رعيتك بالسلطان... و العلم... بملك النكاح... بملك اليمين. و أما حق الرحم... و أما حق أمتك... و أما حق ولدك... و أما حق أخيك... و أما حق المنعم عليك... و أما حق مولاك الجارية نعمته عليك... و أما حق ذى المعروف عليك... و أما حق المؤذن... و أما حق إمامك فى الصلواتك... و أما حق الجليس... و أما حق الجار... و أما حق الصاحب... و أما حق الشريك... و أما حق المال... و أما حق الغريم المطالب لك... و أما حق الخليط و أما حق الخصم المدعى عليك... و أما حق المستنصح... و أما حق الناصح... و أما حق الكبير... و أما حق الصغير... و أما حق السائل... و أما حق المسؤول... و أما حق من سرك الله به و على يديه... و أما حق من ساءك القضاء عليه... و أما حق أهل ملتك عامة و أما حق... و أما حق...

[۱۱۹] لما فتح هولاكو بغداد استفتى العلماء؛ أيهما أفضل: السلطان الكافر العادل أو السلطان المسلم الجائر؟ فجمعوا لذلك بالمدرسة المستنصرية. و كان على بن طاوس حاضرا، و هو المقدم المحترم. فتناول الفتيا و وضع خطه عليها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر. و وضع العلماء خطوطهم على ذلك.

[۱۲۰] اضافه النبى إلى أهل‌البيت فصلا من النبى فى تنازع المهاجرين و الأنصار عليه إذ كان كل من الفريقين يريده واحدا منهم. و كان سلمان فى انتسابه لأهل‌البيت حيث أراد صاحبه صلى الله عليه و آله و سلم. فهو صاحب الرأى بحفر الخندق فى يوم غزوة (الأحزاب) و على هو الذى قتل عمرو بن عبدود فارس العرب يوم ذاك - فلآل البيت فى هذه المعركة القدح المعلى. و كان حكيما. إذا خلا به رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لم يبغ أحدا غيره. عينه عمر أميرا على المدائن عاصمة فارس، فكان يوزع عطاءه على الناس (خمسة آلاف درهم)، و يعمل الخوص بيده، و يبيعه بثلاثة دراهم، ينفق واحدا و يتصدق بواحد، و يشترى خوصا جديدا بواحد. و ذات يوم دخلوا عليه دار الإمارة فوجدوه يعجن بيده. قال: بعثنا الخادم فى عمل فكرهنا أن نجمع عليه عملين. رآه رجل قادما من الشام فحسبه من ضخامة جسمه حمالا، فأعطاه حملا و قال اتبعنى. فحمله و تبعه. و رآه الناس فتسارعوا يحملون حمل الأمير قال: لا... فرجا الرجل، إذ أدرك مقامه، فأبى و قال: لا حتى أبلغ منزلك. وثمة وضع الحمل فى مكانه و قال: «انى احتسبت بما صنعت خصالا ثلاثة: انى نفيت عنى الكبر، و أعنت رجلا من المسلمين على حاجته، و إن لم تسخرنى سخرت من هو أضعف منى فوقيته بنفسى». فهو يحمل الحمل عن رجل ضعيف. و لا يخزى صاحب الحمل بتعريف نفسه. و ينفى عنهما الكبر و هو أمير فارس! لكنه يحفظ وصية صاحبه صلى الله عليه و آله و سلم فيقول: «أوصانى خليلى ألا يكون متاعى من الدنيا إلاكزاد الركب». و حسبه قول أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) عنه: «من لكم بمثل لقمان الحكيم».

[۱۲۱] أطلقت الأوصاف من كثير من الحرف على عظماء الفقهاء الذين يحترفونها (الخصاف - القدورى - الكرابيس - القفال - الصابونى - الحلوانى - النعالى - البقالى - الصفار - الجصاص - التبان... الخ) - و قد عمل أئمة أهل السنة الأربعة، و عمل الصحابة التابعون. و من علماء الشيعة؛ نصر بن مزاحم (مؤلف كتاب صفين)، و داود بن أبى‌يزيد، و داود بن سرحان: كانوا عطارين. و ميثم التمار يبيع التمر، و مؤمن الطاق، و خالد بن سعيد، و محمد بن خالد، و صبيح بن أبى‌الصباح كانوا صيارفة. و الشيخ آدم كان يبيع اللؤلؤ، و رفاعة بن موسى كان نحاسا، و ابن‌حدير كان طحانا، و عبدالله بن ميمون كان قداحا (يبرى القداح).

[۱۲۲] قتله داود بن على - أمير المدينة لأبى جعفر المنصور - و صادر ما تحت يديه، من أموال كانت أموال الإمام الصادق، فى نوبة من نوبات البطش التى اجتاحت المدينة و أهل‌البيت، بتهمة أنه لم يدل (داود) على اثنين من العلويين كان يبحث عنهما - و قصد الإمام إلى دار الإمارة يصيح فى وجه داود بل يتهدده «قتلت مولاى و أخذت مالى. أما علمت أن الرجل لا ينام على الحرب»؟ فتنصل

داود من المسؤولية و أمر بقتل القاتل فصاح هذا الأخير «يأمروننى بقتل الناس فإذا أمرت بقتلهم قتلونى!».

[۱۲۳] قارن هذا المجتمع الإسلامى الذى يقول فقهاؤه: «ما المعطى عن سعة بأفضل من الآخذ لو كان محتاجا» بالمجتمع الإنجليزى الذى جاء بعد ذلك بقرون سبعة فى عصر الملكة اليزابيث (۱۶۰۳ - ۱۵۵۸) و فيه صدرت قوانين بإعدام المتسولين و أعدم بها المئات.

[۱۲۴] روى المسعودى فى مروج الذهب حادث أبى‌ذر و كعب الأحبار فى مجلس الخليفة عثمان بن عفان. قال: إن أباذر كان فى مجلس الخليفة حين (أتى بتركة عبدالرحمن ابن‌عوف فنضت البدر حتى حالت بين عثمان و الرجل القائم. فقال عثمان إنى لأرجو لعبدالرحمن خيرا لأنه كان يتصدق و يقرى الضيف و ترك ما ترون. و قال كعب الأحبار: صدقت يا أميرالمؤمنين... فشال أبوذر العصا و ضرب بها رأس كعب. و قال: يابن اليهودى تقول لرجل مات و ترك هذا المال ان الله أعطاه خير الدنيا و خير الآخرة، و تقطع على الله عهدا بذلك! و أنا سمعت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول: «ما يسرنى و أدع ما يزن قيراطا»... و قال عثمان لأبى‌ذر: وار عنى وجهك.

[۱۲۵] الأئمة الإثنا عشر ۱ - على (اميرالمؤمنين) ۲ - الحسن المجتبى، ۵۰ ۳ - الحسين الشهيد، ۶۱ ۴ - على زين‌العابدين، ۹۴ ۵ - محمد الباقر، ۱۱۴ ۶ - جعفر الصادق، ۱۴۸ ۷ - موسى الكاظم ، ۱۸۳ ۸ - على الرضا، ۲۰۲ ۹ - محمد الجواد، ۲۲۰ ۱۰ - على الهادى، ۲۵۴ ۱۱ - الحسن العسكرى، ۲۶۰ ۱۲ - محمد المنتظر المهدى. ولد بسامر سنة ۲۵۶ و اختفى بعد سنة، ۲۶۰.

[۱۲۶] من الفرق المغالية - العميرية (أصحاب عمير بن بيان العجلى) عبدوا جعفر الصادق، فتبرأ منهم. وصلبه يزيد بن هبيرة والى بنى‌أمية سنة ۱۲۸. و منها أتباع أبى‌الخطاب الأسدى (محمد ابن أبى‌زينب) - زعيم الخطابية - زعم أن جعفرا إله فتبرأ منه الإمام، فادعى الألوهية لنفسه. و حاربه المنصور و أسره و صلبه فى الكوفة - و منها البزيغية (أصحاب بزيغ بن موسى) عبدوا جعفر الصادق، (و المعمرية) أصحاب (معمر بن الخيثم) - الخياط بالكوفة، و هم فرقة من الخطابية يقولون إن النور خرج من جعفر و دخل فى ابى‌الخطاب فصار جعفر ملاكا و أبوالخطاب إلها. و (المفضلية) أصحاب المفضل بن عمر الصيرفى (۱۷۰) يقولون بإمامة معمر و ألوهية جعفر. (و السرية) أصحاب السرى بن منصور (۲۰۰) يقولون إن السرى رسول جعفر، و جعفر هو الله، و السلام و الإسلام. و كانوا فى الحج يقولون: لبيك يا جعفر لبيك. و يقول ابن‌النديم فى الفهرست إن أتباع أبى‌الخطاب أظهرتهم الفرقة الميمونية - أى الاسماعيلية - و يقول النوبختى (۳۱۰) عن أتباع أبى‌الخطاب: «خرج من قال بمقالته من أهل الكوفة و غيرهم إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر فدخلوا فى فرقته و سمى أتباع محمد بن اسماعيل (اسماعيلية)».

[۱۲۷] أتى «العمرى» مالكا فقال له: يا أباعبدالله. بايعنى أهل الحرمين، و أنت ترى سيرة أبى‌جعفر فما ترى؟ فقال له مالك: أتدرى ما الذى منع عمر بن عبدالعزيز أن يولى رجلا صالحا؟ قال: لا أدرى. قال مالك: لكنى أنا أدرى؛ إنما كانت البيعة ليزيد (بن عبدالملك) بعده، فخاف عمر إن ولى رجلا صالحا أن لا يكون ليزيد بد من القيام، فتقوم هجمة و يفسد ما لا يصلح....

[۱۲۸] و فى سنة ۲۱۱ أمر المأمون فنودى «برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير و فضله على أحد من الصحابة» كما أمر بتفضيل الإمام على عليه‌السلام، و أنه أفضل الناس بعد رسول الله، و أوصى أخاه المعتصم بقوله «و هؤلاء بنو عمك من ولد أميرالمؤمنين على... فأحسن صحبتهم، و تجاوز عن مسيئهم، و أقبل من محسنهم... و صلاتهم فلا تغفلها فى كل سنة عند محلها: فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى».

[۱۲۹] خلفاء الدولة الفاطمية: عبيدالله المهدى - مؤسس الدولة - ۳۲۲ - المنصور ۳۴۱ - المعز لدين الله ۳۶۵ - العزيز بالله ۳۸۶ - الحاكم بأمر الله ۴۱۲ - الظاهر ۴۲۷ - المستنصر (۴۸۷ - ۴۲۷) ثم تعاقب: الآمر، و الحافظ، فالظاهر، و الفائز، و العاضد؛ و هو الذى أنهى صلاح الدين الدولة الفاطمية بخلعه سنة ۵۶۷. و بسط الفاطميون سلطانهم على افريقية من المحيط الأطلسى حتى قناة السويس و الشام. و كانت لهم السلطة فى اليمن. ولو لا هزيمة جيوشهم أمام الأتراك بقيادة طغرل بك سنة ۴۵۱ لبلغوا جبال الهمالايا. و إنما أبقى الأتراك الخلفاء العباسيين لمقاومة الفاطميين. ففى ذى القعدة سنة ۴۵۰، دخل البساسيرى على رأس إمدادات عسكرية من مصر

و خطب فی جامع المنصور للخلیفة الفاطمی (المستنصر) أربعین جمعة - و أرسلت عمامة الخلیفة العباسی (القائم) إلی القاهرة فبقیت بها أکثر من قرن. و کسر الفاتحون منبر المسجد الجامع، و هم یقولون: «هذا منبر نحس أعلن علیه بغض آل محمد». و لما وردت إلی مصر الأخبار بذلک غنی المغنون أمام المستنصر غناء هو فی صمیمه اعلان «بعدالة التاریخ»: یا بنی‌العباس ردوا ملک الأمر معد (اسم المستنصر) ملککم ملک معار و العواری تسترد و بالنفوذ الفاطمی تقوی الشیعة الإمامیة فی العراق و فارس، و تقوی الاسماعیلیة فی فارس.

[۱۳۰] و کان الخلیفتان (المعز و العزیز) یعقدان مجالس للمناظرة بین المسیحین و المسلمین. و من التسامح أذنت الدولة بأعیاد الغطاس و رأس السنة و النیروز و سائر أعیاد النصاری.

[۱۳۱] من تلامیذ المدرسة النظامیة: السعدی شاعر الفرس الکبیر، و عماد الدین الأصفهانی، و بهاءالدین بن شداد - عاملا صلاح‌الدین - و ابن‌تومرت مؤسس دولة الموحدین فی أفریقیة، و أبواسحق الشیرازی أول أشیاخها. و من أشیاخ المدرسة و تلامیذها الغزالی صاحب الکتاب الشهیر فی فضائح «الباطنیة».

[۱۳۲] أصهر الخلیفة المستنصر (۴۸۷ - ۴۲۷) إلی قائده الأرمنی الأصل بدر الجمالی. و لما مات المستنصر کان ولی عهده ابنه «نزار» فولی بدر مکانه ابن‌أخته «المستعلی» و حبس نزارا ثم قتله، فأصبحت الشیعة فی مصر مستعلیة. و منها اسماعیلیة الیمن و بعض بلاد الشام. و من اسماعیلیة الیمن ذهب الدعاة إلی الهند فقامت الاسماعیلیة البهرة (و البهرة معناها تاجر) - و أصبح الاسماعیلیة فی الهند و إیران و الشام نزاریة. و للاسماعیلیة مرکز عظیم فی بومبای - و هم یدافعون عن الإسلام حیثما یکونون... یرون الإمامة سبعیة تتم بالإمام السابع، و هو إسماعیل. ثم تبدأ دورة جدیدة أئمتها مستورون. و من الاستتار لم یعرف بالضبط کثیر من أمورهم. و اتسمت دعایتهم بالسریة مع دقة تنظیمها.

[۱۳۳] و هم یجعلون للأئمة صفات «باطنیة» غیر بشریة لا یعرفها الشیعة الآخرون، و تؤخذ علیهم أشعار الشعراء المشهورین منهم مثل ابن‌هانی الأندلسی الذی یقول للخلیفة الفاطمی: ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحکم فأنت الواحد القهار! و الأخفش یقول للخلیفة الآمر: بشر فی العین إلا أنه عن طریق العقل نور و هدی جل أن تدرکه أعیننا و تعالی أن تراه جسدا و قول شاعر آخر: هذا أمیرالمؤمنین بمجلس أبصرت فیه العقل و التنزیلا و إذا تمثل راکبا فی مجلس عاینت تحت رکابه جبریلا! و الأمیر تمیم بن معد یمدح أخاه الخلیفة العزیز بالله فیقول: مضی من العلة الأولی التی سبقت خلق الهیلوی و بسط الأرض و المطر.

[۱۳۴] سبق الفاطمیین بمصر (۵۶۷ - ۳۵۸) الإخشیدیون. و کانوا ینشرون التسامح الدینی فیها. و قد خصص المقریزی فصلین للکنائس و الأدیرة و حسن التفاهم بین المسلمین و المسیحیین، و بخاصة فی الدولة الفاطمیة. و لم یعکر صفو هذا التفاهم إلا أیام الحاکم بأمر الله. ثم جاء الظاهر - (۴۲۷ - ۴۱۱) فالمستنصر (۴۶۷ - ۴۲۷) یعاقب قائده بالقتل لقیامه باضطهاد المسیحیین. و کان أسقف الأشمونین ساویرس یجادل الفقهاء، المسلمین، فی أمور الدین. و تولی الخلیفة الآمر (من سنة ۴۸۵ حتی سنة ۵۲۵) و کان یزور الأدیرة و یصادق الرهبان. و من خواص کتابه (أبونجاح) و هو مسیحی. و فی هذا الجو، ظهر نوابغ المسیحیین ابتداء من ساویرس بن المقفع (۳۲۸) و هو مؤلف کتاب الرد علی الیهود و المعتزلة. و رسالة عن التثلیث. و أخری فی الرد علی النساطرة. و شرح الإنجیل و تاریخ المجامع الکنسیة. و فی القرن السادس ظهر أولاد العسال الثلاثة: أبوالفرج و الصفی و أبواسحق. و ظهر المکین جرجس المتوفی سنة ۶۷۲. و قدیما اصطنع عمر بن الخطاب الکتاب من سبی قیساریة. و استعمل أبوموسی الأشعری کاتبا نصرانیا. و کان بنوأمیة یستعملون ابن أثال الطبیب النصرانی و یضعون عنه الجزیة.

[۱۳۵] یراجع کتاب (المنهج العلمی المعاصر مستمد من القرآن) للمؤلف طبعة دار الاتحاد العربی بالقاهرة ۱۹۷۶.

[۱۳۶] کان فرسان المعبد Templars: Knights of the Temple جنودا محاربین علی میمنة الجیوش الصلیبیة فی کل الحروب. و کان علی میسرتها الفرسان الإسبتالیة Hospitalars و کلا التنظیمین تنظیم رهبان متقشفین لا یتزوجون. و الأولون

عملهم حربی محض ضد المسلمین. و ما تزال کنیسة المعبد فی لندن Temple Church شاهدة بعمل فرسان المعبد. و فیالق التبشیر، منذئذ، تفد علینا من دول أوربا و امریکا، مستعملة کل الأسلحة، مالیة أو علمیة أو طبیة أو اجتماعیة أو سیاسیة. و کثیرا ما عملت فی خدمة الجیوش المحاربة أو عملت الجیوش فی خدمتها. أما العالم الشیوعی فیصدر إلی الشرق و الغرب أفکار الملحدین. [۱۳۷] للبحث عن الحریة الدینیة، وصلت السفینة زهرة الربیع Mayflower براکبیها فی ۲۱ دیسمبر سنة ۱۶۲۰ إلی شواطئ أمریکا لینشئوا مستعمرة (انجلترا الجدیدة) و یطلق علیهم (الآباء الحجاج). و أعقبهم طلاب «حریة دینیة» آخرون بلغوا فی السنوات العشر من سنة ۱۶۳۰ إلی ۱۶۴۰ عشرین ألفا. و هؤلاء نواة الولایات المتحدة الأمریکیة. أما دول أمریکا الجنوبیة فنواتها الاسبان و البر تغالیون... الذین صنعوا بالمسلمین ما صنعوا فی القرنین الخامس عشر و السادس عشر للمیلاد.

ظهور الاسلام

اشاره

«لأعطین الرایة غدا رجلا یحب الله و رسوله و یحبه الله و رسوله لیس بفرار. یفتح الله عزوجل علی یدیه» «حدیث شریف» [صفحه ۱۹] الإمام جعفر الصادق نتاج قرن کامل من العظائم یحنی لها الوجود البشری هاماته، ویدین بحضاراته. علی رأسها نبی الإسلام علیه الصلاة و السلام. و فیها بطولات الإمام علی إلی جوار النبی، و أثرها فی انتصار الإسلام، و مشارکته إبان خلافة الخلفاء الراشدین الثلاثة الذین سبقوه. و آیات نبوغه تفوقه فی السیاسة و الإدراة و القضاء و الفقه و التشریع و البیان العربی و العلم بوجه عام، و إجلال جمیع المسلمین لمکانته و التفاف شیعته حوله و تفضیلهم له علی سائر الخلفاء الراشدین. ثم قیام الفتنة فی أخریات خلافة عثمان و مصرعه و بیعة المسلمین لعلی (علیه‌السلام)، و تمرد معاویة فی الشام، و اشتعال الحرب بین أمیرالمؤمنین و بین جیش معاویة، و حرکة الخوارج و اغتیال علی (علیه‌السلام)، و البیعة لابنه الحسن. ثم اضطرار الحسن للصلح مع معاویة حقنا للدماء، و استتباب الأمور للأخیر نحو عشرین عاما. و لما آلت الأمور إلی ابنه یزید استفتح حکمه بمذبحة کربلاء، حیث استشهد الحسین بن علی (علیهماالسلام) أبوالشهداء. و أعقبتها مذبحة الحرة، و مقتل المئات من الصحابة و التابعین، ثم ضربت جیوشه الکعبة بالمنجنیق و مات و جیوشه تقصف الکعبة. فتولی بعده ابنه معاویة، فتنازل عن الخلافة. فانتهز مروان بن الحکم الفرصة للسیطرة علی مقالید الخلافة و تتابع بعده بنوه. أما أبناء الحسین فانصرفوا الی حمل هموم المسلمین و إعلاء کلمة الدین و القیام فی الامة مقام جدهم الإمام «علی بن أبی‌طالب» و النهوض بتبعات الإمامة بتوفیق الله سبحانه من: علی بن الحسین (زین‌العابدین) إلی ابنه الإمام (الباقر) إلی حفیده الإمام (الصادق). و الإشارات السریعة إلی کل أولئک، ولو باختصار، هو موضوع الفصلین الأول و الثانی فی هذا الباب، و فیهما مدخل الکتاب. [صفحه ۲۳]

اخو النبی

اشاره

«أنت أخی و صاحبی» «حدیث شریف» أول من آمن بالله و رسوله أم‌المؤمنین خدیجة بنت خویلد، و علی بن أبی‌طالب. و اختلفوا فی سن علی یومئذ. قال ابن‌إسحق إن علیا أول من آمن بالله و صدق رسول الله، و هو ابن‌عشر سنین یومئذ. و روی ابن‌إسحق کیف اسلم علی بن أبی‌طالب (علیه‌السلام)، بعد إسلام خدیجة و صلاتها مع النبی بیوم واحد. إذ جاء فوجدهما یصلیان. فقال علی: یا محمد ما هذا؟ فقال رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم): «دین الله الذی اصطفی لنفسه و بعث به رسله. فأدعوک الی عبادة الله و کفر باللات و العزی». فقال علی: هذا أمر لم أسمع به قبل الیوم. فلست بقاض أمرا حتی أحدث أباطالب. فکره رسول (صلی الله علیه و آله و سلم)

أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره. فقال له: «يا على إن لم تسلم فاكتم». فمكث على تلك الليلة. ثم إن الله أوقع فى قلبه الإسلام. فأصبح غاديا إلى رسول الله حتى جاءه فقال: ماذا عرضت على يا محمد؟ فقال «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. و تكفر باللات و العزى، و تبرأ من الأنداد». ففعل على و أسلم. و كان مما أنعم الله به على على أنه ربى فى حجر رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قبل الإسلام. و من رسول الله و خديجة - أول مسلمين - ولدت فاطمة الزهراء. و من أبنائها و من أبناء على و أبى‌بكر، أى من أبناء نبى الإسلام، و المسلمين الثلاثة الأولين، ولد جعفر بن محمد (الإمام الصادق). فعلى بن أبى‌طالب يجىء دائما فى صدارة أهل الإسلام. [صفحه ۲۴] و أبوه و أمه فى الصدارة كذلك: لقد كفل أبوه محمدا (صلى الله عليه و آله و سلم) و هو ابن‌ثمانى سنين. و خرج به إلى الشام و هو ابن‌اثنتى عشرة. و هو الذى مثله فى الزواج من أم‌المؤمنين خديجة. و لما ماتت فاطمة بنت أسد (أم‌على) نزل النبى فى لحدها و ألبسها قميصه - صلى الله عليه و آله و سلم - و قال «لم يكن أحد أبربى بعد أبى‌طالب منها». و جزى النبى صنيعهما فى على، إذ كفله و هو ابن ست سنين، ثم جعله سابقا فى الإسلام. فلما كان النبى يعبد الله فى غار حراء كان على يعبد الله و هو صبى مميز. ثم بسق الفرع و سمق فى جوار أخيه [۱] و مربيه و على عين أبيه. و فى سنة سبع من البعثة تآمرت قريش على قتل الرسول. و أبى‌قومه بنو هاشم. و ظاهرهم بنو عمهم «المطلب بن عبد مناف». فأجمع المشركون من قريش على إخراجهم من مكة إلى «الشعب». فخرجوا؛ مؤمنهم و كافرهم. فلما عرفت قريش أن رسول الله قد منعه قومه اجمعت ألا- تدخل إليهم شيئا، و فرضت عليهم حصارا اقتصاديا قاسيا مدة ثلاث سنين. و كان «أبوطالب» يأمر رسول الله أن يأتى فراشه كل ليلة، حتى يراه من أراد به شرا، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى‌عمه، فاضطجع على فراش الرسول، و أمره أن يرقد على بعض فرشهم فيرقد عليها. حتى إذا أكملوا ثلاث سنين أخبر الله رسوله أن العهد الذى تعاهدته قريش فى صحيفة علقوها بالكعبة قد أكلته الأرضة. فخرجوا من الشعب إلى قريش. و أنبأ أبوطالب قريشا أن الصحيفة قد أكلت، كما أخبره ابن‌أخيه، و أنبأهم أنه و أهله سيحمونه عن آخرهم. و ذات يوم سأل النبى قومه: أيكم يوالينى فى الدنيا و الآخرة؟ - و على جالس - فسكتوا. و قال على: أنا أو اليك فى الدنيا و الآخرة. فكانت هذه أول موالاة من النبى لعلى. [صفحه ۲۵] و لما حضرت الوفاة أباطالب فى السنة العاشرة من المبعث عن بضع و ثمانين، جمع إليه وجوه قريش فقال بين ما قال «... و إنى أوصيكم بمحمد فإنه الأمين فى قريش، و الصديق للعرب. و هو الجامع لكل ما وصيتكم به... يا معشر قريش كونوا له ولاة...». و النبى يقول «ما زالت قريش كاعة حتى مات عمى أبوطالب». و ماتت خديجة بعد أبى‌طالب بأيام أو أشهر أو أكثر. و أذن الله للرسول فى الهجرة إلى المدينة. و كان قد أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة. و لم يبق فيها إلى جواره إلا أبابكر و عليا. و الأول هو الصاحب و الثانى هو «الفدائى الأول». فلقد رأت قريش ذلك فأجمعت على قتل النبى فبيتوه و رصدوه طول ليلهم ليقتلوه إذا خرج. فأمر عليا أن ينام فى فراشه. و دعا ربه أن يعمى على قريش أثره، و خرج و قد غشى المتآمرين النوم. و كان «الفدائى الأول» قد شارف العشرين من العمر. استبقاه الرسول لأمر يتعلق بحياة الرسول، ليضحى من أجله بحياته. وسلمت الحياتان، لأن الأولى حياة الإسلام، و لأن الثانية سوف تفديها و تحرسها مرة إثر أخرى.

اخو النبى

أقام على بمكة أياما ليرد فيها ودائع كانت عند الرسول، ثم لحق به فى المدينة. فنزل معه بقباء، حيث أقام رسول الله مسجدها، ثم خرج إلى دور أخواله من بنى النجار فأقام بها أشهرا بنى فيها مسجده، و آخى بين تسعين من المهاجرين و الأنصار على الحق و المساواة و التوارث ، حتى نزل قوله تعالى «و أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض». أما «أبوبكر» فآخى بينه و بين خارجة بن زيد. و أما «عمر» فآخى بينه و بين عتبان بن مالك. و أما «عثمان» فآخى بينه و بين أوس بن ثابت (أخى حسان). أما «على» فآخى بينه و بين نفسه (صلى الله عليه و آله و سلم). و خاطبه ذات مرة قائلا- «أنت أخى و صاحبى». و فى ذلك رواية ابن‌عباس أن عليا كان يقول «و الله إنى لأخو رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و وليه». و هذه هى المؤاخاة الثانية. فالأولى كانت بمكة. [صفحه ۲۶] ثم خرج المسلمون ليوم

«بدر»، فدفع رسول الله الرايهٔ إلى على، و رايهٔ أخرى لرجل من الأنصار. فهذه أولى معارك الإسلام و كبراها. و كان لعلى دور البطولهٔ فى هذه المعركهٔ الحاسمهٔ. ثم قدم الرسول فلذهٔ كبده «لبطل بدر»، فبنى بفاطمهٔ الزهراء و هى فى الثامنهٔ عشرهٔ [۲] . روى ابن الأثير فى أسد الغابهٔ «أخبرنا... عن الحارث عن على فقال: خطب أبوبكر و عمر - يعنى فاطمهٔ - إلى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم). فأبى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عليهما. فقال عمر: أنت لها يا على. فقلت: مالى من شىء إلا درعى أرهنها. فزوجه رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فاطمهٔ. فلما بلغ ذلك فاطمهٔ بكت. قال: فدخل عليها رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: «ما لك تبكين يا فاطمهٔ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما و أفضلهم خلقا و أولهم سلما». أما العلم و الحلم و السلم فهى التى احتاج فيها على - و هو فى فتاء السن - إلى الشهادهٔ بها من النبى لدى زهراء النبى. و أما ميادين الوغى فقد شهدت له فيها رايات «بدر»، و ستشهد له فيها الرايات الأخر: فى يوم أحد - أخطر معارك الإسلام - كان على فى الحرس، إلى جوار النبى، حين أصيب النبى فى المعركهٔ. و كان طبيعيا أن يصاب على بستهٔ عشر ضربهٔ، كل ضربهٔ تلزمه الأرض. و كما يقول سعيد بن المسيب سيد التابعين «فما كان يرفعه إلا جبريل (عليه‌السلام)» فلما اشتد الخطب، و قتل حامل الرايهٔ - مصعب بن عمير - دفع الرسول الرايهٔ لعلى.... [صفحه ۲۷] و فى يوم الخندق أزفت الآزفهٔ عندما تمكن المشركون من اقتحام الخندق. فاعترضهم على بن أبى‌طالب فى نفر من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرهٔ التى اقتحموا منها. و كان عمرو بن عبدود - فارس العرب - يريد أن يعرف مكانه يوم الخندق، فنادى من فوق الخيل: هل من مبارز؟ فبرز له على. قال له عمرو: ما أحب أن أقتلك لما بينى و بين أبيك. و أصر على و نزل عمرو عن فرسه. و ما أسرع ان قتله على. وفر الآخرون مذعورين. و فى غزوهٔ بنى قريظهٔ كانت له رايهٔ المسلمين. و فى صلح الحديبيهٔ كان «محرر» صحيفهٔ الصلح على بن أبى‌طالب، يملى عليه رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)! فذلك كان أيمن صلح عرفه التاريخ البشرى. فلقد اصبح الذين أسلموا بعده و قبل فتح مكهٔ، اكثر ممن أسلموا قبله. و به حفظت دماء الذين بايعوا تحت الشجرهٔ، ليظهر الإسلام على أعدائه و ييسر فتح مكهٔ. و فى غزوهٔ خيبر، قال عليه الصلاهٔ والسلام: «لأعطين الرايهٔ غدا رجلا يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله. ليس بفرار. يفتح الله عزوجل على يديه». و لما اصبح دعا عليا و قال: «خذ الرايهٔ و امض حتى يفتح الله عليك». و حمى الوطيس. و سقط ترس على. فتناول بابا و ترس به. و لم يزل يقاتل حتى فتح الله عليه. و حمى الله فضائل الإسلام على يد على. فلم يره أحد فى موقف المنكسر. و لما استشهد فى دفاعه عن هذه الفضائل، كان الإسلام ينتصر. و فى يوم حنين أعجبت المسلمين كثرتهم، فكادوا ينهزمون. و ثبت الرسول. و قتل على صاحب رايهٔ المشركين و انتزعها منه، و كر المسلمون عليهم فهزموهم بإذن الله. و لما قتل خالد بنى خزيمهٔ خطأ و سباهم - و هم مسلمون - بعث الرسول عليا فوداهم و رد إليهم أموالهم و قال لهم: انظروا إن فقدتم عقالا لأدينه. فبهذا أمرنى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم). و فى السنهٔ التاسعهٔ خرج رسول الله إلى تبوك. و استعمل عليا على المدينهٔ. فسأل [صفحه ۲۸] على النبى فى ذلك. فأجابه «إنما خلفتك لما تركت ورائى. فارجع فاخلفنى فى أهلى، و أهلك، فأنت منى بمنزلهٔ هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى...» فكان تخليفه عن هذه الغزوهٔ تقديما له، إذ وضعه موضع هارون من «موسى» (عليه‌السلام). أى فى منزلهٔ أخ الرسول من الرسول. و تتابع التقديم، إذ نزلت عشر آيات من صدر سورهٔ «براءهٔ» من عهد كل مشرك لم يسلم أن يدخل المسجد الحرام بعد هذا العام. فقالوا للرسول: ابعث بها إلى ابى‌بكر. - و كان على الناس فى حج البيت الحرام - فقال عليه الصلاهٔ و السلام «لا يؤديها عنى إلا رجل من أهل بيتى» و بعث عليا على ناقته (صلى الله عليه و آله و سلم) فأدرك أبابكر فى الطريق. و فى كتب السنن أن النبى بعد عودته من حجهٔ الوداع نزل بغدير خم و أعلن أنه يترك القرآن و «عترته» للمسلمين ثم أخذ بيد على و دعا ربه «اللهم وال من والاه و عاد من عاداه». و لما بعث النبى عليه الصلاهٔ و السلام عليا إلى اليمن قال على «يا رسول الله تبعثنى إلى اليمن و يسألوننى عن القضاء و لا علم لى به». فضرب النبى بيده على صدره ثم قال «اللهم ثبت لسانه و اهد قلبه» قال على «فو الذى فلق الحبهٔ وبرأ النسمهٔ ما شككت فى قضاء بين اثنين بعد». و هى خصيصهٔ يدرك جلال اليقين فيها من ولى القضاء.

بين الخلفاء الراشدين

صعدت روح رسول الله إلى الرفيق الأعلى و على بطل جيوشه غير منازع. و كان قد دربه على القضاء و الإفتاء. فهاتان الوظيفتان هما أسمى عمل فى الدول. و بخاصة فى الدولة المسلمة، حيث الحفاظ على الشريعة و إدارة الدول و سياسة الأمم و استقرار النظم و اطمئنان الجماعة واجبات دينية. و الإفتاء يعدل التشريع فى أيامنا هذه. و القضاء هو توزيع العدالة، و العدل صفة الله سبحانه. لقد بعثه إلى اليمن. فقضى. و له قضاء مشهور عرض على النبى فاستحسنه. و له [صفحه ۲۹] السؤال المشهور يومذاك إذ سأل: أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى ما لا يراه الغائب؟ فأجابه عليه الصلاة و السلام «بل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب». فدل بذلك على تفويضه فى أن يجتهد، و أن يعمل بمقاصد الشريعة... و كان أيامئذ فى عنفوان شبابه. فلم يفارقه الاجتهاد العظيم للأمة فى كل مناسبة تقتضى الاجتهاد. و بالتربية النبوية فى القضاء و الإفتاء نفذ على إلى صميم الفكر التشريعى فى الأمة، أى صميم شريعة الإسلام. فاحتاج أبوبكر و عمر إليه فى جوارهما ليشير عليهما، و يقضى، و يفتى. أما فتاواه التشريعية فستبقى مثلا أعلى للفكر الإسلامى فى سياسة الدولة و سياسة الناس. إذا اشتهر عمر بأنه المجتهد الأكبر من كثرة ما واجه من ظروف طارئة على الدولة المنتصرة فى الشرق و الغرب، و من طول ما حكم و هو خليفة، و اتساع ما فتح من الفتوح، و اختلاف من أسلم من أهل البلاد المفتوحة، فعلى كان يصحح الكثير من اجتهاداته. - منع عمر تدوين الحديث - مخافة أن يخلط القرآن بشىء - و بهذا أبطأ التدوين عند أهل السنة قرنا بتمامه. و انفتحت أبواب للجرح و التعديل و للوضع، و للضياع. أما على فدون من أول يوم مات فيه الرسول. و لعله إذ دون صار مرجع الصحابة بما فيهم عمر. و هذا الاتجاه العلمى للتدوين، يؤازره اتجاه دينى، و فقهى، و سياسى، و اقتصادى، لتوزيع الحقوق. - قال عمر للناس يوما: ما ترون فى فضل فضل عندنا من هذا المال (مال الصدقة)؟ قالوا: يا أميرالمؤمنين قد شغلناك عن أهلك و ضيعتك فهو لك. فالتفت إلى على و قال: ما تقول؟ قال: قد أشاروا عليك. قال عمر: قل. [صفحه ۳۰] قال على: لم تجعل يقينك ظنا؟. أتذكر حين بعثك رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ساعيا فأتيت العباس بن المطلب، فمنعك صدقته. فقلت لى: انطلق إلى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فوجدناه خاثرا. فرجعنا ثم غدونا عليه، فوجدناه طيب النفس فأخبرناه بالذى صنع. فقال لك: أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه؟ و ذكرنا الذى كان من طيب نفسه فى اليوم التالى فقال: اما انكما أتيتمانى اليوم و كان عندى من الصدقة ديناران. فكان الذى رأيتماه من خثورى له. و أتيتمانى اليوم و قد وجهتهما غدا (صباح اليوم) فذاك الذى رأيتما من طيب نفسى. - و دعا عمر امرأة فأجهضت ما فى بطنها بفزعها فاستشار فى الدية. فقال له عثمان و عبدالرحمن: لا عليك. إنما أنت مؤدب. و قال على: إن كانا قد اجتهدا فقد أخطآ. و إن لم يجتهدا فقد غشاك. أرى عليك الدية. فقال عمر: عزمت عليك ألا تبرح حتى تفرضها على بنى عدى... و هذه الفتوى تعتبر تقدما تحاول أن تبلغه الحضارة المعاصرة، و لا تكاد. - و رأى عمر ذات يوم رجلا مع امرأة على معصية، فاستشار فى أن يقضى بعلمه أم لابد من شهادة غيره؟ قال على «يأتى بأربعة شهداء أو يجلد حد القذف شأنه فى ذلك شأن سائر المسلمين». - و لما فتح المسلمون الأمصار طلب الفاتحون لأنفسهم أربعة أخماس الأراضى المفتوحة أخذا بظاهر الآية. فاستشار عمر الصحابة. فاختلفوا. لكن عليا اشار على عمر بإبقاء الأرض فى أيدى أصحابها و تكليفهم الخراج تسد من حصيلته حاجات الدفاع عن الأمة و الإنفاق على المحتاجين. و فى بقاء الأرض فى أيدى أصحابها بقاء لهم أو لمن يجيئون بعدهم، و أثر هذه الفتوى فى نشر الإسلام يذكر و يشكر. - و على صاحب الرأى الشهير بتضمين الصناع ما يتلفونه إلا أن يثبتوا أنه من عمل [صفحه ۳۱] غيرهم بعد إذ كانوا لا يضمنون لأن يدهم يد الأمين. لكن الزمان تغير فاقتضى تغير الناس التضمين. و فى ذلك قول على: لا يصلح الناس إلا ذاك. و هذا مضرب المثل على العمل بقصد الشارع من حفظ مصالح المسلمين و توخى المصلحة الإسلامية حيث تكون. - و رفعت إلى عمر قضية رجل قتلته امرأة و خليلها. فتردد هل يقتل الكثيرين بالواحد؟ قال على أرأيت لو أن نفرا اشتركوا فى سرقة جزور هذا عضوا و هذا عضوا، أكنت قاطعهم؟ قال: نعم. قال على: فكذلك. فكتب عمر إلى عامله أن: اقتلهما فوالله لو اشترك أهل صنعاء كلهم لقتلتهم. - وجىء عمر يوما بأمراة زنت و أقرت فأمر برجمها. لكن عليا قال: لعل بها عذرا. ثم سألها: ما حملك على ما فعلت؟ قالت: كان لى

خليط و فى إبله ماء و لبن. و لم يك فى إبلى ماء و لا لبن. و ظمئت و استسقيته فأبى ان يسقينى حتى أعطيه نفسى. فأبيت عليه ثلاثا. فلما ظمئت و ظننت نفسى ستخرج أعطيته الذى أراد فسقانى. قال على: «الله أكبر. فمن اضطر غير باغ و لا عاد فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم ». - لقد أمر عمر ألا يفتى أحد بالمسجد و على حاضر. فجعل القضاء وقفا عليه فى ساحة القضاء. - و كان يقول: اللهم لا تنزل بى شديدة إلا و أبوالحسن إلى جنبى [۳] . [صفحه ۳۲] بل يحيل سائليه على على (عليه‌السلام). و يجيب أذينة العبدى إذ يسأله: من اين أعتمر؟ إيت على بن أبى‌طالب فاسأله. بل يقول: لولا على لهلك عمر. - و لعلى عهده المشهور إلى الأشتر النخعى [۴] إذ ولاه مصر. فهو دستور سياسى و دينى و عالمى تتضاءل دونه كل العهود، بما فيه من شمول و تفصيل لقواعد الحكم الصالح. و إليه يرجع كل من أراد نجاحا للحكم بصلاح الدنيا و الدين. و المصريون - مسلمين و مسيحيين - يحفظون قوله فيه لواليه «و اشعر قلبك الرحمة بهم و المحبة لهم. و اللطف بهم. و لا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم. فإنهم: إما أخ لك فى الدين، أو نظير لك فى الخلق». - و على هو الذى يضبط فحوى الشرع و يرفعه إلى مقامه الحق فى تعريفه للفقيه فيقول للمسلمين «الا أنبئكم بالفقيه، حق الفقيه؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله. و لم يرخص لهم فى معاصى الله. و لم يؤمنهم من مكر الله». كان منذ شبابه الذى أنضجته أحداث النزال و الطعان فى الميدان - أعبد الناس [صفحه ۳۳] و أكثرهم فى عبادته جمعا مع الله. لا يقطع صلاته و السهام تقع بين يديه يمينا و شمالا. يربط على بطنه من الجوع فى حين يتصدق بأربعة آلاف درهم، و عليه إزار غليظ اشتراه بخمسة دراهم. أما قوته فمن دقيق الشعير، يأخذ قبضة فيضعها فى الماء فيصب عليها قدحا فيشربه... و فى يده كل مال المسلمين! و لما أصهر عمر إليه فى «أم‌كلثوم» كان يتوسل إلى الآخرة بلحمة النسب. فلقد كان يقول: «لقد أعطى على بن ابى‌طالب ثلاث خصال كل خصلة منها أحب إلى من حمر النعم: تزويجه فاطمة بنت رسول الله، (صلى الله عليه و آله و سلم). و سكناه المسجد مع رسول الله يحل فيه ما يحل له». و على «باب مدينة العلم». يقول الرسول عليه الصلاة و السلام و «أنا مدينة العلم و على بابها فمن أراد العلم فليأت بابه». و هو «إمام البلاغة». يجىء معاوية رجل من الكذبة فيقول له: جئتك من عند أعيا الناس - يقصد عليا - فيجيب معاوية، و هو أعدى الناس لعلى، «ويحك فوالله ما سن الفصاحة للناس غيره». كيف لا؟ و بلاغته من بلاغة النبى... مذ كان فكره من فكره، و كان قد رباه فأحسن تأديبه، حتى ليعيا بلغاء العرب عن فهم المعنى النبوى و يراه على بادى الرأى. شكا العباس بن مرداس للنبى قسمه من الفىء بقوله: أتجعل نهبى و نهب العبيد كنهب عيينة و الأقرع (و العبيد فرس الشاعر. و عيينة بن حصن و الأقرع بن حابس من المؤلفة قلوبهم). قال عليه الصلاة و السلام: «يا على اقطع لسانه». فأخذه على و مضى. قال العباس: أقاطع أنت لسانى يا أباالحسن؟ قال على: إنى لممض فيك ما أمر... [صفحه ۳۴] ثم مضى به إلى إبل الصدقة و قال له: خذ ما أحببت. و من «نهج‌البلاغة» يسقى بلغاء العربية و حكماء الإسلام. و من تعليمه وضع النحو العربى. [۵] و وضع النحو بتعليم على يذكر بالمكانة الخاصة لعلى فى علوم الإسلام. فالنحو العربى هو الذى حفظ العربية لغة القرآن. و هو امر أصولى للغه، كأصول الفقه. و سنرى موقفه المبدع فيها. و كذلك كانت مواقف على بعد ظهور الإسلام، و فى خلافة سابقيه، تتصدى للأساسيات فى الإسلام. لقد كان أطول الراشدين حياة فى الإسلام مما يظهر أثره عميقا، عمق الحوادث و العلوم و أثرها فى الإسلام، و طويلا لطول المدة التى حييها فى المراكز الأولى منذ [صفحه ۳۵] ظهور الإسلام. و ربما اجمل القول فى مكان على بين المسلمين قول ابن‌عباس: «لعلى أربع خصال ليست لأحد غيره: هو أول عربى أو أعجمى صلى مع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و هو الذى كان لواؤه معه يوم الزحف. و هو الذى صبر معه يوم فر غيره. و هو الذى غسله فأدخله قبره». أما عن العلم فيقول ابن‌عباس «إذا ثبت لنا الشىء عن على لم نعدل إلى غيره» و اما عن العدل فيقول ابن‌مسعود معلم الكوفة و سادس المسلمين «كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة على». من أجل هذا و كثير غيره، صح عند الشيعة أن النبى أفضى إليه بظاهر الشريعة و خافيها. و أنه أفضى بها إلى من خلفه. و على فى كثير من الأمور هو الأوحد: فالنبى هو الذى رباه و آخاه و أعده للعظائم فصنعها. و عهد إليه فى تبليغ آى القرآن... و هى جميعا «خصوصيات» لا يرقى رقيه فيها أحد. أما ما لم يشركه فيه بشر فهو ما أجمعت عليه كتب الشيعة و شاركها فيه كثيرون من علماء أهل السنة منذ القرون الأولى - كالمسعودى و الحاكم و الكنجى - حتى القرون الحديثة - كالالوسى،

و هو أن عليا ولـد بالكعبة. لقد كان الحسن و الحسين يسـميان الرسول أباهما. كما كان الرسول يسـميهما ابنيه طول حياته. و لم يناديا عليا بأنه أبوهما إلا بعد أن انتقل رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إلى الرفيق الأعلى.

الشيعة

لعلى - على ما رأينا - من فضل الله ما سـلمه الجميع له و تؤثره من جرائه الشـيعة، منـذ القرن الأول، أى جيل الصـحابة، ثم تلاحق عليه الجيلان التاليان. و هى الأجيال الثلاثـة المفضـلة بقوله (صـلى الله عليه و آله و سـلم) «خير القرون قرنى - جيلى - ثم الـذين يلونهم ثم الذين [صفحه ۳۶] يلونهم»، و توالت على تكريمه به جماعة المسـلمين إلا من ظلم. و هو موقعه الخاص من النبى و من علوم الإسلام: إذ تتفرع عنه فروع النسب من أهل البيت. و تنبع منه بحار شتى للمعرفـة تسـقى منها المذاهب كافة، و فيها المتصوفة و المعتزلة، و تفيد منهـا العلوم كافـة، و منهـا العبادات و المعاملات و الحرب و السـلم و السـياسة و الاقتصاد و الإدارة. فتطبع بطابعه العلوم الإسـلامية عند الشـيعة، و تظهر آثاره فى علوم أهل السـنة. «و الشـيعة» كلمة قرآنية: «و إن من شـيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سـليم». و التشـيع لعلى مكانة للفوز تقررت بالسـنة روى السـيوطى عن جابر بن عبدالله قال: كنا عند النبى فأقبل على فقال النبى «و الذى نفسـى بيده إن هذا و شيعته لهم الفـائزون يوم القيامـة». و عن ابن‌عبـاس قال: لما نزلت «إن الـذين آمنوا و عملوا الصالحات» قال رسول الله لعلى: «هو أنت و شيعتـك يـوم القيامـة راضـين مرضـيين». و عـن أم‌سـلمة (رض) أن النـبى صـلى الله عليـه و آله و سـلم قـال لعلى عليه‌السـلام: «أنت و اصـحابك فى الجنـة». و فى نهايـة ابن‌الأثير ما نصه فى مادة (لواقـح): و فى حديث على قال له النبى «سـتقدم على الله أنت و شـيعتك راضـين مرضـيين و يقـدم عليك عدوك غضابا مقمحين». و الزمخشـرى يروى فى ربيع الأبرار حديث النبى عن (شـيعة ولدك) و هو يتحدث إلى على. و فى مسـند ابن‌حنبل و خصائص النسائى كثير فى الدلالة على شـيعة على. و يخصـص المسـلمون «الشيعة» بأنهم هم التابعون و المقتـدون و المتميزون باتباعهم و اقتـدائهم الكامل بالامام على و الأئمـة من بنيه. و ربما كان تعريف ابن‌حزم للشـيعة جامعا مانعـا، فهو يقول «من وافق الشـيعة فى أن عليـا (أفضـل) الخلق بعـد رسول الله و (أحقهم) بالإمامـة و ولـده من بعـده، فهو شـيعى، و إن خالفهم فيما عدا ذلك فيما اختلف فيه المسـلمون. فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شـيعيا». ظهر تفضـيل الشيعة لعلى على جميع الصحابة بمجرد وفـاة النبى عليه الصـلاة و السـلام، إذ دعت إلى ذلـك دواع سياسـية. فقـد اجتمع المهاجرون و الأنصار - و على [صـفحه ۳۷] مشـغول بتجهيز رسول الله لقبره - فبايعوا أبابكر باشارة من عمر. و ثقل على بطل الإسـلام على أن يمضـى الصحابة الأمور دونه، و ثقل على الزهراء [۶] و على «شـيعة على» من صـحابة الرسول. كما رأى البعض أحقيـة على بالخلافة [۷] . و لكـن عليـا لم يلبث أن كمل اجماع المسـلمين بالبيعة، و جمل خلافة الأول بالمشاركة و المشورة، و تحمل فى خلافة الثانى أعباء فى أخطر شؤون الدولة و الدين و الناس و الخلافة. و لقد كان كله شجاعة فكر، و براعة فقه، يوم استشاره عمر فى غزو الفرس بنفسه و كرر «أخو النبى» نصحه فى بلاغة معلمـة و أسانيـد تترى. قال لعمر بين ما قال: «إن هـذا الأمر لم يكن نصـره و لا خـذلانه بكثرة و لا قلـة. و هو دين الله الـذى أظهره... و مكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه و يضـمه. فإذا انقطع النظام تفرق الخرز و ذهب ثم لم يجتمع بحـذافيره أبـدا. و العرب اليوم و إن كانوا قليلا فهم كثيرون بالإسـلام عزيزون بالاجتماع. فكن قطبا و اسـتدر الرحى بالعرب. و أصلهم دونك نار الحرب. إنك إن شـخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب [صـفحه ۳۸] من أطرافهـا و أقطارها حتى يكون ما تـدع من الفورات أهم إليك مما بين يـديك. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولون هذا أصل العرب فإن قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك و مطمعهم فيك...». فلنلاحظ هذه الخطة المتعددة الغايات بالحركة الواحدة: أن يبقى قطبا للرحى، و ان يستديرها بالعرب، و أن يجعلهم يحاربون العـدو بـدلا من الخليفة. و لنلاحظ ذلك الاحتياط فى الحرب حتى لا يجد العدو الخليفة غرضا قريبا فى متناوله يسـتميت فى إصابته. و لنلاحظ تشبيه الخليفـة بنظام العقـد الذى يمسـكه أن ينتثر. و لنلاحظ الوجازة، و النصاعة، و البلاغة «العلوية»، و مسـتواها فى لسان العرب. و لا ينال من هـذه العبقرية فى وضع الخطط، ما سيصـيبه و المسـلمين معه، يوم يسـتحبون الدعة، بعد ربع قرن عندما آلت

إليه المقاليـد، و جاء إلى الوجود جيل جديد، فعلت الفتن فيه أفاعيلها. فأتاحت لعلى بدلا من إنفاذ خططه، أن يلقى خطبه الخالدة التى تعتبر مصادر للبلاغة العربية و الحكمة السياسية و الفلسفية على مر الزمان. فتخص الامام بمقام الصدارة بين خطباء التاريخ لا يرقى إليه أحـد. عهـد ابوبكر بالخلافة لعمر. و دعـا عمر يوم دون الـديوان الأخ الأكبر لعلى، عقيل بن أبى‌طالب، و مخرمة بن نوفل و جبيرين مطعم، و قـال لهم: «أكتبوا النـاس على قـدر منازلهم» فكتبوهم مبتـدئين ببنى هاشم ثم ببنى تيم - قبيلة أبى‌بكر - ثم بنى عـدى - قبيلة عمر - فقال «وددت أنه هكذا. و لكن ابدأوا بقرابة النبى (صـلى الله عليه و آله و سـلم) الأقرب فالأقرب حتى تضـعوا عمر حيث وضـعه الله.» و يوم فضل بعض الناس فى العطاء جزاء ما قدموا للإسلام. فلما ذكر له صنيع أبى‌بكر يوم رفض التفضيل و قال «إنما أسلموا الله. و وجب أجرهم عليه. يوفيهم ذلك فى [صفحه ۳۹] الآخرة. و إنما هـذه الدنيا بلاغ» أجاب عمر «لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه..». و يوم فضـل أهل بـدر على من عـداهم. ثم جعل الباقين درجات. و مع ذلك قـدم الأدنين من رسول الله دون نظر إلى جهاد أو سابقـة إسـلام. ففرض للعباس - عم النبى - اثنى عشـر ألف درهم. و لأخته صـفية عمة النبى و على - سـتة آلاف... و لكل واحدة من زوجات النبى عشـرة آلاف. و ميز عائشة فجعل لها اثنى عشـر ألفا. و يوم فضل الحسن و الحسين إذ فرض لكل واحد شهد بدرا خمسة آلاف، و لأبنـائهم ألفين ألفين، الا الحسن و الحسـين ابنى على من فاطمـة الزهراء ألحقهمـا بفريضـة أبيهمـا لقرابتهمـا من رسول الله. ففرض لكل منهما خمسة آلاف... حتى أسامة بن زيد بن حارثة - مولى الرسول - فرض له اربعة آلاف. و أجاب ابنه عبدالله إذ راجعه قائلا «فرضت لى ثلاثة و لأسامة اربعة. و قد شهدت ما لم يشهد أسامة» فقال لابنه «زدته لأنه كان احب إلى رسول الله منك. و لأن اباه كـان أحب إلى رسـول الله من أبيـك». و عبـدالله أخ شـقيق لحفصـة أم‌المـؤمنين. و لمـا فرض لعمر بن أم‌سـلمة - أم‌المـؤمنين - أربعة آلاف، و كان من شـيعة على، اسـتعتب البعض الخليفـة لحـداثته فأجاب «فليأتنى الـذى اسـتعتب بأم مثل أم‌سـلمة أعتبه». و أم‌المؤمنين أم‌سـلمة أعلى الأصوات فى الـدفاع عن على. و لقـد كـان عمر نادمـا يـوم عـدل إلى رأى أبى‌بكر و قـال «لئن بقيت إلى العـام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم و لأجعلنهم رجلا واجدا». و أوصى عمر أن تكون الخلافة لواحد من الستة الذين رشحهم للخلافة. و اجتمع أصـحاب الشورى و أدار المداولات عبدالرحمن بن عوف، مذ أعلن أنه لن يكون له فى الخلافة أرب. و اسـتجوب الناس حتى استيقن من تحقيقاته ان لكل من على و عثمان مؤيـدين فى جماعـة المسـلمين - فرقى المنبر و جلس مجلس النبى و أخـذ بيد على و قال: هل أنت مبـايعى على كتاب الله و سـنة رسوله و فعل أبى‌بكر و عمر؟ [صـفحه ۴۰] قـال على: اللهم لا. و لكن على كتاب الله و سـنة نبيه و على جهدى و طاقتى. فأرسل عبدالرحمن يده و قال: هلم إلى يا عثمان. فأخذ بيده و قال: هل أنت مبايعى على كتاب الله و سـنة رسوله و فعـل أبى‌بكر و عمر. قـال عثمـان: اللهم نعم... قال عبـدالرحمن: اللهم اشـهد... اللهم اشـهد... و بايع عبـدالرحمن عثمان. و قام الناس فبايعوا... و بايع على. و كان فى المسلمين يومئذ شبه إجماع على أن الخلافة آيلة إلى على (عليه‌السلام). [صفحه ۴۱]

ابوالشهداء

اشاره

«هذان ابناى و ابنا بنتى» «اللهم إنى أحبهما. فأحبهما. و أحب من أحبهما». (حديث شريف) هما ريحانتاى من الدنيا (حديث شريف) [صفحه ۴۳] مضت سـنوات ست على عثمـان فى الخلافـة و هو يحـدر إلى الثمانين أو منها، أعقبتها ست أخرى. منها اربعـة تتناهى إلى سمعه فيها و شوشـة الشـكوى من كل صوب، و منها اثنتان فيهما مراجعـة الذين يتحملون المسؤولية معه: غاضـبه عبدالرحمن بن عوف الذى اختاره للمسـلمين. و غضب هو على عبدالله بن مسعود و على أبى‌ذر - أصدق الناس لهجة - و على عمار بن ياسر، الذى واعده الرسول و أباه و أمه على الجنـة. و هذان الأخيران، منذ انفجر فجر الإسـلام، شـيعة لعلى. و نفى عثمان أباذر من المدينة إلى الربذة، [۸] لاحتجاجه على ما صار إليه أمر معاويـة و عثمان. فى هـذه الفترة الأخيرة اجتمع الناس فتذاكروا الأحداث، و كلفوا عليا أن يكلم عثمان

كما روى الطبرى فى أحداث سنة ۳۴. و نصح على عثمان أغلى النصيحة، و أجابه عثمان بمبرارته فى تعيين الولاة من أهله، و مما قال: «إن معاوية عينه عمر». قال على: «لكنه كان أخوف له من خادمه يرفأ». و استمر الناس فى ضيقهم بالأمور، حتى إذا كان الموسم حج الولاة فجمعهم عثمان للمشورة فكانوا - معاوية بن أبى‌سفيان (الشام) و سعيد بن العاص (الكوفة) و كلاهما ابن‌عم لعثمان. [۹] و عبدالله بن سعد ابن أبى‌سرح (مصر) و هو أخو عثمان من الرضاع. [صفحه ۴۴] و عبدالله بن عامر (البصرة) و هو ابن‌خال عثمان. [۱۰] فلما انصرفوا إلى أقاليمهم رد أهل الكوفة سعيد بن العاص، و طلبوا أن يتولى عليهم أبوموسى الأشعرى، فولاه عثمان. و أرسل المصريون فى سنة ۳۵ وفدا للعمرة يناظرون عثمان فى سياسة ولاته. و كان على رسول السلام بين الخليفة و بين الناس. و انضم بعض أهل المدينة إلى الناقدين، و عنفوا على عثمان بالمسجد. فقنع بالبقاء فى داره، و أحاط القوم بالدار. و أقبل بعض بنى‌أمية يحرسونها، لكن الحراسة الحق كانت حراسة أبناء الصحابة: الحسن بن على، و الحسين بن على. و عبدالله بن عمر و محمد ابن‌طلحة و على إمرتهم عبدالله بن الزبير إذ عينه الخليفة. و أمر الرجال ألا يحاربوا أحدا. و لم يخرج الخليفة للحج و أمر عليه عبدالله بن العباس. و لم يقدم للحج أحد من ولاة عثمان هذا العام، فلم يكن ذلك مفهوما لأحد، الا أن يكون تقصيرا من الولاة... و ليس فى المدينة جند. فهى كما يقول الرسول (حرم آمن). و إنما الجند فى الأقاليم و بخاصة فى الشام حيث معاوية. و لما تلا ابن‌عباس خطاب الخليفة على الحجيج لم يخفوا لنصرته... و أصبح عثمان صائما غداة ليلة. بقى يحدث الحرس ألا يقاتلوا، حتى أقبل الثوار وقتلوه. اجتمع أصحاب الرسول بعد مقتل عثمان يشتورون، و فيهم طلحة بن عبدالله و الزبير بن العوام، فأتوا عليا و قالوا: لابد للناس من إمام. فقال لهم و الضيق يغلب على [صفحه ۴۵] نفسه «لا حاجة لى فى إمرتكم. فمن اخترتم رضيت به» قالوا ما نختار غيرك. و ألحوا، و هو يرفض و يقول: «لأن أكون وزيرا خير من أن أكون أميرا». قالوا: والله ما نحن منصرفين عنك حتى نبايعك. و لما رأى إلحاح القوم خرج إلى المسجد و بايعه الناس. فصعد المنبر و قال «أيها الناس. عن ملأ و أذن. إن هذا أمركم ليس لاحد فيه حق الا من امرتم. و قد افترقنا امس على امر و كنت كارها لامركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم. ألا و إنه ليس لى دونكم إلا مفاتيح أموالكم معى. و ليس لى ان آخذ درهما دونكم.» و عين أميرالمؤمنين عماله فى الأمصار، و توقف بعض الناس فى بعض الأمصار، فجمع رجلى شوراه (طلحة و الزبير)، فقال: «إن الأمر الذى كنت أحذركم قد وقع، و افترق المسلمون و سأمسك الأمر ما استمسك. فإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكى». و كتب إلى الأمصار فأجمعت الطاعة إلا معاوية بن أبى‌سفيان بالشام، حبس رسول أميرالمؤمنين إليه ثلاثة أشهر، ثم بعث برده يصدره بقوله: من معاوية إلى على. كأنه ند له! بل طالبه فيه بدم عثمان، كأنما على هو الذى قتله! و كأنما معاوية صاحب دمه! و هو واحد من تاركيه بالمدينة، للثوار، بلا نجدة! و عبأ معاوية جيشه لقتال الامام. و فيما كان على (عليه‌السلام) يتجهز لقتال معاوية أتاه الخبر أن طلحة و الزبير قد نقضا البيعة و انهما، و معهما عائشة و أهل مكة، خالفوه و خرجوا عليه، قاصدين البصرة. فنهد للحرب. و كانت وقعة الجمل حيث انتصر، و ذكر يومذاك الزبير بقول النبى للزبير «لتقاتلنه و أنت ظالم له» فترك الزبير حربه. و ندم طلحة قبل أن يلقى مصرعه. ثم رجع أميرالمؤمنين يسوى حسابه مع جيش الشام بقيادة معاوية، و تلاقى الجيشان فى صفين [۱۱] و فيها استشهد عمار بن ياسر، و هو فى التسعين من العمر. و فيه قول الرسول «تقتلك الفئة الباغية». و هو ادانة واضحة لمعاوية و جيشه. [صفحه ۴۶] أما أميرالمؤمنين يومئذ ففيه يقول ابن‌عباس جوابا لرجل سأله: أكان على يباشر القتال فى صفين؟ «و الله ما رأيت رجلا أطرح لنفسه فى متلفة مثل على، رضى الله تعالى عنه. و لقد كنت أراه يخرج حاسرا عن رأسه بيده السيف إلى الرجل الدارع فيقتله». تراءت بشائر النصر للبطل الذى تعود النصر. فرفع جيش الشام المصاحف على أسنة الرماح طالبين تحكيم كتاب الله بينهم، و عرف الامام انها خدعة واراد استمرار القتال فيما اصر قطاع كبير من جيشه على وقف العمليات الحربية. و تمت خدعة التحكيم باختيار معاوية عمرو بن العاص حكما يمثله، و اختار الذين اوقفوا القتال أباموسى الاشعرى، وراود عمرو اباموسى؛ على أن يخلع كل منهما صاحبه و يتركا الأمر للمسلمين يختارون من يشاءون. فقبل - ثم قدم عمرو أباموسى فخلع صاحبه. فلما جاء دور عمرو ثبت صاحبه...! و انشق من جيش على الذين فرضوا التحكيم. فحاربهم و انتصر عليهم فى «النهروان» و أطلق عليهم المسلمون اسم «الخوارج». و أخذ يعبئ جنده لمنازلة جيش الشام، و بدا

على جنده آثار التعب من القتال، و على جيش معاوية آثار شرائه للرجال. و انقسم المسلمون فهذا حزب على، و هذا حزب معاوية! و الذين عاصروا الإسلام منذ ظهوره، كالذين درسوه و الذين صدقوا فيه، يفهمون المرارة فى قول أميرالمؤمنين (انزلنى الدهر حتى قيل على و معاوية!). رضى الله عن أميرالمؤمنين و أرضاه. فما كان ذلك ليقع إلا فى آخر الزمان الذى قدره الله للخلفاء الراشدين، [۱۲] و فى آخر الأيام التى قدرها الله لحياته. [صفحه ۴۷] لقد طعنه عبدالرحمن بن ملجم فى التاسع عشر من رمضان سنة ۴۰، باتفاق بينه و بين زميلين من «الخوارج» أن يقتلوا عليا و معاوية و عمرا. فأصيب معاوية فى عجزه. و لم يصب عمرو إذ لم يخرج للصلاة و أناب نائبا عنه فقتل. أمر معاوية بالرجل فقتل. و أمر عمرو برجله فقتل. لكن أميرالمؤمنين أمر باستبقاء قاتله قائلا - و هو الطعين المشرف - إنه إذا عاش فهو ولى دمه. و إذا مات فإنه ينهى عن المثلة؛ ليعلم الناس الدين، كمثل ما علم العالم جميعه «قوانين الحرب و السلام» فى حروبه فى «الجمل» سنة ۳۶، و «صفين» سنة ۳۷، و «النهروان» سنة ۳۸. فتداولتها المذاهب الأربعة لتقدمها هدية من فقه الإسلام للقوانين المعاصرة. [صفحه ۴۸] و انتقل أميرالمؤمنين الى جوار ربه بعد يومين عن ۶۳ عاما، و أربعة أعوام و تسعة أشهر و يوم واحد فى خلافة كلها معارك. و لم يوجد بخزائنه إلا ستمائة درهم استبقاها ليشترى بها خادما. بل - و كما لخص حياته سفيان الثورى - «ما بنى لبنة على لبنة و لا قصبة على قصبة و إن كان ليؤتى بحبوته فى جراب». الحبوة الخراج. و كما يقول محمد بن كعب القرظى «سمعت على بن أبى‌طالب يقول: لقد رأيتنى و أنا أربط الحجر على بطنى من الجوع و إن صدقتى لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار». و لما قال معاوية لضرار بن ضمرة: صف لى عليا، قال فيما قال: كان - و الله - بعيد المدى. شديد القوى. يقول فصلا. و يحكم عدلا. يتفجر العلم من جوانبه. و تنطق الحكمة من لسانه. يستوحش من الدنيا و زهرتها. و يستأنس بالليل و وحدته. كان - و الله - غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، و من الطعام ما خشن. و كان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، و يبتدئنا إذا أتيناه... و نحن - و الله - مع تقريبه لنا و دنوه منا لا نكلمه هيبة له. لا يطمع القوى فى باطله و لا ييأس الضعيف من عدله... يبكى بكاء الحزين و يقول: يا دنيا إلى تعرضت أم إلى تشوفت. فهيهات، هيهات. غرى غيرى. بايع المسلمون الحسن بن على أميرا للمؤمنين، فخرج بجيش قوامه أربعون ألفا للقاء جيش معاوية. و تخاذل جنده كهيئة تخاذل الجند بين يدى أبيه. و تبودلت بينهما الرسائل و كانت النتيجة صلحا بعد خلافة دامت ستة أشهر و خمسة أيام (لعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين). فذلك قول جده عليه الصلاة و السلام. و دخل المتصالحان الكوفة. فسمى البعض عامهما هذا عام الجماعة. و أسماه الجاحظ (عام فرقة و قهر و جبرية و غلبة). حدث الشعبى قال: شهدت خطبة الحسن (رضى الله عنه) حين صالح معاوية فحمد الله و أثنى عليه ثم قال «أما بعد فإن أكيس الكيس التقى. و إن هذا الأمر الذى اختلفت أنا [صفحه ۴۹] و معاوية فيه، إن كان له فهو أحق به منى، و إن كان لى فقد تركته إرادة لإصلاح الأمة و حقن دماء المسلمين. و إن أدرى لعله فتنة لكم و متاع إلى حين». و عاد الحسن إلى المدينة. و عوتب على صلحه فقال «اخترت ثلاثا على ثلاث. الجماعة على الفرقة. و حقن الدماء على سفكها. و العار على النار». و ليس بغير هذا يتكلم الحسن. فلقد كان رجل عبادة و سلام للناس. خرج من ماله مرتين. و قاسم الله ماله ثلاث مرات. و حج عشرين حجة ماشيا من المدينة إلى مكة. و فى ربيع الأول سنة ۴۹ ه. شعر بالسم يسرى فى جسده لتبدأ به سلسلة أئمة أهل البيت الذين يموتون مسمومين على أيدى بنى‌أمية و بنى‌العباس. فأوصى للحسين. و قال: «إذا مت فادفنى مع جدى ما وجدت لذلك سبيلا». لكن مروان بن الحكم والى معاوية على المدينة منع من تنفيذ الوصية، فدفن الحسن بالبقيع. و سيدفن معه فى قبره أئمة أهل‌البيت الرابع و الخامس و السادس. فأكرم بها بقعة فيها أميرالمؤمنين الحسن، و على زين‌العابدين - ابن‌الحسين - و ابنه محمد الباقر، و ابن‌الباقر: «جعفر الصادق». لما توفى الحسن كبر أهل الشام، فقالت فاختة بنت قريظة لمعاوية: أعلى موت ابن‌فاطمة تكبر؟ قال: ما كبرت شماتة بموته و لكن استراح قلبى. و قاله له ابن‌عباس: و الله يا معاوية لا تسد حفرته حفرتك و لا يزيد عمره فى عمرك. و طلب معاوية البيعة لنفسه من محمد بن مسلمة فقال له «لعمرى يا معاوية ما طلبت إلا الدنيا و لا اتبعت الا الهوى. و لئن كنت نصرت عثمان ميتا لقد خذلته حيا. و نحن و من قبلنا من المهاجرين و الأنصار أولى بالصواب». و لما دخل سعد بن أبى‌وقاص على معاوية قال: السلام عليك ايها الملك. قال معاوية: ما كان عليك يا أباإسحق ان

قلت أميرالمؤمنين؟ كتب معاوية إلى عماله بنسخة واحدة «انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليا و أهل‌بيته فامحوه من الديوان و أسقطوا عطاءه» و أمر من يأتمرون بأمره ألا يرووا [صفحه ۵۰] أحاديث فضائل على وشيعته، ثم تمادى، فكلف ولاته أن يلعنوا عليا و من أحبه على المنابر. فكتبت إليه أم‌المؤمنين أم‌سلمة تقول «إنكم تلعنون الله و رسوله على منابركم لأنكم تلعنون عليا و من أحبه و أشهد أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أحبه». و لما دانت الدنيا لمعاوية قيل له: قد بلغت ما بلغت. فلو كففت عن الرجل؟ فقال «لا و الله حتى يربو عليها الصغير و يهرم الكبير». و لو عاش بضع سنين بعد عام موته لشهد انهيار دولته و انتهاء أسرته - أما الذين جاءوا بعده فسيشهدون صعود الشمس فى السماء معلنة حق على، مؤذنة بظهور أهل‌بيت النبى - صلوات الله عليهم اجمعين. جعل معاوية الخلافة ميراثا لابنه يزيد، بالسيف على رؤوس أبناء الصحابة جهرة، و بالرعب فى قلوب المستضعفين، و بالمال فى جيوب الطامعين! أما الحسين بن على فلم يستدرج و لم يستضعف و أبى أن يبايع ليزيد. و أما عبدالرحمن بن ابى‌بكر فقال لمعاوية كلمته الخالدة فى خلافته و خلافة ابنه و من جاءوا بعده: إنهم جعلوها (هر قلية كلمات مات هرقل قام هرقل). و عبدالرحمن بن أبى‌بكر هو جد «جعفر الصادق» من ناحية أمه و أمها. كان رأى محمد بن مسلمة و سعد بن أبى‌وقاص أن معاوية، صاحب ملك... ولكن ملك معاوية كان بصلح مشروط. فلما خرج على الشروط، أمسى حقا لكل مجتهد أن يقول فيه باجتهاده، فى المرة الأولى و المرة الآخرة. و لقد قال أميرالمؤمنين على قوله فيه. و كشف الله لحكمة الإمام وجه الحق فيما صار إليه أمر معاوية و أمور المسلمين. فحسبنا و حسبه قول على فيه - و قد اسلفناه - بل قول النبى لعمار عن جيش معاوية «تقتلك الفئة الباغية». أما عمرو فلأئمة السنة فيه ما يكفيه، و حسبه قول الشافعى فيه، حول أساطين جامعه، حيث راح الشافعى يروى بعد قرن و نصف قرن فى (جامع عمرو) بفسطاط مصر، دخول ابن‌عباس على عمرو، و هو ابن‌بضع و ثمانين، و قول عمرو: أصبحت و قد ضيعت من دينى كثيرا و أصلحت من دنياى قليلا فلو كان الذى أصلحت هو الذى [صفحه ۵۱] أفسدت و الذى أفسدت هو الذى أصلحت لقد فزت... فعظنى بعظة انتفع بها يا ابن‌عباس. قال ابن‌عباس: هيهات. قال عمرو: ابن‌بضع و ثمانين و تقنطنى من رحمة الله! ثم رفع يديه و قال: اللهم إن ابن‌عباس يقنطنى من رحمتك. فخذ منى حتى ترضى. قال ابن‌عباس: هيهات يا أبا عبدالله. تأخذ جديدا و تعطى خلقا. قال: من لى منك يا ابن‌عباس. ما أرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها! و المسلمون يتناقلون قول الشافعى فى جامع عمرو عن عمرو: قدم ابن‌عمامة على عمرو فألفاه صائما و قد أحضر اخوانه طعاما. و صلى صلاة فأتقنها. ثم اتى بمال فأمر بتفريقه. قال ابن‌عمامة: يا أبا عبدالله و أتاك مال أنت به أحق من غيرك ففرقته. بم ذاك يا أبا عبدالله؟ قال: ويحك يا ابن‌عمامة فلو كانت الدنيا مع الدين أخذناها و إياه. ولو كانت تنحاز عن الباطل أخذناها و تركناه. فلما رأينا ذلك كذلك خلطنا عملا صالحا و آخر سيئا عسى أن يرحمنا الله. و سمع العالم الشافعى فى جامع عمرو يهتز تحتانا إلى أبناء على فى الحجاز فينشد: يا راكبا قف بالمحصب من منى واهتف بقاعد خيفها و الناهض إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

ريحانة النبى فى كربلاء

انتهى عصر معاوية بعد ملك طال تسعة عشر عاما و ثلاثة اشهر و خمسة أيام [۱۳] ليبدأ [صفحه ۵۲] عصر يزيد (۶۴ - ۶۱) فكان أفسد حكم. وقع فيه أفظع ظلم، و أعمق جرح فى قلوب أهل الإسلام. أنهاه الله بإنهاء عمره و انقطاع عقبه و عقب أبيه من سجل الدولة التى سعيا لها كل ذلك المسعى! و سيخلفه ابنه معاوية بن يزيد. فيعلن أنه و أهله لا يستحقون الخلافة. و يعتزل بعد نحو أشهر ثلاثة. فكان اعتزاله من تلقاء نفسه و عباراته و هو يعتزل، شهادتين بالفعل و بالقول، من نفس بنى‌أمية، بأنهم جائرون. أنهى يزيد سنوات حكمه بتجريد جيش على المدينة يسفك دماء اهلها و ينتهك حرمها، فى وقعة الحرة سنة ۶۳. ليقتل فيها ثمانين من صحابة الرسول. فلم يبق بعدهم على ظهر الأرض بدرى واحد! و قتل من قريش و الأنصار ثمانمائة! و من الموالى و التابعين و سائر الناس عشرة آلاف، ثم لفظ آخر أنفاسه و جيشه يحاصر الكعبة بعد أن أحرقها! و أى نهاية لبشر افظع من هذه النهاية! بل أى نهاية لدولة ابلغ فى الدلالة

على غضب السماء! فما كان حرق الكعبة و لا قتل الصحابة و ذبح الآلاف إلا تتابعا للأحداث التى بدأ بها السنوات الثلاث، و ختاما طبيعيا للبداية الفظيعة لحكمه، و جزاء له و لدولته. ينزله بها و بنفسه. لقد استفتح حكمه بمذبحة كربلاء فى يوم عاشورا! فى العاشر من المحرم سنة ۶۱. فوقع فيها ما لا عين رأت و لا اذن سمعت، مثله أو قريبا منه، من استشهاد أبى‌الشهداء: الحسين بن على الذى دعا له النبى «اللهم إنى أحبه. فأحب من يحبه»، و الذى عظمه الخلفاء الراشدون و الناس جميعا على مدار العصور. و هو القدوة فى عطائه و عبادته و تواضعه و شجاعته فى كل موقف: فى «الجمل» و «صفين» و «النهروان» إلى جوار أميرالمؤمنين على و فى فتح أفريقية. و خراسان. و جرجان. و القسطنطينية. متصدرا جيوش المسلمين. كان بقية الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم). و كانت آمال الأمة فيه آمالها فى بقية الرسول. و كان أبعد الناس عن أن يستخلف على المسلمين يزيد... يزيد الصقور، و يزيد [صفحه ۵۳] الخمور، كما لقبه معاصروه. فلم يكن أحد ليأمل شيئا من عهد يزيد، إلا دنيا يصيبها أو أموالا يجمعها. و لذلك رفض الحسين أن يبايعه. و دعا أهل الكوفة الحسين إليهم فبعث اليهم ابن‌عمه مسلم بن عقيل. و خرج فى أثره. فقتل عبيدالله بن زياد والى الكوفة مسلما. و تخاذل أهل الكوفة عن نصرة الحسين. فمضى حتى بلغ (كربلاء) على مبعدة خمسة و عشرين ميلا من الكوفة و فى ركبه ثمانية عشر رجلا من أهل بيته و ستون من شيعته. هنالك لقيهم جيش عبيدالله بن زياد، على رأسه عمر بن سعد بن ابى‌وقاص، فأعلن لهم الحسين أنه لا يريد الحرب، و خيرهم بين العودة الى الحجاز أو اللحاق ببعض الثغور. و رفض ابن‌زياد إلا أن ينزل فيه ما صنعاه بأهل المدينة، بعد عامين، من استرقاق الرجال و النساء. و حاول ابن‌بنت رسول الله أن يسير بأهله فى أرض الله الواسعة، فسدت الجيوش أمامه كل الطرق، و انقضت عليه سهام الآلاف و سيوفهم، و هو يحارب كالأسد. و تسيل جراحات جسمه و هو فى السابعة و الخمسين حتى استشهد [۱۴]. و استشهد رجال أهل‌البيت جميعا و الرجال الستون الذين يتألف منهم ركبه، إلا غلاما مريضا عاجزا عن الحركة هو ابنه زين‌العابدين (على بن الحسين) و ساق المجرمون الحريم. و جهز عبيدالله بن زياد، زينب بنت على [۱۵] و هذا الابن الوحيد الباقى من ذرية النبى، و من معهما [صفحه ۵۴] من الحريم مع الرأس التى طالما مسح عليها و قبل فاها رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)، إلى يزيد بن معاوية فى دمشق. و أعاد يزيد الوفد إلى المدينة. إن فى إنسانية البشر قابلية للفساد كهيئة قابلية المواد للهبوط إلى الأرض بقانون الجاذبية . و الإسلام لذلك يرفع الناس إلى أعلى، إذ يدفع الأنفس إلى ما هو أقوم، بالعبادة اليومية على مدار الليل و النهار، و تطهير النفس على مدار العمر. و من الفساد ما يستغلظ فيحوج إصلاحه إلى آية من السماء مثل كسوف الشمس و خسوف القمر. و فى استشهاد أبى‌الشهداء آية من الآيات. كانت كربلاء قارعة رجت الأرض رجا يعيد الإسلام غضا فى الأنفس، بما كان فيها من التصميم و الإجماع على الاستشهاد فى سبيله. لقد انقضى بين يوم وفاة النبى و بين كربلاء خمسون عاما، كانت كافية لتدهور إحساس بعض الرجال فى أجيال، تدهورا يدفعهم لقتل ابن‌نبيهم! و هم يصلون عليه! و على آله الذين يقتلونهم! و لقد كرروا يوم «الحرة» ما فعلوه منذ عامين فى كربلاء، كما صنعوه مرة ثالثة إذ قصفوا الكعبة بالمنجنيق من اعلى جبل أبى‌قبيس. فالجريمة الأولى تدفع إلى الثانية، فالثالثة و غيرها. و الجرائم يصنعها المجرمون، و تصنع المجرمين. [صفحه ۵۵] باعوا أنفسهم للشيطان لقاء متاع قليل، لا يلبث أن يزول. قالوا: كان الحسين يستطيع بالمداورة أو المناورة أن يكسب الزمن، أو يستطيع بالاستسلام أن يكسب الحياة، لكنه الذى قال فيه و فى أمه و أبيه و جده، إقبال: [۱۶] . هى بنت من! هى زوج من! هى أم من! من ذا يدانى فى الفخار أباها! و من قبله رفض أبوه رأى المغيرة بن شعبة أن يكسب الزمن بترك معاوية على الشام حتى يبايع. فلم يقبل على أن يناور على حساب المبادئ. و ناور المغيرة فصار عاملا لمعاوية! الحق أن الحسين قدم للمسلمين الذين تعاقبوا فى آثاره على مدار الزمان حجة بالغة من أهل‌بيت الرسول، إذ ينفردون فى التاريخ بهذه الخصيصة التى لم يماثلهم، أو يقاربهم، فيها أهل‌بيت آخر فى تاريخ الإنسانية: الاستشهاد فى سبيل هداية البشر لما هو أقوم. و هى بعض خصائص الرسل. منح الاستشهاد اسما لكربلاء و خلد الأسماء التى تساقط أصحابها كالكواكب المنتثرة من السماء فوق رمال الصحراء، لا لتنطفئ، و لكن لتقدم للبشر دروسا فى الدفاع عن الحق. من فئة قليلة، و اثقة فى الحق سبحانه، لا تهمها أرواحها، و إنما يهمها العمل الصالح فى ذاته. و لا تنظر إلى الساعة التى هى فيها، و إنما تمد ابصارها إلى مستبقل الإنسانية كله،

لترتفع بالدنيا إلى مستوى أفكار الأئمة. و لقد صدق الحسين و المسلمين فى كل موقف وقفه. و كان عند وصية أبيه له و لأخيه الحسن و هو يجود بأنفاسه الأخيرة (أو صيكما بتقوى الله. و لا تبغيا الدنيا و ان بغتكما) فلم يبتغ الدنيا و اشترى بها الآخرة... فأمسى يقول «إنى لا أرى الموت إلا سعادة و الحياة مع الظالمين إلا برما». و شملت السماء ابن‌النبى فى كربلاء بمزيد من التأييد بمعان جليلة من جلال الإسلام، تختار منها هنا واقعة منه و واقعة من عدوه: فى الأولى أخذ إخذ أبيه فسقى [صفحه ۵۶] جيش العدو من العين التى نزل عندها و لم يحرم الماء قاتليه. [۱۷] و فى الأخرى ترك قائدان من قادة جيش ابن‌زياد، فى وطيس المعركة، إلى الجماعة العزلاء حول الحسين، ليستشهدوا فى الدفاع عن سيدالشهداء بين رجاله الذين ماتوا عن آخرهم، و هم يدركون أنهم يخوضون معركة خاسرة بكل المقاييس التى يتقايس بها المتحاربون، مظفرة بمقاييس المؤمنين. ولو عاش هؤلاء الشهداء العظماء، سنوات أو أشهرا أخرى، لماتوا كما يموت الآخرون. لكنهم ماتوا شهداء «كربلاء»،ليحيوا فى ضمير الزمان كله امثلة للحق، و عناوين على عظمة الإسلام. كانت كربلاء رسالة من ابن‌النبى للمسلمين: هى الأولى من نوعها بما تحتويه من دروس لا تحصى، فحسبنا أن نشير إلى البعض منها، و فى الدرس الواحد جماع دروس: و أول الدروس يتعلق بالحق ذاته، و فى الحق أعظم الدروس: أن لا يقر أحد الباطل. و أن يقدم فى سبيل ذلك نفسه، و أن يكون قدوة، و ألا يهاب المكثورون كثرة الظلمة. فالأمم تبقى بالمقاومة و لا تصيبها الهزيمة ان خسرت معركة، ما دامت فيها إرادة النصر، يسعى إيمانها بين يديها لتبلغ غرضها كله، إن لم يكن من فورها، فمرحلة بعد مرحلة. و أول من تعلم على الحسين بن على درس سنة ۶۱ كان عبدالله بن الزبير فى مقاومته بمكة بعد أعوام عشرة، و هو مكثور بجند عبدالملك بن مروان بعد إذ حرقوا الكعبة، كما حرقها جند يزيد بن معاوية. [صفحه ۵۷] و تعلم عمر بن عبدالعزيز و علم المسلمين - فى مدة خلافته - أن الكلام أو الصياح، ليس الأداة المثلى للإصلاح، و إنما المواقف هى التى تهز وجدان الشعوب، فكان له أعظم المواقف إذ بدأ بنفسه و أهله فضحى. فكانت فيه الأسوة الحسنة. و كلل الله سعيه فى أقصر مدة: ثلاثين شهرا كانت كافية لإصلاح دولة أدماها نحو قرن من الفساد، و لإسعاد أمة تنتظر القدوة من حكامها فلا تجدها. و الدرس الثانى: يتعلق بجزاء السماء و مصير الطغاة و طرائقهم: إنهم يحسبون الدنيا تدوم و لا تدور، و لا يدركون أن (الدهر بالإنسان دوار). كما يقول الشاعر العربى. تركبهم شياطين الشهوة فيخالون أنهم يمسكون كرة الأرض فى قبضتهم. يصطنعون اسباب الوثوب على أعدائهم من حين لآخر، و يتحينون الفرص المواتية، و يختلقون الأعذار الزائفة، ليقطعوا دابر العدو. و كلما جد جيل جدت لهم الأعذار و لم تغنهم النذر... فالذى حاوله فريق معاوية مع على فى صفين و لم يظفر به - من إفناء شيعة على أو من الإطاحة بخصومه بالسم من الوجود - قد أتاحته ليزيد فرصة فى كربلاء. و للطغيان طبيعة و منهج. و من طبيعته أن يعمى و يصم. فلا ينظر و لا يسمع إلا ذاته و أصواته. و أما المنهج فهو الغيلة. مرة واحدة إن أمكنه، و إلا فوثبة. و لكن واحدة ما بعدها. و الذى اقترفه يزيد ليس مجرد سقطة و إنما كانت أمالسقطات. فمن بعد كربلاء كانت وقعة الحرة، ثم كان حريق الكعبة... فى سنوات ثلاث متعاقبة. فحق عليه جزاء السماء فأوردته حتفه... و السماء تملى للظالم، حتى إذا أخذته لم تفلته. و الدرس الثالث: يتعلق بأهل البيت أنفسهم. ۱ - فهم العترة الطاهرة. يدخلون الجنة مع جدهم، بعملهم، فلا يعملون إلا العمل الأصلح. والذى صنعوه فى كربلاء هو الذى كان يصنعه جدهم. و الذى صنعه أصحابهم معهم هو الذى كان يصنعه الصحابة - و أعظم به و بهم صنيعا و صناعا. فما هو إلا صفحات جديدة يضيفونها إلى السيرة العطرة. ۲ - و هم مثل جميع المسلمين، إن لم يكن قبل جميع المسلمين، مطالبون بالجهاد [صفحه ۵۸] و التضحية و ليس فضلهم ليسقط التكليف عنهم، كما يزعم بعض المتصوفة عن رجال من المتصوفين. و هذا درس للمتواكلين الذين لا يقبل الإسلام تواكلهم. ۳ - و هم يبلغون الذروة فيما يعملون: إذا حاربوا ماتوا شهداء، و لم يعطوا الدنية أو يستسلموا؛ لأن للمسلمين فيهم، كما كان لهم فى جدهم، الأسوة الحسنة. و فى بيتهم سمقت المبادئ الكبرى. فمنهم يطلب الشهادة. و من هذا كان صغارهم - كالكبار منهم - أبطالا يستشهدون و لا يتراجعون. لقد أذن الحسين لصحبه فى أن يفروا تحت جنح الليل و يدعوه وحيدا يواجه مصيره، فلم يقبل ذلك واحد منهم، و لم يرجف المرجفون من خصومهم، حتى اليوم، بأن واحدا منهم قد تردد. بل قال له ابنه على الأكبر و هو فى طريقه الى الكوفة «ألسنا على الحق» قال «بلى والذى إليه مرجع العباد». قال الفتى «فإذن لانبالى». و

الـدرس الرابع: يـدور حول وحـدة العمل الصالـح. و فيه يجتمع الحق و الحقيقة فى المبدأ و المنتهى و ما بينهما. فإذا كانت الحقيقة أن أبنـاء الرسول رجـال سلم و علم و قيادة، فهم لا يـدارءون وراء هـذه الحقيقـة، فيقعـدون عن الجهاد - جنودا - للحق، أو يكتفون دونه بالعلم إذا دعا الـداعى إلى الجهاد، أو يوصون بالسـلم حيث الحرب واجبـة لإعلاء كلمة الله، بل يستمسـكون بالحق و يضـعون الحقيقة كلها فى خـدمته. و الحق و الحقيقـة و العمـل الصالـح كـل لا ينقسم. و الأهـداف العظيمـة لا يبلغها الناس إلا باعمال عظيمـة و وسائل سليمـة. و الـدرس الخـامس درس فى الواجب و أدائه فى كل الظروف. و إن وهم المطالب به أنه غير مجـد عليه أو على غيره، فهو لم يصـبح واجبا إلا لأن التكليف به يحقق المصـلحة العامة أو الخاصة، إن حالة و إن مؤجلة، منظورة أو غير منظورة. و هو قد اصبح واجبا لأنه فضـيلة و إذا لم يكن مجديا فى لحظة، أو لرجل، ففى القيام به خير للناس، و للدنيا، فى الظرف ذاته أو فى ظروف أخرى. [صفحه ۵۹] و الظروف غير المواتيـة لا تجعل الفضائل غير مواتيـة. فالفضائل مواتيـة أبـدا، مطلوبـة دائما. و إذا كانت القـدرة شـرط التكليف و الرخص متروكا تقديرها للرجال، فبالمعاناة او التضحية ينسلخ الأقوياء من حالة الضعف و يخلع الناس على العظماء وصف العظمة. و ما المعاناة و التضـحية إلا محاولات للثبات فى وجه الخطر، أو لاقتحامه، فهى درجات فضل و أدوات تقـدم فى معترك الوجود الإنسانى، تضـيف إلى تيـاره المتـدفق أسـباب طهر و نقـاء، و أساليب بقاء، منظورة للكثيرين، و إن عمى عنها آخرون. و الـدرس السادس: يتعلق بوظيفة التاريخ. فهو يصـحح العوج و يصوب الانحراف، بالاستقامة على الجادة، خضوعا للعدل. و هو قانون السماء. إن الغلام المريض الـذى بقى فى خيمـة ابيه يوم كربلاء (زين‌العابـدين) سـيحيا ثلاثـة و ثلاثين عاما حتى عام ۹۴، لتتسـلسل منه ذرية ترفع أعلام الإسـلام عاليـة فى ضـمائر البشـر. فى حين أن الطاغيـة الـذى يرسل كتل النار و الدمار على البيت العتيق بالحجاز و على أهل‌البيت، فى صـحراء العراق، سـيزول ملكه - و ينقطع دابره - بعـد ثلاثـة سـنين بتنـازل ابنه عن ذلك الملك، ليزول اسم معاويـة بن أبى‌سـفيان، و يزيـد بن معاوية من سجل الحوادث، و تخلد آثار أهل‌البيت ما تعاقب الجديدان، آية من السماء على أن دول القتلة لن تدوم، و أن هيمنة القتلى ستظل أبـدا. و أن دولـة الظلم لا تبقى بمقاييس الزمن إلا ساعة - أما دولة العدل فتبقى إلى قيام الساعة. و أنه تعالى صادق الوعد: «كم من فئـة قليلـة غلبت فئة كثيرة بإذن الله و الله مع الصابرين». و ما أكثر ما كانت الغلبة ببقاء أسـباب الانتصار، يتحقق بها النصـر فى مكان آخر أو زمـان آخر، بقوم يحبهم الله فينصـرهم مهمـا كـان عـددهم، و يحبونه فيجودون بـأرواحهم. و الـدرس السابع: درس فى مبلغ ما تنجح الاسـتقامة و يفلح الإخلاص: فإذا كان أقرب الخطوط إلى الهدف هو الخط المسـتقيم و إن كان ترسمه أشد رهقا، فإن استشهاد أبى‌الشـهداء كان الأساس السـليم لقيام الصـرح العظيم الذى جمع بين عمله و بين اسـمه [صـفحه ۶۰] فصـيرهما مبدأ يحدث أثره فى عمارة الـدنيا و إصـلاح الجماعـة، فى شـكل قيام دولـة، أو غلبـة مـذهب، أو وجود قـدوة، أو ازدهار أمل، فى بعث منتظر. بهـذا دارت الأفكار الدينية و المذاهب الفقهية للشـيعة، سواء الإمامى منها، أو الاسـماعيلى، أو الزيدى، فى آفاق الحسين العالية، و بلغت أوجها فى الفقه العملى القـدير على التطور وفق حاجـات البشـر، فى العبـادات و المعاملات و الأخلاق و النهـج العلمى. و اسـتمسك المسـلمون عموما و الشـيعة خصوصا، بالحسـين و آله و أبنائه، و اقتدوا ببطولاتهم، و مقولاتهم، فاسـتخرجوا منها أصولا زخارة، و بنوا عليها فروعا فى الـدين و الاقتصاد و السـياسة و الاجتماع، لتقيم نظما سياسـية و علميـة و فكريـة و اقتصاديـة متكاملة، هى كالنهر العظيم يجرى إلى جوار النهر الـذى يسـبح فى تيـاره أهـل السـنة. و النهران يتجاريان، كأنهما البحران يلتقيان، على أصول الإسـلام، و يعملان - كل على شاكلته - فى تدعيم مبادئه. و فى استشـهاد على بطعنة خارجى ركبته الشـياطين، و فى ظلم معاوية و قومه له، حيا و ميتا، و فى استشهاد الحسين و بنيه، و بنى‌أخيه، و من كانوا معه من الشهداء الذين ذكرناهم، و الذين سنذكر البعض منهم، على ايدى الكثيرين ممن سنرى فظائعهم بعد، نمت و ترعرعت عقيدة أهل الإسـلام. ۱ - أن عليا قبل التضـحية دائما، فى جوار النبى، و بعده، هو و بنوه. و أنهم ضـربوا الأمثـال من أنفسـهم، لا- بمجرد النصـيحة أو الفصاحـة أو السـياسة، و لكن بالـدم الـذى يتكلم، فتكون له بلاغـة الشـهادة بين يـدى الله سبحانه. فأصـبحوا عنوانا على العدل المفقود، و الأمل المنتظر، و بابا للرجاء فى عدل السماء، لتتدارك المسلمين برحمتها و مغفرتها. ۲ - أن المسـلمين يضـيفون إلى حساب الحسين، من حساب بنى‌أمية و عمالهم و سفاحيهم، إذ أرادوا السلطة و المال و شفاء صدور قوم

مبطلين. فقطعوا صلتهم بالله [صفحه ۶۱] يوم قطعوا رأس ابن‌بنت رسول الله. و فى حين يتراءى قتلة أميرالمؤمنين على «خوارج» - كما تضافرت الأمة على وصفهم - أو «بغاة» - كما سماهم أميرالمؤمنين نفسه - يتدلى قتلة الحسين إلى أدنى دركٍ فى جهنم، سفاحين أجراء. و تتعالى بطولات الحسين قدر ما تتعمق الحسرة من أجل استشهاده. فتبرز فى إجماع المسلمين عليه بطلا، و فى الفكر الشيعى، حيث يضاف جهاده إلى الوصية له بالإمامة. فهذا يوم للحسين وحده. ناله بحقه. و فيه سند لإمامة الأئمة من أبنائه: على زين‌العابدين. فمحمد الباقر. فجعفر الصادق. فالباقين من الأئمة. ظلت شجرة العدل، و العلم، و الأمل، تسقى بدماء الشهداء كلما رأت السماء مصلحة للأمة. فلم تلبث الكوفة بعد نحو عام واحد من وقعة الحرة أو ثلاثة أعوام من يوم كربلاء أن هز ضميرها تقصيرها. فقامت من الفور حركة التوابين سنة ۶۴ [۱۸] بين أهل الكوفة الندامى على ما فرط منهم من تقصير. و لم تنته حالة الندم بمصرع سليمان بن صرد زعيم التوابين، بل توالت الثورات على دولة بنى‌امية، بقيام المختار الثقفى ثم عبدالله بن الزبير، و تحرك الخوارج، و قيام الفتن، و منها فتنة ابن‌الأشعث و قد انضم إليها العلماء. و ثورة زيد بن على زين‌العابدين، و خذلان أهل الكوفة له سنة ۱۲۱ ه. كما خذلوا جده سنة ۶۱ ه. فاستشهد زيد و مثل برأسه [۱۹] الخليفة هشام بن عبدالملك، ثم استشهد ابنه يحيى سنة ۱۲۵. و كان جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين‌العابدين شجرة باسقة تترعرع فى كل [صفحه ۶۲] ورقة من أوراقها خصيصة من خصائص أهل‌البيت فى عصر جديد للعلم. تعاونت فيه أجيال ثلاثة متتابعة منه و من أبيه وجده. و لما استمسك بإمامته و انصرف الى نهجه التعليمى، أمن جانبه طلاب السلطة، و اتخذوا من زهده فيها شهادة لهم ضد من ينازعونهم. لكنه كان الغرض الذى تنجذب إليه الأنظار: فهو يمثل العقيدة الدينية التى يقاس بفضائلها عمل الحكام فى الإسلام، و ما يتبعه من رضى العامة عنهم، أو سخطها عليهم. و هو - بوجه خاص - حجر الزاوية من صرح «أهل والبيت» ترنو إليه أبصار الذين يدعون الخلافة بدعوى أنهم من «أهل‌البيت». و هو مقيم فى المدينة، العاصمة الأولى، و الدائمة، للإسلام، يتحلق فيها المتفقهة، حول علماء الإسلام فى مسجد الرسول، يحملون بأيديهم مصابيح السنة، أو يعلنون شرعية الحكومة أو عدمها، و حسن السيرة أو فسادها، و إقرار أهل العلم أو إنكارهم. و هى أمور أساسية، تحرص عليها الدولة العادلة، و تتجنب الاتهام بمخالفتها أى دولة. و إذا كانت دمشق قد أدارت ظهرها لمدينة الرسول، أو كانت بغداد قد فتحت أبوابها على العالم، و أوصدتها دون أهل المدينة، فالمسلمون يأتون إلى مدينة الرسول كل عام، رجالا و على كل ضامر، إذ يحجون إلى البيت العتيق بمكة، ويزورون قبر الرسول و يشهدون آثاره فى المدينة. و إذا كان الخليفة المنصور يقول عن نفسه: «إنما أنا سلطان الله فى الأرض» فهو يحس وطأة «سلطان الدين و العلم» فى المدينة، حيث إمام المسلمين غير منازع «جعفر بن محمد» الذى يصفه الناس - و أبوجعفر المنصور فى طليعتهم - «بالصادق». و من أوصافه كذلك: «الطاهر» و «الفاضل» و «الصابر» [صفحه ۶۳]

بين السلطان و الإمام

اشاره

«السلطان كراكب الأسد» «يهابه الناس، و هو لمركوبه أهيب» أفلاطون [صفحه ۶۵] آلت الخلافة إلى بنى العباس سنة ۱۳۲ و كان «السفاح» أول خلفائهم. ثم مات فخلفه أبوجعفر المنصور، ليبقى فى الخلافة اثنين و عشرين عاما (۱۵۸ - ۱۳۶)، وطد فيها أركان الدولة العباسية، و أخضع الخارجين عليها فى كل أرجاء «الإمبراطورية». فهى لم تعد دولة دينية كما دعوا لها منذ بثوا دعاتهم من فاتحة القرن. و لم تصر «للرضا من آل محمد» كما كانوا يدعون، بل غصبوا حق أبناء على، كما كان بنو على عند قيامها عاجزين عن تولى السلطة، و كان أحقهم بها - و هو جعفر بن محمد - عازفا عنها، عارفا أن مهمته الأولى هى تعليم المسلمين. و جرت الأمور مجراها الطبيعى للحاكمين الجدد، يطوون أضالعهم على الخوف و الحقد و الحذر، و يشرعون أسلحتهم فى كل مكان للدفاع عن دولتهم. و كان ذو و القربى فى طليعة الأعداء. فاستعرت الشحناء بين الأقرباء، ثم سالت الدماء. و جعفر الاصادق، بعزوفه و استعلائه،

بعید عن المذابح. لکن بعده عنها، لا- یقیه بطش خلیفة حذر، متنمر، تدعوه إلی المواجهة الشرسة ماتوسوس له هواجسه مخافة أهل‌البیت و شیعتهم. و کان توفیق السماء حلیف الإمام فی مواجهاته، و إن بقیت الدولة علی حذرها، تنزل بأهل البیت ألوان العذاب و الارهاب و الحبس و القتل لابادتهم. [صفحه ۶۷]

اهل‌البیت

اشاره

«إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل‌البیت و یطهرکم تطهیرا». (الأحزاب / ۳۳) [صفحه ۶۹] اختلف أهل التأویل فی صدد «أهل‌البیت»، و هم یفسرون قوله تعالی فی سورة الأحزاب «یا أیها النبی قل لأزواجک إن کنتن تردن الحیاة الدنیا و زینتها فتعالین أمتعکن و أسر حکن سراحا جمیلا. و إن کنتن تردن الله و رسوله و الدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منکن أجرا عظیما» ثم یوجه الخطاب فی الآیات ۳۱، ۳۲، ۳۳، ۳۴ - و فی الأخیرتین یقول - لنساء النبی - «و قرن فی بیوتکن و لا تبرجن تبرج الجاهلیة الأولی و أقمن الصلاة و آتین الزکاة و أطعن الله و رسوله إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل‌البیت و یطهرکم تطهیرا. و اذکرن ما یتلی فی بیوتکن من آیات الله و الحکمة إن الله کان لطیفا خبیرا». و إذ کان التطهیر هو الدرجة العلیا للبشر، و الاختصاص به بین المسلمین یجعل لأهل البیت حقوقا و امتیازات تؤهل لإمامة الدین، و إمامة الدنیا، أی خلافة الدین و الدنیا، و کان ثمة سنن مرویة فی تفضیل علی و بنیه و جعلهم من الأمة مجعل الأوصیاء أو الأئمة - و هذا شأن لا یسلمه بنوأمیة، و لا بنوالعباس، و لا کثیر من قریش - فقد ذهب الفقهاء عموما، و المفسرون خصوصا، مذاهب شتی فی تعریف أهل‌البیت، یمکن تحصیلها فیما یلی: ۱ - قال الشیعة: إن أهل‌البیت هم رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم) و علی و فاطمة و الحسن و الحسین علیهم‌السلام. یؤیدهم فی ذلک حدیث أم‌سلمة أم‌المؤمنین أن النبی أجلس الأربعة حوله علی کساء له وضعه فوق رؤوسهم و أومأ بیده الیمنی إلی ربه ثم قال «اللهم هؤلاء أهل‌البیت. فاذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهیرا». و عن أم‌سلمة أن الآیة نزلت و الرسول (صلی الله علیه و آله و سلم) فی بیتها و إنما عندئذ کانت علی [صفحه ۷۰] باب البیت فقالت: أنا یا رسول الله من أهل‌البیت؟ و أنه قال «و إنک إلی خیر و أنت من أزواج النبی» و عنها أنها قالت: یا رسول الله أدخلنی معهم. و أنه قال «إنک من أهلی». ۲ - و قال البعض: بل عنی الله بذلک أزواج النبی. و الحجة فی ذلک توجیه الخطاب إلیهن. و نقلوا ذلک عن ابن‌عباس - تلمیذ علی، و شیعته، و عامله - و ذهبوا إلی أن «البیت» أرید به مساکن النبی (صلی الله علیه و آله و سلم). ۳ - و قال فریق: بل إن (أهل النبی) هم أهل بیته. ولو کان أهل‌البیت هم زوجاته فقط لکان النص (لیذهب عنکن الرجس) لا (عنکم) کما هو النص فی الآیة. فدخل فی ذلک رجال. و أهل النبی - بدلالة السنن التی أشرنا إلی بعضها - هم فاطمة و علی و الحسن و الحسین علیهم‌السلام؛ و یؤید ذلک قول الآیة (و یطهرکم). و هذا یوافق الرأی الأول. ۴ - و إذا دخل الرجال فهم - کما قال فریق آخر - بنوهاشم. و البیت یراد به بیت النسب. فیدخل فی ذلک أعمام النبی، و فیهم بنوالعباس و بنو أبی‌طالب. ۵ - و یتوسع محیی الدین بن عربی (۵۶۰) - فی الفتوحات المکیة - فیدخل «سلمان الفارسی» فی أهل‌البیت. إذ الرسول یقول «سلمان منا أهل‌البیت» و یضیف ابن‌عربی أن جمیع ما یصدر عن أهل‌البیت (علیهم‌السلام) معفو عنهم فیه، فهم مطهرون بالنص، معصومون، و إن توجهت علیهم الأحکام الشرعیة. و یذکر البعض قول الرسول «سألت ربی أن لا- یدخل النار أحدا من أهل بیتی فأعطانا ذلک» و قوله: یا فاطمة أتدرین لم سمیت فاطمة؟ فقال علی: لم سمیت؟ قال علیه الصلاة و السلام «إن الله عزوجل قد فطمها و ذریتها من النار یوم القیامة». ۶ - و فریق یری أن أبناء علی من الزهراء هم الذریة المقصودة فی سورة الطور حیث قوله - جل ثناؤه «و الذین آمنوا و اتبعتهم ذریتهم بإیمان ألحقنا بهم ذریتهم و ما ألتناهم من عملهم من شیء» و رووا عن ابن‌عباس أن رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم) قال: «إن الله لیرفع ذریة المؤمن إلیه فی درجته». و بهذا ترتفع ذریة النبی - و هی ذریة علی من الزهراء - فتلتحق

بالنبى (صلى الله عليه و آله و سلم). و هذا المعنى تفيده الآية ۲۳ من سورة الرعد «جنات عدن يدخلونها و من صلح من [صفحه ۷۱] آبائهم و أزواجهم و ذرياتهم» فأهل‌البيت ذرية داخلة الجنة مع جدها عليه الصلاة و السلام. ۷ - و هذا فريق يوسع فيشمل ذوى القربى، و تشمل آل محمد (صلى الله عليه و آله و سلم)، بقوله تعالى فى سورة الشورى: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى». و قال قوم إن للنبى قرابة فى كل بطن من بطون قريش، و إن كان أخص القرابة هم الذرية. و ظاهر هذه الافراق على ان ذرية على من فاطمة من اهل‌البيت، و ان الخلاف فيما عدا ذلك، و الحقيقة إن الذرية وحدها و عليا و فاطمة هم أهل‌البيت، بدلالات شتى من الحديث... ثابت منها أن النبى طفق ستة أشهر - بعد نزول آية التطهير - يمر وقت صلاة الفجر على بيت فاطمة فينادى «الصلاة يا أهل‌البيت، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل‌البيت و يطهركم تطهيرا». فهذا نص، و أنص منه حديث أم‌سلمة، إذا أفصح عنهم، و استبعد سواهم. و فى بعض الروايات أن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) أدخل عليا و فاطمة وابنيهما تحت الكساء ثم جعل يقول «اللهم إليك لا إلى النار و أنا و أهل‌بيتى. اللهم هؤلاء أهل‌بيتى و خاصيتى - و فى رواية و حامتى - اللهم أذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا». و سيظل وصف أهل‌البيت قضية بين بنى‌العباس و بنى على؛ فهو من مسوغات الخلافة و استمرار الرضى عنها. سأل الرشيد يوما الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق عليهماالسلام: بم قلتم نحن ذرية رسول الله و أنتم بنو على؟ قال: قال تعالى: «و من ذريته داود و سليمان و أيوب و يوسف و موسى و هرون و كذلك نجزى المحسنين و زكريا و يحيى و عيسى». و ليس لعيسى أب، و إنما ألحق بذرية الأنبياء من قبل أمه. و كذلك ألحقنا بالنبى من أمنا فاطمة. و زيادة على ذلك قال عزوجل: «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم [صفحه ۷۲] و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» و لم يدع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عند مباهلة النصارى غير على و فاطمة و الحسن و الحسين. و لم يكن لوصف أهل‌البيت كبير خطر، فى دنيا الملوك من بنى أمية، فلقد قهروا أهل‌البيت جهارا نهارا، برماحهم، و استقرار الأمور لهم - لكن الدولة فى عهد بنى‌العباس قامت على شعار الدعوة «للرضا من آل محمد» دون تسمية أحد بذاته. و لما أقبلت جيوش خراسان يقودها أبومسلم الخراسانى، بالدولة الجديدة، بعد ربع قرن من الإعداد السرى، كان مقدمها و انتصارها استجابة لهذا الشعار. كتب أبومسلم الخراسانى أيامئذ إلى الإمام جعفر الصادق «إنى قد أظهرت الكلمة و دعوت الناس عن بنى‌أمية إلى موالاة (أهل‌البيت) فإن رغبت فلا مزيد عليك» و أجاب جعفر الصادق معلنا فلسفته «ما أنت من رجالى. و لا الزمان زمانى». [۲۰] . و فى الوقت ذاته بعث أبوسلمة الخلال - الملقب بوزير آل محمد، و الذى سيصبح وزيرا للسفاح أول خلفاء بنى‌العباس - إلى جعفر الصادق (عليه‌السلام)، و عبدالله بن... «الحسن»، و عمرو الأشرف، من أبناء على، مع رجل من موالى أبى‌سلمة قائلا له: إن أجاب جعفر فلا تذهب إلى غيره، و إن لم يجب فاقصد إلى عبدالله، فإن أجاب فأبطل كتاب عمرو. و ذهب الرسول إلى جعفر فقال: مالى و لأبى سلمة، و هو شيعة لغيرى. و وضع الكتاب فى النار حتى احترق - و أبى أن يقرأه. قال الرسول: ألا تجيبه؟ قال: قد رأيت الجواب. [صفحه ۷۳] ثم مضى الرسول إلى عبدالله. فقرأ الكتاب. و قصد إلى جعفر الصادق ينبئه بورود الكتاب إليه من شيعته بخراسان. قال الصادق له: و متى كان لك شيعة بخراسان؟ أأنت وجهت أبامسلم إليهم؟ هل تعرف أحدا منهم باسمه؟ فكيف يكونون شيعتك و هم لا يعرفونك و أنت لا تعرفهم. قال عبدالله: كأن هذا الكلام منك لشىء؟ قال الصادق: قد علم الله أنى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم. فكيف ادخره عنك؟ فلا تمن نفسك فإن الدولة ستتم لهؤلاء. و ذات يوم دخل على جعفر الصادق سدير الصيرفى قال: يا أبا عبدالله! ما يسعك القعود. قال لم؟ قال لكثرة أنصارك... مائة ألف. مائتى ألف. فتساءل الإمام عن عدد المخلصين منهم. و أبدى زهدا و بصرا بالعواقب. و إبراهيم الإمام يكتب إلى واحد من دعاته فى خراسان (... و إن استطعت ألا تبقى فى خراسان من يتكلم العربية فافعل) و هو تعطش للدم فى سبيل السلطة، وسفك لدماء العرب خاصة، لا يقول به واحد من ائمة أهل‌البيت (عليهم‌السلام). و كان بنوهاشم قد اجتمعوا قبل ذلك بالأبواء - شمال المدينة - و الأوضاع تغلى فى خراسان، و الجو يزخر بالنذر، فعلى الذين يرسلون الدعاة إلى خراسان، و الذين تجرى الدعوة لهم، أن يتدارسوا أمورهم، ليعرفوا لمن تؤول الأمور. فمثل فرع العباس بن عبدالمطلب عم النبى إبراهيم الإمام (ابن‌محمد بن

على بن عبدالله بن عباس)، و أخوه أبوجعفر (المنصور). و عمهما صالح بن على. و مثل فرع بنى على بن أبى‌طالب، عبدالله بن الحسين (بن الحسن بن على) و ابناه محمد و إبراهيم. و محمد بن عبدالله بن... عثمان بن عفان (لأن أمه من بنى‌الحسن بن على) و هو أخو عبدالله لأمه. و أجمع الفرعان على «محمد بن عبدالله بن الحسن» الملقب بالنفس الزكية لورعه الكامل و علمه المشهود به. بل قد تحمس له أبوجعفر، و كان يومئذ يلبس قباء [صفحه ۷۴] اصفر. و لما حج محمد لقى أباجعفر فبايعه مرة أخرى بالمسجد الحرام ذاته، و أمسك أبوجعفر بركابه يومذاك و راح يقول للناس: هذا مهدينا أهل‌البيت. و إذ لم يكن لبيت الحسين ممثل فى اجتماع يوم الأبواء، بعث عبدالله بن الحسن إلى كبيرهم جعفر بن محمد فحضر و اعترض على بيعة محمد بن عبدالله. قال: لا تفعلوا. فإن هذا الأمر لم يأت بعد. فغضب عبدالله و قال: لقد علمت خلاف ما تقول. و لكن يحملك على هذا الحسد لابنى. قال جعفر: و الله ماذاك يحملنى. و لكن هذا و أخوته و أبناؤهم دونكم... إنها والله ما هى إليك و لكن لهم. و إن ابنيك لمقتولان. ثم نهض و توكأ على يد عبدالعزيز بن عمران الزهرى فقال: «أرأيت صاحب القباء الأصفر» - «أباجعفر» - قال نعم: قال: فإنا والله نجده يقتله. قال عبدالعزيز: أيقتل محمدا؟ قال: نعم. قال عبدالعزيز - فيما بعد - فقلت فى نفسى (حسده و رب الكعبة). ثم قال عبدالعزيز: ثم والله ما خرجت من الدنيا حتى رأيته قتلهما (محمدا و أباه). قال: فلما قال جعفر (عليه‌السلام) ذلك، انفض القوم فافترقوا و لم يجتمعوا بعدها . و تبعه أبوجعفر (المنصور) و عبد الصمد (من أعمام أبى‌جعفر) فقالا: يا أبا عبدالله أتقول هذا؟ قال: نعم. أقول و الله و أعلمه... قالوا: كان أبوجعفر يسميه الصادق لصدق نبوءته. و قالوا: دعا محمد عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة لمبايعته فاعتل عليه و قال: لا أبايع أحدا حتى أختبر عدله. و لقد ظل أبوجعفر المنصور يذكر هذا لعمرو. و كان جعفر الصادق (عليه‌السلام) إذا رأى محمد بن عبدالله بعد ذلك اغرورقت عيناه و قال: بنفسى هو... ان الناس ليقولون إنه المهدى. و إنه لمقتول. ليس فى «كتاب على» من خلفاء هذه الأمة... [صفحه ۷۵] بايع أبوسلمة الخلال للسفاح. و لم يبايع لأبى جعفر، الأخ الأكبر، لأن أمه كانت أمولد بربرية تدعى سلامة. وبدأ حكم بنى‌العباس فى سنة ۱۳۲. و أذيع فى الملأ أن محمد بن على - أباالسفاح - موصى له بوصية من «أبى‌هاشم» عبدالله بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى‌طالب، إذ أحس عبدالله أثر السم الذى سقاه دسيس من الخليفة سليمان بن عبدالملك بن مروان (۹۸) فمال فى الطريق إلى حيث مات عند محمد «بالحميمة». وثمة من يعتقد أن الإمامة قد انتقلت بعد استشهاد الحسين إلى أخيه محمد بن الحنفية (امه خولة بنت جعفر من بنى حنيفة). و هذه الوصية تغنى بنى‌العباس عن الخلاف مع أبناء على، فى أن يكون العباسيون من أهل‌البيت أو لا يكونون. بهذا صير بنوالعباس محمد بن على بن عبدالله بن العباس إماما. فلما مات آلت الإمامة إلى ابنه إبراهيم فنودى بأنه «ابراهيم الإمام». فلما قتل ابراهيم بايعوا للسفاح سنة ۱۳۲.

بين ابناء على و بنى‌العباس

قضى «السفاح» على الأحياء من بنى‌أمية و بنى‌مروان، فاستحق فى التاريخ لقبه. و أدار وجهه للآخرين. فسأل عبدالله بن الحسن عن ابنه محمد (النفس الزكية) و أخيه إبراهيم، فلما علم باختفائهما سكت عن الطلب حينا، ثم عاجله أجله. و ولى أبوجعفر سنة ۱۳۶، و ألح فى طلبهما، فأعجزاه هربا. و للأقرباء، أو الأصدقاء، أولوية فى سورة السلطة إذا عريت من خشية الله. و أولى الناس بالفتكة البكر منها: الأقرباء إذا خيف أن يصيروا أعداء، و الأصدقاء الذين يحتمل أن يقدروا على الإيذاء... فالأولون يغرى السلطان بهم الحسد أو الحقد أو الخوف من جانبه، لما يعرفون من دخائل يخشاها، أو لما يتضح لهم من عورات، أو فيهم من مطامع، أو استخفاف بالسلطان، الذى رأوه و هو سوقة، أو مطالبة السلطان لهم بإعطائه حقه، أو أكثر من حقه. و الآخرون أحرى بالخوف و الحذر، سدا لذريعة [صفحه ۷۶] الوثوب وانتهاز الفرص. أو شغلا لهم بأنفسهم، أو معالجة من السلطان لما يكابده من الشجن أو الفزع من جراء الحكم، أو من العجز أو الجشع أو ضيق الصدر أو الأفق. و كالسلطان أعوانه. و لا يتوازن فى سدة السلطة الا القليلون. و قل ما يتوازنون. و للإمام الصادق (عليه‌السلام) فى ذلك مقولة دالة «إذا كان لك صديق فولى ولاية فأصبته على العشر مما كان لك عليه قبل ولايته فليس بصديق

سوء». قيل لأبى جعفر «لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنت لم تسمع بالعفو»! فقال: (لأن بنى‌مروان لم تبل رممهم بعد. و نحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة و نحن اليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا فى نفوسهم إلا بنسيان العفو و استعمال العقوبة). و صاحب السلطة كراكب الأسد (على ما قال افلاطون) يهابه الناس و هو لمركوبه أهيب. لهذا أخذ بنوالعباس أبناء على، أخذ ظلوم غشوم، و بطشوا، و غدروا بمن حذروهم من أنصارهم و ذويهم، كعبد الله بن على عم المنصور، و أبى‌مسلم الخراسانى قائدهم، و أبى‌سلمة الخلال وزيرهم، بمثل ماغدروا باعدائهم بعد أن أمنوهم. و لما أعطى أبوجعفر المنصور محمد بن عبدالله أمانا كتب إليه محمد ساخرا (أى أماناتك هو؟ أأمان ابن‌هبيرة، أو أمان عمك عبدالله أو أمان أبى‌مسلم)... فقد أعطى أبوجعفر عهودا للكل، و قتل الأول و الثالث و لم يكن قد قتل الثانى بعد. لكنه كان قد حبسه من سبع سنين ليقتله بعد أن يقتل محمد بن عبدالله بن الحسن ذاته. فصير خلافته، كالمسبعة، لا يأمن فيها الصديق، و العدو، و الصياد، و الفريسة! و زاد ضراوة أبى‌جعفر على أقربائه أن لواحد منهم فى عنقه بيعة، على ملأ منهم. كانت حرية أن تمنعهم و تمنعه، لولا ما للشهوة من خدر يطيح بالتوازن، فسولت له نفسه أن يتخلص من البيعة بالخلاص ممن بايعه، و ان كان من قبل يمسك بركابه. بل طوعت له شهوته أن يتخلص ممن قد يشهد ضده حتى لايراه الناس أو يسمعوه [صفحه ۷۷] يحكى لهم ما قد رأى و قد سمع: قال يعقوب بن عربى: (سمعت أباجعفر يقول فى ايام بنى‌أمية ما فى آل محمد أعلم بدين الله و لا أحق بولاية الأمر من محمد بن عبدالله... و بايع له... و كان يعرفنى بصحبته، و الخروج معه... فلما قتل (محمد) حبسنى عشرين سنة). طلب أبوجعفر من عبدالله بن الحسن ابنيه محمدا و إبراهيم؛ فأنكر علمه بمكانهما، فجرت بينهما مشادة، و أغلظ كل لصاحبه، و انصرف المنصور من المدينة، فبث الجواسيس يأتونه من كل مكان بأخبار بنى الحسن. و فى سنة ۱۴۰ قصد أبوجعفر للحج فنزل بالمدينة، و دعا عبدالله بن الحسن و طالبه بولديه. و كانا يأتيان أباهما معتمين فى هيئة الأعراب فيستأذنانه فى الخروج فيقول «لا تعجلا حتى تملكا. إن منعكما أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين». و لما لم ينل أبوجعفر منالا انصرف من المدينة و أمر بحبس عبدالله و أهل‌بيته، فبقوا فى السجن ثلاث سنين فى دار مروان - دار الإمارة فى حكم بنى‌أمية - حتى إذا كانت سنة ۱۴۴ ولى أبوجعفر المنصور رباح بن عثمان عاملا على المدينة. و حج فى العام ذاته فتلقاه عامله بالربذة فرده إلى المدينة لإشخاص عبدالله بن الحسن و أهل‌بيته - بما فيهم محمد بن عبدالله... بن عثمان - شاهد البيعة يوم الأبواء - فكانوا خمسة عشر أخذوا فى محامل إلى الربذة. و نظر الإمام الصادق (عليه‌السلام) إليهم و عيناه تهملان حتى جرت دموعه على لحيته. و اقتيدوا إلى الربذة فى الاغلال، و مزقت السياط جسد (محمد بن عبدالله... ابن‌عثمان) حتى إذا خرج أبوجعفر فى محمل، ناداه عبدالله بن الحسن قائلا: يا أباجعفر! و الله ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر... فلوى أبوجعفر رأسه كبرا و لم يعرج. و حمل أهل‌البيت تلقاء النجف. حتى إذا دخلوا الكوفة حبسوا فى قصر كان لابن هبيرة فى شرقى الكوفة... و هدم عليهم البيت بعد ستين يوما، فمات الذين لم يموتوا [صفحه ۷۸] فى أثنائها، و دفن الجميع تحت الأنقاض... و شيخهم عبدالله فى الخامسة و السبعين! و اعلن محمد بن عبدالله الثورة لليلتين بقيتا من جمادى سنة ۱۴۵ فاستولى على المدينة. و خرجت المدينة بأسرها مع محمد. فكان فى جيشه علماؤها الفحول. فيهم ابن‌هرمز شيخ مالك، و ابن‌عجلان، و ابن أبى‌سبرة، و عبدالله بن عمر العمرى، و مصعب بن ثابت الزبيرى. اما مالك فاكتفى فى الحرب بفتياه أن بيعة المنصور كانت مكرهة، و من أجلها أصابه ما أصابه [۲۱] من والى أبى‌جعفر و ابن‌عمه سنة ۱۴۶. و خرج مع محمد موسى و عبدالله ابناء الإمام جعفر الصادق (عليه‌السلام). و قصد جعفر الصادق (عليه‌السلام) إلى محمد فى مجلس حربه قال: أتحب أن يصطلم أهل بيتك (يستأصل)؟. قال: ما أحب ذلك. قال: فإن رأيت أن تأذن لى، فإنك تعرف علتى. قال محمد: قد أذنت لك. و مضى جعفرالصادق (عليه‌السلام)، فالتفت محمد إلى ابنى جعفر و قال لهما: الحقا بأبيكما فقد أذنت لكما. و التفت الامام فقال: ارجعا فما كنت لأبخل بنفسى و بكما. و وجه المنصور إلى المدينة جيشا بقيادة ابن‌عمه، و ولى عهده، عيسى بن موسى. و فى غرة رمضان ثار إبراهيم أخومحمد و استولى على أكثر من مكان فى إقليم البصرة - ثم استشهد محمد فى ۱۴ من رمضان سنة ۱۴۵ ه. و استشهد إبراهيم [۲۲] عند باخمرى [۲۳] لخمس بقين من ذى القعدة، و أرسل رأسه إلى أبى‌جعفر المنصور. و استولى عيسى بن موسى على «عين أبى‌زياد»، و هى ضيعة لجعفر

الصادق عليه‌السلام التى يقتات منها، و يشرك فى ثمرها أهل المدينة. [صفحه ۷۹] و سنرى المنصور بعد عامين من انتصار عيسى بن موسى يخلعه من ولاية العهد، و يولى ابنه المهدى سنة ۱۴۷. و كان قد حبس عمه عبدالله بن على من سنة ۱۳۸ فى دار تهدم عليه فيموت سنة ۱۴۷! و عبدالله عمه و قائده المنتصر على آخر ملوك بنى‌أمية فى معركة الزاب. لكنه تمرد عليه، فأرسل إليه جيشا بقيادة أبى‌مسلم الخراسانى، و لجأ عبدالله إلى أخويه سليمان و عيسى فأخذا له عهدا على المنصور كتبه «ابن‌المقفع» و فيه (و متى غدر أميرالمؤمنين بعمه فنساؤه طوالق، و دوابه حبس، و عبيده أحرار، و المسلمون فى حل من بيعته) فأما «أبومسلم» فسيدعوه أبوجعفر إلى قصره بعد أمان يعطيه إياه ثم يخرج عليه عبيده فيقتلونه أمامه. و أما عبدالله بن المقفع فسيقتله و الى أبى‌جعفر سنة ۱۴۲. فيشفى صدر أبى‌جعفر. روى الإمام الصادق ما كان بعد أن كان بعد أن هدأت الأحوال... قال: (لما قتل إبراهيم بن عبدالله بباخمرى حسرنا عن المدينة – و لم يترك فينا محتلم حتى قدمنا الكوفة. فمكثنا فيها شهرا نتوقع القتل. ثم خرج إلينا الربيع الحاجب فقال: أين هؤلاء العلوية؟ أدخلوا على أميرالمؤمنين رجلين منكم من ذوى الحجى. فدخلنا إليه أنا و الحسن بن زيد، فلما دخلنا عليه قال: أأنت الذى تعلم الغيب؟. قلت: لا يعلم الغيب إلا الله. قال: أنت الذى يجبى إليه هذا الخراج؟ قلت: إليك يجبى – يا أميرالمؤمنين – الخراج . قال: أتدرون لم دعوتكم؟ قلت: لا. قال: أردت أن أهدم رباعكم، و أروع قلوبكم، و أعقر نخلكم، و أترككم بالسراة... لا يقربكم أحد من أهل الحجاز و أهل العراق. فإنهم لكم مفسدة. [صفحه ۸۰] قلت له: يا أميرالمؤمنين إن سليمان أعطى فشكر. و ان أيوب ابتلى فصبر. و ان يوسف ظلم فغفر. و أنت من ذلك النسل. فتبسم و قال: أعد على ما قلت. فأعدت، فقال: مثلك فليكن زعيم القوم. و قد عفوت عنكم و وهبت لكم جرم أهل البصرة. حدثنى الحديث الذى حدثتنى عن أبيك عن آبائه عن رسوله الله (صلى الله عليه و آله و سلم). قلت: حدثنى أبى عن آبائه عن على عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «صلة الرحم تعمر الديار و تطيل الأعمار و ان كانوا كفارا». قال: ليس هذا. قلت: حدثنى أبى... عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «الأرحام معلقة بالعرش تنادى: اللهم صل من وصلنى و اقطع من قطعنى». قال: ليس هذا. قلت: حدثنى أبى، أن الله عزوجل يقول: «أنا الرحمن خلقت الرحم و شققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته و من بتها بتته». قال ليس هذا الحديث. قلت: حدثنى أبى... «أن ملكا من الملوك كان بقى من عمره ثلاث سنين فوصل رحمه، فجعلها الله ثلاثين سنة». قال: هذا الحديث أردت. أى البلاد أحب إليك؟ فوالله لأصلن رحمى إليكم. قلنا المدينة. فسرحنا إلى المدينة. و كفى الله مؤنته). فى هذا اللقاء دليل على ما يخشاه من بنى على، و من الصادق (عليه‌السلام) بالذات. فما يخشاه من بنى على هو فتنة الناس إذ يجتمعون إليهم. أما ما ينعاه على الصادق و هو الوحيد الباقى ممن يمكن أن يجتمع بنو على، و الناس، حولهم – فلقد كان خليقا أن تطيب به نفسه لما فيه من مصلحة له... و هو الادعاء على الصادق بأنه يعلم الغيب. فإنه لم يبايع لأحد يوم الأبواء. بل ذكر أنها (الخلافة) ستكون لصاحب القباء الأصفر و هو أبوجعفر. [صفحه ۸۱] لكن الصادق (عليه‌السلام) كان حاسما فى رده عليه بأنه لا يعلم الغيب إلا الله. و كان مما يخشاه أن يجبى إلى الصادق خراج بعض الرعية، مما يعطى للإمام، و كان الصادق فى ذلك حاسما أيضا، إذ أعلن أن الخراج لا يجبى إلا لأبى جعفر، لانه أميرالمؤمنين. قال: إليك يجبى – يا أميرالمؤمنين – الخراج. و جعل التسليم بإمارة المؤمنين يسبق كلمة الخراج، فهذه العبارة بيعة بتمامها. و الخراج حق من بويع له. و كان انتقال أبى‌جعفر من استجوابهم إلى إخبارهم بأسباب دعوتهم، نقلة من الغضب إلى غيره... و من الاستجواب إلى الوعيد، و إلى الاستعلاء. لكن الصادق نقله من عالم الكبرياء المظلم، إلى آيات الله التى تطمئن لها القلوب فجعله – دون أن يشعر – مقارنا فى موقفه بمواقف الأنبياء لعله يهتدى بهم، و ذكره كلام ربه جل و علا، و ذكره الشكر و الصبر و المغفرة، و ذيل ذلك كله بأنه من نسل الذين يغفرون و يشكرون و يصبرون. بهذا أمكن الرجل الذى قد قلبه من الصخر أن يبتسم. بل أقبل يسأل أن يتعلم. فحدثه الإمام الأحاديث، واحدا بعد واحد، حتى وقف منها عند حديث طول العمر. فلقد كان يرجو أن يطول عمر دولته، التى يخسر من أجلها فى كل يوم آخرته، فظن أنه بهذا الحديث يجد أمانا لنفسه أو تخفيفا لما تكابده. و عندئذ ظهر ضعف نفسه، و جلال شأن المعلم الذى يتعلم عليه. و لم يكد الإمام يأخذ زمام الكلام حتى راح يعلمه درسا من الدروس فى البداء؛ و هو: أن القضاء الذى يتوقف على الشرط يتحقق عند وقوع الشرط.

فهذا ملك وصل رحمه فطالت عمره من ثلاث إلى ثلاثين، - و كان أبوجعفر ملكا - و لكم طالت العمر على ملك بنيه و حفدته. فلقد كان كل خلفاء بنى‌العباس بعده منه، ملكوا خمسة قرون، حتى دمر الظلم دولتهم. إنما كان أبوجعفر يتداول الإمام الصادق بحذر خليق بما للصادق من كرامة عند الله و الناس. و هو صاحب أكبر مدرسة شهدتها حواضر الإسلام فى ذلك الزمان: المدينة، و مكة و الكوفة و بغداد و الفسطاط. و كان فى الستين من العمر، يروى عنه [صفحه ۸۲] الآلاف حديث النبى وفقه الصادق و أبيه و أجداده. و الذين يحسنون الظن بالمنصور لا يتصورون حلمه يطيش فيفقد الأمة الإمام الذى لا ينازعه ملكه. و ربما جاز للذين لا يحسنون الظن، أن يخالفوه يحسب حسابا للأعداد التى لا تحصى من تابعى الإمام. و قد كان أبوجعفر يحسب حساب العلماء. و من بطش الحكام بالعلماء ما يدمر الدول. و من فداء الأتباع ما يستهان فيه بعرين الأسد. لقد اقتحم الفدائيون من أتباع سنان (شيخ الجبل) خيمة صلاح‌الدين و هو فى عسكره ليصيبوه بخناجرهم فى وجهه. ظاهر من حديث الإمام أنه حدثه فى صلة ذوى الأرحام، و إن كانوا كفارا، فما أحراهم بالصلة إن كانوا غير ذلك. و يظهر مما يرويه الطبرى أن أباجعفر كان يود أيامئذ لو نسى الناس ما كان من أهل‌البيت فى حقه، و ما كان منه فى حقهم. روى الطبرى: لما أتى المنصور برأس إبراهيم بن عبدالله وضعه بين يديه و جلس مجلسا عاما و أذن للناس. فكان الداخل يدخل فيسلم و يتناول إبراهيم فيسىء القول فيه، و يذكر منه القبيح التماسا لرضى أبى‌جعفر، و ابوجعفر ممسك متغير لونه... حتى دخل جعفر بن حنظلة البهرانى فسلم ثم قال «عظم الله أجرك يا أميرالمؤمنين فى ابن‌عمك و غفر له ما فرط فيه من حقك» فاصفر لون أبى‌جعفر و أقبل عليه فقال: أباخالد! مرحبا و أهلا. فعلم الناس أن ذلك قد وقع منه... فدخلوا فقالوا مثل ما قاله جعفر بن حنظلة. و ربما دل على ذلك الميل ما يرويه عيسى به رؤبة: لما جىء براس ابراهيم فوضع بين يدى ابى‌جعفر بكى حتى رايت دموعه على خدى إبراهيم... ثم قال: أما والله إن كنت لهذا لكارها، لكنك ابتليت بى وابتليت بك. و لقد ترك أبوجعفر الذين تواروا عنه ممن خرجوا مع محمد و إبراهيم، و منهم الحسين بن زيد. و كان الحسين قد تربى فى بيت جعفر الصادق بعد قتل زيد. و كان [صفحه ۸۳] يسمى «ذا الدمعة الكبيرة» لكثرة بكائه على أبيه و أخيه يحيى. و لم يستجوب المنصور ولدى جعفر الصادق عبدالله و موسى.. و قد خرجا مع محمد، و ترك علماء المدينة، و ترك عيسى بن زيد إذ توارى عنه. و لما قيل له من حرسه أو من المنافقين: ألا تطلبه؟ قال لا و الله لا أطلب منهم رجلا بعد محمد و إبراهيم: أنا أجعل لهم ذكرا؟ و من ناحية أخرى ففقه الإمام الصادق يعلم الناس طاعة الإمام العادل. و الصادق هو القائل: (لا يستغنى أهل بلدة عن ثلاثة يفزع إليهم فى أمر دنياهم و آخرتهم. فقيه عالم ورع، و أمير خير مطاع، و طبيب بصير ثقة، فإن عدموا ذلك كانوا همجا). و هو فقه فى طاعة الخليفة العادل أو الأمير الخير. و أبوجعفر يتمنى أن يظهر فى الناس كذلك. و الصادق يقول - و لا نحسبه يقصد إلا أباجعفر و أبناء عمه - (ما تثبت الدنيا إلا على بنى‌العم و المتعاطفين بالبر المتعلقين بالأدب المجتمعين على التناصر). فهذه يد ممدودة بالسلام من الإمام، و درس للرعية لتسلم العنان لامير خير. و فى سنة ۱۴۷ عزم المنصور و هو راجع من موسم الحج أن يسير الإمام الصادق من المدينة إلى العراق فاستعفاه الإمام فلم يعفه و حمله معه. و لكن الصادق كان يقبل عليه بمقدار فليست دنيا أبى‌جعفر لتجدر بالمقاربة. و فى ذات يوم أرسل إلى الصادق: لماذا لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس فأجابه «ما عندنا ما نخافك عليه و لا عندك من الآخرة ما نرجوك له. و لا أنت فى نعمة فنهنيك عليها. و لا نعدها نقمة فنعزيك عليها. فلم نغشاك»؟ و يجيب أبوجعفر: تصحبنا لتنصحنا. و يجيب الإمام: «من أراد الدنيا فلا ينصحك و من أراد الآخرة فلا يصحبك» فالذى يريد الدنيا يسير فى ركب صاحبها فلا يقول كلمة لله. و الذى يريد الآخرة يعتزل مجالس رجل يعجزه عمله و يعميه أمله عن طريق الآخرة. و صدق «جعفر الصادق». [صفحه ۸۴] دخل عليه سفيان الثورى يوما فقال له: اتق الله فقد ملأت الارض ظلما و جورا فطأطأ رأسه و قال: ارفع حاجتك... قال سفيان: حج عمر فقال للخازن: كم أنفقنا من بيت المال. قال: بضعة عشر درهما. و أرى هنا أموالا لا تطيق الجمال حملها... و خرج سفيان. و لما راجع المنصور كاتبه ليقتل سفيان قال له «اسكت يا أنوك (أحمق). فما بقى على الأرض من يستحى منه غير (مالك) و سفيان». [۲۴] . [صفحه ۸۵] و إذا كان هذان الإمامان اللذان ليس فى الأرض غيرهما، تلميذين فى مجلس الإمام الصادق... يلتمسان علمه و يترسمان هديه، فما أحوج

الخليفة إلى أن يقارب مجلس الصادق بأن يدعوه إلى مجلسه. الحق أن أباجعفر كان من فزعه من الآخرة و حاجته إلى رضى الرعية صادق [صفحه ۸۶] الرغبة فى التقرب إلى العلماء، و من أجل ذلك كان يرضى منهم ما يصك مسامعه من النقد و إن كان لا يستجيب له. (!) طلب ذلك من صديقه عمرو بن عبيد، و المعافرى، [۲۵] فاعتزلاه لكثرة الظلم على بابه كما قالا له. وهز ضميره ابى أبىذؤيب و توعده بجهنم. و كمثله صنع ابن‌طاووس فقبل استعفاء الصديقين، و أقر صدق ابن أبىذؤيب [۲۶] فقال له: لو لا أننى أعلم أنك صادق لقطعت عنقك، كما ارتاح لابن طاووس مع رفضه أن يطيعه مخافة أن تؤدى طاعته إلى المشاركة فى معصية. و لقد رفض أبوحنيفة أن يجلس للقضاء فى دولته بحجة الخوف من أن يظلم الناس إرضاء لحاشية يحب أبوجعفر أن يكرمها. و ما إكرام الحاشية إلا الحكم لمصلحتها فيما ترتكب من مظالم، لحساب صاحب السلطان أو نتيجة إغضائه. و هذا رد فقهى من إمام أهل الرأى يتضمن التنديد بأبى جعفر و صحبته. و صحبة الظالم وجه مشاركة فى الحكم، و ربما فى الظلم، بتوطيد الأمور للظالم أو بتمكينه أن يبلغ غرضه، أو تقديم مصلحته على مصلحة المحكومين. و فيها شهادة له فى الناس. فهى شركة خاسرة فى الدنيا و الآخرة. و الإمام الصادق هو القائل «أيما مؤمن قدم مؤمنا إلى قاض أو سلطان جائر، فقضى عليه بغير حكم الله، فقد شركه فى الإثم». [صفحه ۸۷] و ذات يوم دخل زياد الفندى على الامام الصادق (عليه‌السلام) فقال له: وليت لهؤلاء؟ يقصد أصحاب السلطان - قال زياد: نعم... لى مروة و ليس وراء ظهرى مال. و إنما أواسى إخوانى من عمل السلطان. فقال: «يا زياد. أما إذ كنت فاعلا، فإذا دعتك نفسك إلى ظلم الناس عند القدرة على ذلك فاذكر قدرة الله عزوجل على عقوبتك و ذهاب ما أتيت إليهم عنهم، و بقاء ما أتيت إلى نفسك عليك». و فى واحد من اللقاءات يقول الصادق (عليه‌السلام) مخاطبا المنصور «لقد بلغت ثلاثة و ستين، و فيها مات أبى و جدى» ليعلن له الاستخفاف بالموت الذى يتهدد الناس به، و أن الإمامين اللذين قضيا - زين‌العابدين و الباقر عليهماالسلام - لم يعمرا أكثر مما عمر، و لكل أجل كتاب... فماذا يهاب؟ إنه يطلق إعلانه بلغة عالية، و فى هدوء قادر على أن يطفئ جذوة رجل خصم، و فى توكل على الله يبلغه مأمنه. فهو إذا واجهه واجهه و الله معه. أرسل إليه المنصور ذات يوم رزام بن قيس يدعوه للقائه، ففصلا عن المدينة، حتى بلغا النجف فنزل الامام عن راحلته فأسبغ الوضوء و صلى ركعتين ثم رفع يديه و هو يقول: «اللهم بك أستفتح، و بك أستنجح، و بمحمد عبدك و رسولك أتوسل. اللهم سهل حزونته و ذلل لى صعوبته و أعطنى من الخير أكثر مما أرجو و اصرف عنى من الشر أكثر مما أخاف». ثم ركب راحلته حتى إذا بلغا قصر المنصور، أعلم المنصور بمكانه. فلم يحجبه قليلا- أو كثيرا، بل تفتحت الأبواب و رفعت الستر. فلما قرب من المنصور قام إليه فتلقاه، و أخذ بيده و ماشاه... حتى انتهى به إلى مجلسه... ثم أقبل عليه يسأله عن حاله. و ذات يوم عزم المنصور على حاجبه الربيع بن يونس أن يدعوه، و كانت تبرق فى أساريره بوارق الخطر. فلما خرج من اللقاء بسلام، سأل الربيع الإمام الصادق عليه‌السلام عن الدعاء الذى دعا به ربه، فأكرمه الله فى لقاء المنصور. فأخبره به. فالصادق يستحضر رضى بارئ السماء فى كل آونة، و تعينه السماء. و مع ذلك السلام الذى نشده الصادق و علمه، يروى الطبرى أن المنصور لما عزم [صفحه ۸۸] الحج - فى آخر أيامه - دعا ريطة بنت أبىالعباس زوج المهدى، و كان زوجها بالرى، فأوصاها بما شاء و دفع إليها مفاتيح غرفة بها خزانته، و أمرها ألا تسلمها إلى المهدى إلا عندما يجىء نبأ موت المنصور. فلما مات ذهبت ريطة و المهدى ففتحا الغرفة فإذا بقتلى من بنى على (عليه‌السلام) فى آذانهم رقاع... فيها أنسابهم... و هم بين شيوخ و شباب و أطفال. فلما رأى المهدى ذلك ارتاع. فحفرت لهم مقبرة دفنوا فيها ثم بنى عليها دكانا. لم يكن المنصور يكتفى بأن يقول مقالة لويس الرابع عشر بعد ثمانية قرون «أنا الدولة»... ذلك المقال الذى نبذه و استهجنه الساسة و المؤرخون فى الشرق و الغرب، بل كان المنصور يدعى دعوى أبعد و أشد. كان يخطب فيقول: «إنما أنا سلطان الله فى الأرض» فيجمع فى يده ما عجز عنه الأباطرة و البابوات جميعا! فإنما تقاسم الإمبراطور و الكنيسة الأشياء، فى القرن التاسع للميلاد، فصار لقيصر ملك الأرض و للكنيسة مملكة السماء. أما أبوجعفر المنصور فادعى فى الأرض سلطان السماء. و أى شىء يستبعد على صاحب هذه الدعوى!! و المنصور - مع ذلك - ليس إلا واحد من المستبدين الذين يزخر التاريخ بخطاياهم أو ضحاياهم. إليك مثلا واحدا من تاريخ الدولة التى تلقى إليها الديمقراطية الغربية مقاليدها: لقد أرسل (هنرى الأول) ملك انجلترا

فرسانه يقتلون (توماس) بيكت رئيس أساقفة لندن من أجل خلافه معه فى ولاية العهد لابنه فى الثلث الأخير من القرن الثانى عشر. و فى الثلث الأول من القرن السادس عشر القى (هنرى الثامن) ملك إنجلترا (توماس) ولزى رئيس أساقفة يورك فى السجن ريثما يصدر عليه حكم الإعدام فمات قبل أن يعدم. ثم أرسل إلى المقصلة (توماس) مور كبير قضاته من أجل خلافهما له فى زواجه و طلاقه. [صفحه ۸۹] و لقد كان فزع المنصور من أجل دولته حريا أن يخرجه عن الاتزان فيستحوذ عليه الشيطان، لولا دور الإمام الصادق (عليه‌السلام) فى كبح جماحه فى بعض الاحيان. و الذين يهابون لقاء الملوك ضعفاء عن إخفاء دخائلهم، من البغض أو الحسد أو الخوف. و الذين ليس فى قلوبهم من ذلك شىء يشجعون. أما الأمة فالله معهم. و هو حسبهم... و أين من هذا الذى معه مالك الأرض و السماء، ملوك دولة أو إقليم! من أجل ذلك يشجع الرجال الصدق إذ يستشهدون . و من أجله نظر الصادق إلى المنصور فى شجاعة و صدق... فكان يلزمه القصد و النصفة. و المنصور عليم بما يجرى فى ملكه، و هو يبث جواسيسه فى كل مكان... فلم يلبث سنين حتى أصبح يعلم بكاء بنت (مالك بن أنس) من الجوع فى داخل الدار، و هى و أبوها يكتمانه إلا على الله سبحانه! و المنصور هو القائل عن أوتاد حكمه: ما أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم. و هم أركان الدولة لا يصلح الملك إلا بهم. أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم. و الآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى. و الثالث صاحب خراج يستقصى و لا يظلم الرعية. ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول: آه آه. قيل ما هو يا أميرالمؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة. و بقى عاضا على اصبعه و سيعض على يده يوم القيامة. [صفحه ۹۱]

الرجلان

«يا بنى: إن الذين حولنا لو يعلمون عن على ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده». عبدالعزيز بن مروان [صفحه ۹۳] الحق ان الاختلاف كان شديدا بين الإمام الصادق (عليه‌السلام) و بين الخليفة أبى‌جعفر المنصور: فى طبيعتهما و طريقتهما و غاياتهما. هذا صاحب سلطان... فيه شركاء متشاكسون، تركبه هموم الدنيا، و تلبس جلده شياطينها... يترافع لينحنى الناس له، و يجمع دنياهم فى قبضته. شحيح النفس منقبض اليد، «دوانيقى»، يحسب بالدرهم و الدانق [۲۷] تبدو منه صعقات السلطان عند الفزع... و تحوله مطامعه من الدماثة الى الشراسة، فلا يطمئن له أحد... أقام دولته على أشلاء الأعداء و فزع الأقرباء؛ و جماجم أهل‌البيت فى خزائنه! أما الإمام فرجل سلم لكل رجل: يتواضع ليرفع الناس كلهم، و لا تستعبده الدنيا قيد أنملة... يعطى و لا يأخذ... و يحيى أنفس الناس بالعطاء السمح من العلم، و الجاه، و المال «ما قال لا قط إلا فى تشهده»؛ فهكذا كان أبوه وجده. و الحق كذلك أن المنصور - بنجاحه فى إقامة أكبر دولة فى التاريخ الوسيط - يعتبر واحدا من ثلاثة لا يعرف لهم التاريخ الاسلامى رابعا، و لا ينزل بهم التاريخ العالمى عن أعظم المؤسسين للدول. أولهم معاوية بن أبى‌سفيان، وثانيهم عبدالملك بن مروان. مصايرهم متشاكلة. و وسائلهم متشابهة. و خصامهم لأهل البيت أساس دولتهم. و نجاحهم فى دنيا السلطة مقطوع القرين: بدأوا علماء، و انتهوا ملوكا طغاة! و الإسلام فضل من الله، يسخر لخدمته من يشاء. [صفحه ۹۴] ولو مال عن الجادة رجل، فإنما يخذل نفسه و لا يصيب الإسلام بسوء. لقد أخطأ معاوية فى إقامة دولته و فى حربه. و كان لزاما أن يقوده خطؤه الى أن يجعل الدولة «هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل» فيكون ابنه يزيد أشأم و ألأم خلف لسلف. لكن أحدا لا يتنازع فى أن دولته - و إن لم تمثل دولة الدين - قد انتشرت فى البر و البحر و نشرت الإسلام و جاهد فى غزواتها الصحابة و بنوهم و العلماء و الفقهاء، بل غزا و جاهد فيها بين جيوش المسلمين أبوالشهداء (الحسين بن على) فى فتح أفريقية و غزو جرجان و طبرستان و القسطنطينية. و معاوية هو الذى مهد لدولة ابن‌عمه مروان بن الحكم. و عبدالملك بن مروان هو المؤسس الحقيقى للدولة المروانية التى أينعت فروعها بالأندلس و أبقت الإسلام فى أوربا ثمانمائة عام، لتهيئ للحضارة الحديثة أن تنطلق من جامعات الأندلس و جوامعها. و هو عم عمر بن عبدالعزيز و صهره. و عمر بن عبدالعزيز الذى كتب لعامله على المدينة يوم ولى الخلافة: أقسم فى ولد فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فقد طالما تخطتهم حقوقهم. و قال معلنا حق على و باطل بنى‌أمية و مروان «كان أبى [۲۸]

إذا خطب فنال من على تلجلج. فقلت يا أبت إنك تمضى فى خطبتك فاذا أتيت على ذكر على عرفت منك تقصيرا؟ قال: أو فطنت الى ذلك؟ يا بنى ان الذين حولنا لو يعلمون من على ما نعلم تفرقوا عنا الى أولاده...». لكن أباجعفر كان أثقل الثلاثة حملا. إذا كان معاوية و عبدالملك قد سبقاه ففصلا بين الدين و الدولة و جزءا نظرية الدولة الاسلامية، و كان هو قد سار على الدرب الذى اختطاه، ان المعارك التى خاضها من أجل دولته كانت أوسع مدى و أشد قسوة. [صفحه ۹۵] ففزعه من أبىمسلم و جنده لم يكن إلا رجع الصدى لصوت يتصايح فى آفاق حياته و أعماق ذاته: أنهم سرقوا الدولة من ابناء على. و من هنا خوفه المستمر من انتفاض أهل خراسان الذين جاءوا لمبايعة «الرضا من آل محمد». و أهل‌البيت أولى منه فى أنظار الذين جاءوا به و بأخيه الى السلطة. و خوفه من أعضاء بيته أشد؛ فلقد كان عمه عبدالله بن على قائد جيش الشام، لكنه خرج عليه، و أخمد فتنته أبومسلم الخراسانى، و حتى إذا استسلم - بشروط - حبسه أبوجعفر ليقتله بعد زمن من قتله أبامسلم ذاته. و كان غدر بعيسى بن موسى الذى انتصر على محمد و ابراهيم فسلبه حقه فى ولاية العهد، و ولى ابنه المهدى عهده. فكان غدره كهيئة ما غدر عبدالملك بعمرو بن سعيد الأشدق فى ولاية العهد، قائلا: «ما اجتمع فحلان فى شول إلا أخرج أحدهما صاحبه». و ما كان نقض معاوية عهده مع الحسن بن على (عليه‌السلام)، إلا درس المعلم الأول للرجلين: أن يستعملا الزمن، ينتهزا الفرص، و ان يحركا الحوادث بدهاء، و أن يقطفا الثمار؛ ثمرة فثمرة. و المنصور لا- يتردد فى إعلان التشابه بينهم و فى تعطشه للدم... فيعلن فى الناس أن «الملوك ثلاثة: معاويه و كفاه زياده. و عبدالملك و كفاه حجاجه. و أنا... و لا كفاة لى». كأنما لم يكن فى ما سفكه كفاية، فكان يريد أن يسفك له دما أكثر سفاحون أصغر! الواقع ان أزمات المنصور الدوانيقى كانت آخذة بخناقه من كل صوب. فهى فى نفسه، و فى بيته، و فى دولته، و فى صلته بالأمة؛ ان كانت القوة العسكرية التى أجاءته الى الحكم، قد تخلت عنه بل حملت السلاح ضده، و كانت القوة الفكرية التى قامت عليها الدولة قد صار أصحابها فرائس له، و كانت القوة العصبية (قوة أسرته) تترنح بخروج عمه عبدالله و قتله... و بمغامراته للاستئثار لبنيه بالخلافة دون سائر أهله. فإذا كان ثمة من أحبه، فإن حبهم كان أقبح من البغض، مذ كانوا يؤلهونه، فيكفرون أنفسهم و يفضحونه، بل كادوا يقتلونه، يوم أحاط الراوندية بقصره فلم يمكنه الله [صفحه ۹۶] منهم إلا بمساعدة عدو كان يطلب رأسه، هو معن بن زائدة الشيبانى. و كان معن حريا أن يقتله فى وطيس المعركة. حتى الذى أنجاه كان عدوا له! و فى سنة ۱۴۵ انتفضت خراسان فقتلت جيوشه من أهلها سبعين ألفا و أسرت بضعة عشر ألفا. و لم يكن شغله بالجيوش المحاربة فى المشرق أو فى جزيرة العرب همه الأول. ففى أفريقية خرج عليه محمد بن الأشعث والى أفريقية، فجرد عليه جيشا بقيادة الأغلب بن سالم، و سيقتل الأغلب بعد سنين سنة ۱۵۰. و لم ينهزم الخوارج إلا بعد أن خاضوا ثلثمائة و خمسة و سبعين وقعة! و أمام جيش قوامه خمسون ألفا. كل أولئك و هو من شح نفسه، و من اصطحاب جماجم أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فى خزائنه، فى أمر مريج... يحسب ان كل صيحة عليه هى العدو، و ان كل خروج عليه يدعو الجميع ليخرجوا... و هم على خروج قادرون. مع كل ذلك نجح المنصور بالحذر و الغدر و معاجلة الخصوم. فاستبقى دولته لتكون أطول الدول الإسلامية عمرا... و أبعدها فى الحضارة العالمية أثرا. لكن التاريخ - و قانون الاستقامة - و طبيعة الأشياء - و قانونها (كل فعل رد فعل، مساو له فى المقدار، و مضاد له فى الاتجاه) - لم يتركا أبناءه و حفدته دون عقاب. و كأنما كان طول عمر دولته تطويلا- للعقاب عليهم و تكثيرا لمن ينزل بهم. كان من لوازم السلطة أو علامات عدم الثقة بالنفس أو بالغير أن تتراءى من أبىجعفر فى لقائه لأهل‌البيت (عليهم‌السلام) أو التعامل معهم نزعات المستوفز الحذر، أو مظاهر الاستعلاء عند مواجهة الأعداء، أو من يضعهم فى مواضع الأعداء. لكن الإمام «الصادق» (عليه‌السلام) كان يمسك بالزمام فيرد الخليفة دائما الى حيث يطلب الموعظة، أو العلم. و من إمساك الزمام فى أحد هذه اللقاءات إمساك الخليفة ذاته أن يميل على أهل البيت (عليهم‌السلام)، فيقول له «لا تقبل فى رحمك و أهل الرعاية من أهل بيتك من حرم الله [صفحه ۹۷] عليه الجنة و جعل مأواه النار. فإن النمام شاهد زور و شريك إبليس فى الإغراء بين الناس. فقد قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» و نحن أنصار و أعوان، و للملك دعائم و أركان، ما أمرت بالمعروف و نهيت عن المنكر، و أمضيت فى الرعية أحكام

القرآن، و أرغمت بطاعتك الله أنف الشيطان. و إن كان يجب عليك فى سعة فهمك و كثرة علمك و معرفتك بآداب الله أن تصل من قطعك و تعطى من حرمك، و تفعو عمن ظلمك. فان الكافى ليس بالواصل. إنما الواصل من إذا قطعته رحمه وصلها. فصل رحمك يزد الله فى عمرك، و يخفف عنك الحساب يوم حشرك.» و يقول المنصور: قد صفحت عنك لقدرك، و تجاوزت عنك لصدقك، فحدثنى عن نفسى بحديث أتعظ به و يكون لى زاجر صدق عن الموبقات. و بهذا السؤال انتشل المنصور نفسه من موقع قاطع الرحم، الى موضع المواسى لذوى القرابة، و مكانة طالب الموعظة، فأدلى بها اليه الامام (عليه‌السلام)؛ قال: «عليك بالحلم فإنه ركن العلم. و أملك نفسك عند أسباب القدرة، فإنك إن تفعل ما قدرت عليه كنت كمن شفى غيظا وداوى حقدا، و أحب أن يذكر بالصولة. و اعلم أنك إن عاقبت مستحقا لم يكن غاية ما توصف به إلا العدل. و الحال التى توجب الشكر أفضل من الحال التى توجب الصبر». تلك آداب الله، و أسباب الحكم الصالح، و ملاك السيطرة للحاكم المسلم على قلوب الرعية. و من الواضح أن المنصور كان يتظاهر بالاستعلاء إذ يدعى الصفح، و ليس لديه تهمة. ولو كانت عنده تهمة للصادق لما طلب الموعظة اليه. و للملوك سماعات، أو أبواق دعايات منتشرة فى الرعية، تلتقط موجات الرضا و الغضب، و الهدوء و القلق، و تبث نظائرها، حسب الحاجة. و النمامون كثر، كخفافيش الليل. و للمنصور جهاز لاينى عن استعماله ليروع خصومه، أو ليجعلهم فى قبضة يده.... [صفحه ۹۸] فلقد يدس من أجهزته دسيسا بعد دسيس على بنى الحسن، و الحسين، مثل أن يدعو ابن مهاجر ذات يوم فيقول له: خذ هذا المال و ائت المدينة و الق عبدالله بن الحسن و جعفر بن محمد (الصادق) و أهل‌بيتهم و قل لهم إنى رجل من خراسان من شيعتكم و قد وجهوا اليكم هذا المال. فادفع الى كل واحد منهم على هذا الشرط... كذا و كذا... فإذا قبض المال فقل انى رسول، و أحب أن تكون معى خطوطكم بقبض ما قبضتموه منى... و ذهب ابن‌مهاجر. فلما رجع قال له المنصور ما وراءك؟ قال: أتيت القوم و هذه خطوطهم ما خلا جعفر بن محمد. قال لى: يا هذا! اتق الله و لا تغرن أهل‌بيت محمد، فإنهم قريبو العهد بدولة بنى‌مروان. و كلهم محتاج. فقلت و ما ذاك أصلحك الله؟ فقال: ادن منى. فدنوت فأخبرنى بجميع ما جرى بينى و بينك كأنه ثالثنا. قال المنصور: يا ابن‌مهاجر إنه ليس من أهل‌بيت نبوة إلا و فيهم محدث، و ان جعفر بن محمد محدثنا اليوم. فالصادق يكشف للمنصور و دسيسه حقائق يعلمونها، و ينبههما على ألا يورطا أهل‌البيت من جراء حاجاتهم. يريد لأهله السلامة، و للخليفة الاستقامة، و للأمة الطمأنينة ، و فى كل ذلك خير للمنصور. و لقد كان المنصور - نفسه - يجعل الصادق (عليه‌السلام) حجة من حججه، و إذا فاخر أهل‌البيت فاخرهم به! كتب اليه محمد بن عبدالله (النفس الزكية) يدعوه ليبايعه، و عيره بأمهات العباسيين لأنهن أمهات ولد... و أم‌المنصور بربرية تدعى سلامة، يتردد اسمها على ألسنة الذين فاخروه؛ فتولى المنصور كبره فى الرد على محمد، و لم يدع الفرصة تفوته ليستفيد حجة من مكانة الإمام الصادق. قال فيما قال «و ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أفضل من على بن الحسين زين‌العابدين و هو لأم ولد. و لهو خير من جدك حسن بن حسن. و ما كان فيكم بعده مثل محمد بن على الباقر وجدته أم‌ولد، و لهو خير من أبيك. و لا مثل ابنه جعفر، وجدته أم‌ولد، و هو خير منك». [صفحه ۹۹] و غض المنصور طرفه عن أن أم‌الولد فى شجرة الباقر «شاه زنان» بنت كسرى ملك الفرس. و أين منها - بعد إذ أسلمت - سلامة! على أن اللقاءات - أو الاحتكاكات - بين الرجلين لا تتوقف. فهذا قطبان، لكل منهما عالمه. و هما ضدان لهما مستويان. و الشرف فيهما لرجل الدين و الزهد و العلم. و الملوك أحوج الى العلماء، من العلماء الى الملوك. و أبوجعفر حريص غدر، يسلط على الصادق من وقت لآخر، و فى مكان بعد آخر، وجوها من التهديد لشخصه و الاتهام لولائه و الإزراء بعلمه. يقول له ذات يوم فى لقاء له بالكوفة: أنت يا جعفر ما تدع حسدك و بغيك و فسادك على أهل‌البيت من بنى‌العباس، و ما يزيدك الله بذلك إلا شدة حسد و نكد، و ما تبلغ به ما تقدره. فيجيبه الصادق (عليه‌السلام): «و الله ما فعلت شيئا من ذلك. و لقد كنت فى ولاية بنى‌أمية - و أنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا و لكم، و أنه لا حق لهم فى هذا الأمر - فوالله ما بغيت عليهم و لا بلغهم عنى شىء مع جفائهم الذى كان لى. و كيف أصنع هذا الآن، و أنت ابن‌عمى، و أمس الخلق بى رحما... و أكثر عطاء وبرا. فكيف أفعل هذا»! و الصادق (عليه‌السلام) بهذا يسجل للخليفة بره، و يقدر له أولية ذوى الأرحام عنده فى البر بهم، و يقرر له حقه فى

الخلافة... و ليس للمنصور فوق ذلك طلبات. و بهذا يستل الضغن من صدره، ليدعه فى ميدانه الذى يسره الله له. و مع ذلك يعاد المشهد فى بغداد، بعد سنة ۱۴۵، فيستحضره المنصور لمواجهة جديدة. يقول له: يا جعفر. ما هذه الأموال التى يجبيها لك المعلى بن خنيس؟ قال الصادق (عليه‌السلام): معاذ الله ما كان من ذلك شيء. قال المنصور: تحلف على براءتك بالطلاق و العتاق. قال الصادق (عليه‌السلام): نعم أحلف بالله ما كان من ذلك شيء. قال المنصور: بل تحلف بالطلاق و العتاق. [صفحه ۱۰۰] قال الصادق (عليه‌السلام): ألا ترضى بيمينى: الله لا إله إلا هو! قال المنصور: لا تتفقه على. قال الصادق (عليه‌السلام): و أين يذهب الفقه منى؟ قال المنصور: دع عنك هذا فإنى أجمع الساعة بينك و بين الرجل الذى رفع عنك هذا حتى يواجهك. فأتوه بالرجل... قال الصادق (عليه‌السلام): تحلف أيها الرجل أن الذى رفعته صحيح؟ قال: نعم. ثم بدأ باليمين؛ قال: و الله الذى لا إله إلا هو الغالب الحى القيوم. قال الصادق (عليه‌السلام): لا تعجل فى يمينك فإنى استحلفك. قال المنصور: ما أنكرت من هذه اليمين؟ قال الصادق (عليه‌السلام): ان الله تعالى حى كريم اذا أثنى عليه عبده لا يعاجله بالعقوبة. و لكن قل أيها الرجل: أبرأ الى الله من حوله و قوته، و ألجأ الى حولى و قوتى. إنى لصادق بر فيما أقول. قال المنصور للرجل: احلف بما استحلفك به أبو عبدالله. قال راوى الخبر: فحلف الرجل. فلم يتم الكلام حتى خر ميتا. فارتعدت فرائص المنصور. و قال للصادق (عليه‌السلام): سر من عندى الى حرم جدك إن اخترت ذلك. و ان اخترت المقام عندنا لم نأل جهدا فى إكرامك. فوالله لا- قبلت بعدها قول أحد أبدا. و أين يذهب الفقه من إمام المسلمين (عليه‌السلام)، و هو الى يوجه اليمين، و من حقه صياغتها! و فى الصيغة ما ذكر المفترى بعظم افترائه، و بالخالق سبحانه «و من أظلم ممن افترى على الله كذبا». و من الإنسانى، و من جلال مقام الإمام عند الله و الناس، ان يخر صريعا من يفترى على الله و على الامام، فى مجلس الخليفة. بهذه الآية هدى جبار السموات جبارا على الأرض لا يطأطئ رأسه. فإذا حركها عندما يناوشه الذباب سأل حضاره كالمستنكر: لم خلق الله الذباب!!. و كان الصادق (عليه‌السلام) حاضرا يوما فأجاب: ليذل الله به الجبابرة. [صفحه ۱۰۱] و لئن كان فى وجود الذباب فى المجلس تذكرة للجبابرة ، ففى سقوط المفترى على الامام (عليه‌السلام) بين أيديهم آية ما بعدها آية. و كما يضمن المنصور طاعة الامام بالبغتات يصطنعها من حين لآخر، لا يتورع عن محاولة إفحام الإمام بين علماء العصر، أو تسخير أعظم علماء العراق، لينصب منه شركا يوقع فيه الأمام! و ليس هوى المنصور مع أى منهما. و لا- بأس عنده إذا أعجز كل منهما، أو أحدهما، صاحبه. و إن المرء ليلمس خساسة الحيل الظاهرة من المنصور، باتخاذ العلم و الفقه أداة للشر المدبر، و عظماء العلماء وسائل للإساءة للمسالمين الذين يأمن جانبهم. فلنقس عليها فظاعة تدابيره السرية لمن يخشى العواقب منهم، و لندرك جلالة الحق إذ ينتصر على الحيلة، و جلجلة الحقيقة إذ تظهرها وسيلة أريد بها طمس معالمها، و مكانة الامام الصادق (عليه‌السلام) فى العلم إذ يتواضع أمامه العظماء من الفقهاء، فى مجلس علمى يسيطر عليه الخليفة: أقدم المنصور الإمام الصادق (عليه‌السلام) من المدينة الى العراق و بعث الى أبى‌حنيفة فقال له: إن الناس قد افتتنوا بجعفر، فهيئ له المسائل الشداد. و يقول أبوحنيفة عن لقائه بعد ذلك: «بعث الى أبوجعفر المنصور و هو بالحيرة، فأتيته. فدخلت عليه و جعفر بن محمد (عليه‌السلام) جالس عن يمينه. فلما أبصرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلنى لأبى جعفر فسلمت عليه، فأومأ الى فجلست. ثم التفت اليه فقال: يا أبا عبدالله هذا أبوحنيفة. قال جعفر (عليه‌السلام): إنه قد أتانا. ثم التفت الى المنصور و قال: يا أباحنيفة ألق على أبى عبدالله (الصادق) مسائلك. فجعلت ألقى عليه فيجيبنى فيقول: أنتم تقولون كذا. و أهل المدينة يقولون كذا. و نحن نقول كذا. فربما تابعهم. و ربما خالفنا جميعا. حتى أتيت على أربعين مسألة»... و لقد قال أبوحنيفة فى مقام آخر: «ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس». [صفحه ۱۰۲] و انما يقصد أبوحنيفة باختلاف الناس الاجتهاد الفقهى للمقارنة بين مذاهب المجتهدين... فأبو حنيفة - و هو الإمام الأعظم عند أهل السنة - يقرر أن الامام الصادق (عليه‌السلام) أعلم الناس باختلاف الناس فى المدينة حيث علم المحدثين، و فى الكوفة حيث علم أهل الرأى؛ و كانتا قد بلغتا أوجهما، على أيدى أبى‌حنيفة و مالك؛ و هما التلميذان فى مجالس الامام الصادق (عليه‌السلام). و كمثلهما كان إمام العراق الآخر سفيان الثورى. و أبوحنيفة أكبر سنا من جعفر الصادق. ولد قبله بأعوام و سيموت بعده. و كان أبوحنيفة - كما قال مالك

– لو حدثك أن السارية من ذهب لقام بحجته. و الجاحظ كبير النقاد يقول بعد مائة عام: «جعفر بن محمد الذى ملأ الدنيا علمه و فقهه و يقال إن أباحنيفة من تلاميذه و كذلك سفيان الثورى. و حسبك بهما فى هذا الباب». و الجاحظ يذكر تلاميذ العراق. ولو ذكر تلاميذ المدينة لما نسى مالك بن أنس. بلغ الامام الصادق (عليه‌السلام) بمسالمته للمنصور بعض آماله لأهل بيته (عليهم‌السلام)، بقية أيام حياته، بل طوال خلافه أبى‌جعفر المنصور. فكان ميمون النقيبة بالسلام الذى نشده، و الامان الذى دعا له، و أطال زمانه. و منع كثيرا من الطغيان الذى طالما شكاه أبوه، على ما سيروى ابن أبى‌الحديد فى شرح نهج‌البلاغة – «ثم لم نزل أهل‌البيت نستذل و نستضام، و نقضى و نمتهن، و نحرم و نقتل، و لا نأمن على دمائنا و دماء أوليائنا، و وجد الكاذبون و الجاحدون لكذبهم و جحودهم موضعا... فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة و المكذوبة و رووا عنا ما لم نقله و ما لم نفعله ليبغضونا الى الناس. و كان عظم ذلك و كبره زمن معاوية بعد موت الحسن. فقتلت شيعتنا بكل بلدة، و قطعت الأيدى و الأرجل على الظنة. و من يذكر بحبنا و الانقطاع الينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره. ثم لم يزل البلاء، يزداد الى زمان عبيدالله بن زياد قاتل [صفحه ۱۰۳] الحسين. ثم جاء الحجاج [۲۹] فقتلهم كل قتلة و أخذهم بكل ظنة و تهمة، حتى ان الرجل يقال له زنديق أحب اليه من أن يقال شيعة على». و فى عصر الباقر (عليه‌السلام) كان الحسن البصرى (۱۱۰) الجسور (قاضى عمر بن عبدالعزيز و شيخه الذى لا يهاب الخلفاء) إذا روى عن أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) يقول (قال أبوزينب) ليخفى الاسم الذى لا خفاء له! بل كان الشعبى (۱۰۴) شيخ المحدثين بالعراق يقول: «ماذا لقينا من آل على إذا أحببناهم قتلنا و إذا أبغضناهم دخلنا النار». و كان طبيعيا من دولة «هرقلية» يكون همها الملك لا الدين أن تعاقب من تتوهم خطره عليها و تترك من تزندق، و أن تزداد الاستهانة بالدين فى مقابل السلام الذى تنشده الدولة، و البلهنية التى يؤثرها دعاة الدعة. بدأ ذلك من عهد معاوية و سيستمر استمرار فساد الدولة. و ستستبقيه لتصرف الناس عن الاهتمام بأهل‌بيت النبى (عليهم‌السلام)، أو توقع بهم لفرطات تفرط من أحدهم، أو تعزى كذبا اليهم، منتهزة للفرص حينا، أو مفتعلة لها فى أغلب الأحيان. كانت الأوامر تصدر من بغداد الى أرجاء الامبراطورية التى تدين لبنى العباس، و منها مصر؛ أن «لا يقبل علوى ضيعة. و لا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها. و أن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد (و الرقيق يومذاك قوة العمل). و إن كانت بين العلوى و بين أحد خصومه فلا يقبل قول العلوى. و يقبل قول خصمه بدون بينة»! و كانوا يسفرون من الأطراف الى العاصمة ليكونوا تحت الرقابة. بل أمر الرشيد ان يضمن العلويون بعضهم بعضا. و كانوا يعرضون على السلطان كل يوم، فمن غاب عوقب... و كأن «أهل‌بيت النبى» جالية من العدو أو شرذمة من المشبوهين. [صفحه ۱۰۴] و لقد كان يكفى للحيطة أقل القليل من حاكم يريد أن يطمئن. و إنما كان ذلك الكيد سياسة إبادة مستمرة، يشترك فى تنفيذها الخلفاء، و الأشياع و الظلمة، تدفع الثائرين الى أن يثوروا، فيؤخذوا بثوراتهم، أو يؤخذ غيرهم بجرائر تنسب اليهم. أما سياسة أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فواضحة من شعار أبناء على فى كلمة مسلم بن عقيل؛ «إنا أهل‌بيت نكره الغدر»... قالها عندما عرض عليه البعض قتل عبيدالله بن زياد فى إحدى زياراته. فنجا ابن‌زياد بهذا الشعار ليقتل مسلما فيما بعد. أما شعار حاشية معاوية فكان: «ان لله جنودا من عسل» يقصدون دس السم الى أعدائهم فيه. و لقد طالما استخدم الطغاة السم فى تصفية أهل‌البيت فى القرون التالية. فإن لم يكن سم فى خفاء فالقتل جهرة. و من الروايات أن أئمة أهل‌البيت (عليهم‌السلام) – الاثنى عشر – ماتوا مسمومين ما عدا أميرالمؤمنين عليا و أباالشهداء الحسين (عليهماالسلام) – فكانت شهادتهما بالسيف. و فى أيام الخليفة الهادى (سنة ۱۶۹) كان أهل‌بيت النبى فى المدينة يستعرضون كل يوم! لكل واحد منهم كفيل من نسيب أو قريب. بل ولى عليهم واحد من ذرية عمر بن الخطاب هو عبدالعزيز بن عبدالله. فولى بدوره على أهل‌البيت رجلا يقال له عيسى الحائك. فحبسهم الحائك فى المقصورة، فثارت لأجلهم المدينة إذ ثاروا، و كسرت السجون و أخرج المسجونون، و بويع للحسين بن على بن الحسن. فبقى واحدا و عشرين يوما بالمدينة ثم ارتحل الى مكة فأقام بها الى زمن الحج. و كرر التاريخ نفسه فى خروج الحسين و من معه من أهل المدينة إذ جاءه الامام موسى الكاظم (عليه‌السلام) يستقيله من الخروج معه، كما صنع أبوه مع النفس الزكية (محمد بن عبدالله). قال الكاظم للحسين «أحب أن تجعلنى فى حل من تخلفى عنك». قال: أنت فى سعة. قال الكاظم

(عليه‌السلام): «أنت مقتول... و عند الله عزوجل أحتسبكم من عصبة...». و جهز الهادى جيشا لاقاه حيث استشهد فى موقع يقال له (فخ) و معه كثير من [صفحه ۱۰۵] العلويين. و حملت رأس (الحسين شهيد فخ) الى القائد العباسى بالبشرى! مع رؤوس مائة آخرين. و استعرض القائد الرؤوس بالمدينة فقال الامام الكاظم (عليه‌السلام) عندما عرضوا رأس الحسين: «إنا لله و انا اليه راجعون. مضى و الله مسلما، صالحا، صواما، قواما، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر. ما كان فى أهل‌بيته مثله». و كان مع الحسين يحيى بن عبدالله بن الحسين (أخى محمد و إبراهيم، و إدريس ابناء عبدالله بن الحسن) فلما انتهت المعركة استتر، ثم ظهر، فخرج على الرشيد فى بلاد الديلم، و وجه اليه الرشيد جيشا بقيادة الفضل بن برمك حتى استسلم بعهد مكتوب. و مع ذلك استفتى الرشيد العلماء لقتله، فأبى ذلك محمد بن الحسن صاحب أبى‌حنيفة و صاح: ماذا تصنع لو كان محاربا و ولى كان آمنا. لكن الرشيد وجد من علماء السوء من أفتاه بقتله، و كان هو أقدر على النفاق السياسى من مفتيه. أخذ من المفتى ما يملكه، ليصنع هو ما يقدر عليه.. فسجن يحيى و ضيق عليه الخناق حتى مات فى سجنه، كمثل ما سيموت فى سجن الرشيد الإمام موسى الكاظم و يشهد الرشيد الناس عليه، ليبرئ نفسه من تهمة اغتياله. أما الأخ الرابع إدريس فأفلت هاربا الى مصر، ثم الى المغرب، هناك تمكن الرشيد من دس السم اليه و اغتياله، فأسس ابنه دولة الأدارسة. و سيموت فى حبس الرشيد كذلك عبدالله بن الحسن (الأفطس). قتله جعفر بن برمك وزير الرشيد. و سيموت فى حبسه محمد بن يحيى بن محمد بن عبدالله بن الحسن، و العباس بن محمد بن عبدالله، و كذلك الحسين ابن... عبدالله بن جعفر. [۳۰] . [صفحه ۱۰۶] و فى عهد المأمون وجه الى جماعة من آل أبى‌طالب. فحملوا اليه فى مرو عاصمة خراسان و فيهم الامام على الرضا (بن الكاظم بن الصادق) (عليهم‌السلام) فخاطبه فى أن يكون ولى عهده. فأبى. فتهدده بقوله: «ان عمر جعل الشورى فى ستة آخرهم جدك. و قال من خالف فاضربوا عنقه. و لابد من قبولك ذلك» فقبل. و بايع له المأمون و العباس بن المأمون. ثم دعاه المأمون للخطبة فأوجز، و كأنه يتوقع و جازة أيامه. فاكتفى بعد أن حمد الله بقوله (عليه‌السلام): «إن لنا عليكم حقا برسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم). و لكم علينا حق فإذا أديتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم». لكنه مات بعد قليل فى ظروف غامضة لا يستبعد منها دس السم كما تؤكد ذلك الشيعة، فموت على الرضا (عليه‌السلام) كان حلا لإشكالات بنى‌العباس سواء من يحبون المأمون، أو الكارهين للرضا، أو للمأمون ذاته [۳۱] . [صفحه ۱۰۷] و لا نستطرد للسرد. فليس فى تاريخ البشرية، كلها، أسرة شردت و جردت، و ذاقت العذاب و الاسترهاب، مثل أهل‌البيت النبى (صلى الله عليه و آله و سلم). بدأبهم تاريخ الاسلام مجده. و استمر فيهم بعبرته و عظمتها. قدم أبوهم (عليه‌السلام) للبشرية أسباب خلاصها بكتاب الله و سنة الرسول. و قدم أهل‌بيته (عليهم‌السلام) أرواحهم فى سبيل القيم التى نزل بها القرآن و جاءت بها السنة. كانت مصابيحهم تتحطم لكن شعلتهم لا تنطفئ، لتخلد الجهاد و الاستشهاد و الإرشاد، بالمثل العالى الذى كانوه، و الضوء الذى لم تمنع الموانع من انتشاره، و علم فيه أبناء النبى أمته بعض علومه: ان الاستشهاد حياة، للمستشهدين و للأحياء جميعا [۳۲] . [صفحه ۱۰۹]

امام المسلمين

اشاره

انت يا جعفر فوق ال مدح و المدح عناء جاز حد المدح من قد ولدته الانبياء [صفحه ۱۱۱] قامت الدولة الاسلامية بالمدينة المنورة حيث طبق الدين أكمل تطبيق. فلم تكن العاصمة المناسبة لدول ثلاثة أقامها أصحابها من أجل خلافة الدنيا لا خلافة الدين. و المدينة هى المقر الأمثل لأهل‌بيت الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) حيث يرتبطون بكل أثر فيها و ترتبط بهم المعانى التى خلد بها الاسلام، و انتصر المسلمون. و السنة هى الشجرة المباركة و فروعها؛ فى ثمرها اليانع رحمة و يسر و معرفة، و فى ظلالها الوارفة مودة و إيلاف و تواصل. و من هذه العناصر نتج الفكر الرفيع للمجتمع العظيم، يسقى من القرآن و يحيا به. و بالقرآن و السنة، و الفكر الرفيع و

الفقه المحيط، اعتصم أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فى المدينة. فاختصم و إياهم خلفاء الدول الثلاثة الأموية و المروانية و العباسية، و ولاتهم على المدينة. لكنها ظلت مدرسة السنة و الفقه. و تتابع فيها أئمة أهل‌البيت (عليهم‌السلام): زين‌العابدين، و الباقر، و الصادق. و الفصل الثانى من الباب الحالى مداره مجلس إمام المسلمين جعفر الصادق (عليه‌السلام)، و أمثال لما يجرى فيه من أقوال، و من يشرف بالانتهاء اليه من رجال، ليسوا كسائر الرجال. فهم أئمة الفكر الإسلامى جميعه... من سنن وفقه، و زهد و كلام، و علوم تطبيقية... منذ القرن الثانى للهجرة حتى يرث الله الأرض و من عليها. [صفحه ۱۱۳]

فى المدينة المنورة

اشاره

«اللهم ان إبراهيم عبدك و خليلك و نبيك. و إنه دعاك لمكة. و إنى أدعوك «للمدينة» بمثل ما دعاك لمكة و مثله معه». (حديث شريف) [صفحه ۱۱۵] ولى مروان بن الحكم إمرة المدينة لمعاوية سنة ۴۲. و كان مروان طلبة الثوار على عثمان؛ لو تسلموه لما قتلوا الخليفة - كما قيل - و كان مروان يبحث لنفسه فى الفتنة عن مكان. و من أجل ذلك رمى معاوية المدينة به، أو رماه بها، من فور ولايته للسلطة. و هو ابن‌عمه و ابن‌عم عثمان. كان معاوية يصرفه عن الإمره ثم يعيده. و آثر مروان و أهله الإقامة بالمدينة فى الحالين، على الذهاب الى دمشق عاصمة بنى‌أمية، حيث الصدارة لغير، و حسن صلاته بأهل المدينة. فلما وقعت مجزرة كربلاء كانت عواطفه مع أهل بلدته. ثم أجاءته الرياح الى حيث نصبه أهله خليفة سنة ۶۴ بعد اعتزال معاوية بن يزيد. ثم خلف مروان ابنه عبدالملك لتبقى خلافته عشرين عاما من سنة ۶۶ الى سنة ۸۶. و فى عبدالملك يقول عبدالله بن عمر: إن لمروان ابنا فقيها فاسألوه. لكنه بعد الخلافة صار ظلوما غشوما: أدخل عليه الأسرى ذات يوم فأمر بضرب أعناقهم - دون استجواب! فقال له رجل من أهل الشام كان يعرفه أيام تنسكه - لقد أقست الخلافة قلبك. و كنت رؤوفا! فأجاب: كلا. و لكن أقساه الضغن بعد الضغن. كان يستنكر ضرب جيوش يزيد بن معاوية للكعبة سنة ۶۳ فى حصار مكة، حتى إذا ولى الخلافة ضربها الحجاج له فى سنة ۷۳! و لما سئل الحسن البصرى أن يقول قوله فى عبدالملك بن مروان أجاب: ماذا أقول فى رجل؛ الحجاج إحدى سيئاته!! و لم يتمهد الملك لابنه الوليد إلا بعد عشرين عاما من حكم عبدالملك، فلقد [صفحه ۱۱۶] بويع لابن الزبير بمكة سنة ۶۴ من أهل الحجاز و العراق و مصر، فدارت رحى الحرب، و استمرت بيعة العراق لابن الزبير حتى سنة ۷۱ عندما قتل جند عبدالملك مصعب بن الزبير، و هدموا قصر الخلافة الزبيرية بالكوفة. و فى العام التالى استرجع «المدينة» لعبد الملك طارق بن عمر، و فى سنة ۷۳ قتل عبدالله بن الزبير، و استسلم للحجاج أهل «مكة». و فى حياة الإمام جعفر الصادق كان على إمرة المدينة أبان بن عثمان حتى سنة ۸۲ حين عزله عبدالملك بهشام بن اسماعيل، الذى ضرب سعيد بن المسيب سنة ۸۵ من جراء رفضه بيعة الوليد و سليمان ابنى عبدالملك، و طاف به فى المدينة. ثم عزل الوليد هشاما بعمر بن عبد العزيز سنة ۸۷؛ و عمر زوج اخته و هو زوج أخت عمر. و الأربعة حفدة مروان. و أمر الوليد عمر أن يوقف هشاما للناس أمام دار مروان، و لكن عنده مظلمة. فمر الناس به يلمزونه و يغمزونه. فصاحب المعروف لا يقع و ان وقع وجد متكأ. و كان هشام من كثرة ما أساء الى على بن الحسين (زين‌العابدين) (عليه‌السلام) يقول: ما أخاف إلا من على زين‌العابدين - فلو أزرى به زين‌العابدين لحق عليه الدمار من العابدين و من العامة - لكن زين‌العابدين (عليه‌السلام) و مواليه و خاصته مروا به لا يتعرضون له بكلمة. فلما مروا و سلم هشام، صاح: الله يعلم حيث يجعل رسالته. ورد عمر بن عبدالعزيز لأهل‌البيت (عليهم‌السلام) فدكا. و كان النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) قد أعطاها لفاطمة الزهراء (عليهاالسلام) و لم يورثها أبوبكر و عمر لها. فكان اجتهاد عمر بن عبدالعزيز خلافا فى الفقه مع أبى‌بكر و مع جده عمر بن الخطاب. و منع عمر الشعار الأموى الآثم؛ و هو سب على (عليه‌السلام)، و زاد إنصافا فاستعاض عنه شعارا تبدو فيه معانى التوبة النصوح و الاستغفار من الذنوب. و هو الآية الكريمة «ربنا اغفر لنا. و لإخواننا الذين سبقونا بالايمان». و كان

معاوية قد استحدث نظام القصص ليثنى القصاص على الخلفاء من بنى‌أمية و يزينوا للناس حالهم، فأمرهم عمر ان يقصروا الثناء (على المؤمنين). [صفحه ۱۱۷] و فى عمر يقول أحمد بن حنبل «ليس من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبدالعزيز» و يخاطبه كثير - و هو من شعراء الشيعة - بقوله: و ليت و لم تسبب عليا و لم تخف مريبا و لم تقبل مقالة مجرم و صدقت بالقول الفعال مع الذى أتيت فأمسى راضيا كل مسلم و فى العام التالى لولاية عمر على المدينة حج الوليد، و بدا له أن يأمر بتوسعة المسجد، لتدخل فيه حجرات أمهات المؤمنين و بيت على، الذى اذن له به النبى، فى حين ردم أبواب سائر الصحابة. فنصح بعضهم الخليفة أن يعود الى مقر الملك فى دمشق و يصدر أوامره منها بتوسيع المساجد عامة فى مكة و المدينة و بيت المقدس، و ان يبنى مسجدا بدمشق، و بهذا يتحقق غرضه دون أن يلومه الناس. فرجع الى دمشق و أصدر منها أوامره. و شق الأمر على أهل المدينة و تظاهروا عليه طالبين ترك (الحجرات) كما تركها صاحب الشريعة. فأصر الوليد و أنفذ، لتنفيذ أمره، بعثة من العمال من بلاد الروم. قال خبيب بن عبدالله بن الزبير لعمر «نشدتك الله يا عمر ان تذهب بآية من آيات الله تقول «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون»... و طعن فى بنى‌أمية، و بلغ خبره الوليد بدمشق فأمر بجلده. فجلد. و مضى زمن و مات خبيب. فكان عمر يقول كلما بشره بالجنة أحد: «كيف. و خبيب على الطريق!». و فى سنة ۹۱ حج الوليد فزار المسجد، و خطب على منبر الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) قاعدا فى كبرياء فنفر الفقهاء، و ترضى السادات فاستفز الفقراء. و كان عمر يؤوى بالمدينة من يتهددهم بطش الحجاج فى العراق، لكن الوليد ولى الحجاج على الحج سنة ۹۲، فاستعفاه عمر من مرور الطاغية بمدينة الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم)، فقبل. و لم يكن عدل عمر مانعا، بل ربما صار مقتضيا، أن يعزله الوليد بعثمان بن حيان المرى سنة ۹۳، فأنزل الوالى الجديد النكال بالعلماء، و منهم ناسك المدينة محمد [صفحه ۱۱۸] بن المنكدر فقيه بنى تيم قبيلة أبى‌بكر و أخوال جعفر الصادق (عليه‌السلام)، و قذف أهل المدينة من فوق المنبر بقوله «أيها الناس إنا وجدناكم أهل غش لأميرالمؤمنين فى قديم الدهر و حديثه». و امتدت يد البطش الى أبى‌بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى (وجده عمرو عامل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم)، فأمر بحلق لحيته لولا- ان عزل الخليفة الجديد (سليمان بن عبدالملك) عثمان بأبى بكر ذاته سنة ۹۶. و بقى أبوبكر أميرا على المدينة حتى سنة ۱۰۱. و اجتمع له القضاء و الامرة عليها فى خلافة عمر بن عبدالعزيز. و لما عزله يزيد بن عبدالملك بعد وفاة عمر، بعبد الرحمن بن الضحاك بن قيس عذب الوالى الجديد أبابكر. فلما عزل عبدالرحمن سنة ۱۰۴، حاقت البأساء و الضراء بعبد الرحمن، حتى صار يلتمس الصدقة من سوء حاله. و فى سنة ۱۰۶ تولى إبراهيم بن هشام بن اسماعيل - و هو خال الخليفة هشام بن عبدالملك - فبقى ابراهيم واليا الى سنة ۱۱۴. ثم عزل بخالد بن عبدالملك بن الحارث بن أبى‌العاص، فبقيت له الإمرة حتى سنة ۱۱۸. و خطب خالد على منبر الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم)، فانتقص أولاد الرسول و أباهم عليا (ع)، فقام اليه داود بن قيس فبرك على ركبتيه و قال: كذبت كذبت؛ حتى حيل بينهما. ثم عزل بمحمد بن هشام بن اسماعيل أخى إبراهيم فبقى حتى سنة ۱۲۵. و كما ولى محمد و ابراهيم ابنا هشام، لخؤلتهما لهشام بن عبدالملك، ولى الوليد ابن‌يزيد إمرة المدينة «خاله» محمد بن يوسف الثقفى، و أمره ان يعذبهما، و ان يقيمهما للناس، و ان يبعث بهما الى والى العراق ليذيقهما الهوان حتى يموتا من العذاب. ففعل. و بقى حتى سنة ۱۲۶ فعزل بعبد العزيز ابن (عمر بن عبدالعزيز) ليبقى ثلاث سنوات حتى سنة ۱۲۹، فيحل محله عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك. و فى ولاية عبدالواحد كانت شمس بنى‌أمية فى طريقها الى الغروب: لقد طرد [صفحه ۱۱۹] الحارث بن سريج عاملهم نصر بن سيار من أقصى الشرق فى مرو - و أقبل أبوحمزة «الخارجى» يخرجهم من قلب الاسلام فى المدينة سنة ۱۳۰ بعد وقعة قديد. و فيها قتل من أهل المدينة خلق كثير، و فر عبدالواحد. و سفر الى أبى‌حمزة، و هو على أبواب المدينة، السفراء: شيخ بنى‌هاشم عبدالله بن الحسن، و محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان، و كان محسوبا مع بنى‌هاشم لما يجمعه بهم من رحم، و عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى‌بكر خال الإمام الصادق (عليه‌السلام)، و عبدالله بن عمر بن... عمر، و معهم ربيعة الرأى شيخ مالك بن أنس، فى رجال آخرين. فعامل أبوحمزة الوفد معاملة الخوارج، للصحابة: عبس و بسر فى وجه الأولين حفيدى على و عثمان. و بشر فى وجه الثالث و الرابع - حفيدى الشيخين: أبى‌بكر و عمر. و قال

لهما: و الله ما جئنا إلا لنسير بسيرة أبويكما. قال شيخ بنى‌هاشم و الله ما جئناك لتفضل بين آبائنا، و لكن بعثنا اليك الأمير برسالة، و هذا ربيعة يخبرك بها... أقام أبوحمزه بالمدينة ثلاثة أشهر ثم خرج لقتال جند الشام فانهزم... ثم جاءت دولة بنى‌العباس. و تولى إمرة المدينة للسفاح عمه داود بن على فقام فخطب فقال: أيها الناس أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال؟... و السيف مشهر: حتى يبيد قبيلة فقبيلة و يعض كل مثقف بالهام و يقمن ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الأيتام لكن الله عاجله بعد ثلاثة أشهر فلقى حتفه - و ولى بعده زياد بن عبدالله بن المدان خال السفاح. و أحاط السفاح ببنى أمية: دعاهم، و منحهم الأمان، حتى إذا اجتمعوا به أعمل رجاله السيوف فيهم، و كانوا نيفا و ثمانين رجلا. و فى سنة ۱۳۳ قتل عماله من أشياعهم ثلاثين ألفا بالشام. و استدعى عبدالله بن على، أخو داود، و قائد جيش الشام، الإمام الأوزاعى إمام [صفحه ۱۲۰] الشام الى عسكره فسأله: ما تقول فى بنى‌أمية؟ قال: لقد كانت بينك و بينهم عهود، و كان ينبغى أن تفوابها. قال: ويحك! اجعلنى و إياهم لا عهد بيننا. يقول الأوزاعى «فأجهشت نفسى و كرهت القتل... فذكرت مقامى بين يدى الله فقلت: دماؤهم عليك حرام» فانتفخت عيناه و أوداجه و قال: ويحك لم؟ قلت: قال رسول الله: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بثلاث: ثيب زان و نفس بنفس و تارك دينه». قال: ويحك أو ليس الأمر لنا ديانة؟ أليس رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قد أوصى لعلى؟ فسكت... و جعلت أتوقع رأسى يسقط. و قال: أخرجوه. فخرجت. و روى عبدالله بن على رماحه من الدم بما لم يسمع التاريخ بمثله. حتى إذا ولى أبوجعفر المنصور (۱۵۸ - ۱۳۶) - عزل زياد بن عبدالله بن المدان عن المدينة بمحمد بن خالد القسرى، و أمر بحمل زياد بن عبدالله الى العراق مكبلا بالحديد. ثم عزل محمد بن خالد و ولى مكانه رباح بن عثمان بن حيان سنة ۱۴۱، و هو ابن‌عم مسلم بن عقبة (الذى يسميه البعض مجرم بن عقبة - فهو قائد الجيش الذى دمر المدينة و ارتكب الفظائع فى معركة الحرة سنة ۶۳) ففاخر الناس بنقائصه قال: أنا الأفعى ابن‌الأفعى أنا ابن‌عثمان بن حيان و ابن‌عم مسلم بن عقبة المبيد خضراءكم المفنى رجالكم. فوثب عليه الناس فحصبوه بالحصى و رموه بالحجارة. و فى إمرته اقتحم الجند منازل أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فأخرجوا منها رجالهم الى السجون. و مرت مواكب أهل‌البيت فى شوارع المدينة و هم فى الأصفاد. هزلهم العذاب و الأيام الشداد، ثم سيقوا الى الكوفة، ليودعوا السجن حيث حبسوا - كما [صفحه ۱۲۱] يقول المسعودى فى مروج الذهب - فى سرداب تحت الأرض لا يعرفون الليل من النهار حتى مات أكثرهم، ثم خر عليهم، ليموت تحت أنقاضه الأحياء منهم، و يدفن الذين سبقوهم الى الموت دون أن يعنى بهم أحد. و بقى رباح حتى خرج محمد بن عبدالله (النفس الزكية) على المنصور و قبض الخارجون على رباح و أدخلوه سجن المدينة هو و أخاه. و لما انتهت الحرب عين المنصور على المدينة عبدالله بن الربيع الحارثى فبقى حتى سنة ۱۴۷ ثم عزل. فولى مكانه جعفر بن سليمان بن سليمان بن على بن عبدالله بن عباس، فبقى واليا حتى سنة ۱۴۹. و هو الذى أمر بضرب مالك بن أنس حتى انخلعت كتفه و طافوا به فى المدينة. و فى ولاية جعفر بن سليمان توفى الامام الصادق (عليه‌السلام). بهذه الوجازة العجلى لأمر الولاة فى نحو قرن من الحكم الأموى و المروانى و العباسى للمدينة، عاش فيه الامام الصادق (عليه‌السلام)، تتكشف أمور حسبنا أن ننبه على بعضها الآن: ۱ - ففى حكم مروان، لم يكن لأهل‌البيت (عليهم‌السلام) بخاصة مشكلة مع الدولة، و إنما كانت المشكلة لأهل المدينة عامة مع العاصمة. أما ثورة زيد بن على زين‌العابدين (عليهماالسلام) سنة ۱۲۱ و ابنه يحيى سنة ۱۲۵ [۳۳] فكان فى أواخر أيام بنى مروان . [صفحه ۱۲۲] و كذلك كان خروج عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر سنة ۱۲۷، بعد عامين من استشهاد يحيى بن زيد. و لقد سلم عبدالله نفسه لأبى مسلم الخراسانى بعد أن انهزم نصر بن سيار والى خراسان لبنى مروان. فقضى أبومسلم عليه بعد ان استسلم. بهذه يمكن القول ان زين‌العابدين، و ابنه محمدا الباقر (عليهماالسلام) عاشا أكثر من نصف قرن فى سلام مع السلطة. و بهذا السلام تبوءا الذروة من الاحترام و الطمأنينة اللذين يمهدان للعلم أن ينتشر، و للقدوة الصالحة ان يشيع هداها، كالشعاع ينشر النور فى المدينة و يحمل الدفء الى الأفئدة الوافدة من شتى الأقطار. ۲ - كان الأمراء على المدينة إما أقرباء للخلفاء فى دمشق و الأنبار و الكوفة، و إما صنائع لهم. لكنهم كانوا - عدا عمر بن عبدالعزيز - مستضعفين من الجميع، يعزلون، و يقامون للناس، ليتخذوهم سخريا أو ينكلوا بهم. و فى أواخر أيام بنى‌مروان سخر الناس منهم علانية، و اصطدموا بهم، إذا مسوا

أميرالمؤمنين عليا (عليه‌السلام) بسوء. و كان عبدالملك قد أوصى عامله على المدينة بقوله: «جنبنى دماء بنى‌هاشم فإنى رأيت آل حرب لما تهجموا عليهم لم ينصروا» - و هو الباطش، الذى تولى له بالعراق الحجاج، و بخراسان المهلب بن أبى‌صفرة، و بمصر هشام بن اسماعيل و ابنه عبدالله، و باليمن محمد أخو الحجاج، و بالجزيرة محمد بن مروان (أخو عبدالملك). و كل من هؤلاء ظالم فاتك. و لما سئل عبدالله بن المبارك: أبومسلم خير أم‌الحجاج؟ أجاب: «لا أقول أبومسلم خير من أحد، لكن الحجاج شر منه». ۳ - أما فى عهد العباسيين - أبناء العمومة - فقد هبت على بنى على (عليه‌السلام) ريح صرصر، من الطغيان المدمر، لتنزل بهم و بأحفاد الصحابة و التابعين الفزع الأكبر، كهيئة ما صنع بنوأمية فى كربلاء و الحرة. و طبائع الطغيان واحدة. [صفحه ۱۲۳]

اهل المدينة

غاضبت دمشق العراق و الحجاز أيام صيرها معاوية حاضرة بنى‌أمية. و تابعته على ذلك دولة بنى‌مروان. لكن المدينة بلدة طيبة و شعب كريم. ثار أهلها على الأمويين بعد كربلاء ثم تركوهم يجلون عنها، على موثق من أهلها، ألا يدلوا جند يزيد على عوراتها. رحل الأمويون الى الشام إلا زوج مروان بن الحكم، عائشة بنت عثمان بن عفان، توجهت الى الطائف فى حماية «على زين‌العابدين عليه‌السلام». و المدينة واحة فى قفر، و الرزق نزر فى الصحارى الساخنة، إلا ما يرد الى الناس من تجارة أو عطاء، متقطع كسحائب الصحراء، يجرى، و يجف، حسب الشهوات، فى دمشق. و أهل‌البيت (عليهم‌السلام) تجيئهم حقوقهم فى بيت المال أو لا تجىء، لكنهم ينفقون المال خفية و علانية - ولو كان بهم خصاصة - فعلى زين‌العابدين (عليه‌السلام) مصدر من مصادر الرزق المجهولة للناس، لا يعرف إلا بعد أن يموت، فيتفقد الناس المصدر فيعرفونه. و كذلك أبناؤه، يتزعمهم الباقر (عليه‌السلام)؛ و هو القائل: إن استطعت ألا تقابل أحدا إلا و لك الفضل عليه فافعل. أما ابن‌عمهم عبدالله بن جعفر بن أبى‌طالب فكان وثيق العرى بالخلفاء. سأله يزيد بن معاوية يوما: كم عطاؤك؟ قال: ألف ألف درهم. قال يزيد: قد أضعفناها لك. قال ابن‌جعفر: فداك أبى و أمى. و ما قلتها لأحد قبلك. فضاعف يزيد عطاءه مرة ثانية. و لما خرج عبدالله من المجلس، قال جلساء يزيد: تعطى رجلا واحدا أربعة آلاف ألف درهم! قال: ويحكم إنى أعطيتها أهل المدينة أجمعين. فما يده فيها إلا عارية. [صفحه ۱۲۴] و الحق ان الفقراء كان لهم فى أمواله حق معلوم، فكانوا يستدينون فى انتظار ورود عطاء عبدالله بن جعفر من العاصمة. و كان الخلفاء يحجرون على شباب قريش أن يبرحوا الحجاز إلا بإذن فأمسى سجنا واسعا لمن فيه منهم. و ازداد أهله انعزالا و ارتباطا فتراحموا، و تصاهروا، لتصير المدينة مجتمعا مقطوع القرين، نرى فيه: «سكينة بنت الحسين» يبنى بها «مصعب بن الزبير» ثم يبنى بضرة لها «عائشة بنت طلحة»... أى أطراف يوم الجمل تجتمع فى بيت واحد. و اليك أطرافا أخرى فى أختها فاطمة: ولدتها أم‌اسحق بنت طلحة. و تزوجها عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان. ويرزقان محمدا. و له بنت من خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير تدعى حفصة. و أم‌عروة أسماء بنت أبى‌بكر. فهؤلاء: رسول الله و خمسة من العشرة المبشرين بالجنة على و أبوبكر و عثمان و طلحة و الزبير يجتمعون فى حفصة! أما الإمام الصادق (عليه‌السلام) فآية من الآيات. جده لأبيه زين‌العابدين. و زين‌العابدين و سالم بن عبدالله بن عمر و القاسم بن محمد بن أبى‌بكر أولاد خالات ثلاثة. هن بنات كسرى يزدجرد. و أبوه الباقر ولدته لزين‌العابدين بنت عمه فاطمة بنت الحسن. و أمه أم‌فروة بنت «القاسم» بن محمد بن أبى‌بكر. و قد تزوج أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) أم‌محمد، أسماء بنت عميس، بعد موت أبى‌بكر. فصار ربيبه، و ترعرع فى كنفه حتى شهد معه الجمل. و كان على الرجالة. و شهد معه صفين. و ولاه مصر حتى قتلته جيوش معاوية فى مصر. و أمها أسماء بنت عبدالرحمن بن أبى‌بكر عم القاسم و شقيق عائشة. شهد اليمامة مع خالد. و قتل محكم اليمامة فى الحصن فاقتحمه المسلمون. و بعث اليه معاوية بمائة ألف درهم فردها و قال: لا أبيع دينى بدنياى. و عبدالرحمن هو القائل و هو يرفض البيعة ليزيد: «جعلتموها هرقلية كلما مات [صفحه ۱۲۵] هرقل قام هرقل». فجعفر الصادق قد ولده النبى عليه الصلاة و السلام مرتين، و على مرتين، و الصديق مرتين، ليدل بهذا المجد الذى ينفرد به فى الدنيا على أنه نسيج وحده. و من الناحية الأخرى ولده كسرى مرتين، ليدل الدنيا - من أعلى مواقعها - على ان

الإسلام للموالى و العرب. فذلك هو الدين الذى جاء به رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)... و الذى دافع من أجله عن المساواة بين المسلمين كافة، أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام). هكذا وحدت المدينة مجتمعها، و رفعت أبناء الصحابة الى أعلى مقام. و أهل البيت الى صدارة المجتمع، يمدون أنسابهم الى هاماته و أسبابهم الى طبقاته. و ذات يوم أصهر الحجاج الى عبدالله بن جعفر فى بنته أم‌كلثوم، فأبرد اليه الخليفة عبدالملك ليسوغ أباها المهر و يعجل طلاقها، لأنه تجاوز قدره. و هى حجة ظاهرة، قد تخفى حجة حقيقية، إذا كان يخشى أن يمد الحجاج بسبب الى أسرة قد يشمله هداها، أو يأسره الإخلاص لها، أو يبعده عن أن يكون - بجمعه - لعبد الملك، و بقسوته على من عداه. لكن العلم ظل الخصيصة الكبرى «للمدينة». ففيها وضعت القواعد العامة لتطبيق المبادئ الإلهية التى بعثت بها السماء آخر رسلها لإصلاح البشر، و وضعت أسس الدولة و مبادئ الجماعة و انتشر الدين فى القارات الثلاث المعروفة؛ لتقدم الحضارة الإسلامية، سياسة و إدارة، و تشريعا، دوليا و مدنيا و جنائيا، و اقتصاديا، و قواعد علمية، و علوما تطبيقية و رياضية لم تشهدها القرون من قبل، و ستبنى عليها الحضارات جميعا، فتكون طريقا للبشرية من جهالات القرون الأولى الى حضارات العصور الحديثة العلمية و الاقتصادية و التشريعية و الاجتماعية. و لما انقضى عهد الرسالة و الراشدين الأربعة، تابعت عاصمة الإسلام - و ان لم تعد عاصمة الدولة - رسالتها بالفقه... و هو فى الحضارة الإسلامية كحجارة الأساس فى البنيان: ان كانت منه قواعد الفكر الاسلامى كافة، و كانت الحرية الفكرية لحمته [صفحه ۱۲۶] و سداه، و الفضيلة الإنسانية مبدأه و منتهاه. و فيه صلاح الناس، و التخفيف عليهم، و فتح أبواب الرجاء لهم، و تمكينهم من التطور لملاحقة حاجات الأعصر، بأداته «الديناميكية» - المحركة - نحو التقدم، و هى اجتهاد الرأى. و فى أهل‌البيت (عليهم‌السلام) كان النبى مدينة العلم و على بابها، و ريحانتا الرسول من الدنيا الامام «الحسن» و «الإمام الحسين» يمثلون الجيل الأول. و فى الجيل الثانى كان السجاد - من كثرة السجود - أو زين‌العابدين - من كمال عبادته - و ابناه الباقر وزيد. و كان لزيد مذهبه. أما الجيل الثالث من القرون المضلة فقد تراءى فيه للمسلمين جعفر بن محمد الصادق (عليه‌السلام)، بدر تمام، لجيل كان ختام أجيال. و أما من عدا أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فقد نهض عنهم الصحابة و أبناؤهم و أحفادهم بعبء العلم نهضة جديرة بدين يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم و مسلمة. فاشتهرت بينهم أم‌المؤمنين عائشة و أم‌سلمة، و زينب بنت أبى‌سلمة، و العبادلة الأربعة أبناء العباس، و عمر، و الزبير، و عمرو، و أبوسلمة بن عبدالرحمن بن عوف، و عبدالرحمن بن أبى‌بكر، و بنته حفصة و عروة بن الزبير ابن‌أخت عائشة و ابن أخيها القاسم بن محمد بن أبى‌بكر، و راويتها عمرة بنت عبدالرحمن، و هؤلاء الثلاثة أعلم الناس بحديث عائشة، و سالم بن عبدالله بن عمر و سعيد بن المسيب و خارجة بن زيد و عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، و أبوبكر بن عبدالرحمن و سليمان بن يسار، و تعلم عليهم جيل جديد؛ فيه محمد بن شهاب الزهرى و أبوبكر بن محمد بن عمرو بن حزم، و محمد بن المنكدر، و محمد بن عبدالله ابنا أبى‌بكر بن حزم، و ربيعة الرأى، و هؤلاء مشيخة مالك بن أنس. و مالك يعاصر فى النصف الثانى من القرن الثانى نهاية الأجيال المفضلة. ثم هو شيخ المدرسة التى نجب فيها محمد بن ادريس الشافعى و تلميذه أحمد بن حنبل. و لقد طالما زاحم التلاميذ أشياخهم فى العلم و ان لم يزاحموهم فى مكانتهم عند الله و الناس. [صفحه ۱۲۷] و من المدينة انطلق الفقه الاسلامى الى العراق، حيث أقام عبدالله بن مسعود زمانا معلما و وزيرا كما سماه عمر، و تعلم عليه تلاميذه و تلاميذ على (عليه‌السلام)، كعبيدة، و علقمة، و الحارث. و عن طريق علقمة تعلمت مدرسة النخعيين يتقدمها الأسود و عبدالرحمن، و يتوسط عقدها إبراهيم ابن‌يزيد شيخ حماد بن أبى‌سليمان. و فى حلقة حماد بالكوفة قضى أبوحنيفة عشرين عاما يتعلم، ليصبح علما على مدرسة الرأى و القياس الذى قعد قواعده الشافعى فانتشر فى كل فروع العالم الاسلامى. و هوى أبى‌حنيفة مع أبناء على (عليه‌السلام) معروف، وصلة فكره بزعماء أهل‌البيت (عليهم‌السلام) واضحة، و ان مذهبه ليقارب المذهب الزيدى أكثر مما يقارب المذهب الحنفى غيره من مذاهب أهل السنة كما قيل. و لقد استشهد زيد - بن زين‌العابدين (عليه‌السلام) - سنة ۱۲۱، و فى ذلك العهد جلس أبوحنيفة مجلس حماد بن أبى‌سليمان بعد وفاته، و شرع يدون بعض مذهبه و كثيرا من الفروع. ثم مكن أبويوسف للمذهب بتولية زملائة القضاء، ليلزموا الناس به، ثم نشره محمد بن الحسن بتدوينه فى كتبه الشهيرة. و تدوين الفقه فى كتاب «المجموع» قد سبق به

زيد مدرسة أبی‌حنيفة. و لعل أباحنيفة تعلم تدوين الفقه عليه - بل ان الجميع قد قلدوا فيه صنيع أهل‌البيت أنفسهم ولديهم الكتب فيها العلم، أحاديث و فقها، يتعلمونه كابرا عن كابر. فالحجاز و العراق قد تضامنا فی انتاج الفقه، لتتابعهما بعد ذلك شتی الحواضر، فی الفسطاط و دمشق و قرطبة و القيروان، و فی المغرب و فی المشرق، و فی الاندلس، و وسط آسيا. و ظاهر من هذا التاريخ أمور: ۱ - ان المذاهب الفقهية جميعا بما فيها المذاهب الباقية الی اليوم لأهل السنة، يتصدرها فی الظهور مذهب أهل‌البيت علی يد زيد بن علی زين‌العابدين. و كذلك يسبق «المذهب الزيدی» مذهب الإمام جعفر الصادق (عليه‌السلام)، الذی تبعه الأئمة من [صفحه ۱۲۸] نسله، و صار يسمی مذهب «الإمامية». فالصادق (عليه‌السلام) صار إماما بموت أبيه الباقر (عليه‌السلام) فی العقد الثانی من المائة الثانية، ثم كانت وفاته بعد استشهاد عمه زيد سنة ۱۲۱ بسبعة و عشرين عاما سنة ۱۴۸. أما أبوحنيفة فمات فی سجن أبی‌جعفر المنصور سنة ۱۵۰. و أما مالك فمات بعد أبی‌حنيفة بتسعة و عشرين عاما سنة ۱۷۹. و الشافعی مات بعد أبی‌حنيفة بأربعة و خمسين عاما سنة ۲۰۴، و لحق بهم ابن‌حنبل سنة ۲۴۱. و أصحاب المذاهب الأخری بين معاصرين لهم أو لاحقين. ۲ - ان الامام «جعفر الصادق عليه‌السلام» كما سنری، ينهی عن استعمال القياس كمثل ما يرفضه فقهاء المدينة عموما و المحدثون خصوصا. و هم زعماء الفقه فی المائة الأولی من الهجرة. و سنری بعد ان نهی «الصادق عليه‌السلام» عن القياس لا يعارض الاجتهاد، بل إنه ليأمر به، و يبلغ بمنهاجه فی الاجتهاد ما لا يبلغه سواه. و سنری ان منهاجه فی الاعتبار و الاستخلاص هو منهج الفكر الإسلامی، نقله عن الفكر العالمی. ۳ - ان البيئة التی عاش فيها أهل‌البيت (عليهم‌السلام) ستين عاما بعد مجزرة كربلاء، كانت منجبة، بظهور العلم و العلماء من الرجال و النساء. فشاركت المرأة فی العلم فی عهد أمهات المؤمنين، و وجدت الفقيهات فی جيل التابعين و تابعی التابعين من أهل السنة، فتصدرت نساء أهل‌البيت سكينة بنت الحسين (۱۱۷) رضی الله عنهما، و كانت فی الطليعة، تساجل فحول الشعراء، بل الفقهاء. ۴ - و فی الهدأة الوقور فی هذه البيئة ازدهر العلم علی النحو الذی كان حريا بالمدينة، و بأهل‌البيت، من حفظ لحديث الرسول و تريث فی النظر و المناظرة، و تلبث فی إبداء الآراء، لما فيها من شبهة المخاطرة، و صدق فی خدمة حديث النبی (صلی الله عليه و آله و سلم) بالعمل به و تعليم الناس إياه. و إنما اشتعلت الثورات، و شققت الفلسفات، فی العراق. ففيها تعاقبت ثورات [صفحه ۱۲۹] التوابين، و الخوارج، و الخارجين - كابن الزبير و ابن‌الأشعث و الآخرين - و من غليان المراجل هنالك أحدثت المبادئ الهدامة أو الغلواء أو الخصومات آثارها، كمثل ما نسب الی الغلاة الذين تبرأ منهم الشيعة، كما تبرأ الإمام علی (عليه‌السلام) ممن ألهوه، فحرقهم بالنار. لكن آراء الغلاة و أعداء الاسلام لم تكن تكاد تفد علی المدينة حتی تخرج منها واهنة أو محطمة. ففی جوها النقی، تفتحت أبواب بيت النبی (صلی الله عليه و آله و سلم)، و تخرج فی علومها الأئمة.

زين‌العابدين

۳۸ - ۹۴ تعاظم بيت زين‌العابدين (عليه‌السلام) فی عدد أفراده يوما بعد يوم، و قدم «السجاد» لنا ابنه «الباقر»، ثم قدم الباقر ابنه «الصادق» (عليهم‌السلام). فكانوا مثلا علیا فی العزوف عن السلطة و الانصراف الی تعليم الناس العلم الصحيح و العمل الصالح و الأسوة الحسنة. روی عن جابر بن عبدالله و ابن‌عمر إلی جوار روايته علم أهل‌البيت و حديثهم عن أبيه الحسين و أم‌المؤمنين أم‌سلمة. و سمع ابن‌عباس... ليروی عنه فيما بعد ابناه عبدالله و الباقر و خلق كثير. و رأی بعينی المريض العاجز عن الاستشهاد، مصير أبيه العظيم، و إخوته و أعمامه و أولادهم يوم كربلاء. و تجلت فيه الفضائل المنبثقة من الورع و الرحمة: يصلی لله فی اليوم و الليلة ألف ركعة؛ و لهذا سمی «السجاد». إذا توضأ اصفر لونه و إذا قام أردع من الفرق. و لما سألوه قال: أتدرون من أريد أن أقف بين يديه و من أناجی؟ و مع تألق عبدالله بن جعفر بالمدينة، و هو الصحابی الذی يحرص الخلفاء فی دمشق علی ارضائه، و تفريق عبدالله عطاءه الجزل فی فقراء المدينة، و استشهاد ابنين له يوم الحرة، و ثالث فی كربلاء، و مع انه زوج زينب بنت علی، عمة زين‌العابدين (عليه‌السلام)، مع هذا كله كان زين‌العابدين يحتل مكانه فی الصدارة، و يحمل [صفحه ۱۳۰] وصفه بجدارة. و فی ذلك نص يروی عن مالك بن

أنس قال: «سمى زين‌العابدين لعبادته». علمته المحنة و الورع الحكمة و حسن الخطاب، فكان فى باكورة حياته على علم عظيم. قال له يزيد يوم أدخل عليه - مريضا - مع نساء أهل‌البيت (عليهم‌السلام) الناجيات من كربلاء - أبوك الذى قطع رحمى و جهل حقى و نازعنى سلطانى فصنع الله به ما قد رأيت. قال زين‌العابدين (عليه‌السلام): «ما أصاب من مصيبة فى الأرض و لا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها». قال يزيد: «و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم». قال زين‌العابدين (عليه‌السلام): «هذا فى حق من ظلم لا- من ظلم». [۳۴] . تتابع على الكذب ولاة الشام و الأمصار من عهد معاوية يشتمون عليا (عليه‌السلام) بأمر بنى‌أمية، فكان يبقى من كذبهم شىء فى عقول العامة، أو الصبية الذين لا يعلمون. كان عبيدالله بن مسعود من فقهاء المدينة السبعة، و كان معلم عمر بن عبدالعزيز و هو صبى أودعه أبوه أخواله - بنى عدى قوم عمر بن الخطاب - بالمدينة. فسمع يوما شتم على، فقال لعمر: يابنى. متى علمت أن الله غضب على أهل بدر؟ قال الصبى: و هل كان على فى بدر؟ قال عبيدالله: و هل كانت بدر كلها إلا لعلى! فلما ولى عمر الخلافة أبطل شتم أهل‌البيت (عليهم‌السلام)، ورد اليهم حقوقهم. و قال رجل من أنصار الأمويين بالشام: دخلت المدينة فرأيت رجلا راكبا على بغلة [صفحه ۱۳۱] لم أر أحسن وجها و لا- ثوبا و لا- سمتا و لا- دابة منه. فسألت فقيل: هذا على بن الحسين بن على (عليهم‌السلام). فأتيته - و قد امتلأ قلبى له بغضا - فقلت: أنت ابن‌على بن أبى‌طالب؟ قال: أنا ابن‌ابنه. فقلت: بك و بأبيك أسب عليا. فلما انقضى كلامى قال: أحسبك غريبا؟ مل بنا الى الدار فان احتجت منزلا أنزلناك، أو الى مال واسيناك، أو الى حاجة عاوناك على قضائها. فانصرفت من عنده، و ما على الأرض أحد أحب الى منه. و يروى أنه احترق البيت الذى هو فيه و هو قائم يصلى، فلما انصرف (من الصلاة) قيل له: ما بالك لم تنصرف حين اشتعلت النار؟ قال: اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى. و أنه لما حج و أراد أن يلبى أرعد، و اصفر و خر مغشيا عليه. فلما أفاق سئل فقال: إنى لأخشى أن أقول: لبيك اللهم لبيك. فيقول: لا لبيك و لا سعديك - ثم لبى. فغشى عليه حتى خر عن راحلته... و كان يرحل من المدينة الى مكة فلا يقرع راحلته مرة واحدة! يقول الأصمعى «لم يكن للحسين (رضى الله عنه) عقب إلا من ابنه زين‌العابدين. و لم يكن لزين‌العابدين نسل إلا من ابنة عمه الحسن، فجميع الحسينيين من نسله». أما أكبر صدقته فبالليل. يقول: «صدقة السر تطفئ غضب الرب». و مع عظم مكانه كان إذا دخل المسجد تخطى الرقاب حتى يجلس فى حلقة زيد بن أسلم، اذا كان هنالك. فيقول له نافع بن جبير بن مطعم: أنت سيد الناس... تأتى تتخطى خلق الله و أهل العلم من قريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود؟ فيجيب: «انما يجلس الرجل حيث ينتفع. و ان العلم يطلب حيث كان». فاذا جلس زين‌العابدين فى المسجد جلس بين القبر و المنبر، و انعقدت حلقة كحلقة أبيه فى روضة كرياض الجنة، يقول عنها القائل «اذا دخلت مسجد رسول لله (صلى الله عليه و آله و سلم) فرأيت حلقة كأن على رؤوسهم الطير فتلك حلقة أبى عبدالله مؤتزرا [صفحه ۱۳۲] الى أنصاف ساقيه». و لقد يتحدث مع سليمان بن يسار (۱۰۷) مولى أم‌المؤمنين ميمونة الى ارتفاع الضحى. فإذا أراد أن يقوما قرأ عليهما عبدالله بن أبى‌سلمة سورة، فإذا فرغ عبدالله من التلاوة دعوا الله سبحانه. ولقد يدخل ابن‌شهاب الزهرى (۱۲۴) و صحبه فيسأله فيم كنتم؟ فيجيبه أنهم كانوا يتذاكرون الصوم و أنهم لم يروه واجبا إلا فى رمضان فيقول السجاد (عليه‌السلام) - الصوم على أربعين وجها. ثم يشرحها له وجها وجها: فمنها ما يجب، و منها ما هو بالخيار أو الإباحة... الخ. و فى علمه يقول محمد بن سعد (صاحب الطبقات):«كان زين‌العابدين ثقة مأمونا كثير الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)، عالما، و لم يكن من أهل‌البيت مثله» و يقول الزهرى: «ما رأيت أفقه من زين‌العابدين لولا انه قليل الحديث.» و هذه الشهادة بالفقه من الشيخ مالك بن أنس تعلن رأى جيل التابعين. بل ان الزهرى يعلن مكانة زين‌العابدين بين كل الأحياء بقوله: «ما رأيت قرشيا أفضل منه». قصد اليه يوما، و نفسه تكاد تبسل من ذنب ألم به، فرده الامام الى صميم الإسلام؛ قال: «قنوطك من رحمة الله التى وسعت كل شىء أعظم من ذنبك». و الشافعى الذى يقول فى ابن‌شهاب الزهرى: لولا الزهرى لذهبت السنن من المدينة» يضع زين‌العابدين (عليه‌السلام) فى أعلى مكان. فيعده أعلم أهل المدينة. كان كثير البكاء من يوم كربلاء. فقيل له فى ذلك فقال: «إن يعقوب عليه‌السلام بكى حتى ابيضت عيناه من الحزن على يوسف - و لم يتحقق موت يوسف - و قد رأيت بضعة عشر رجلا من أهلى يذبحون فى غداة واحدة». و ربما فسر لنا هذا المقال

بعض أسباب انصرافه الى تعليم المسلمين دينهم، لصلاح دنياهم، و إجماع المسلمين على إجلاله. [۳۵] . [صفحه ۱۳۳] و فى سنهٔ ۹۴، سنهٔ الفقهاء، مات جمع من فقهاء المدينهٔ: عروهٔ ابن‌الزبير، و السعيدان: ابن‌جبير و ابن‌المسيب، و أبوبكر بن عبدالرحمن. و ارتفعت فيها أو فى سنهٔ ۹۵ روح زين‌العابدين (عليه‌السلام) الى الرفيق الأعلى... مخلفا أربعهٔ عشر ولدا منهم عشرهٔ رجال كبيرهم محمد، أبوجعفر، المكنى بالباقر، و فيهم زيد بن على.

الباقر

۵۷ - ۱۱۴ انصرف الامام الباقر (عليه‌السلام) للعلم بكله. فهذا أول دروس أبيه له. بقر العلم أى تبحر فيه، فسمى الباقر. روى علم أبيه وجديه الحسين و الحسن وجد أبيه - على - (عليهم‌السلام) و جادل عبدالله [صفحه ۱۳۴] بن عباس. و عنه روى بقايا الصحابهٔ و التابعين. سأل سائل عبدالله بن عمر فى مسجد الرسول (صلى الله عليه و آله) فأشار الى حيث يجلس الباقر (عليه‌السلام) و قال: «اذهب الى هذا الغلام و سله و أعلمنى عما يجيبك» فلما عاد اليه بالجواب قال: «انهم أهل‌بيت مفهمون». و روى عنه الفطاحل: أخوه زيد و ابنه جعفر الصادق، ثم الأوزاعى إمام الشام، و ابن‌جريح امام مكهٔ، و أبوحنيفهٔ، و عبدالله بن أبى‌بكر ابن‌حزم شيخ مالك إمام المدينهٔ، و حجاج بن أرطاهٔ (۱۴۵)، و مكحول ابن‌راشد، و عمرو بن دينار (۱۱۵)، و يحيى بن كثير (۱۲۹)، و الزهرى (۱۲۴)، و ربيعهٔ الرأى (۱۳۶)، شيخا مالك، و الأعمش، و جابر الجعفى (۱۲۸)، و زرارهٔ بن أعين (۱۵۰)، و الثلاثهٔ الأخيرون من كبار علماء الشيعهٔ و رواهٔ ابنه جعفر الصادق (عليه‌السلام). يقول محمد بن المنكدر - شيخ مالك بن أنس - فى الباقر (عليه‌السلام): «ما كنت أرى ان مثل على بن الحسين يدع خلفا يقاربه فى الفضل حتى رأيت ابنه محمدا الباقر». و ما هو فى سجاياه إلا خليفهٔ «السجاد»، يطوف بالبيت فيركع، و يسجد، فإذا مكان سجوده مبتل بالدموع. يقول عنه الحسن البصرى: «ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء». عايش الباقر (عليه‌السلام) أباه زمانا طويلا، و لم يمتحن محنهٔ أبيه فى كربلاء، أو محنهٔ أخيه زيد إذ أخرجه أهل الكوفهٔ و خذلوه، و لم تعتور حياته الامتحانات المتعاقبهٔ التى اعتورت حياهٔ ابنه - الامام الصادق - أو خلافات بنى عمومته - أبناء الحسن - أو الإرهاب الفكرى أو الفعلى من الخليفهٔ المنصور؛ فأتيح للباقر أن يبلور اتجاه اهل‌البيت (عليهم‌السلام) - من نسل الحسين - الى العلم و التعليم، و يبرز فيه العنايهٔ بفقه العبادات و المعاملات. و كثر ترديد اسمه مصاحبا لاسم ابنه الإمام الصادق فى كتب الفقه الشيعى. و اليه يرجع اصحاب الكلام فى العقائد الشيعيهٔ، و كثير من الفقه المستنبط من القرآن و السنهٔ. و روى عنه جابر الجعفى أكثر من خمسين ألف حديث، و روى عنه محمد بن [صفحه ۱۳۵] مسلم ثلاثين ألفا. و كان عبدالملك بن مروان يعرف له حقه، و هو فى صدر شبابه، فى حياهٔ أبيه. اليك أمثالا لفكره فى السياسهٔ و الفقه و التفسير: - روى الكسائى: دخلت على الرشيد فقال : هل علمت أول من سن الكتابهٔ على الذهب و الفضهٔ؟ قلت عبدالملك بن مروان. قال ما السبب؟ قلت: لا أعرف. قال: كانت القراطيس للروم و كان أكثر من بمصر على دينهم. و كانت تطرز (أبا و ابنا و روحا) و تخرج من مصر تدور فى الآفاق. فأمر عبدالعزيز - و كان عامله على مصر - بإبطال ذلك، و أن تطرز بصورهٔ التوحيد... مشهدا الله ألا إله إلا هو... فلما وصلت القراطيس الى ملك الروم كتب الى عبدالملك: إن لم يرد هذا الطراز على ما كان عليه فسينقش على القراطيس شتم النبى. فاستشار عبدالملك، فلم يجد عند أحد رأيا، فاستشار الباقر (عليه‌السلام). فقال له: لا يعظم عليك هذا الأمر من جهتين؛ الأولى: أن الله عزوجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم. و الثانيهٔ: أن تتهدد من يتعامل بغير دنانيرك. فلما علم ملك الروم أن دنانيره سيبطل التعامل بها إن حوت شتما، كف عما تهدد به. - و فى الاحتكار و رفع الأسعار، يقول فى مسجد الرسول: قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «أيما رجل اشترى طعاما فكبسه أربعين صباحا، يريد غلاء المسلمين، ثم باعه فتصدق بثمنه، لم يكن كفارهٔ لما صنع». - و اليمين عند الشيعهٔ لا تنعقد إلا قسما بالله و أسمائه الحسنى و صفاته الدالهٔ عليه صراحهٔ، فمن حلف بغيرها لا يحنث إذا لم يفعل. سئل الباقر (عليه‌السلام) عن قوله تعالى «و الليل إذا يغشى» «و النجم إذا هوى» و ما الى ذلك، فأجاب: إن لله عزوجل أن يقسم بما شاء من خلقه و ليس لخلقه أن يقسموا إلا به. - و سئل: أبالناس حاجهٔ الى الإمام؟

فأجاب: أجل... ليرفع العذاب عن أهل الأرض. و ذكر قوله تعالى: «و ما كان الله ليعذبهم و أنت فيهم». [صفحه ۱۳۶] تعاقب على الخلافة فى حياة الباقر (عليه‌السلام) أربعة من أبناء عبدالملك و زوج ابنته عمر بن عبدالعزيز - خامس الراشدين فى مدة خلافته - و كان عمر يتردد على الامام الباقر يستنصحه؛ و الباقر يوصيه بالمسلمين أجمعين - فيقول له بين ما يقول: «أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدا. و أوسطهم أخا. و أكبرهم أبا. فارحم ولدك. وصل أخاك. وبر والدك. فإذا صنعت معروفا فربه» أى تعهده. و كان نشر التشيع لأهل‌البيت همه. قال سعد الإسكافى: قلت لأبى‌جعفر الباقر (عليه‌السلام): «انى أجلس فأقص و أذكر حقكم و فضائلكم» قال: «وددت لو أن على كل ثلاثين ذراعا قاصا مثلك». و حج هشام بن عبدالملك فى أيام ملكه (۱۲۵ - ۱۰۵) فرأى الباقر بالمسجد يعلم الناس فى مهابة و جلال، تعاليم الإسلام و آدابه و فرائضه و أحكامه و الناس خشع فى مجلسه. و غلبت هشاما غريزة المعاجزة لأهل‌البيت، فبعث اليه من يسأله: ما طعام الناس و شرابهم يوم المحشر؟ و أجابه الباقر (عليه‌السلام) بآيات الكتاب الكريم... و استطرد فى تعليمه و تعليم من أرسله. و سمعه الحجيج - عامئذ - يقول للناس: «الحمد لله الذى بعث محمدا بالحق نبيا. و أكرمنا به. فنحن صفوة الناس من خلقه و خيرته من عباده و خلفائه. فالسعيد من تبعنا. و الشقى من عادانا». و رجع هشام الى عاصمته... فأرسل فى دعوة الباقر (عليه‌السلام)، و ابنه الصادق (عليه‌السلام)، الى قصبة الملك فى دمشق. يقول الصادق (عليه‌السلام): «فلما وردنا دمشق حجبنا ثلاثا. ثم أدخلنا فى اليوم الرابع». و كأنما أراد هشام أن يظهرهما على أنه إذا لم تكن له مكانة فى جوار البيت العتيق و مسجد الرسول أو كانت الكرامة كلها، فى الحج الأكبر، لأهل‌البيت، فإن له بيتا فى دمشق و حجابا و مواعيد. [صفحه ۱۳۷]

امام المسلمين

اشاره

ان الله أراد منا شيئا و أراد بنا شيئا. فما أراده بنا طواه عنا. و ما أراده منا أظهره لنا. فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا. الامام الصادق (عليه‌السلام) [صفحه ۱۳۹] ولد الامام الصادق (عليه‌السلام) فى السابع عشر من ربيع الأول سنة ۸۲ على قول، أو غرة رجب. و فى أقوال أخرى انه ولد سنة ۸۰ أو سنة ۸۳. و تتابع بعده أبناء الباقر، و لهذا يكنى الباقر أباجعفر. أما أخوه الشقيق فعبد الله. و أما أولاد الصادق فإسماعيل و عبدالله - و به يكنى أبا عبدالله - و أمفروة من زوجته فاطمة بنت الحسين... بن الحسين بن على، و موسى (الكاظم) و اسحق و محمد؛ و أمهم أمولد، تدعى حميدة. و العباس و على و أسماء من أمهات متفرقات. و اسم جعفر فى بيت زين‌العابدين يذكر بأول الشهداء من بيت أبى‌طالب. فعلى هو الثانى فيه. و الحسين هو الثالث. أما الأول فجعفر بن أبى‌طالب قائد جيش مؤتة و شهيدها، الطيار فى الجنة، و ذو الجناحين... كما وصفه رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) - و كما روى البخارى و مسلم: قال له رسول الله: «أنت أشبهت خلقى و خلقى». و هو أول زوج لأسماء بنت عميس [۳۶] جدة أمفروة أم: جعفر الصادق (عليه‌السلام). و لقد مر بنا كيف ولده رسول الله مرتين، و على مرتين، أبوبكر مرتين، ليدل التاريخ على انه نسيج وحده، و ان كسرى يزدجرد ملك الفرس قد ولده مرتين، ليدل [صفحه ۱۴۰] على ان الإسلام للموالى و العرب. فالباقر - و هو من هو - أكفأ الناس لأم فروة [۳۷] المنحدرة من صلب أبى‌بكر أول الخلفاء الراشدين، و القاسم بن محمد [۳۸] الذى يرشحه للخلافة عمر بن عبدالعزيز - خامس الخلفاء الراشدين. و كأنما سلم الباقر ابنه شعار حياته فى مقولتين صيرتاه ربانيا من كل وجه؛ الأولى: «شيعتنا من أطاع الله». و الثانية «إن الله خبأ رضاه فى طاعته، فلا تحقرن من الطاعات شيئا فلعل رضاه فيه. و خبأ سخطه فى معصيته، فلا تحقرن من معصية شيئا فلعل سخطه فيه. و خبأ أولياءه فى خلقه، فلا تحقرن أحدا فلعله ذلك الولى». تلقى الصادق (عليه‌السلام) من أبيه كل ما وعاه قلبه وقرأ كل ما حوته كتبه، و استمع الى علماء العصر، و انتفع بعلوم جده القاسم بن محمد بن ابى‌بكر (۱۰۶)، و كان مثلا عاليا للأمة و واحدا من الأعمدة السبعة المسمين «علماء المدينة السبعة». [۳۹] يعلن عمر بن عبدالعزيز أنه «لو لا خوف الفتنة من بنى‌أمية لاستخلفه على الأمة» و يوصى عمر

عماله أن يكتبوا السنن من عنده. فهذا رجل له ورع عمر بن عبدالعزيز، و عنده كل علم المدينة، و انه ليستطيع أن يقول - من صلة على الوثقى بأبيه محمد بن أبى‌بكر - إنه أوثق أهل‌بيته صلة برسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)، و بأول من تبعه، عليا كان أو أبا [صفحه ۱۴۱] بكر، بل بهما معا. و عندما نذكر ان القاسم بن محمد ظل مصدرا للعلم حتى شارف الصادق ربع القرن من حياته، و أن الصادق شهد حلقات عكرمة مولى ابن‌عباس، (۱۰۴) و عطاء بن أبى رباح، بمكة حيث كان يجلس ابن‌عباس، و أن أوامر الولاة فى الموسم كانت (لا يفتى الناس إلا عطاء)، كما شهد بالمدينة حلقة عبدالله بن أبى‌رافع - مولى أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) - الذى أملى على عليه كتابه الى معاوية، و حلق خاله عبدالرحمن بن القاسم، و عروة بن الزبير (۹۴) الراوية عن خالته عائشة، و محمد بن المنكدر (۱۳۰) شيخ مالك، فليس علينا أن نحاول البحث عما تلقاه جعفر بن محمد الصادق فى صباه. و لقد كان علم أهل‌البيت (عليهم‌السلام) حسبه - فكيف إذا اجتمع اليه علوم هؤلاء، ليملأ بالفقه الشيعى و بالفقه المقارن مدينة الرسول، من يوم مات أبوه و هو بعد فى ثلاثينياته. و الصبى من «أهل‌البيت» لا ينفق صباه فى «عمل لا شى» فذلك هو اللهو، أو فى «عدم عمل شىء»، فهذا هو الفراغ... و على الأجيال المتعاقبة منهم تبعات فى تعاقب الإمامة، لا تدع لهم محيصا عن الإحاطة الكاملة بما لدى غيرهم من علم، فوق علمهم، و ما هو إلا القرآن و السنة و السيرة؛ و القرآن كما يقول ابن‌عباس «فى بيتهم نزل»، و السنة من بيتهم صدرت، و السيرة سيرتهم. و اللغة طريق ذلك كله، و هى بعد حصيلته. و إنك لتدرك منزلة جعفر بن محمد (عليهماالسلام) فى البيان العربى من تداوله للتفسير فى اقتدار على تخريج المعانى لا قرين له. و سنراه غدا عمدته النصوص فى الفقه و الدين، يستخرج منها أعمق المعانى بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، شأن أمراء البيان. و من تكن النصوص عمدته الأولى، فالبلاغة عدته الكبرى. و لئن لم يتميز الأطفال أو الصبية فى بيت زين‌العابدين و الباقر بخصوصيات تكبر و تنمو فتبرز إذ هم شيوخ و أئمة، إن بيت زين‌العابدين ذاته كان «خصوصية» فى [صفحه ۱۴۲] مجتمع الاسلام... فيه المثل الأعلى من العلم المحيط و الورع الكامل و التفرغ للخدمة العامة، و تعلق القلوب به، و اتجاه الأبصار تلقاءه. على هذا درج بيت زين‌العابدين (عليه‌السلام)، مع الاستمرار و الاستقرار، فلم يعكر الصفو فيه غير مصرع زيد فى سنة ۱۲۱، بعد إذ خذله أهل الكوفة فى ثورته، فمصرع ابنه يحيى. و حمل الصادق الأمانة فى ذوى رحمه - منذ صار إماما برحيل الباقر سنة ۱۱۴ - فكان يحنو على الأحياء من أبناء عمه زيد، و يأسو جراحات من سقط آباؤهم فى الحرب من رجال زيد، فبعث ألف دينار فرقت فى ورثتهم. و ليس أحد بحاجة فى ترجمة أئمة أهل‌البيت ليسترسل فى وصف خصال من يرث أخلاق الأنبياء و يعلمها. فلنستحضر - و نحن فى بيت النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) - ما كان يصنعه النبى، و لنتيقن أن الامام الصادق كان يحاول أن يصنع نظيره. و لنستحضر فعال على و زهراء النبى، و الحسن و الحسين، و زين‌العابدين، و الباقر (عليهم‌السلام)؛ فهى أصول يتلقاها الخلف عن السلف، ليعملوا بها، ثم يعلموا بها. و ربما أجزأ فى هذا المقام ذكر أمثال عادية من الحوادث اليومية تصور صميم «الشخصية»... و فيما نذكره دلائل على كثير لم نذكره. فحياة الامام مدرسة و تطبيقاتها، و العمر أيام تتكرر. و الحياة جماع أعمال يدل بعضها على البعض الآخر؛ و منها الجزئى الذى يستنبط منه الكلى. و كثيرا ما كان العمل الواحد (رد فعل) عفوى أو فورى، صادرا عن عدة قواعد يجرى عليها العقل أو الشعور أن السليقة أو الطريقة - فردود الأفعال شهادات عيان بدخائل الإنسان. ۱ - مات بين يدى الامام ولد صغير، فبكى، و قال «سبحانك ربى لئن أخذت لقد أبقيت. و لئن ابتليت لقد عافيت». و حمله الى النساء، و عزم عليهم ألا يصرخن، و قال «سبحان من يقبض أولادنا و لا [صفحه ۱۴۳] نزداد له إلا حبا. إنا قوم نسأل الله ما نحب فيعطينا. فإذا نزل ما نكره فيمن نحب رضينا». فأى قلب، فى اطمئنانه و اتزانه، كمثل ذلك الذى يفيض بالشكر، حيث يغيض الصبر عند الغير! ۲ - و نهى أهل‌بيته عن الصعود - فدخل يوما فإذا جارية من جواريه تربى بعض ولده، قد صعدت السلم، و الصبى معها. فلما نظرت الإمام ارتعدت لعصيانها و سقط الصبى من يدها، فمات. فخرج الصادق (عليه‌السلام) متغير اللون. فسئل عن ذلك فقال: «ما تغير لونى لموت الصبى، و إنما تغير لونى لما أدخلت على الجارية من الرعب». ثم قال لها بعد ذلك: «أنت حرة لوجه الله. لا بأس عليك». فهذا أمر واحد عادى، تبعته وقائع ثلاثة غير عادية، أعقبها من الإمام تصرفات لا تصدر إلا عن الإمام؛ فى كل واحدة منها أنواع فضائل... تبدأ باحترام إنسانية الانسان، و

تنتهى بعطاء دونه كل عطاء، يختمه بالكلمة الطيبة - لا بأس - و يبدؤه بأعلى القيم الإنسانية، إذ يمنحها حريتها. ۳ - و ذهب مرة يعزى أحد المصابين بفقد ولد، و انقطع فى الطريق شسع نعله، فتناوله من رجله و مشى حافيا، فخلع ابن‌يعفور شسع نعله و قدمه له. فأعرض عنه كهيئة المغضب و قال: لا- فصاحب المصيبة أولى بالصبر عليها... فالإمام (عليه‌السلام) لا يلقى متاعبه على من دونه، بل يتحمل الأذى ليتعلم الناس وجوب العمل، و لزوم التحمل، و ليعلم الكبراء أنهم كبراء بما يضربونه من المثل العليا، و ليدرك الجميع أن الصبر على المصيبة شطر الإيمان. و أحق الناس به من أتيحت الفرصة له. ۴ - و ذات يوم دعا للطعام عابر سبيل لم يقرئه السلام، فراجعه حضاره متسائلين بين يديه: أليست السنة أن يسلم الرجل أولا، ثم يدعى للطعام؟ فأجاب الإمام (عليه‌السلام): «هذا فقه عراقى فيه بخل». [صفحه ۱۴۴] ففقه الامام «علوى» يبدأ بالعطاء... و عملى فيه مبادرة... و اجتماعى يسعى به المعطى الى الآخذ... و إسلامى، إنسانى، كله كرامة. لقد ولد فى دار شعارها البدار بالعطاء مع الإخفاء... حتى الصدقة يقول فيها الباقر (عليه‌السلام): «أعط و لا تسم. و لا تذل المؤمن». و فى ذلك السنة... و سنرى تطبيقات شتى من الإمام لهذا الفقه من المنهج الاقتصادى... ۵ - و صحا رجل من الحاج فلم يجد هميانه (الكمر الذى يلفه المحرم حول بطنه و فيه نفقته من النقود) فخرج فوجد الامام الصادق (عليه‌السلام) يصلى فتعلق به و هو يقول: أنت أخذت هميانى... قال الصادق (عليه‌السلام) كم كان فيه؟ قال: ألف دينار. فأعطاه ألف دينار. و مضى الرجل فوجد هميانه فعاد يعتذر و يرد الألف دينار. فأبى الصادق أن يأخذها و قال: شىء خرج من يدى فلا يعود. قال الرجل لمن حوله : من هذا؟ قالوا: جعفر الصادق. قال: لا جرم هذا فعال مثله. فإمام المسلمين لا ينعزل عنهم، فلا ينماز منهم، حتى ليخطئ الجاهلون منهم فى شخصه. فيعرض عن الجاهلين. و يخف ليخفف كرب المكروب، لا يحزنه و همه أو اتهامه، و انما تحزنه همومه، فيشركه فيها بالصنيع النابه مرة إثر أخرى. و الناس أسمع للصوت الذى لا صرير له، و أبصر بالإخلاص الذى لا يتصايح صاحبه به. و الأفضال أفعال تدرك آثارها الحواس الخمس. و لا نستطرد فى السرد، ففى كل واقعة سلفت «عدسة» صغيرة تريك العالم الكبير [صفحه ۱۴۵] الذى وراءها، من مناقب كالنجوم و ان كان أصحابها من البشر. هذه سماء تسعى على الأرض. و هؤلاء بقية النبى عليه الصلاة و السلام، يعيشون فى الدنيا!

مجالس العلم

شهد الامام الصادق (عليه‌السلام) انحدار الناس بعد عصر الخلفاء الراشدين، و رأى بعين الصبى المأمول من أهل‌بيت الرسول ما صنعه عمر بن عبدالعزيز فى خلافته بين سنتى ۹۸، ۱۰۱ إذ أعاد الدين غضا فى نحو من ثلاثين شهرا، و أثبت للدنيا، أن (المدة) كما سمى الناس خلافته، كانت كافية لتعيد الناس الى الاسلام الصحيح عندما يوجد خليفة صادق العزم، يتخذ الخلافة - كما قال - سبيلا الى الجنة. و كان بعض الصالحين يستعجلون عمر ليصنع كل ما صنع فى أول يوم ولى الخلافة. قال له ابنه عبدالملك، «يا أبت ما بالك لا تنفذ الأمور، فوالله لا أبالى فى الحق لو غلت بى القدور»، لكن عمر كان يتأتى للأمور فى رفق و اناة و إصرار. قال: «لا تعجل يا بنى ان الله تعالى ذم الخمر مرتين، و حرمها فى الثالثة. و إنى أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة، فيدفعوه جملة، فتكون فتنة». و بهذا قدر على أن يرد المظالم و أغنى الله الناس على يديه. فأصبح عمر لا يجد فقراء يوزع المال عليهم فى المدينة أو فى القرية. لكن الامام «الصادق» (عليه‌السلام) تعلم من حياة الخليفة الصادق العزم: أن إصلاحاته لم تؤت ثمارها بعد مماته، إذ دمرها الخلفاء الذين جاءوا من بعده، و تتابع الباقون يدمرون. و شهد الامام الصادق ظهور بنى‌العباس و كيف ناقضوا شعارات دولتهم و حكموا حكم الجاهلية. هكذا رأى رأى العيان ان صلاح الأمر لا يكون بتولى السلطة، أو بمجرد إصلاحها [صفحه ۱۴۶] مدة قصيرة أو طويلة. و كل عمر قصير، و انما الصلاح فى إصلاح الأمة... فكيفما تكونوا يولى عليكم... و لكل امة الحكومة التى تستحقها... و استيقنت نفسه الصواب فيما صنعه أبوه وجده، و هو أن يعلموا الأمة، فإذا تعلمت صلحت فلم يستضعفها حكامها... و هى عندئذ تأمرهم بالمعروف و تنهاهم عن المنكر و تشركهم تبعاتهم. فالأمة القوية لا تظلم حكامها و لا يظلمونها. و بشعار الثقة بالله سبحانه «الله ولىى و عصمتى من خلقه» و

بنقش الخاتم الذى يعلن مصدر قوته: (ما شاء الله. لا قوة إلا بالله. استغفر الله) قصد الى مجلس العلم، فى مسجد النبى أو فى داره، يستعمل البعد المكانى، حيث يجلس للتعليم فى مدينة الرسول، و البعد الزمانى؛ فهو تابعى يعيش فى جيل التابعين و تابعى التابعين، و البعد الثالث و هو ارتفاع نسبه الى النبى و على. أما البعد الرابع فعمق علمه و علم أبيه وجده (عليهم‌السلام). فى هذا المجلس المهيب بالمدينة أو بالكوفة، يجلس رجل ربعة... ليس بالطويل و لا بالقصير... أزهر له لمعان كالسراج... يسعى نوره بين يديه... رقيق البشرة، أسود الشعر جعده، أشم الأنف، أنزع قد انحسر الشعر عن جبينه فبدا مزهرا، له إشراق، و على خده خال أسود - المسلمون أيامئذ أحوج اليه ليعلمهم، منهم اليه ليحكمهم... كل ما يحيط به يوحى بالرجاء فى فضل الله. فلما طعن فى السن ازداد جلالا وسناء و إحياء للأمل. يلبس الملابس التى عناها جده عليه الصلاة و السلام حينما قال: «كلوا و اشربوا و البسوا فى غير سرف و لا مخيلة». رآه سفيان الثورى و عليه جبة خز دكناء فقال: يابن رسول الله ما هذا لباسك! فقال: «يا ثورى! لبسنا هذا لله، ثم كشف عن جبة صوف يلبسها، و قال: و لبسنا هذا لكم». كان جده على (عليه‌السلام) يختار الخشن من الثياب... و يلح الجوع عليه فيعلل معدته [صفحه ۱۴۷] بقرص شعير. يخيط نعله إن لم يكن مشغولا، أو يتركه لمن يخيطه بأجر اذا انشغل. لكن الزمان يتغير فيغير الصادق (عليه‌السلام) ليظهر أثر النعمة. و يقول للناس: «إذ أنعم الله على عبده بنعمة أحب أن يراها عليه لأن الله جميل يحب الجمال». و يقول: «إن الله يحب الجمال و التجمل. و يكره البؤس و التباؤس...». و النظافة من الايمان. فيها الكرامة و السلامة للنفس و للأسرة و للمدينة. فعلى المرء كما يقول الإمام: «أن ينظف ثوبه و يطيب ريحه و يجصص داره و يكنس أفنيته». و ذات يوم رآه «عباد بن كثير البصرى» فى الطواف فقال له: تلبس هذه الثياب فى هذا الموضع و أنت فى المكان الذى أنت فيه من على؟ فأجاب - كما يروى الامام نفسه - «فقلت: فرقبى - نسبة الى (فرقب) حيث تصنع ثياب كتان أبيض - اشتريته بدينار. و قد كان على فى زمن يستقيم له ما لبس فيه. ولو لبس مثل ذلك اللباس فى زماننا لقال الناس: هذا مرائى مثل (عباد)...». قيل له يوما: كان أبوك و كان... فما لهذه الثياب المروية (نسبة الى مرو) فأجاب: ويلك فمن «حرم زينة الله التى أخرج لعباده و الطيبات من الرزق»؟ و إنك لترى آثار النعمة على مالك و أبى‌حنيفة، و إجابات مشتقة بدقة من هذه الإجابات، فى ردود الرجلين بشأن ملابسهما و أنعم الله عليهما - و كان كلاهما لباسا - فالمذموم من الثياب ما فيه خيلاء، و المحمود ما كان إظهارا لنعمة الله على عبده. حتى تلميذه الثالث سفيان الثورى - و هو إمام الزهد و الورع و الحديث و الفقه - قد انتفع بدروس الإمام (عليه‌السلام) فى الملبس فأمسى يقول: الزهد فى الدنيا هو بقصر الأمل... ليس بأكل الخشن و لا بلبس الغليظ. أزهد فى الدنيا ثم نم. لا لك و لا عليك. إن الرجل ليكون عنده المال و هو زاهد فى الدنيا. و ان الرجل ليكون فقيرا و هو راغب فيها. و كان الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) يلبس ما تيسر من الصوف تارة و من القطن تارة و من الكتان تارة. و كانت مخدته من أدم حشوها ليف نخل. و لما قال له رجل يا رسول الله انا [صفحه ۱۴۸] أحب ان يكون ثوبى حسنا و نعلى حسنة، أفمن الكبر ذاك؟ قال: «لا. ان الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق و غمط الناس». و لم يعب الصحابة بعضهم على بعض الملابس من أعلى و أدنى. لا يعيب صاحب الخز على صاحب الصوف و لا صاحب الصوف يعيب على صاحب الخز. فى هذا المجلس تتلمذ للامام جعفر (عليه‌السلام) و روى عنه - كما يقول أرباب الإحصاءات - أربعة آلاف من الرواة و كتب عنه أربعمائة كاتب؛ كلهم يقول: قال جعفر بن محمد. فأى مجلس كان ذلك المجلس! تتراءى فيه أشياء من رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)، بعضها مادى يجرى فى أصلاب رجل بعد رجل، و بعضه معنوى يتراءى فى معانيه و فحوى مقولاته، لكل هؤلاء. ليس بالمجلس لجاجة و لا حجاج عقيم. يقول للتلامذة: «من عرف شيئا قل كلامه فيه. و إنما سمى البليغ بليغا لأنه يبلغ حاجته بأدنى سعيه». إذا سأل سائل عن خلافات الصحابة أجاب: «علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى و لا ينسى». يهتدى بهديه الكبراء فى الامتناع عن الجواب فى خلاف الصحابة. يقول أحمد بن حنبل إذ يسأل عما كان بين الصحابة: كان بينهم شىء الله أعلم به. و مع ذلك يعجب و يتساءل عن طلحة و الزبير: أكانا يريدان أعدل من على؟ و لا يضيع الحق فى المجلس: سمع أن أحد الولاة نال من أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام)...! فوقف الصادق فقال: «ألا أنبئكم بأعلى الناس ميزانا يوم القيامة و أبينهم خسرانا؟ من باع آخرته لغيره. و هذا هو الفاسق». و عرف

الناس الفاسق الذى باع آخرته لمن يشتهون أن يقدح لهم فى على بن أبى‌طالب (عليه‌السلام). و المقياس عند صاحب المجلس هو الإخلاص لله و الرسول. يقول و يروى عن [صفحه ۱۴۹] آبائه عن أميرالمؤمنين على: قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «لا قول إلا- بعمل و لا- قول و لا عمل إلا بنية. و لا قول و لا عمل و لا نية إلا بإصابة السنة». و القاعدة هى المساواة بين الناس، مساواة فطرية - مهما اختلفت العقائد و الأجناس - يقول: «الناس فى آدم مستوون». حتى عبدة النار يقول فيهم: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب». و للنساء و البنات عنده المكانة العالية... قياما بوصية جده بالنساء فى آخر خطبه عليه الصلاة و السلام - روى الجارود بن المنذر: قال لى أبوعبدالله الصادق (عليه‌السلام): «بلغنى أن لك ابنة فتسخطها. ما عليك منها؟ ريحانة تشمها. قد كفيت رزقها. و قد كان رسول الله أبا بنات». و أى مثل فى الاسلام كمثل رسول الله. و أى نعمة أن يكون للمرء ريحانه أو رياحين! و أى فضل كفضل البنات يكفى رزقهن الله! يقول الصادق (عليه‌السلام): «إن إبراهيم سأل ربه ابنة تبكيه و تندبه بعد موته». لينبه على بقاء الوفاء فى أفئدة البنات بعد الممات. و من الدروس الأولية فى هذا المجلس تعليم الناس أن يسعوا لعمارة الدنيا بالعمل للرزق، و مجانبة الخلائق الفاقرة بالتواكل، أو البطالة. و بهذا المبدأ أصبح المجتمع الشيعى مجتمع العاملين، و بلغ حظه - حيثما كان - من النماء، و الاستغناء، و الانتفاع بما منحه الله للبشر من مواهب، و أتاح لهم من وسائل. جاء مجلس الامام (عليه‌السلام) يوما جماعة من الزهاد يريدون منه إظهار التقشف و الزهد الكامل. فقال لهم: (حدثنى أبى أن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «ابدأ بمن تعول. الأدنى فالأدنى». هذا ما نطق به الكتاب ردا لقولكم... قال العزيز الحكيم «و الذين اذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا و كان بين ذلك قواما». أفلا ترون أن الله تعالى قال غير ما أراكم تدعوننى اليه؟... [صفحه ۱۵۰] فنهاهم عن الإسراف و نهاهم عن التقتير. فلا يعطى جميع ما عنده ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له؛ للحديث الذى جاء عن النبى: (ان اصنافا من أمتى لا يستجاب دعاؤهم: رجل يدعو على والديه. و رجل يدعو على غريم ذهب له بمال فلم يكتب عليه و لم يشهد عليه. و رجل يدعو على زوجته و قد جعل الله تخلية سبيلها بيده. و رجل يقعد فى بيته و يقول رب ارزقنى، و لا- يطلب الرزق، فيقول الله عزوجل: يا عبدى ألم أجعل لك السبيل الى الطلب... ألم أرزقك رزقا واسعا؟ فهلا اقتصدت كما أمرتك و لم تسرف فيه و قد نهيتك عن الإسراف. و رجل يدعونى فى قطيعة رحم...) ثم علم الله عزوجل كيف ينفق فقال: «و لا تجعل يدك مغلولة الى عنقك و لا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا». فهذه أحاديث رسول الله يصدقها الكتاب؛ و الكتاب يصدقه أهله من المؤمنين... و فيهم سلمان الفارسى و أبوذر رضى الله عنهما: فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته حتى يحضر عطاؤه من قابل. فقيل له: يا أبا عبدالله أنت فى زهدك تصنع هذا و أنت لا تدرى لعلك تموت اليوم أو غدا؟ فكان جوابه انه قال: ترجون لى البقاء و قد خفتم على الفناء. أما علمتم أن النفس قد تلتاث على صاحبها ما لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا أحرزت معيشتها اطمأنت. و أما أبوذر فكانت له نويقات و شويهات يحلبها، و يذبح منها اذا اشتهى اللحم، أو نزل به الضيف... و من أزهد من هؤلاء و قد قال فيهما رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ما قال... و لم يبلغا من الزهد أن صارا لا يملكان شيئا البتة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم و شيئهم... و يؤثرون على أنفسهم و عيالهم...). فالإمام (عليه‌السلام) يريد مجتمعا عاملا، متواصلا، فيه قصد وجد، فبهذا يعين الله من يعين نفسه من عباده. [صفحه ۱۵۱]

التلاميذ الأئمة

كان سفيان الثورى إمام العصر فى الورع و السنن و الفقه، للعراق كافة. و كانت له فى مجابهة الخليفة مواقف لا يمل الحديث فيها. و كان لكثير من رواد المجلس كسفيان مكانة فى المسلمين؛ منهم عمرو بن عبيد الذى نشأت على يديه فرقة المعتزلة، و أبوحنيفة، و محمد بن عبدالرحمن بن أبى‌ليلى (ترب أبى‌حنيفة)، و إمام المدينة مالك بن أنس. و أبوحنيفة هو الإمام الأعظم لأهل السنة. و مالك أكبر من تلقى عليه الشافعى علما، و أطولهم فى تعليمه زمانا. و الشافعى شيخ أحمد بن حنبل. و كمثلهم كان المحدثون العظماء : يحيى بن سعيد محدث المدينة و ابن‌جريح و ابن‌عيينة محدثا مكة. و ابن‌عيينة و هو المعلم الأول للشافعى فى الحديث. فلندع للأئمة

وصف مكانهم من الامام - و فيه وصف مجالس علمه. يقول مالك بن أنس: «كنت أرى جعفر بن محمد، و كان كثير الدعابة و التبسم. فإذا ذكر عنده النبى اخضر و اصفر. و لقد اختلفت اليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال؛ إما مصليا و إما قائما و إما يقرأ القرآن. و ما رأيته يحدث عن رسول الله إلا على الطهارة. و لا يتكلم فيما لا يعنيه. و كان من العلماء و العباد و الزهاد الذين يخشون الله. و ما رأيته قط إلا و يخرج و سادة من تحته و يجعلها تحتى». و فى مقولة أخرى يضيف مالك: «و كان كثير الحديث، طيب المجالسة، كثير الفوائد، إذا قال (قال رسول الله) اخضر مرة و اصفر أخرى حتى ينكره من يعرفه. و لقد حججت معه سنة فلما استوت به راحلته عند الإحرام، كلما هم بالتلبية انقطع الصوت فى حلقه، و كاد أن يخر عن راحلته. فقلت: يابن رسول الله! أو لابد لك أن تقول! قال: كيف أجرؤ أن أقول لبيك و أخشى أن يقول الله عزوجل: لا لبيك و لا سعديك»... و إنا لنذكر ما كان يصنعه جده زين‌العابدين فى هذا المقام. [صفحه ۱۵۲] و أصبح مالك إذا ذكر النبى اصفر لونه. فإذا تساءل جلساؤه قال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم على ما ترون. و يذكر لهم حال ابن‌المنكدر [۴۰] ثم يعقب حال جعفر. إنما كان مالك يجد ريح الرسول فى مجلس ابن‌بنته... و يحس، أو يكاد يلمس، شيئا ماديا، يتسلسل من الجد لحفيده، و أشياء غير مادية تملك اللب و القلب: فالرؤية متعة و السماع نعمة... و الجوار - مجرد الجوار - تأديب و تربيب... و فى كل أولئك طرائق قاصدة الى الجنة. و صاحب المجلس طهر كله. لا يتحدث عن جده إلا على الطهارة. يقول: «الوضوء شطر الإيمان». و من أجل ذلك لم يعد الوضوء عنده أو فى مذهبه، مجرد وسيلة لغيره - أى للصلاة - بل أمسى مستحبا لذاته كالصلاة المستحبة... يتهيأ به المتوضئ لدخول المساجد، و قراءة القرآن، بل الزوجان ليلة زفافهما، و المسافر الى أهله... و القاضى ليجلس للقضاء، و الإمام الذى يفتى أو يعلم. و ما هو بدع أن يشغف به مالك - و هو الأموى بهواه - فإنما هو حب الرسول و أهل بيته. فحبهم ايمان. و ما كان تعبير مالك إلا حبا، و هو - بعد - التلميذ النجيب لفقهاء بنى تيم (قبيلة أبى‌بكر) سواء كانوا من مواليهم - كربيعة الرأى - أو من أنفسهم كمحمد بن المنكدر، أو أمهم منهم، كالإمام جعفر (عليه‌السلام). و أبوبكر الصديق يقف فى قمة التاريخ العلمى لمصادر مالك باتباعه و اجتهاده و أبنائه و بنى تيم. تعلم مالك الكثير من السلوك على الامام جعفر الصادق (عليه‌السلام) فكان إذا حدث لا يحدث إلا على الطهارة. و يحمى مجلسه ممن يخرجونه عن قصده. كما يكرم [صفحه ۱۵۳] تلامذته. بل صار إماما لليسر الذى تتمثل فيه خصائص المدينة. و أمسى عنوانا على العلم: فإذا خاصم السلطة خاصمها من أجل النزاهة العلمية فحسب. و فى منهجه الاحتفال الكامل بالواقع. و فى طريقته العمل للرزق، حتى لا يحتاج لأحد؛ مما يعبر عن اقتداء كامل بالإمام الصادق (عليه‌السلام). و كهيئة الإمام الصادق، لم يجار فقهاء العراق فى قولهم أرأيت أرأيت. أى افتراض الفروض و استباق الحوادث و إبداء الرأى فيما لم يحدث حتى سماهم خصومهم (الأرأيتيين). و من رضا الامام (عليه‌السلام) عن التلميذ كان «الصادق» يشير بإتيان حلقة مالك. روى عنوان البصرى أنه كان يختلف الى الامام جعفر يتعلم عليه فغاب الإمام عن المدينة فاختلف الى مالك سنتين ثم عاد الصادق فعاد عنوان الى مجلسه. فنصحه أن يجلس الى مالك. و لقد يدخل الامام المسجد - فيقدم اليه تلميذ من تلاميذه ابن أبى‌ليلى (۱۴۸) قاضى الكوفة. فيقول الامام: أنت ابن أبى‌ليلى القاضى؟ و يجيب: نعم. فينبهه الامام على جلال خطر القضاء بقوله: «... تأخذ مال هذا و تعطيه هذا. و تفرق بين المرء و زوجه لا تخاف فى ذلك أحدا... فما تقول إذا جيء بأرض من فضة و سماء من فضة ثم أخذ رسول الله بيدك فأوقفك بين يدى ربك فقال: يا ربى هذا قضى بغير ما قضيت!» و اصفر وجه ابن أبى‌ليلى مثل الزعفران. لكنه خرج من المسجد مزودا بزاد من خشية الله زوده به ابن‌رسول الله. و لما سئل مرة: أكنت تاركا قولا أو قضاء لرأى أحد؟ أجاب: لا، إلا لرجل واحد؛ هو جعفر بن محمد الصادق. و ابن أبى‌ليلى قاضى بنى‌أمية و بنى‌العباس. و هم أعداء الامام. فى هذا المجلس بالمدينة، أو بالكوفة فى إحدى سفرات الامام جعفر (عليه‌السلام) الى [صفحه ۱۵۴] العراق، دخل أئمة الكوفة مجتمعين: أبوحنيفة و ابن أبى‌ليلى و ابن‌شبرمة (۱۴۴) على الامام جعفر. فجعل الصادق ينبه أباحنيفة مكتشف أداة «القياس»، على خطرها فى حضور العالمين الآخرين. و فى مواجهة هذين يقول الامام الصادق (عليه‌السلام) لأبى‌حنيفة: «اتق الله و لا تقس الدين برأيك». و لقد يكون أبوحنيفة فى حلقته بالكوفة أو فى المدينة فيقف عليها الإمام الصادق، و لا تقع عليه عين أبى‌حنيفة، فإذا لمحته عيناه هب

أبوحنيفة واقفا و هو فى مجلس الدرس، فقال: «يابن رسول الله - لو شعرت بك أول ما وقفت ما رآنى الله أقعد و أنت قائم» ليشهد الله على دخيلة نفسه أنها لا تقبل الجلوس و الامام قائم و أبوحنيفة (۱۵۰ - ۸۰) أكبر عمرا من الامام الصادق (عليه‌السلام). لكن الصادق يشد أزره بعبارات مشجعة، فيقول له: «اجلس يا أباحنيفة فعلى هذا أدركت آبائى» يريد بذلك إعظام مجالس العلم، و وقوف الجميع و جلوس الاستاذ. انقطع أبوحنيفة الى مجالس الامام طوال عامين قضاهما بالمدينة، و فيهما يقول: «لو لا العامان لهلك النعمان» - و كان لا يخاطب صاحب المجلس إلا بقوله «جعلت فداك يابن بنت رسول الله». و لقد يتحدى الامام الصادق (عليه‌السلام) فى مجلسه أباحنيفة ليختبر رأى صاحب الرأى فيسأل: ما تقول فى محرم كسر رباعية الظبى. و يجيب أبوحنيفة: يابن رسول الله لا أعلم ما فيه. فيقول له الامام الصادق (عليه‌السلام): أنت تتداهى. أولا تعلم أن الظبى لا تكون له رباعية! فإذا جاء ابن‌شبرمة وحده يسأل عما لم يقع - كدأب تلاميذ أبى‌حنيفة و مدرسة الكوفة - لم يتردد الامام فى دفعه، بالحسنى: ذهب اليه ذات يوم يسأله عن القسامة فى الدم فأجابه بما صنع النبى. فقال ابن‌شبرمة: أرأيت لو أن النبى لم يصنع هذا، كيف كان القول فيه؟ فأجابه: أما ما صنع النبى فقد أخبرتك به. و أما مالم يصنع فلا علم لى به. [صفحه ۱۵۵] و الصادق (عليه‌السلام) عليم بالاختلاف بين آراء الفقهاء، أى بعلم المدينة و علم الشام و علم الكوفة، و هو يروى عشرات الآلاف من الأحاديث، فى حين كانت قلة ما سلمه أهل العراق من الحديث آفة علمائه. حتى صوبهم الشافعى فى نهاية القرن، بالقوة التى لا نزاع فيها لخبر الواحد، و بوضع قواعد القياس. و الحسن بن زياد اللؤلؤى يعلن رأى صاحبه فى إحاطة الامام الصادق فيقول: «سمعت أباحنيفة و قد سئل عن أفقه الناس ممن رأيت فقال: جعفر ابن‌محمد». و لما استفتى أبوحنيفة فى رجل أوصى «للإمام»، بإطلاق الوصف، قال انها لجعفر بن محمد. فهذا إعلان لتفرده بالإمامة فى عصره. و لم تكن السنتان اللتان حيى بسببهما النعمان بن ثابت (أبوحنيفة) و لم يهلك، إلا تكملة لسنين سابقة كان يتدارس فيها فقه الشيعة. و من ذلك كان يشد أزر زيد بن على فى ثورته على هشام بن عبدالملك. و قيل مال الى محمد و ابراهيم (ولدى عبدالله بن الحسن) فى خروجهما على المنصور. و ان قد جاءته امرأة تقول: ان ابنى يريد الخروج مع هذا الرجل - فى إبان خروج إبراهيم - و أنا أمنعه. فقال لها: لا تمنعيه. و يروى أبوالفرج الأصفهانى عن أبى‌اسحق الفزارى: جئت الى أبى‌حنيفة فقلت له: أما اتقيت الله؟ أفتيت أخى بالخروج مع ابراهيم حتى قتل!! فقال: «قتل أخيك حيث قتل، يعدل قتله لو قتل يوم بدر. و شهادته مع ابراهيم خير له من الحياة». و لئن كان مجدا لمالك ان يكون أكبر أشياخ الشافعى، أو مجدا للشافعى أن يكون أكبر أساتذة ابن‌حنبل، أو مجدا للتلميذين أن يتلمذا لشيخيهما هذين، إن التلمذة للامام الصادق قد سربلت بالمجد فقه المذاهب الأربعة لأهل السنة. أما الامام الصادق فمجده لا يقبل الزيادة و لا النقصان؛ فالإمام (عليه‌السلام) مبلغ للناس، كافة، علم جده عليه الصلاة و السلام... و الإمامة مرتبته... و تلمذة أئمة السنة له تشوف منهم لمقاربة صاحب المرتبة. لقد يجىء للمناظرة عمرو بن عبيد (۱۴۴) زعيم المعتزلة، الذى لم يضحك أبوحنيفة طول حياته بعد أن قال له عمرو إذ ضحك مرة فى إبان مناظرته: يافتى [صفحه ۱۵۶] تتكلم عن مسألة من مسائل العلم و تضحك؟، و الذى يبلغ من وقاره أن يراه الرائى فيحسبه أقبل من دفن والديه. فإذا انتهى الكلام قال عمرو للإمام: «هلك من سلبكم تراثكم و نازعكم فى الفضل و العلم». و يجىء إمام خراسان عبدالله بن المبارك، و هو إمام فقه، و بطل معارك... تتلمذ للإمام زمانا، و لأبى‌حنيفة، فتعلم ما جعله يخفى بطولاته فى الفتوح «لأن من صنعها لأجله - سبحانه - مطلع عليها». [۴۱] و فى الإمام جعفر شعره الذى ورد فيه: أنت يا جعفر فوق ال مدح و المدح عناء إنما الأشراف أرض و لهم أنت سماء جاز حد المدح من قد ولدته الأنبياء فإذا كان الصادق (عليه‌السلام) فى مواجهة مع المنصور، حيث القادة و العلماء يجلسون على مبعدة منه، فإن مجلس الإمام عن يمينه... حتى ولو دعاه يخوفه. فلقد طالما انتهت اللقاءات بالموعظة يلقيها الامام من حديث رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)، و لحديث رسول الله شرف المجلس، و لابن رسول الله شرف من رسول الله. ولو جلس الصادق على مبعدة أو مقربة من الخليفة، لكان الشرف حيث يجلس. و ربما قربه الخليفة ليلتمس لنفسه القربى الى الناس فى الدنيا، و يوم لا تملك نفس [صفحه ۱۵۷] لنفس شيئا، و عندما تلتمس الشفاعة. و أبوجعفر المنصور يقر بمكانه من العلم و التقوى مع ضيق صدره بمكانته فى الأمة. يقول: «هذا الشجى المعترض فى حلقى أعلم أهل زمانه. و إنه ممن يريد

الآخرة لا الدنيا». و من نص الإقرار ما يدل على ان مجلس الصادق للعلم، لم يكن ليسلم من مراقبة أعوان السلطان، و صاحب المجلس شجى معترض فى حلقه. و هو قد ينبئ عن أن الفرصة متاحة للإمام ليلقى دروسه، مع الحيطة الواجبة، حتى لا يغص الخليفة بريقه مما ينقل اليه، و ان كان المؤكد ان مجرد وجود الإمام كان فيه الشجى المعترض.

كل العلوم

و المجلس مورد عذب كثير الزحام - لكل فيه ما يغنيه - فالإمام (عليه‌السلام) فى مجلسه الرفيع يروى السنة عن آبائه. و ما يقوله يجرى عند الشيعة مجرى الأصول. فإذا أبدى الرأى فى واقعة معينة جعله الشيعة مجعل السنة و التزموها باعتبارها نصا عنه. أما أهل السنة فيأخذونه مأخذ اجتهاد الأئمة. و اللسان العربى علم العلوم. و امام المسلمين إمام فى البلاغة العربية، عبر عن اسلوبه أبوعمرو بن العلاء حين قال عن أساليب العربية: «العرب تطيل ليسمع منها و توجز ليحفظ عنها». و عند الصادق (عليه‌السلام) لكل مقام مقال... يسهب و يستطرد كما ستقرأ بعد، أو يوجز ليحفظ عنه و يتذوق منه، بحروف لها جرس فى الأذن و نغم فى الفم؛ كأن يقول: «لا تصل فيما خف، أو شف». و كلاهما كاشف. و يجرى على لسانه الشعر الرفيع مثل الذى يرويه عنه سفيان الثورى: لا اليسر يطرؤنا يوما فيبطرنا و لا لأزمة دهر نظهر الجزعا إن سرنا الدهر لم نبهج لصحبته أو ساءنا الدهر لم نظهر له الهلعا مثل النجوم على مضمار أولنا إذا تغيب نجم، آخر طلعا [صفحه ۱۵۸] أو مثل قوله جوابا لسفيان إذ يسأل: يابن رسول الله لم اعتزلت الناس؟ قال: «يا سفيان قد فسد الزمان و تغير الإخوان فرأيت الانفراد أسكن للفؤاد»، و أنشد: ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب و الناس بين محاتل و موارب يفشون بينهم المودة و الصفا و قلوبهم محشوة بعقارب و مثل قوله: فلا تجزع و إن أعسرت يوما فقد أيسرت فى زمن طويل و لا تيأس فإن اليأس كفر لعل الله يغنى عن قليل و لا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل و مثل قوله: لا تجز عن من المداد فإنه عطر الرجال و حلية الآداب فإذا جاءه المناظرون من كل فج عميق، أو التلاميذ الفقهاء، يمثلون أقطار الإسلام، و يجادلون فى الأصول أو الفروع، فهو البحر لا تنزفه الدلاء، يروى العقول و يشفى الصدور. فالديصانى، زعيم فرقة ملحدة، و صاحب الإ هليلجة طبيب هندى، و عبدالكريم بن أبى‌العوجاء [۴۲] عربى ملحد، و عبدالملك مصرى يتزندق، و عمر بن عبيد شيخ المعتزلة، و أبوحنيفة إمام الكوفة، و ملك إمام المدينة، و سفيان الثورى، و غيرهم... كل هؤلاء تملأ مجادلاته معهم الكتب، و لا يضيق صدرا بجدالهم ؛ بل يضرب الأمثال، بمسلكه معهم و اتساع صدره لهم، على الحرية الفكرية التى يتيحها [صفحه ۱۵۹] الامام (عليه‌السلام) للناس فى مجلسه ، ليفهموا العلم، أو ليؤمنوا عن فهم، دون إكراه أو إعنات، و على سعة الخلاف الفقهى لكل اتجاهات المسلمين، و على اليسر و الرحمة فى الشريعة... فكل هذه أسباب لنشر الإسلام و خلود فقهه. يقول ابن‌المقفع - و هو متهم بالمجوسية أو بالزيغ على الأقل - إذ يومئ الى «الصادق» (عليه‌السلام) فى موضع الطواف: «هذا الخلق ما منهم أحد أوجب له بالإنسانية إلا ذلك الشيخ الجالس». و يذهب ابن أبى‌العوجاء لينا ظره فتعتريه سكتة، فيسأله الامام (عليه‌السلام): ما يمنعك من الكلام؟ فيقول: «إجلالا لك، و مهابة منك. و ما ينطق لسانى بين يديك. فإنى شاهدت العلماء و ناظرت المتكلمين فما تداخلنى من هيبة أحد منهم ما تداخلنى من هيبتك». رآه الإمام مرة بالحرم فقال له: ما جاء بك؟ قال: عادة الجسد و سنة البلد. و لنبصر ما الناس فيه من الجنون و الحلق و رمى الحجارة. قال الصادق: أنت بعد على عتوك و ضلالك يا عبدالكريم؟ فذهب يتكلم. فقال الإمام (عليه‌السلام): لا جدال فى الحج. و نفض رداءه من يده و قال: ان يكن الأمر كما تقول، و ليس كما نقول، نجونا و نجوت. و ان يكن الأمر كما نقول، و ليس كما تقول، نجونا و هلكت. و أى صبر فى حرية الفكر كمثل هذا الصبر من الامام الصادق (عليه‌السلام)؟ و حيث تؤدى المناسك! و إنما ترك الامام رجلا ملحدا سيقتل - بعد - فى إلحاده سنة ۱۶۱. و إذا لم يأخذ الملحدين بالشدة، فتحا لأبواب الهداية لهم، فهو صارم فى صدد المغالين فى على (عليه‌السلام)، أو فيه، ليكفهم عن غلوائهم؛ و منهم بيان بن سمعان التميمى... كان يعتقد ألوهية على و الحسن و الحسين (عليهم‌السلام) ثم محمد بن الحنفية، ثم ابنه أبى‌هاشم. بل زعموا أنه قال إنه - اى بيانا - المراد بقوله تعالى: «هذا بيان للناس». وادعى المغيرة بن سعيد الانتماء الى

الباقر، و صار يؤله عليا ثم جعفر الصادق، و يكفر أبابكر و عمر و من لم يوال عليا. [صفحه ۱۶۰] و كذلك كان بشار الشعيرى. يقول جعفر الصادق (عليه‌السلام) لمرازم: «تقربوا الى الله فإنكم فساق كفار مشركون» و يقول له: «إذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيرى و قل له يا كافر يا فاسق أنا برىء منك». دخل عليه بشار يوما فصاح به: «اخرج عنى لعنك الله. و الله لا يظلنى و إياك سقف أبدا». فلما خرج قال: «ويحه! ما صغر الله أحد تصغير هذا الفاجر. و الله إنى عبدالله و ابن‌أمته». و يقول عن المغيرة بن سعيد: «لعن الله المغيرة بن سعيد. لعن الله يهودية كان يختلف اليها يتعلم منها الشعر و الشعبذة و المخاريق. فوالله ما نحن إلا عبيد، خلقنا الله و اصطفانا، ما نقدر على ضرر و لا نفع إلا بقدرته... و لعن الله من قال فينا ما لا نقول فى أنفسنا». و يقول (عليه‌السلام): «من قال إننا أنبياء فعليه لعنة الله و من شك فى ذلك فعليه لعنة الله». و ينبه الأذهان على دسائس خصوم الشيعة بالاختلاق عليهم فيقول: «إنا أهل‌بيت صادقون لا نعدم من يكذب علينا عند الناس. يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا». و يقول لخيثمة: «أبلغ شيعتنا أننا لا نغنى من الله شيئا، و أنه لا ينال ما عندالله إلا بالعمل، و ان أعظم الناس يوم القيامة حسرة من وصف عدلا ثم خالفه الى غيره...». و هى مقولات لا تترك مجالا لدعاوى المغالين فى جعفر الصادق و آبائه و بنيه من الائمة (عليهم‌السلام)، و تنفى عنهم ما ادعوه من علم الغيب، فلا يعلم الغيب إلا الله. كما تجعل الأئمة مجعل البشر، و هى آراء أبيه و جده. سأل سائل جده زين‌العابدين (عليه‌السلام): متى يبعث على؟ فأجاب: «يبعث - و الله - يوم القيامة، و تهمه نفسه» أى انه يحاسب يوم الحساب كما يحاسب غيره. و أما تعبير الأحلام فالصادق (عليه‌السلام) يرى أنها (لو كانت كلها تصدق كان الناس كلهم [صفحه ۱۶۱] أنبياء، ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة، بل كانت فضلا لا معنى لها. فكانت تصدق أحيانا لينتفع بها الناس فى مصلحة يهتدى لها، أو مضرة يحذر منها. و تكذب كثيرا لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد). فرؤى الأنبياء حقائق من هدى النبوة. أما رؤى الآخرين فأصداء أفكار تتحرك فى باطنهم؛ منها ما يصدقه الواقع و منها ما يكذبه. روى هشام بن الحكم: كان بمصر زنديق يبلغه عن أبى عبدالله (الامام الصادق) أشياء. فخرج الى المدينة لينا ظره فلم يصادفه و قيل له انه خارج بمكة. فخرج الى مكة، و نحن مع أبى عبدالله، فصادفنا فى الطواف، و كان اسمه عبدالملك، و كنيته أبو عبدالله. فضرب كتفه كتف أبى عبدالله... فقال له أبو عبدالله: فمن هذا الملك الذى أنت عبده... من ملوك الأرض أو من ملوك السماء؟ و أخبرنى عن ابنك عبد إله السماء أم‌عبد إله الأرض. قل ما شئت تخصم... اذا فرغت من الطواف فائتنا. فلما فرغ أتاه الزنديق فقعد بين يديه... قال أبوعبدالله: أيها الرجل! ليس لمن لا يعلم حجة من يعلم. و لا حجة للجاهل... يا أخا مصر إن الذين يذهبون اليه و يظنون انه الدهر، ان كان الدهر يذهب بهم لم لا يردهم؟ و ان كان يردهم لم لا يذهب بهم؟ - يا أخا مصر لم السماء مرفوعة و الأرض موضوعة؟ لم لا تنحدر السماء على الأرض؟ لم لا تنحدر الأرض فوق طبقاتها؟ و لا يتماسكان و لا يتماسك من عليها؟ قال الزنديق: أمسكهما الله ربهما و سيدهما... فآمن الزنديق... فقال: اجعلنى من تلامذتك... فقال: يا هشام بن الحكم! خذه اليك. فعلمه هشام. فصار يعلم أهل الشام و أهل مصر الإيمان. و يروى هشام (ان زعيم الديصانية و فد على مجلس الامام فقال له: دلنى على معبودى و لا تسألنى عن اسمى. فإذا غلام له صغير فى كفه بيضة يلعب بها... فقال: يا ديصانى. هذا حصن مكنون له جلد غليظ. و تحت الجلد الغليظ جلد رقيق. و تحت [صفحه ۱۶۲] الجلد الرقيق ذهبة مائعة و فضة ذائبة... فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة. و لا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة. فهى على حالها، لم يخرج بها مصلح فيخبر عن صلاحها. و لا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها. و لا يدرى أللذكر خلقت أم‌للأنثى. تنفلق عن مثل ألوان الطواويس. أولا ترى لها مدبرا؟ فأطرق الديصانى ثم قال: أشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له. و ان محمدا عبده و رسوله. و أنك إمام و حجة من الله على خلقه. و انا تائب مما كنت فيه. قصد اليه فى مجلسه ذات يوم نفر من المعتزلة يطلبون اليه بيعة «محمد بن عبدالله» النفس الزكية. فطلب اليهم أن يختاروا واحدا منهم لينا ظره. فاختاروا زعيم المعتزلة عمرو بن عبيد. و ظاهر ان تاريخ ذلك المجلس كان معاصرا لرفض الامام الصادق (عليه‌السلام) أن يبايع يوم الأبواء قبل قيام الدولة العباسية سنة ۱۳۳. فلقد كان عمرو بن عبيد من أنصارها، له صلة خاصة بالمنصور، و اشتهر عنه أنه لم يبايع محمدا و قال انه لم يختبر عدله، و ربما كان ذلك المجلس فى إثر مقتل الوليد بن يزيد سنة ۱۲۶، أو فترة الحروب الأخيرة لبنى مروان، التى قامت على أثرها الدولة

العباسية. قال عمرو: قتل أهل الشام خليفتهم و ضرب الله بعضهم بقلوب بعض و شتت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلا له دين و عقل و مروءة و هو محمد بن عبدالله بن الحسن. فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه، و قد أحببنا أن نعرض ذلك عليك، فإنه لا غناء لنا عنك لفضلك. قال الصادق (عليه‌السلام): إنا نسخط اذا عصى الله. فإذا أطيع الله رضينا. أخبرنى يا عمرو: لو أن الأمة قلدتك أمرها فملكته بغير قتال و لا مؤنة فقيل لك و لها من شئت، كنت تولى؟ قال عمرو: كنت أجعلها شورى بين المسلمين. قال الصادق: بين كلهم؟ [صفحه ۱۶۳] قال: نعم. قال: قريش و غيرهم؟ قال عمرو: العرب و العجم. قال الصادق: يا عمرو! أتتولى أبابكر و عمر أم تتبرأ منهما؟ قال: أتولاهما. قال الصادق: يا عمرو إن كنت رجلا تتبرأ منهما فإنه يجوز الخلاف عليهما. و ان كنت تتولاهما فقد خالفتهما. فقد عمد عمر الى أبى‌بكر فبايعه و لم يشاور أحدا. ثم ردها أبوبكر عليه و لم يشاور أحدا. ثم جعلها عمر شورى بين ستة فأخرج منها الأنصار. ثم أوصى الناس بشىء. و ما أراك ترضى به أنت و لا أصحابك. قال عمرو: و ما صنع؟ قال الصادق (عليه‌السلام): أمر صهيبا أن يصلى بالناس ثلاثة أيام، و ان يتشاور أولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم إلا ابن‌عمر يشاورونه و ليس له من الأمر شىء. و أوصى من بحضرته من المهاجرين و الأنصار إن مضت الثلاثة و لم يفرغوا و لم يبايعوا أن يضرب أعناق الستة. و ان اجتمع أربعة قبل أن يمضى ثلاثة أيام و خلفا اثنان أن يضرب أعناق الاثنين. أفترضون بهذا فيما تجعلون من الشورى فى المسلمين؟ قال: لا. قال الصادق: أرأيت لو بايعت صاحبك الذى تدعو اليه ثم اجتمعت لكم الأمة و لم يختلف منهم رجلان. أفمضيتم الى المشركين؟ قال: نعم. قال الصادق (عليه‌السلام): فتفعلون ماذا؟ قال عمرو: ندعوهم الى الاسلام فإن أبوا دعوناهم الى الجزية. قال الصادق: فإن كانوا مجوسا و عبدة النار و البهائم و ليسوا أهل الكتاب؟ قال عمرو: سواء... و بعد محاورة فى شأن الجزية و الصدقات أقبل على عمرو و الناس و قال: «اتق الله [صفحه ۱۶۴] يا عمرو. و أنتم أيها الرهط فاتقوا الله. فإن أبى‌حدثنى و كان خير أهل الأرض و أعلم بكتاب الله و سنة رسول الله أن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «و من ضرب بسيفه و دعاهم الى نفسه و فى المسلمين من هو أعلم منه فهو ضال متكلف».

مع القرآن

كان جده على (عليه‌السلام) يقول: «سلونى عن كتاب الله. فوالله ما من آية إلا أنا أعلم بليل نزلت أم بنهار. فى سهل نزلت أم فى جبل» فلقد كان دائما الى جوار الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم). و هو باب مدينة العلم. و الامام جعفر يصدر من المنبع ذاته. يقول مثل جده على: «كان أصحاب محمد يقرأ أحدهم القرآن فى شهر أو أقل. ان القرآن لا يقرأ هذرمة و لكن يرتل ترتيلا. و اذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها و أسأل الله تعالى. و اذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها و تعوذ بالله من النار». للقرآن عنده المقام الأول. يسأل عمن يؤم القوم فيجيب: «أن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: يتقدم القوم أقرؤهم للقرآن. فإن كانوا فى القراءة سواء فأقدمهم هجرة. فان كانوا فى الهجرة سواء فأكبرهم سنا. و ان كانوا فى السن سواء فأعلمهم بالسنة، و أفقههم فى الدين. و لا يتقدمن أحد الرجل فى منزله، و صاحب السلطان فى سلطانه». و نصوص القرآن حاضرة كلما أراد أن يدلى بحجة. و هو فى قمة البلاغة العربية تسعه اللغة، لا يلجأ الى التأويل بديلا من التفسير. فهو فى فهم النصوص أنفذ بصيرة لم يعلم له تفسير نوقض فيه. و التفسير بتخريج مجازات القرآن لا يقدر عليه إلا البلغاء. [۴۳] . [صفحه ۱۶۵] و من القرآن ينبثق فقه الامام فى كل باب: - يسأله سائل عن قوله تعالى «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا. و من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا» فيجيب: «من أخرجها من هدى الى ضلال فقد - و الله - قتلها». - و يجيئه زنديق يسأله عن تفسير قوله تعالى «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى و ثلاث و رباع. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» و قوله تعالى فى آخر السورة «و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل». فيفحم الامام الزنديق فيقول: «أما قوله (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فإنما عنى النفقة. و أما قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) فإنما عنى المودة. فانه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين فى المودة». - و يقول عن الرزق الذى يحض الله على الإنفاق منه «و مما رزقناهم ينفقون» فيفسرها «و مما علمناهم يبثون» فالعلم رزق، و إذاعته إنفاق واجب. - و من تعبيره عن

حجية القرآن أبدا يسأله السائل: لم صار الشعر و الخطب يمل ما أعيد منهما و القرآن لايمل؟ فيجيب (عليه‌السلام): «لأن القرآن حجة على أهل العصر الثانى كما هو حجة على أهل العصر الأول. فكل طائفة تراه عصرا جديدا. و لأن كل امرئ فى نفسه متى أعاده و فكر فيه، تلقى منه فى كل مدة علوما غضة، و ليس هذا كله فى الشعر و الخطب». - و يقول المفضل: قلت: أخبرنى عن قول الله عزوجل «و جعلها باقية فى عقبه» قال: «يعنى بذلك (الامامة) جعلها فى عقب الحسين (عليه‌السلام) الى يوم القيامة»، فقلت: [صفحه ۱۶۶] فكيف صارت الامامة فى ولد الحسين دون ولد الحسن و هما جميعا ولدا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و سبطاه و سيدا شباب أهل الجنة؟ فقال: ان موسى و هارون كانا نبيين مرسلين أخوين فجعل الله النبوة فى صلب هارون دون صلب موسى، و لم يكن لأحد أن يقول لم فعل الله ذلك. فإن الإمامة خلافة الله عزوجل جعلها فى صلب الحسين دون صلب الحسن لأن الله هو الحكيم فى أفعاله. لا يسأل عن فعله و هم يسألون. - و يعلن الامام (عليه‌السلام) بوجوب الامامة، فيسأله السائل عن منزلة الأئمة، و من يشبهون؟ فيقول: كصاحب موسى و ذى القرنين... كانا عالمين، و لم يكونا نبيين. [۴۴] . - و فى قوله تعالى «يمحو الله ما يشاء و يثبت»، يقول الامام: «و هل يمحو الله إلا ما كان ثابتا. و هل يثبت الله إلا ما لم يكن» و يقول: «لو علم الناس ما فى القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه» و إنما يقصد استجابة الله لدعاء العباد. و فى ذلك قوله: «ما عظم الله بشىء مثل البداء». - و يسأله عمرو بن عبيد عن الكبائر «من كتاب الله». فيسردها، و يضع فى جوار كل كبيرة النص عليها من الكتاب العزيز فهى: [صفحه ۱۶۷] الشرك: «ان الله لا يغفر أن يشرك به». اليأس من روح الله: «لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون». عقوق الوالدين: «و برا بوالدتى و لم يجعلنى جبارا شقيا». قتل النفس: «و من يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها». قذف المحصنات: «ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا و الآخرة». أكل مال اليتيم: «ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا و سيصلون سعيرا». أكل الربا: «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس». الفرار من الزحف: «و من يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله و مأواه جهنم و بئس المصير». السحر: «و لقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق». الزنا: «و لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة و ساء سبيلا». اليمين الغموس: «ان الذين يشترون بعهد الله و أيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة و لا يكلمهم الله و لا ينظر اليهم يوم القيامة و لا يزكيهم و لهم عذاب أليم». الغلول: «و من يغلل يأت بما غل يوم القيامة». منع الزكاة: «و الذين يكنزون الذهب و الفضة و لا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم». كتمان الشهادة: «و من يكتمها فإنه آثم قلبه». شهادة الزور: «و الذين يشهدون الزور». نقض العهد و قطيعة الرحم: «الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل و يفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون». [صفحه ۱۶۸] كفران النعمة: «و لئن كفرتم إن عذابى لشديد». بخس الكيل: «ويل للمطففين». و ترك الصلاة (.....) و اللواط: (.....) و قول الزور: (.....) و شرب الخمر: (.....) و البدعة: (.....). - و من علم الامام جعفر (عليه‌السلام) بالقرآن أخذ القراءات عليه حمزة بن حبيب التيمى. و فيها مد و إطالة وسكت على الساكن قبل الهمز. - و فى صفات الله يقول الامام لعبد الملك بن أعين: «تعالى الله الذى ليس كمثله شىء و هو السميع البصير. تعالى عما يصفه الواصفون المشبهون لله بخلقه... إن المذهب الصحيح فى التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عزوجل فانف عن الله تعالى البطلان و التشبيه فلا نفى و لا تشبيه... هو الله الثابت الموجود». و يقول لمن سأله هل رأى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ربه: «نعم لقد رآه بقلبه - أما ربنا جل جلاله فلا تدركه أبصار الناظرين و لا تحيط به أسماع السامعين». و سأله الأعمش، شيخ المحدثين، عن مكان الله، فقال: لو كان فى مكان لكان محدثا. و لما سئل عن استوائه على العرش قال: انه يعنى أنه لا شىء أقرب اليه من شىء. سئل عن قوله تعالى «وسع كرسيه السموات و الأرض» فقال: «العرش فى وجه هو جملة الخلق و الكرسى و عاؤه. و فى وجه آخر هو العلم الذى أطلع الله عليه أنبياءه و رسله و حججه. و الكرسى هو العلم الذى لم يطلع عليه أحدا من أنبيائه و رسله و حججه». و سئل عن قوله تعالى: «و كان عرشه على الماء» و قول البعض ان العرش كان على الماء و الرب فوقه؟ فأجاب: «كذبوا. من زعم هذا فقد صير الله محمولا، و وصفه بصفة المخلوق، و لزمه أن الشىء الذى يحمله أقوى منه». و واضح من ذلك نهى الامام (عليه‌السلام) عن التجسيد و

التشبيه و تصحيحه افهام تلاميذه؛ كيوم جاءه يونس بن ظبيان يقول: إن هشام بن الحكم يقول قولا عظيما. [صفحه ۱۶۹] يزعم أن الله تعالى جسم! قال الامام: «ويله أما علم ان الجسم محدود متناه. فإذا احتمل الحد احتمل الزيادة و النقصان. فإذا احتمل الزيادة و النقصان كان مخلوقا!». - و واضح منحى الامام فى الاحتجاج بنظام الكون، و نظام الجسم الانسانى، و بالعقل و هو درس من جده على، يلفت النظر الى بديع صنع المبدع جل جلاله؛ و فى ذلك قول على (عليه‌السلام): أتحسب أنك جرم صغير و فيك انطوى العالم الأكبر؟ - يجيء الامام رجل من أهل مصر أوصى أخوه للكعبة بجارية مغنية فارهة كانت له، فقيل له ادفعها الى بنى شيبة (و فيهم سدانة الكعبة). و اختلف الناس فى أداء الوصية. و أخيرا أشاروا عليه أن يأتى الامام. قال الامام: «ان الكعبة لا تأكل و لا تشرب و ما أهدى اليها فهو لزوارها. فبع الجارية و ناد: هل من محتاج؟ فإذا أتوك فسل عنهم و أعطهم». - و يسأل عن القضاء و القدر فيجيب: «هو أمر بين أمرين: لا جبر و لا تفويض» [۴۵] و يحسم القضية بين الجبرية و القدرية فيقول: «ما من قبض و لا بسط إلا لله فيه مشيئة و رضاء و ابتلاء». [صفحه ۱۷۰] يسأل عن الجبر و التفويض: جعلت فداك. أجبر الله العباد على المعاصى؟ فيجيب: الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصى ثم يعذبهم عليها. فيقول السائل: جعلت فداك ففوض اليهم؟ فيجيبه: لو فوض اليهم لم يحصرهم بالأمر و النهى. فيقول السائل: جعلت فداك فبينهما منزلة؟ فيجيب: «نعم. ما بين السماء و الأرض». و فى مجلس آخر يسأله السائل: و ما أمر بين أمرين؟ فيجيب: «مثل ذلك رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته. فتركته. ففعل تلك المعصية. فليس، حيث لم يقبل منك فتركته، كنت أنت الذى أمرته بالمعصية». و يقول لسائل آخر: «قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): من زعم أن الله يأمر بالسوء و الفحشاء فقد كذب على الله. و من زعم أن الخير و الشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه. و من زعم ان المعاصى بغير قوة الله فقد كذب على الله. و من كذب على الله أدخله النار». و يقول: «إن الله أراد منا شيئا. و أراد بنا شيئا. و ما أراده منا أظهره لنا. فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا؟».

مع أهل الكوفة و أبى‌حنيفة

و لقد يقول له قائل: إن لى جارا يزعم أنك تبرأ من أبى‌بكر و عمر! فيجيب: برئ الله من جارك. يقول سالم: قال لى جعفر: «أيسب الرجل جده؟ أبوبكر جدى». و لقد كان لجده زين‌العابدين (عليه‌السلام) ابن أسماه عمر. و يقول أبوحنيفة: «استأذنت عليه فحجبنى. و جاء قوم من أهل الكوفة استأذنوا لهم فدخلت معهم. فلما صرت عنده قلت: يابن رسول الله لو أرسلت الى أهل الكوفة فنهيتهم أن يشتموا أصحاب رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)؟ فإنى تركت فيها أكثر من عشرة آلاف يشتمونهم!. [صفحه ۱۷۱] فقال: لا يقبلون منى. فقلت: و من لا يقبل منك و أنت ابن‌رسول الله؟ فقال الصادق (عليه‌السلام): أنت أول من لا يقبل منى، دخلت بغير إذنى، و جلست بغير أمرى، و تكلمت بغير رأيى، و قد بلغنى أنك تقول بالقياس. فقلت: نعم أقول به. فقال: ويحك يا نعمان أول من قاس إبليس حين أمر بالسجود لآدم فأبى و قال: «خلقتنى من نار و خلقته من طين». أيهما أكبر يا نعمان؛ القتل أم‌الزنا؟ قلت: القتل. قال: فلم جعل الله فى القتل شاهدين و فى الزنا أربعة؟ أيقاس لك هذا؟ قلت لا. قال: فأيهما أكبر؛ البول أو المنى. قلت: البول. قال: فلماذا أمر فى البول بالوضوء و أمر فى المنى بالغسل. أيقاس لك هذا؟ قلت: لا. قال أيهما أكبر؛ الصلاة أم‌الصوم؟ قلت: الصلاة. قال: فلم وجب على الحائض أن تقضى الصوم و لا تقضى الصلاة؟ أيقاس ذلك؟ قلت: لا. قال: فأيهما أضعف؛ المرأة أم‌الرجل؟ قلت: المرأة. قال: فلم جعل الله للرجل سهمين فى الميراث و للمرأة سهما؟ أيقاس ذلك؟ قلت: لا. قال: و قد بلغنى أنك تقرأ آية من كتاب الله «ثم لتسألن يومئذ عن النعيم» انه الطعام الطيب و الماء البارد فى اليوم الصائف. قلت: نعم. قال: لو دعاك رجل و أطعمك و سقاك ماء باردا، ثم امتن عليك. ما كنت تنسبه اليه؟ قلت: البخل. قال: أفبخل علينا؟ قلت: فما هو: [صفحه ۱۷۲] قال حبنا أهل‌البيت». [۴۶] . [صفحه ۱۷۳] و المسلمون يرفعون أباحنيفة الى مكانته العليا بين كبار المجادلين من أهل الاسلام، و لا يجدونه ساكتا فى يوم من الأيام، كهيئة ما كان فى ذلك المقام. فأما تفسير القرآن بما ينفى البخل عن المعطى جل شأنه فحجة الصادق (عليه‌السلام)فيه لا راد

لها. و اما حجاجه بعد طاعة أهل الكوفة فظاهر لأبی‌حنيفة، إمام الكوفة فی الفقه و الأدب الدينی و الاجتماعی، الذی دخل و جلس و تكلم دون أن يطيع، ثلاث مرات. أما أسئلته عن القياس فقد وضعت القياس موضع التهمة. و لم يحر أبوحنيفة جوابا. طعم أبوحنيفة يوما مع الامام الصادق (عليه‌السلام) - فرفع الامام يده حمدا لله ثم قال: اللهم هذا منك و من رسولك. قال أبوحنيفة: يا أبا عبدالله أجعلت مع الله شريكا؟ قال الامام: ان الله يقول فی كتابه «و ما نقموا إلا أن أغناهم الله و رسوله من فضله». فقال أبوحنيفة «لكأنی ما قرأتها قط فی كتاب و لا سمعتها إلا فی هذا الموقف». و لقد يدخل عليه سفيان الثوری و فيه قول القائل «ما رأيت الغنی أذل منه فی مجلس الثوری و لا الفقير أعز منه فی مجلس الثوری». و الذين يجلون ورع الامام أحمد بن حنبل يشبهونه فيه بسفيان الثوری. و سفيان الثوری يسمی (أميرالمؤمنين فی الحديث). و حسبه أن يكون من تلاميذه فی الحديث ابن‌جريح إمام مكة [صفحه ۱۷۴] و الأوزاعی إمام الشام و مالك بن أنس إمام المدينة، و ابن‌اسحق امام المحدثين فی السيرة، و هو فوق كل ذلك إمام عامل... رمی كتاب «المهدی» له فی دجلة - و فيه توليته للقضاء - و هرب من السلطان فولی شريكا بدله. و كان سفيان كثير المغاضبة للخلفاء - و لهذا كثر ما كان الخليفة يطلب دمه، و كان يختفی عن عيونه. يستأذن سفيان علی الامام، فلا يرفض الإذن بل يدخله ليعلن له أن ظهوره فی المجلس العلمی، و هو مختف، أمر غير سائغ، صيانة للمجلس العلمی من أن يكون مجلس المطلوبين، و حماية للمطلوب ذاته، و حفظا لعلاقة الإمام بالخليفة. و مع ذلك لا يضن الامام عليه بالحكمة. يقول ابن أبی‌حازم: «كنت عند جعفر الصادق يوما و إذا بسفيان الثوری بالباب فقال: إيذن لی. فدخل. فقال له جعفر: إنك رجل يطلبك السلطان فی بعض الأحيان، و تحضر عنده و أنا أتقی السلطان. فاخرج عنی غير مطرود. قال سفيان: حدثنی حديثا أسمعه و أقوم. قال الامام (عليه‌السلام): حدثنی أبی عن جدی عن أبيه عن رسول الله (صلی الله عليه و آله و سلم) قال: «من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله. و من استبطأ الرزق فليستغفر الله، و من حزنه أمر فليقل: لا حول و لا قوة إلا بالله». طلب اليه سفيان يوما أن يعظه، فقال عليه‌السلام: «يا سفيان لا مروءة لكذوب و لا أخ لملول. و لا راحة لحسود. و لا سؤدد لسيئ الخلق». فقال سفيان: زدنی. قال: «يا سفيان ثق بالله تكن مؤمنا. و أرض بما قسم الله تكن غنيا. و أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما. و لا تصحب الفاجر يعلمك فجوره. و شاور فی أمر دينك الذين يخشون الله عزوجل». فاستزاده سفيان فقال: «من أراد عزا بغير عشيرة، و غنی بغير مال، فلينتقل من ذل معصية الله الی عز طاعته». [صفحه ۱۷۵] فإذا أوصی زرارة عندما ولی القضاء، ذكره حساب السماء، قال: «انه اذا كان يوم القيامة و جمع الله الخلائق سألهم عما عهد اليهم و لم يسألهم عما قضی عليهم». فالقضاء أمانة الله. و اذا كان القاضی يجری عليه قضاء الله فهو مسؤول عما يجری به قضاؤه علی غيره. و يوصی الامام ابنه موسی الكاظم (عليهماالسلام) فيقول: «يا بنی! من رضی بما قسمه الله له استغنی. و من مد عينيه الی ما فی يد غيره مات فقيرا. و من لم يرض بما قسمه الله له اتهم الله فی قضائه. و من استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره. يا بنی؛ من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته. و من سل سيف البغی قتل به. و من احتفر لأخيه بئرا سقط فيها. و من داخل السفهاء حقر. و من خالط العلماء وقر. و من دخل مداخل السوءاتهم. يا بنی؛ إياك أن تزری بالرجال فيزری بك. و إياك و الدخول فيما لا يعنيك فتذل لذلك. يا بنی؛ قل الحق لك أو عليك. يا بنی: كن لكتاب الله تاليا، و للإسلام فاشيا، و بالمعروف آمرا، و عن المنكر ناهيا، و لمن قطعك واصلا، و لمن سكت عنك مبتدئا، و لمن سألك معطيا، و إياك و النميمة، فإنها تزرع الشحناء فی قلوب الرجال، و إياك و التعرض لعيوب الناس، فمنزلة المتعرض لعيوب الناس بمنزلة الهدف». و تصبح هذه الوصية تراثا للأئمة بعده. فيعلن الامام الثامن (علی الرضا عليه‌السلام) انه: ما ترك هذه الوصية الی ان توفی. و لقد يفد علی المجلس الكميت - شاعر أهل‌البيت (عليهم‌السلام) - كما كان يدخل علی زين‌العابدين (عليه‌السلام) [۴۷] و الإمام يعرف انبعاث الشاعر، و يخشی عليه من الخيال [صفحه ۱۷۶] الصادق فی تصوير ظلم يعانيه أهل‌البيت. و شعر الكميت من أسير الشعر فی الأدب العربی - و العيون تنقل للخليفة الخبء من أی شیء - فيستأذن الكميت الامام قائلا: جعلت فداك! ألا أنشدك؟ فينبهه الإمام قائلا: «إنها أيام عظام». فيقول الكميت عن القصيدة: إنها فيكم. و يقول الامام: هات. فينشده قصيدته التی مطلعها: ألا هل عم فی رأيه متأمل و هل مدبر بعد الإساءة مقبل إلی أن قال: كلام النبيين الهداة كلامنا و أفعال

أهل الجاهلية نفعل رضينا بدنيا لا نريد فراقها على أننا فيها نموت و نقتل و نحن بها مستمسكون كأنها لنا جنة مما نخاف و نعقل فكثر البكاء و ارتفعت الأصوات إلى أن قال: [صفحه ۱۷۷] كأن حسينا و البهاليل حوله لأسيافهم ما يختلى المتبقل فلم أر مخذولا أجل مصيبة و أوجب منه نصرة حين يخذل فرفع جعفر الصادق عليه‌السلام يديه و قال: اللهم اغفر للكميت ما قدم و ما أخر. و ما أسر و ما أعلن. و أعطه حتى يرضى، ثم أعطاه ألف دينار و كسوة. قال الكميت: و الله ما أحببتكم للدنيا، و لو أردتها لأتيت من هى لديه، و لكنى أحببتكم للآخرة؛ فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فإنى أقبلها لبركتها، أما المال فلا أقبله.

المذهب الجعفرى

أخرج الحاكم فى تاريخه بالإسناد الى أبى‌بكر عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «من كتب على علما أو حديثا لم يزل يكتب له الأجر ما بقى ذلك العلم أو الحديث». و أجمع أبوبكر أيام خلافته على تدوين الحديث فجمع خمسمائة حديث فبات ليلته يتقلب كثيرا. قالت عائشة: فغمنى تقلبه، فلما أصبح قال لى: «أى بنية هلمى الأحاديث التى عندك» فجئت بها فأحرقها. و عن الزهرى عن عروة أن عمر أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأشاروا عليه أن يكتبها. فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ثم أصبح يوما فقال: «انى كنت أريد أن أكتب السنن، و انى ذكرت قوما قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها و تركوا كتاب الله، و انى و الله لا أشوب كتاب الله بشىء أبدا». لكن عليا (عليه‌السلام) دون، و خلف فى شيعته طريقة (التدوين). فلقد كان على ثقة من طريقته؛ و هو الذى يقول فيه الرسول: «على مع القرآن و القرآن مع على و لن يفترقا حتى يردا على الحوض». و عنه قال الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم): «يا معشر قريش. و الله ليبعثن الله عليكم رجلا منكم امتحن الله قلبه للإيمان فيضربكم على الدين»، قال أبوبكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا. قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، و لكن ذلك الذى يخصف النعل»؛ و كان على يخصف نعلا للنبى عند ذلك. [صفحه ۱۷۸] و بالتدوين الفقهى استقر المذهب فى صدور الحفظة و النقلة، من على الى بنيه، فبنيهم، و بخاصة زين‌العابدين و زيد و الباقر و الصادق (عليهم‌السلام)، ثم عملت مجالس الامام الصادق فى نشره كمثل عمل التدوين فى استقراره. و أدرك الأئمة الذين تتلمذوا عنده و تلاميذهم أمورا ترفع مجلس الصادق فوق المجالس، سواء مجالس أهل السنة أو «أهل‌البيت» منها: ۱ - أن الذى يلقى هذا العلم إمام موصى اليه «باسمه» من أبيه. و بهذا ينماز من عمه زيد بن على صاحب المذهب الزيدى و من غيره من الشيعة. ۲ - أن هذا الإمام يقف بين العلماء جميعا فى مكان خاص. فالسنة عند الشيعة بعد موته تثبت عن طريقه - إلا ما ندر - فعنه يروى آلاف، و عنهم جاءت الأحاديث المروية فى كتبهم. ۳ - ان الآراء الفقهية فى أصول الدين و أصول الفقه و فروع المعاملات و العبادات سيراها اللاحقون منسوبة اليه. و ربما اقترن به أبوه الباقر، أو أشير الى رأى جده، السجاد، لكن نبع العلم منه هو الأشهر و الأكثر. و إذا لم يعرف التاريخ إماما فى السنن من درجته أو إماما فى الفقه من مرتبته، فالتاريخ - كذلك - لا يعرف إماما اجتمعت له الإمامتان مثله. ۴ - انه الامام الذى يوثقه أئمة المسلمين جميعا، و يستوى فى ذلك من أهل السنة أئمة الرأى فهم تلاميذه، و أئمة الحديث فهو فى القمة منهم، و روايته للحديث يوثقها واضع الاساس العلمى لقبول الحديث «الشافعى» و علماء الجرح و التعديل كيحيى بن معين و أبى‌حاتم و الذهبى و ابن‌حنبل و الآخرين... و تتردد فى كتب الصحاح أحاديثه، كما يبايعه إمام أهل‌البيت الذى سبق بفرقة عظيمة و فقه خالد (عمه زيد بن على زين‌العابدين، صاحب المذهب الزيدى)، و يضعه موضع الامامة فيقول: «فى كل زمان رجل من أهل‌البيت يحتج به الله على خلقه و حجة زماننا ابن أخى جعفر لا يضل من كان من شيعته و لا يهتدى من خالفه». ۵ - ان هذا الامام هو أول و آخر واحد من صلب آبائه و أجداده من الله عليه بهذه [صفحه ۱۷۹] الفرصة: أواخر الدولة المروانية المشغولة عنه بتثبيت دعائمها المهتزة، و أوائل عهد الدولة العباسية التى تمد اليه بسبب من السلام أو الخصام، و آصرة من النسب، تخدمانه أو تخدمانها - و هى ترفع شعار أهل‌البيت و الدفاع عن الدين - و بهذا أتيحت له حرية الجلوس لكل الناس، و التدريس لكل العلوم، و أن تسيل الأباطح الأباطح بأعناق المطى اليه من بقاع العالم، فى حقبة مزدهرة من التاريخ العالمى و الاسلامى.

۶ - انه الامام الذى طمأن الخلفاء (الملوك) فى الدولتين، و كانوا سفاحين غلاظ الأكباد، فهو - كما يقول الشهرستانى و أبونعيم فى (الملل و النحل) و (حلية الأولياء): «ما تعرض للإمامة قط و لا نازع فى الخلافة أحدا. و من غرق فى بحر المعرفة لم يطمع فى شط. و من تعلى الى ذروة الحقيقة لم يخف من حط». ۷ - انه الامام الذى أتيح له على مدار ثلث قرن من الزمان بعد وفاة أبيه سنة ۱۱۴ أن يكون «الإمام»... فامتد به عصر سلام، ضرورى لنشر العلم، باطمئنان طالبه، و واهبه، و الدولة التى ينتشر فيها رعاياها. هذه العناصر التى لم تجتمع لواحد من آبائه أو أبنائه جميعا، هى التى سوغت لمن تبع فقهه من الشيعة أن يطلقوا على مذهبه (المذهب الجعفرى). و ما هو فى صميمه إلا «مذهب على عليه‌السلام». و انما تخول السماء بركاتها لبعض الأسماء فى شكل حظوظ. و كان الامام جعفر الصادق عليه‌السلام جديرا بنعمة السماء قدر ما صدق و كافح فى خدمة الاسلام. و ما كان على بحاجة الى ما يخلد اسمه. فالإسلام فى أعظم أيامه يقرن باسم على، قدر ما اقترن اسم على بالنبى و بيت النبى (عليهم‌السلام). و المذهب يحمل اسمه جعفر لأنه صاحب مدرسة سقيت منه السنة الصحيحة، و مصادر الفقه العظيم، و المنهاج السياسى و الاجتماعى و الاقتصادى الذى نهجه تابعوه، و روى ذلك كله الآلاف، و روى عنهم أمثالهم. و فى الجدود، بمعنى الحظوظ، جد و جد، لكنها ليست خبط عشواء: فاسم أمريكا قد خلد اسم امريكو فسپوتشى، لأن أمريكو فسپوتشى كان كاشفا حقيقيا لبعض [صفحه ۱۸۰] شواطئها سنة ۱۴۹۹. و لم يغمط حظ الكاشف الثانى حق كرستوفر كولمبس، الكاشف الأول لها فى ۱۴۹۲. فاسم كولومبوس ما يزال يجرى على كل لسان على انه كاشف العالم الجديد. و التاريخ - كله - يقدمه على فسپوتشى. و لسنا فى مقام مقارنات برجال، فعلى و جعفر (عليهماالسلام) فوق المقارنات، بما قدموا للعالم كله - وسيطه و حديثه - من عناصر الحضارة، التى نقلت العالم من جهالات العصور القديمة و ظلمات العصور الوسطى، الى الحضارة المعاصرة، على عجلات التقدم، يحركها العلم الصحيح، و الاجتهاد الذى لا يتوقف. و كسب الأمم من علم الأئمة (عليهم‌السلام) كاقتران اسماء أصحاب الكشوف بكشوفهم و أرباب الابتكارات بفتوحهم، ليس صدفة، و لا- محض جزاء، و انما هو توفيق من الله للإنسانية و للناس، لتكريم أمم، و رجال، فتحوا أرض الله لعباده، أو مكنوهم من أنعم السماء، أو سنن الأنبياء، ليشجع الشجعان، و يستمر ضوء الفكر الانسانى فى اشراقه حفزا للعزائم و ظهورا للعلم. و منذ القرن الميلادى الماضى يطلق العلماء أسماء الرجال الذين يسروا للناس أسرار الطبيعة على مقاييس الطبيعة: الوات نسبة الى Watt و الفرد نسبة الى Faraday و الأمبير نسبة الى Ampere و الفولت نسبة الى Volta و الأوم نسبة الى Ohm و الهرتز نسبة الى Hertz و رونتجن نسبة الى Rontigen. و هم إنجليزيان و فرنسى و إيطالى و ثلاثة من الألمان. و أين تجربة أو تجارب أو كشف أو كشوف من شريعة بتمامها، و إمام فى الصدر من أئمتها، وطأ نصوصها، و أصل أصولها، وقعد القواعد لها، و أقام عليها دولا باقية بقاء الزمان، و مجتمعات خالدة بخلود الاسلام، ينسب المذهب فيها الى صاحبه، فيكون المذهب «الجعفرى» أو المذهب «الامامى» المنسوب الى الامام جعفر الصادق (عليه‌السلام) و الى القول «بإمامة الأئمة الاثنى عشر». [صفحه ۱۸۳]

المدرسة الكبرى

اشاره

يا أهل‌بيت الله حبكمو فرض من الله فى القرآن أنزله كفاكموا من عظيم القدر منزلة من لم يصل عليكم لا صلاة له الشافعى [صفحه ۱۸۵] فى هذا الباب محاولة لرسم خطوط تقريبية للبنيان العظيم لفكر الشيعة الجعفرية (الاثنا عشرية أو الامامية) الذى كان الامام الصادق (عليه‌السلام) فى طليعة بناته، و الذى يحمل اسمه، و ان شاركت فى رفع صرحه مدرسة كاملة من السابقين عليه، و الآخذين إخذه، من تلاميذه و تلاميذهم، بدأت بالنبى (صلى الله عليه و آله و سلم)، مدينة العلم، و على بابها، و تتابع فيها الصحابة العظماء، و التابعون و تابعو التابعين؛ و فى الأجيال الثلاثة الامام على و الحسن و الحسين ثم زين‌العابدين فالباقر فالصادق (عليهم‌السلام). ثم تتلمذ

للإمام الصادق فريق المخضرمين ممن تعلموا على أبيه أو أبيه وجده، و من الشباب الذين تعاونت قرائحهم فى تفتيق الكلام فى العقيدة، و تشقيق المعانى فى الفقه، ليصبحوا للذين جاءوا بعدهم، حتى اليوم، علامات على الطريق. و فى مشيخة هذه المدرسة ورد الفصل الأول. و الفصل الثانى يتناول أمورا أساسية فى فكر المدرسة، دون حصر لتفاصيله أو تطرق للاختلاف عليه بينهم و بين أهل السنة، أو بينهم و بين فرقهم، حتى لا نخرج من إطار الصورة التى نحاول رسمها، و تنقيتها مما تبرأ منه الشيعة، و تقع التبعات فيه على الغلاة المطرودين. و قد خصصنا بالبيان فى هذا الفصل مسألتين أصوليتين؛ لكل منهما أثر فى الفقه - سواء أكان فقه معاملات أم فقه عبادات - فبدأنا «بالحديث» و شروط قبوله وثنينا «بالإمامة». و أضفنا كلمات عن مسائل خلافية بين المذهب الجعفرى و بين غيره من المذاهب التى تتقاسم أهل السنة... تخيرناها من شتى مناحى التفكير الفقهى، لتتم أبعاد الصورة للقارئ، و يزداد جانبها الخلفى جلاء: أن الدين واحد عند أهل السنة و الشيعة. [صفحه ۱۸۷]

المدرسة الكبرى

اشاره

ماذا لقينا من أبناء على. إذا أحببناهم قتلنا، و إذا عاديناهم دخلنا النار. «الشافعى» [صفحه ۱۸۹] أخذ الفروع و الأصول عن الامام جعفر الصادق (عليه‌السلام) جمع غفير من ثقات الشيعة، و رووا ذلك لمن بعدهم على سبيل التواتر القطعى، و رواه هؤلاء لمن خلفوهم قرنا بعد قرن. فالصادق يروى علم من قبله، و يروى الأئمة من أبنائه علمه، كما يرويه تلامذته. فهو الحلقة التى تتوسط السلسلة، أو العروة الوثقى بين كتب آبائه و بين ما كتب بعده «الإمامية».

المصحف الخاص أو كتاب الأصول

آلى أميرالمؤمنين على بن ابى‌طالب (عليه‌السلام) على نفسه بعد الفراغ من تجهيز الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) ألا يرتدى إلا للصلاة أو يجمع القرآن، فجمعه مرتبا على حسب النزول، و أشار الى عامه و خاصه؛ و مطلقه و مقيده؛ و محكمه و متشابهه؛ و ناسخه و منسوخه؛ و عزائمه و رخصه؛ و سننه و آدابه، و نبه على أسباب النزول فيه. و من جلال شأن هذا الكتاب، قال فيه محمد بن سيرين: «لو أصبت هذا الكتاب كان فيه العلم». فهو كما يظهر من محتوياته مصحف خاص و كتاب أصول من صنع على (عليه‌السلام). و الجامعة: كتاب طوله سبعون ذراعا من إملاء النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) و خط على (عليه‌السلام)؛ فيه ما يحتاجه الناس من حلال و حرام و غيره، حتى ليصل فى التفصيل الى أرش الخدش (التعويض عنه). و قد وصفها بذلك الباقر و الصادق (عليهماالسلام)، و شهدها عندهما الثقات من أصحابهما و منهم أبوبصير. قال الصادق (عليه‌السلام): «أما و الله عندنا ما لا نحتاج الى أحد، و الناس يحتاجون لينا. إن [صفحه ۱۹۰] عندنا الكتاب بإملاء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و خط على عليه‌السلام بيده... صحيفة طولها سبعون ذراعا، فيها كل حلال و حرام». و قال: «ان الجامعة لم تدع لأحد كلاما... فيها الحلال و الحرام. ان أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدهم من الحق إلا بعدا. و ان دين الله لا يصاب بالقياس». قالوا: سميت الجامعة، و الصحيفة، و كتاب على، و الصحيفة العتيقة. كان أميرالمؤمنين (عليه‌السلام) يخطب الناس فيقول: «و الله ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلا كتاب الله تعالى و هذه الصحيفة - و كانت معلقة بسيفه - أخذتها عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم». و لقد دعا الخليفة أبوجعفر المنصور بكتاب على هذا، فجاء به الامام الصادق و قرأ فيه ان النساء ليس لهن من عقار الرجل - إذا توفى عنهن - شىء. و قال أبوجعفر: هذا و الله خط على و إملاء رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم). و أبوجعفر من العلماء كما قال عنه مالك إمام المدينة، و كما أقر له الجاحظ كبير النقاد. فهو قد يقسم لأنه قرأ كتابه قبل ذلك لعلى (عليه‌السلام)، أو لأن لديه من العلم ما يعرفه أنها باملاء النبى (صلى الله عليه و آله و

سلم). و كتاب الديات؛ و هو يغطى ما يسمى فى الفقه المعاصر «المسؤولية المدنية» عن الفعل الضار بالجسم... أورد محتوياته ابن‌سعد فى كتابه المعروف بالجامع، و روى عنه أحمد بن حنبل فى المسند الأعظم، و ذكره البخارى و مسلم، و رويا عنه.

مصحف فاطمة

و من التراث العلمى عند الشيعة ما يسمى بمصحف فاطمة. حدثوا عن الصادق (عليه‌السلام) إذ سئل عنه: «ان فاطمة مكثت بعد رسول الله خمسة و سبعين يوما و كان قد دخلها حزن على أبيها، و كان جبرئيل يأتيها فيحسن عزاءها ويطيب نفسها، و يخبرها بما يكون بعدها فى ذريتها، و كان على يكتب ذلك. فهذا مصحف فاطمة». فليس هذا مصحفا بالمعنى الخاص بكتاب الله تعالى و إنما هو أحد المدونات. [صفحه ۱۹۱]

التدوين

يروى «الصدوق» فى (الأمالى) ان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «المؤمن من إذا مات ترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة يوم القيامة سترا بينه و بين النار». و فى حياة النبى أو حياة على، اقتدت بعلى شيعته فى التدوين أو قل: هديت لتنفيذ أمر الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم). يقول ابن شهراشوب: «أول من صنف فى الاسلام على بن أبى‌طالب، ثم سلمان‌الفارسى ثم أبوذر». و الاثنان شيعة على. و السيوطى يروى أن عليا و الحسن بن على (عليهماالسلام) ممن أباحوا كتابة العلم بين الصحابة و فعلوها. و ألف أبورافع مولى الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم)، و صاحب بيت‌المال فى خلافة الامام على بالكوفة، كتاب السنن و الأحكام و القضايا. يقول موسى بن عبدالله بن الحسن: سأل أبى‌رجل عن التشهد فقال أبى: هات كتاب أبى‌رافع، فأخرجه فأملاه علينا. أما على بن أبى‌رافع فكتب كتابا فى فنون الفقه على مذهب أهل‌البيت عليهم‌السلام، أى آراء على بن أبى‌طالب، و كانوا يعظمون شأن هذا الكتاب و يحملون شيعتهم عليه. و من الشيعة زيد الجهضمى... حارب مع على (عليه‌السلام) و ألف كتابا يحوى خطبه؛ و منهم ربيعة بن سميع له كتاب فى زكاة النعم؛ و منهم عبدالله بن الحر الفارسى... له لمعة فى الحديث جمعها فى عهد رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم). و منهم الأصبغ بن نباتة صاحب على... روى عنه عهده الى الأشتر النخعى. و وصيته الى ابنه محمد بن الحنفية. و منهم سليم بن قيس الهلالى صاحب أميرالمؤمنين (عليه‌السلام)، له كتاب فى الإمامة، و له مكانة عليا فى المذهب من حيث الأصول. [صفحه ۱۹۲] و ذات يوم كان الحكم بن عيينة عند الباقر (عليه‌السلام) يسأله فقال: يابنى قم فأحضر كتاب على، فأحضر كتابا مدرجا عظيما ففتحه، و جعل ينظر حتى أخرج المسألة، و قال: هذا خط على و إملاء رسول الله، و أقبل على الحكم و قال: «اذهب أنت و سلمة و المقداد حيث شئتم يمينا و شمالا... فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرئيل». و من قبل الامام الباقر وجدت عند الامام زين‌العابدين الصحيفة المسماة الصحيفة الكاملة. و عن زين‌العابدين آلت الى الشيعة رسائل عديدة منها رسالة الحقوق، و رسالة الى ابن‌شهاب الزهرى. [۴۸] . و كذلك ألف عمرو بن أبى‌المقدام جامعا فى الفقه يرويه عن الامام زين‌العابدين (عليه‌السلام). فلما صارت الامامة للصادق (عليه‌السلام) حض على تدوين العلم أيا كان موضوعه، دينيا أو دنيويا، فقه عبادات أو معاملات أو علوما تطبيقية. و كان يقول: «القلب يتكل على الكتابة». و كان يملى على تلاميذه، و يجيئهم بالدواة و القرطاس، و يقول: «اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا». و يلتمس سفيان الثورى اليه ان يحدثه بحديث خطبة الرسول بمسجد الخيف، و يرجوه ليأمر له بقرطاس و دواة ليثبته، فيأمر له، ثم يمليه : «بسم الله الرحمن الرحيم. خطبة رسول الله فى مسجد الخيف: نضر الله عبدا سمع مقالتى فوعاها و بلغها من لم تبلغه. يا أيها الناس! ليبلغ الشاهد منكم الغائب. فرب حامل فقه ليس بفقيه. و رب حامل فقه الى من هو أفقه منه». [صفحه ۱۹۳] و كتب عبدالله الحلبى كتابا عرضه على «الصادق» فصححه و استحسنه. و سنرى حفيده الامام العسكرى (عليه‌السلام) يعرض عليه يونس بن عبدالرحمن كتاب (يوم و ليلة) فيصححه و يأمر بالعمل به. و لما غاب «المهدى عليه‌السلام» فى

النصف الثانى من القرن الثالث أحوجت «الغيبة» الى الرجوع للمدونات التى تزخر بها خزائن الشيعة؛ إذ لم يكن لديهم إمام ظاهر يسألونه. و كثرت الكتابة عندهم فى القرن الرابع. كان أول المستفيدين بالتدوين الباكر أولئك الذين يلوذون بالائمة من أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فيتعلمون شفاها أو تحريرا، أى من فم لفم أو بالكتابة. فما تناقلته كتب الشيعة من الحديث، هو التراث النبوى - فى صميمه - بلغ الشيعة فى يسر طوع لعلمهم الازدهار؛ فى حين لم يجمع أهل السنة هذا التراث إلا بعد ان انكب عليه علماؤهم قرنا و نصف قرن حتى حصلوا ما دونوه فى المدونات الأولى. ثم ظلوا قرونا أخرى يجوبون الفيافى و القفار فى كل الأمصار، فتطابقت السنة - فى مجموعها - عند هؤلاء و أولاء، إلا أمورا لا تتصل بأصل الدين، و خلافات فى الفروع ليست بدعا فى الأمة. و ربما كان اختلاف مذاهب أهل السنة فيما بينهم و بين أنفسهم أكثر ظهورا فى بعض المسائل من خلافهم فيها مع فقهاء الشيعة. و إذا لا حظنا ان من الرواة من قيل انه روى عشرات الآلاف من الحديث عن الامام، تجلت كفاية التراث الموثوق به عند الشيعة لحاجات الأمة. و إذا لا حظنا توثيق الشافعى و مالك و أبى‌حنيفة و يحيى بن معين و أبى‌حاتم و الذهبى للامام الصادق (عليه‌السلام) - و هم واضعو شروط المحدثين و قواعد قبول الرواية و صحة السند - فمن الحق التقرير بأن حسبنا ان نقتصر على التفتيش عن رواة السنة عن الامام الصادق (عليه‌السلام). و الشيعة يكفيهم أن يصلوا بالحديث الى الامام... لا يطلبون اسنادا قبل الامام جعفر (عليه‌السلام)... بل لا يطلبون إسنادا قبل الأئمة عموما؛ لأن الامام بين أن يكون يروى [صفحه ۱۹۴] عن الامام الذى أوصى له، و بين أن يكون قرأ الحديث فى كتب آبائه - الى ذلك فإن ما يقوله سنة عندهم، فهو ممحص من كل وجه... فليست روايته للحديث مجرد شهادة به، بل هى إعلان لصحته. و إذ كان مارواه الصادق رواية الباقر و رواية السجاد عن الحسين عن الحسن أو عن على عن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم)، فهذا يصحح الحديث على كل منهج. فالثلاثة الأخيرون من الصحابة المقدمين، يروون عن صاحب الرسالة، إذ يروى الحسن و الحسين عن على عنه. لقد كان منهج على (عليه‌السلام) و من تابعه فى التدوين خيرا كبيرا للمسلمين، منع المساوئ المنسوبة الى بعض الروايات، و أقفل الباب دون افتراء الزنادقة و الوضاعين. فالسبق فى التدوين فضيلة الشيعة. و لما أجمع العلماء بعد زمان طويل على الالتجاء اليه كانوا يسلمون بهذه الفضيلة - بالاجماع - لعلى و بنيه. و السنة شارحة للكتاب العزيز، و هو مكتوب بإملاء صاحب الرسالة. فهى كمثله حقيقة بالكتابة. إنما كان المحدثون من أهل السنة فى القرون الأولى مضطرين لسماع لفظ الحديث من الأشياخ، أو عرضه عليهم، لأن السنن لم تكن مدونة. فكانت الرحلة الى أقطار العالم لتلقى الحديث على العلماء وسيلتهم الأكيدة. و لم يغير ذلك النظر انتشار التدوين فى نهاية القرن الثانى و منتصف الثالث، و كثرة الحديث المدون فى المسانيد و المجاميع و الصحاح التى ألفت بعد تلك الفترة؛ و منها مسند أحمد بن حنبل (۲۴۱) حوى ثلاثين ألفا دون المكرر، اختارها من ثلاثة أرباع مليون جمعها من أفواه العلماء من أقصى الأرض و أدناها، و حدث بها تلاميذه لينقلوها الى الأجيال التالية. و كان فى أواخر أيامه يستوثق لنفسه، فيروى للناس الحديث و يطلب المسند يقرأ فيه. ثم جاءت أجيال تأخذ الحديث من الصحف الموثوق بصحة صدورها من صاحبها [صفحه ۱۹۵] دون أن يرتحل اليه. و هذا ما أطلقوا عليه الوجادة [۴۹] - يقولون: وجدنا بخط فلان. و فى القرن الرابع اعتبر ابن‌يونس الصفدى (۳۴۷) إماما حافظا للحديث و ان لم يرحل. قلنا فى كتابنا (أحمد بن حنبل امام أهل السنة): [۵۰] «و البعض من المحدثين لم يكونوا يروون عن الامام جعفر الصادق (عليه‌السلام) لأنه يحدث بما قرأه فى الكتب... سئل أبوبكر بن عياش و هو من أول أشياخ أحمد: لماذا لم تسمع من جعفر، و قد أدركته؟ قال: سألناه عما يحدث من الأحاديث: أشىء سمعته؟ قال: لا، لكنها رواية رويناها عن آبائنا» و عقبنا ذلك بقولنا: «و الشافعى [۵۱] و يحيى بن معين [۵۲] متفقان على توثيقه؛ و هو شيخ مالك. و ليس بعد هؤلاء أدلة على جواز طريقة الامام جعفر (عليه‌السلام) مع علمه الضخم فى كل باب». و فى كتابنا (الامام الشافعى) أجملنا الكلام عن موضع الامام من الاسلام كله فى كلمات: «الامام جعفر... يمثل صميم الاسلام... يجتمع فى نسبه النبى عليه الصلاة [صفحه ۱۹۶] و السلام و أبوبكر و على. و هو إمام فى الدين و الفقه و بحر فى العلوم الطبيعية». و هذا البحر، و القطعة من الاسلام و المسلمين الثلاثة الأولين - بل الأربعة الأولين و فيهم أم‌المؤمنين خديجة - إمام يهتدى بهديه و اجتهاده أئمة أهل السنة كافة. أما الشيعة الامامية، فقول الامام المعصوم يجرى عندهم

مجرى قول النبى من كونه حجة على العباد. و لقد توسع علماؤهم فى اصطلاح السنة الى ما يشمل «قول كل واحد من المعصومين و فعله و تقريره». فالأئمة المعصومون ليسوا - بهذه المثابة - من قبيل رواة السنن، بل هم منصوبون من الله تعالى، على لسان النبى، لتبليغ الأحكام عن طريق الإلهام، كالنبى بطريق الوحى اليه، و هو خاص به، أو عن طريق التلقى من المعصوم الذى يسبق. أما فعل المعصوم فدليل على الإباحة، و اما تركه فدليل على عدم الوجوب. و تآليف الامام الصادق (عليه‌السلام) كثيرة؛ منها رسالة فى شرائع الدين؛ و وصاياه للامام الكاظم؛ و رسالة فى الغنائم و وجوب الخمس؛ و توحيد المفضل؛ و كتاب الأهليلجة؛ و كتاب مصباح الشريعة؛ و كتاب مفتاح الحقيقة؛ و رسالة الى أصحابه؛ و رسالة الى أصحاب الرأى و القياس؛ و رسالة لمحمد بن النعمان؛ و أخرى لعبدالله بن جندب؛ و رسالة فى وجوه المعايش للعباد؛ و وجوه إخراج الأموال؛ و رسالة فى احتجاجه على الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق؛ و رسالة حكم قصيرة. و الرسالتان الأخيرتان عملان أساسيان فى الاقتصاد و الاجتماع، يدلان على منهاج الامام فى صلاح الدنيا بالعمل و العبادة معا. وثمة الرسائل العلمية المقترنة بجابر بن حيان. أما كتاب الجفر المنسوب الى الامام الصادق (عليه‌السلام) - فيقول عنه ابن‌خلدون (۸۰۶ - ۷۳۲ ه) (۱۴۰۶ - ۱۳۳۲ م): «و اعلم ان كتاب الجفر كان أصله ان هارون بن سعيد البجلى - و هو رأس الزيدية - كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق و فيه علم ما سيقع لأهل‌البيت (عليهم‌السلام) على العموم و لبعض الأشخاص منهم على الخصوص، وقع ذلك لجعفر و نظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة و الكشف الذى يقع لمثلهم. و كان [صفحه ۱۹۷] مكتوبا عند جعفر فى جلد ثور صغير فرواه عنه هارون البجلى و كتبه و سماه الجفر باسم الجلد الذى كتب عليه، لأن الجفر فى اللغة هو الصغير. و صار هذا الاسم علما على الكتاب عندهم. و كان فيه تفسير القرآن و ما فى باطنه من غرائب المعانى مروية عن جعفر الصادق (عليه‌السلام). و هذا الكتاب لم تتصل روايته و لا عرف عينه، و انما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل. ولو صح السند الى جعفر الصادق لكان نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه، فهم أهل الكرامات. و قد صح عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصبح كما يقول». و الروايات متضافرة على أن الجفر غير (الجامعة). و البعض يقول إن الجفر من مؤلفات على (عليه‌السلام) أملاه عليه النبى (صلى الله عليه و آله و سلم). [۵۳] . و هو جفران: الأبيض و هو وعاء من أدم فيه علوم الأنبياء و الوصيين و الذين مضوا من علماء بنى‌اسرائيل، و الأحمر فيه علم الحوادث و الحروب. كان تلاميذ الصادق مدونين كبارا، فلقد عاشوا فى عصر نهضة علمية كبرى أعجب بها العالم، تبارت فيها يراعات المدونين. و دارت عجلات التدوين كهيئة مادارت عجلات الطباعة عند ظهور المطبعة... بدأها عمر بن عبدالعزيز على رأس القرن إذ أمر بتدوين السنة، و تابعها علماء الأمة من أهل السنة. و من بعد وفاة الامام الصادق (عليه‌السلام) فى عام ۱۴۸، دون أربعة آلاف من التلاميذ فى [صفحه ۱۹۸] كل علومه، و من جملتها ما يسمى (الأصول الأربعمائة)، و هى أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنف من فتاوى الصادق، و عليها مدار العلم و العمل من بعده. و خير ما جمع منها كتب أربعة هى مرجع الإمامية فى أصولهم و فروعهم الى اليوم، و هى «الكافى» و «من لا يحضره الفقيه» و «التهذيب» و «الاستبصار». و الكافى - لابى‌جعفر محمد بن يعقوب الكلينى (۳۲۹) - أعظمها و أقومها، و أحسنها و أتقنها. فيه ۱۶۱۹۰ حديثا. ألفه الكلينى فى عشرين سنة. و أما كتاب (من لا يحضره الفقيه) فوضعه ابن‌بابويه القمى - محمد بن على بن موسى بن بابويه القمى [۵۴] المقلب (بالصدوق) - (دخل بغداد سنة ۳۵۰ و مات بالرى سنة ۳۸۱). و فيه ۵۹۶۳ حديثا. و هذا الكتاب أهم مؤلفاته مع أنه ألف ثلاثمائة كتاب. و أما «التهذيب» و «الاستبصار» فوضعهما بعد نحو قرن محمد بن الحسن بن على الطوسى (۴۶۰) الملقب ب (شيخ الطائفة)؛ و كان فقيها فى مذهبى الشيعة و أهل السنة. و فى (التهذيب) ۱۳۵۹۰ حديثا، و فى (الاستبصار) ۵۵۱۱ حديثا. دخل الطوسى بغداد سنة ۴۰۸ و استقر بها فى أيام الشيخ المفيد (محمد بن النعمان ۴۱۱ - ۳۳۶) صاحب شرح عقائد الصدوق و أوائل المقالات، و نحو مائتى مؤلف. و تتلمذ الطوسى بعد موت الشيخ المفيد للشريف المرتضى فنجب فى مدرسة الشرف، و فى «دار العلم» التى أنشأها، و كان يجرى عليه اثنى عشر دينارا فى الشهر طوال ملازمته له حتى وفاة المرتضى. و انتفع بكتب المرتضى و الكتب التى حوتها مكتبته. فألف فى كل علوم الاسلام، و اجتهد الاجتهاد المطلق؛ فكان حجة فى فقه الشيعة و السنة. و من أجل آثاره تدريسه فى مجالسه، و أماليه

«بالنجف الأشرف» فی جوار مشهد أمیرالمؤمنین علی (علیه‌السلام). و بهذا افتتح عصر العلم بالنجف الأشرف فصار صنوا [صفحه ۱۹۹] للأزهر الأغر - الذی أقامته دولة من دول الشیعة - و المعهدان هما اللذان حفظا علوم الإسلام. فالطوسی، و الشریفان الرضی و المرتضی، و الشیخان المفید و الصدوق، و الکلینی، قد وصلوا ما انقطع من التألیف منذ عصر الامام الصادق (علیه‌السلام) حتی منتصف القرن الخامس، لیستمر التیار فی التدفق. و الشریفان فی مدرسة جدهما صنوان؛ أبوهما أبوأحمد الموسوی (نسبة الی جده الامام موسی الکاظم علیه‌السلام). و فیه قول ابن أبی‌الحدید شارح نهج‌البلاغة للشریف الرضی: کان أبوه أبوأحمد جلیل القدر عظیم المنزلة فی دولة بنی‌العباس و بنی‌بویه. و لقب «بالطاهر ذی المناقب» و لقبه أبونصر بن بویه «بالطاهر الأوحد». ولی نقابة الطالبیین عدة دفعات، کما ولی النظر فی المظالم، و حج بالناس مرارا علی الموسم. عاش أبوأحمد طوال القرن الرابع (۴۰۰ - ۳۰۴) و کان یستخلف علی الحج ولدیه «الرضی» و «المرتضی». و الشریف الرضی (۴۰۶ - ۳۵۸) هو شاعر العربیة الشهیر، و جامع «نهج‌البلاغة» الأشهر، من خطب أمیرالمؤمنین علی (علیه‌السلام). تولی نقابة (الطالبیین) فی حیاة أبیه و من بعده، و تولی النیابة عن الخلیفة العباسی. فهذه ولایة یتفرد بها فی التاریخ، تجمع بین نقابة الطالبیین و بین نیابة الخلافة السنیة. و للشریف الرضی تآلیف عظیمة فی تفسیر القرآن منها (۱) تلخیص البیان فی معجزات القرآن. (۲) حقائق التأویل و متشابه التنزیل. (۳) معانی القرآن. کذلک له (۴) مجازات الآثار النبویة. (۵) خصائص الأئمة. أما الشریف المرتضی (۴۳۶) فیقول عنه الثعالبی فی «یتیمة الدهر» - و هما متعاصران - «انتهت الریاسة الیوم ببغداد الی المرتضی فی المجد و الشرف و العلم و الأدب و الفضل و الکرم. و له شعر نهایة فی الحسن. و مؤلفاته کثیرة؛ منها أمالی المرتضی - الشافی - تنزیه الأنبیاء - المسائل الموصلیة الأولی - مسائل أهل الموصل [صفحه ۲۰۰] الثانیة - مسائل أهل الموصل الثالثة - المسائل الدیلمیة - المسائل الطرابلسیة الأخیرة - المسائل الحلبیة الأولیة - المسائل الجرجانیة - المسائل الصیداویة - و تآلیف أخری کبیرة فی الفقه و القیاس و رفضه. و قد شرح تلمیذه الطوسی أکثر من مؤلف له». و من أعظم آثاره إنشاء «دار العلم» ببغداد و رصده الأموال علیها و إجراؤه العطاء علی التلامیذ و إطعامهم و إسکانهم. و کان یتبع «دار العلم» هذه مکتبته التی تحوی أکثر من ثمانین ألف مجلد. و حسبه ان یکون الطوسی من تلامیذه. و فی آثار هذا السلف العظیم تتابع رکب العلماء و المؤلفین الفحول یخلدون فقه الاسلام.

مشیخة العلماء

کان مع الکتب التی آلت عن علی (علیه‌السلام) و معاصریه، مؤلفات، کبیرة أو صغیرة، وضعها من جاءوا بعده، و سیر لهذا الثبت الضخم من شیعته من الصحابة و التابعین و تابعی التابعین. فهذا هو التراث التاریخی للشهداء و أشیاع الشهداء... لا تکف الأمة عن ترذیده، جهرة و خفیة، یتصدرهم الصحابة العظماء و الیک بعض الأسماء: سلمان الفارسی (و الذی یطلق علیه سلمان المحمدی)؛ و أبوذر (أصدق الناس لهجة)؛ و عمار الذی (تقتله الفئة الباغیة) و هو فی التسعین یحارب مع علی (علیه‌السلام)؛ و العباس بن عبدالمطلب؛ و أبوأیوب الأنصاری؛ و المقداد بن الأسود الکندی الذی قال لعلی (علیه‌السلام) یوم بیعة السقیفة: «إن أمرتنی ضربت بسیفی و ان أمرتنی کففت»، قال (علیه‌السلام): (اکفف)؛ و خزیمة ذو الشهادتین؛ و أبوالتیهان؛ و عبدالله و الفضل ابنا العباس؛ و بلال بن رباح؛ و هاشم بن عتبة المرقال؛ و ابان و خالد ابنا سعید بن العاص؛ و أبی بن کعب سید القراء؛ و أنس بن الحرث بن نبیه؛ و عثمان و سهل ابنا حنیف؛ و بریدة؛ و حذیفة؛ و قیس بن سعد بن عبادة رئیس الأنصار؛ و هند بن أبی‌هالة - أمه أم‌سلمة أم‌المؤمنین؛ و جعد بن هبیرة المخزومی - أمه أم‌هانئ بنت أبی‌طالب؛ و جابر بن [صفحه ۲۰۱] عبدالله الأنصاری. و سیجری فی آثار الصحابة التابعون لهم و تابعو التابعین... فیضیفون الی التراث العظیم آثار رجال عظماء منهم، من أشیاع علی (علیه‌السلام): الأحنف بن قیس؛ سوید بن غفلة؛ الحکم بن عیینة؛ سالم بن أبی‌الجعد؛ علی بن أبی‌الجعد؛ السعیدان: ابن‌جبیر و ابن‌المسیب؛ [۵۵] یحیی بن نظیر العدوانی؛ الخلیل بن أحمد الفراهیدی مؤسس علم العروض؛ و أبومسلم معاذ بن مسلم الهراء مؤسس علم الصرف. و فی مدرسة التابعین هذه برز: أبوهاشم

(عبدالله بن محمد بن الحنفية ابن أميرالمؤمنين)... و أبوهاشم أول من تكلم فى علم الكلام... و من بعده نشأت مدرسة المعتزلة يتزعمها و اصل بن عطاء و عمرو بن عبيد. و بأبى هاشم تبدأ مدرسة المتكلمين من الشيعة. و من جيل التابعين: هشام بن محمد بن السائب الكلبى؛ و أبومخنف الأزدى المؤرخان. و يتوالى موكب العلم العظيم من عهد على (عليه‌السلام)... و تتعالى أصوات الدعاة العظماء للمذهب الشيعى، كالنابغة الجعدى: شهد صفين مع أميرالمؤمنين، و له فيها أشعاره المشهورة، و كان معه عروة بن زيد الخيل؛ و لبيد بن ربيعة؛ و كعب بن زهير صاحب قصيدة «بانت سعاد». و من بعدهم: الفرزدق، و كثير بن عزة من شعراء القرن الأول، ثم الكميت؛ و قيس بن ذريح؛ و السيد الحميرى؛ و دعبل الخزاعى؛ و أبوتمام؛ و البحترى؛ [صفحه ۲۰۲] وديك الجن؛ و الحسين بن الضحاك؛ و ابن‌الرومى؛ و الأشجع السلمى. [۵۶] . و علم أهل‌البيت علم كل الأمة. فأميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) فى قمة السند عند الجميع من سنة و شيعة. لكن الذين ينقلون عنه – من الشيعة أو السنة – محل تفاوت. فالشيعة لا يقبلون كلمة ممن حارب عليا (عليه‌السلام) أو ظلمه من الصحابة أو التابعين. و أهل السنة، مع اختلافهم من ناحية شروط الرواية و الراوى، لا يقبل بعضهم ما لا يصل اليه بطريقته، و يتشكك بعضهم فى بعض ما يرويه الشيعة لأمور تتعلق بالسند أو [صفحه ۲۰۳] بالمتن أو برواية من الشيعة. و فى اسناد الشيعة فحول – بكل المقاييس – فى العدالة و النزاهة و العلم، تتردد اسماؤهم عالية فى «كتب الحديث» و «الصحاح» التى يقوم عليها العلم عند أهل السنة – و الحق أن «جوهر الحديث النبوى» واحد عند هؤلاء و أولاء، مع تعدد الطرق. و من هؤلاء: – الحارث بن عبدالله الهمدانى (۶۵) صاحب أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) و خاصته. حديثه فى كتب السنن الأربعة: قال ابن‌سيرين «كان من أصحاب ابن‌مسعود خمسة يؤخذ عنهم أدركت أربعة منهم وفاتنى الحارث، فلم أره. و كان يفضل عليهم و كان أحسنهم. و يختلف فى هؤلاء أيهم أفضل: علقمة و مسروق و عبيدة». – علقمة بن قيس النخعى (۶۲) عم الأسود و أخويه أبناء يزيد. كان من أولياء آل محمد (صلى الله عليه و آله و سلم). و الشهرستانى يعده من الشيعة فهو قد شهد صفين مع أميرالمؤمنين، و استشهد فيها أخوه أبى، و خضب علقمة سيفه من دماء الخوارج، و لم يزل عدوا لمعاوية حتى مات. و مكانة علقمة عند أهل السنة من المسلمات. كان عنده كل علم ابن‌مسعود. و فى بيت علقمة نشأت مدرسة النخعيين، و فيها نجب ابراهيم بن يزيد واسطة العقد فى فقه العراق. – ظالم بن عمرو قاضى البصرة لعلى (ابوالأسود الدؤلى) (۶۹). احتج به أصحاب الصحاح الستة. و هو واضع علم النحو... و مكان النحو من اللغة، و مكانة اللغة من القرآن و السنة و كل علوم الأمة، يضعان أباالأسود فى أعلى مكان. – عبدالله بن شداد بن الهاد (۸۱). أمه سلمى بنت عميس أخت أسماء أم عبدالله بن جعفر و محمد بن أبى‌بكر و يحيى بن على. و هو أخو عمارة بن حمزة لأمه. و حمزة بطل أحد و شهيدها. [صفحه ۲۰۴] روى عن على (عليه‌السلام) و أمى المؤمنين عائشة و ميمونة. خرج مع القراء أيام ثورة ابن‌الأشعث فقتل يوم دجيل. احتج بحديثه أصحاب الصحاح و سائر الأئمة أصحاب المسانيد. – سليمان بن صرد الخزاعى (۶۵) كبير الشيعة فى عصره، و بطل من أبطال صفين. يحتج به المحدثون. و حديثه عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) بلا واسطة، أو بواسطة الصحابى جبير بن مطعم، موجود فى صحيحى البخارى و مسلم. و حديثه فى غيرهما كثير. و هو قائد التوابين الذين نهضوا للثأر لدم الحسين (عليه‌السلام). و كانوا أربعة آلاف ساروا الى عبيدالله بن زياد و هو فى سبعين ألفا، فتلاقوا فى موضع يقال له «عين الوردة» حيث استشهد سليمان عن ثلاثة و تسعين عاما و هو يحارب جيش عبيدالله بن زياد. أما عبيدالله بن زياد فقتله ابراهيم بن الأشتر النخعى بيده. – صعصعة بن صوحان العبدى: أسلم فى عهد النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) و لم يره. و هو من مشاهير خطباء العربية الذين خلدت بلاغتهم، فهو تلميذ فى مدرسة أميرالمؤمنين (عليه‌السلام). شهد معه «الجمل» و معه أخواه زيد و سيحان. و كانت الراية بيد سيحان يوم ذاك، فقتل، فأخذها زيد فقتل، فأخذها صعصعة و انتصر. ثم شهد صفين مع أميرالمؤمنين (عليه‌السلام). روى عن على و ابن‌عباس. و نفاه المغيرة بن شعبة والى العراق بأمر معاوية، الى الجزيرة فى البحرين فمات – احتج به النسائى. – عمرو بن وائلة – أبوالطفيل – (۱۱۰) كان صاحب راية المختار ابن‌عبيد الثقفى. و هو آخر الصحابة موتا. قدم على معاوية يوما فقال له: كيف وجدك على خليلك أبى‌الحسن؟ (يقصد أميرالمؤمنين عليا عليه‌السلام) فأجاب: كوجد أم‌موسى على موسى. و أشكو الى الله التقصير. قال

معاوية: كنت فيمن حصر عثمان؟ قال: لا ولكن فيمن حضره. [صفحه ۲۰۵] قال معاوية: فما منعك من نصره. قال: فما منعك أنت من نصر عثمان؟ كنت فى أهل الشام و كلهم تابع لك فيما تريد. قال معاوية: أو ما ترى طلبى لدمه نصرة له؟ قال: إنك لكما قال أبوجعف: لألفينك بعد الموت تطلبنى و فى حياتى ما زودتنى زادا و حديثه فى صحيح مسلم. روى عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و عن على و ابن‌مسعود و حذيفة بن اليمان و حذيفة بن سعد و ابن‌عباس و عمر و معاذ. - إبراهيم بن يزيد النخعى (۹۵) أبوه يزيد بن عمرو بن الأسود النخعى. و أخواله الأسود و ابراهيم و عبدالرحمن ابناء يزيد بن قيس. يؤلفون - مع علقمة بن قيس - مدرسة النخعيين. و ابن‌قتيبة يعتبر ابراهيم من الشيعة. و روايته فى الصحيحين. و عنه يروى حماد بن أبى‌سليمان. و عن حماد يروى أبوحنيفة. و من فحول القرن الثانى كثيرون نختار منهم بعض الأسماء: - عطية العوفى (۱۱۱) كان أبوه من أصحاب على (عليه‌السلام). و على هو الذى أعطاه اسمه. ضربه الحجاج ۴۰۰ سوطا لا متناعه عن سب على (وحد الجلد مائة!). له ذرية نبلاء من الشيعة؛ منهم الحسين بن الحسن بن عطية الذى ولى القضاء. يحتج به أبوداود و الترمذى. - جابر بن يزيد الجعفى (۱۲۷). قالوا: إنه كان يؤمن بالرجعة. و أحاديثه فى مسلم. و روى عنه النسائى و الترمذى و أبوداود و أخذ عنه شعبة. و من أجل قولهم عنه و وثاقته يروى ابن عبدالحكم عن الشافعى «ان سفيان (ابن‌عيينة) قال لشعبة: لئن تكلمت فى جابر لأتكلمن فيك». - شعبة بن الحجاج (۱۶۰) أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين. - عبدالرزاق بن همام (۲۱۰) شيخ أحمد بن حنبل و يحيى بن معين و اسحق بن [صفحه ۲۰۶] راهويه. سئل يحيى، و هو استاذ الجرح و التعديل، عن الرواية عن عبد الرزاق مع تشيعه، فقال: لو ارتد عن الاسلام ما تركنا حديثه. و كان عبدالرزاق يتكلم فى عثمان. و ذكر أمامه معاوية مرة فقال: لا تقذروا مجالسنا بذكر ولد أبى‌سفيان. [۵۷] . - الأعمش - سليمان بن مهران الأسدى الكوفى - (۱۴۸). يحتج به أصحاب الصحاح الستة. و يروى عنه شعبة و جرير و السفيانان (الثورى إمام الكوفة و ابن‌عيينة إمام المدينة). بعث اليه هشام بن عبدالملك ليكتب له مناقب عثمان و مساوئ على. فأخذ القرطاس و أدخلها فى فم شاة و قال للرسول: قل له هذا جوابه. قال الرسول: لقد أقسم ان يقتلنى إن لم آت بجوابك. فكتب: «أما بعد، فلو كان لعثمان مناقب أهل الأرض ما نفعتك، ولو كان لعلى مساوئ أهل الأرض ما ضرتك. فعليك بخويصة نفسك. و السلام». - ابن‌لهيعة (۱۷۴) قاضى مصر. يقول عنه سفيان «عند ابن‌لهيعة الأصول و عندنا الفروع». - شريك بن عبدالله النخعى القاضى (۱۷۷). كان يقول «على خير البشر فمن أبى‌فقد كفر». سأله الخليفة المهدى يوما: ماذا تقول فى على بن أبى‌طالب؟ قال: ما قال فيه [صفحه ۲۰۷] جداك العباس و عبدالله. قال ما قالا؟ قال شريك: أما العباس فمات و على عنده أفضل الصحابة. و كان يرى المسلمين يسألونه عما ينزل من النوازل، و ما احتاج هو الى أحد حتى لحق بالله. و أما عبدالله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين، و كان فى حروبه سيفا منيعا و قائدا مطاعا. فلو كانت إمامته على جور كان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه و فقهه فى أحكام الله. و لم يمض وقت طويل حتى عزل شريك. [۵۸] . - خالد بن مخلد القطوانى (۲۱۳) شيخ البخارى. قال عنه أبوداود: صدوق و لكن يتشيع! - هشيم بن بشير أول أشياخ أحمد بن حنبل المحدثين (۱۶۳). [صفحه ۲۰۸] - عبدالله بن موسى العبسى (۲۶۳) من مشايخ بخارى. - معروف الكرخى (۲۰۰) زعيم الصوفية. وصف ابن‌حنبل معروفا لابنه عبدالله بن حنبل عندما سأله: هل عنده علم؟ فقال: كان عنده رأس الأمر كله؛ تقوى الله.

التلاميذ من الشيعة

صنف الحافظ أبوالعباس بن عقدة كتابا جمع فيه رجال الصادق (عليه‌السلام) ورواة حديثه و أنهاهم الى أربعة آلاف. و كتب من أجوبته أربعمائة مصنف. و إنما أمكنه من ذلك انقطاعه المخلص للتعليم عامة و تعليم السنن و الفقه و التفسير خاصة، للشيعة و لغيرهم. كان الرواة من تلامذته و من غيرهم - كما يقول اليعقوبى - يروون عنه فيقولون: قال (العالم). و كثيرا ما جلس فى مجلس الامام المخضرمون الى جوار الجيل الجديد من المتفقهة؛ و من الأولين قيس الماصر، و أبان بن تغلب، و مؤمن الطاق. و كثيرا ما درب التلاميذ بين يديه ليصنعوا على عينيه. يفد على المدينة وافد من الشام فيعدو الى المجلس و يناقشهم فى «وجوب تنصيب الإمام»

فيتجارون فى جداله حتى يسلم لهم. ثم يعلق الامام الصادق (عليه‌السلام) على طريقتهم أو قدرتهم، فيقول لحمران بن أعين «تجرى الكلام على الأثر فتصيب».ثم يلتفت لهشام بن سالم فيقول له «تريد الأثر و لا تعرفه». و يلتفت الى الأحول (الطاقى) و يقول «قياس رواغ تكسر باطلا بباطل، لكن باطلك أظهر». و يقول لقيس الماصر «تتكلم و أقرب ما تكون الى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. أنت و الأحول قفازان حاذقان»... و أخيرا يقول لهشام بن الحكم: «يا هشام: لا تكاد تقع... تلوى رجليك. إذا [صفحه ۲۰۹] هممت بالأرض طرت. مثلك يكلم الناس. فاتق الزلة...». و لقد يلاحظ المرء من ذلك تعدد طرقهم و تفاوت علمهم و نفاذ بصر الامام (عليه‌السلام) الى خصائصهم، و دوره فى تصويب و تدريب كل منهم، و هو لا يتركهم دون تشجيع؛ يشير الى زرارة بن أعين و بريد العجلى و أبى بصير المرادى و محمد بن مسلم فيقول: «لو لا هؤلاء لانقطعت آثار النبوة واندرست». و كان فى أسرة زرارة الحفاظ المدققون يتصدرهم تلميذا الامام، الحسن و الحسين ابنا زرارة. و الامام يهب الأسرة جلال الذكرى فى التاريخ فيقول: «لولا أسرة زرارة و نظرائه لا نقطعت أحاديث أبى». و هو إذ يثنى على أسرة زرارة، يشجع النظراء، و ربما لا يتركهم الامام دون تضييف: فالمستشرق رونلدسن يصور بعض مجالس الامام مع تلاميذه فيقول ما تعريبه «و من الوصف الذى نقرؤه عن إكرام جعفر الصادق ضيوفه فى بستانه الجميل فى المدينة، و استقباله الناس على اختلاف مذاهبهم، يظهر لنا أنه كانت له مدرسة شبه سقراطية. و قد ساهم تلاميذه مساهمة عظمى فى تقدم علمى الفقه و الكلام. و صار اثنان من تلامذته و هما (أبوحنيفة و مالك) فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهية. و أفتوا بالمدينة أن اليمين التى أعطيت فى بيعة المنصور لا تعتبر، ما دامت أعطيت بالإكراه. و يروى ان تلميذا آخر من تلامذته و هو «و اصل بن عطاء» رئيس المعتزلة جاء بنظريات فى الجدل مما ادى الى اخراجه من حلقة تدريس الامام جعفر، و كان (جابر بن حيان) الكيميائى الشهير من تلامذته أيضا». و اليك بعض الأسماء: «أبان بن تغلب» (۱۴۱) تلميذ زين‌العابدين و الباقر و الصادق (عليهم السلام). قال له الباقر (عليه‌السلام): «اجلس فى المسجد و أفت الناس. فأنا أحب أن يرى فى شيعتى مثلك». و قال له الصادق (عليه‌السلام): «ناظر أهل المدينة فأنا أحب أن يكون مثلك من رواتى و رجالى». كان اذا دخل على الصادق (عليه‌السلام) عانقه و أمر بوسادة تثنى له، و أقبل عليه بكله، و لما مات قال: أما و الله لقد أوجع قلبى موت ابان. [صفحه ۲۱۰] روى عن الصادق ثلاثين ألف حديث، و هو - بهذه المثابة - شاهد على التعاقب و الاستمرار و الشمول فى علم أهل‌البيت (عليهم‌السلام). يعرف الشيعة بأنهم (الذين اذا اختلف الناس أخذوا بقول على عليه‌السلام و اذا اختلف الناس عن على أخذوا بقول جعفر بن محمد عليه‌السلام) فهو القائل فى جعفر بن محمد: «ما سألته عن شىء إلا قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم». كان اذا جلس بالمسجد تقوضت اليه الحلق، و أخليت له سارية النبى (صلى الله عليه و آله و سلم). فيجيئه الناس يسألونه فيجيئهم بمختلف الأقوال. ثم يذكر قول أهل‌البيت (عليهم‌السلام) و يورد حججه. و من أجل هذا المنهج فى التدريس كان الصادق (عليه‌السلام) يوصى التلاميذ بأن يعبوا من منابعه؛ يقول لأبان بن عثمان: إيت أبان فإنه سمع عنى ثلاثين ألف حديث فاروها عنه. فهو لا يتردد فى تفضيله حتى ليجعله طبقة بينه و بين سميه فى الرواية عنه. و قد احتج بحديثه مسلم بن الحجاج فى صحيحه و أصحاب السنن الأربعة. و روى عنه سفيان بن عيينة شيخ الشافعى. و له كتب شتى منها كتاب فى الأصول. - ثابت بن دينار (۱۵۰) - أبوحمزة الثمالى - تلميذ الامام الصادق (عليه‌السلام) و السدى المفسر. يقول فيه الرضا حفيد الصادق (عليهماالسلام): أبوحمزة فى زمانه كلقمان فى زمانه. استشهد بنوه الثلاثة حمزة و نوح و منصور فى خروجهم مع زيد بن على - روى عنه الترمذى. - «مؤمن الطاق» - كما يسميه الشيعة - نسبة الى «طاق المحامل» حيث كان متجره، أو «شيطان الطاق» كما يسميه فقهاء السنة؛ هو: محمد بن على بن النعمان الأحول. و يقال ان أباحنيفة هو الذى لقبه بشيطان الطاق لمناظرة جرت بين الخوارج و بينه أمام أبى‌حنيفة. و الراجح ان خصومه سموه كذلك لعبقريته. أما الأمام الصادق (عليه‌السلام) فيناديه بعبارة بارعة يرضاه الجميع «ياطاقى» أو يقول (صاحب الطاق). كان مناظرا لا يشق له غبار. رآه تلميذ آخر يناظر، و أهل المدينة يضيقون بمناظرته حتى قطعوا آراءه، و هو لا ينكف عن الجدل. فنبهه على ان الامام ينهاهم عن الكلام. [صفحه ۲۱۱] فالتفت اليه و قال: أو أمرك أن تقول لى؟ قال لا و لكنه أمرنى أن لا أكلم أحدا. قال: اذهب فأطعه فيما أمرك. و سمع الصادق (عليه‌السلام)

بالواقعة من التلميذ، فتبسم و قال له: ان صاحب الطاق يكلم الناس فيطير. أما أنت ان قصوك لن تطير. و يروى انه ناظر زيد بن على فى إمامة الصادق (عليه‌السلام). كان أبوحنيفة يتهمه بالرجعة؛ و هو يتهم أباحنيفة بالقول بالتناسخ. تلاقيا بالسوق يوما و مع صاحب الطاق ثوب يبيعه. قال أبوحنيفة أتبيعه الى حين رجعة؟ قال: إن أعطيتنى كفيلا- أن لا- تمسخ قردا. و لما مات الامام الصادق (عليه‌السلام) قال له أبوحنيفة: مات إمامك. فأجابه: لكن إمامك لا يموت إلى يوم القيامة. [۵۹] . و له كتاب فى مناظراته لأبى‌حنيفة.

- أبان بن عثمان بن أحمر البجلى. يروى عن الصادق ثم عن الكاظم (عليهماالسلام)، و له مؤلفات شتى، و ذكره ابن‌حيان فى الثقات. و هو على رأس الستة الذين أجمع الشيعة على تصحيح ما يصح عنهم و الإقرار بالفقه لهم؛ و هم: أبان، و جميل بن دراج، و عبدالله بن مسكان، و عبدالله بن بكير، و حماد بن عيسى، و حماد بن عثمان. - هشام بن الحكم (۱۷۹) نشأ بالكوفة و دخل بغداد للتجارة و استقر بها، و لزم الامام الصادق (عليه‌السلام) ثم صار خصيصا بالإمام الكاظم (عليه‌السلام) يقول عنه ابن‌النديم: هو من جلة أصحاب جعفر. و هو من متكلمى الشيعة ممن فتقوا الكلام فى «الامامة». عمل مدة من الزمان قيما بمجالس الكلام عند يحيى بن برمك وزير الرشيد. و كان أول أمره من أصحاب جهم بن صفوان ثم انتقل الى القول بالإمامة فى شبابه. [صفحه ۲۱۲] فكان الصادق (عليه‌السلام) يدعو له: «لا تزال مؤيدا بروح القدس ما نصرتنا بلسانك». و نفذ هشام الى المعتزلة من خلال (النظام). و ظل أثره قويا فى غير المعتزلة حتى ظهر المذهب الأشعرى. و هشام هو الذى يقول: ما رأيت مثل مخالفينا عمدوا الى من ولاه الله من سمائه فعزلوه و إلى من عزله الله من سمائه فولوه (يقصد تبليغ على سورة براءة بدلا من أبى‌بكر، و قول جبريل للرسول: لا يؤديها عنك إلا أنت أو رجل منك). كان اذا قصد إفحام معارضيه لم يثبت أمامه رجل. سمعه الرشيد فى بعض مجالس يحيى بن برمك و كان يحضرها من وراء ستر فقال: «ان لسان هشام أوقع فى نفوس الناس من ألف سيف». و لما فتك الرشيد بالبرامكة طلب هشاما فاختفى. فأخذ به خلقا كثيرا ثم أطلقهم بعد ان مات هشام مستترا. و لم تكن مجالس المناظرات خالية من الخطر. يسأل هشاما سائل ذات يوم: «أما علمت أن عليا نازع العباس (جد الرشيد) - الى أبى‌بكر؟ فأيهما كان الظالم لصاحبه؟ - قال هشام فيما بعد «قلت فى نفسى إن قلت العباس بلغ ذلك الرشيد، و إن قلت عليا ناقضت نفسى» - قال هشام: لم يكن فيهما ظالم. قال السائل أفيختصم اثنان... و هما محقان!! قال هشام: نعم اختصم الملكان الى داود، و ليس فيهما ظالم. و انما أراد أن ينبهاه. كذلك اختصم هذان الى أبى‌بكر ليعلماه ظلمه». فهو ينجو من المزالق، و يكرم الرجلين، و يفضل عليا على أبى‌بكر. و من وصية الامام الصادق (عليه‌السلام) له قوله: «يا هشام من أراد الغنى بلامال، و راحة القلب من الحسد، و السلامة فى الدين، فليفزع الى الله فى مسألته ان كل له عقل. فمن عقل قنع بما يكفيه. و من قنع استغنى. و من لم يقنع لم يدرك الغنى أبدا... يا هشام كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا... العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه. إن الزرع ينبت فى السهل... من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قبله». و كان يحذره من التشبيه و التجسيم، و قد كانت تبلغه عنه زلات فى هذا الشأن. و مع [صفحه ۲۱۳] ذلك لا يكف عن تشجيعه. فيستعيده رواية ما وقع منه مع عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة. و يستحى هشام. فيقول له الامام (عليه‌السلام): «إذا أمرتكم بشىء فافعلوا». فيقول هشام: «بلغنى ما كان فيه عمرو بن عبيد و جلوسه فى مسجد البصرة، فعظم ذلك على، فخرجت اليه و دخلت البصرة يوم الجمعة و أتيت المسجد، و إذا بحلقة عظيمة فيها عمرو... و الناس يسألونه... فقعدت فى آخر القوم على ركبتى. ثم قلت: أيها العالم. انى رجل غريب. تأذن لى فى مسألة... قلت: ألك عين؟ قال نعم. فقلت: ألك أنف؟... ألك لسان؟... ألك أذن؟ قال نعم. قلت ألك قلب؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح و الحواس. قلت: أوليس فى هذه الجوارح غنى عن القلب. قال: لا- قلت: لابد من القلب و إلا لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم. فقلت: يا أبامروان. و الله تعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماما يصحح لها الصحيح و تتيقن به مما شكت فيه، و يترك هذا الخلق كلهم فى حيرتهم و شكهم و اختلافهم لا يقيم لهم إماما يردون اليه شكهم و حيرتهم، و يقيم لك إماما لجوارحك ترد اليه شككك و حيرتك؟... فسكت. ثم التفت الى و قال: أنت هشام بن الحكم»... فضحك الامام (عليه‌السلام) و قال: من علمك هذا؟ قال: شىء أخذته منك... قال: «هذا و الله مكتوب فى صحف إبراهيم و موسى». و ظاهر ان طريقته كانت طريقة الامام فى استعمال المحسوسات

و الاعتبار بها فی الإثبات و استعمال العقل بنزاهة فی الاستدلال. و سنعرض لها فیما بعد. بلغت مؤلفات هشام سبعة عشر مؤلفا؛ منها: کتاب «الامامة» و کتاب الوصیة و الرد علی من یطلبها، و کتاب الحکمین. - «جابر بن حیان» - أول من استحق فی التاریخ لقب کیمیائی، کما تسمیه أوربا المعاصرة. و هو الذی یشیر إلیه الرازی (۳۲۰ - ۲۴۰) - جالینوس العرب - فیقول «استأذنا أبوموسی جابر بن حیان». و المؤرخون - إلا بعضا من غیر المسلمین - متفقون [صفحه ۲۱۴] علی تلمذته للإمام، و علی صلته أو تأثره به فی العلم و العقیدة... و أکثرهم علی انه صار بعد موت الامام من الشیعة الإسماعیلیة. یقول فی کتابه الحاصل: «لیس فی العالم شیء إلا و فیه من جمیع الأشیاء. و الله لقد و بخنی سیدی (یقصد الامام الصادق علیه‌السلام) علی عملی، فقال: یا جابر لولا أنی أعلم أن هذا العلم لا یأخذه عنک إلا من یستأهله و أعلم علما یقینا أنه مثلک، لأمرتک بإبطال هذه الکتب من العلم». و کانت کتب ریاضة و کیمیاء تسبق العصور بجدتها... قیل انه أخذ علمه عن خالد بن یزید ثم أخذ عن الامام جعفر (علیه‌السلام). و هو یشیر الی الامام دائما بقوله «سیدی»، و یحلف به، و یعتبره مصدر الإلهام له. یقول فی مقدمة کتابه (الأحجار): «و حق سیدی لولا أن هذه الکتب باسم سیدی - صلوات الله علیه - لما وصلت الی حرف من ذلک الی الأبد». ذکر له المستشرق کراوس ناشر کتبه فی العصر الحدیث أربعین مؤلفا، و أضاف ابن‌الندیم فی القرن الرابع للهجرة عشرین کتابا أخری. و ینقل ابن‌الندیم قوله: «ألفت ثلثمائة کتاب فی الفلسفة و ألفا و ثلثمائة رسالة فی صنائع مجموعة، و آلات الحرب، ثم ألفت فی الطب کتابا عظیما ثم ألفت کتبا صغارا و کبارا، و ألفت فی الطب نحو خمسمائة کتاب. ثم ألفت فی المنطق علی رأی ارسطو طالیس. ثم ألفت کتاب الزیج أیضا نحو ثلثمائة ورقة. ثم ألفت کتابا فی الزهد و المواعظ. و ألفت کتبا فی العزایم کثیرة حسنة، و ألفت فی الأشیاء التی یعمل بخواصها کتبا کثیرة. ثم ألفت بعد ذلک نحو خمسمائة کتاب نقضا علی الفلاسفة. ثم ألفت کتابا فی الصنعة یعرف بکتب الملک. و کتابا یعرف بالریاض». و تلامیذ الصادق المشهورون، فیما عدا من سلف ذکرهم، من کبار أهل السنة أشیاخ للفقهاء فی جمیع المذاهب منهم: سفیان بن عیینة؛ و سعید بن سالم القداح؛ و ابراهیم بن محمد بن أبی‌یحیی؛ و عبدالعزیز الدراوردی. و قد روی الشافعی عن کل هؤلاء. و جریر بن عبدالحمید؛ و ابراهیم بن طهمان؛ و عاصم بن عمر... بن عمر بن الخطاب؛ [صفحه ۲۱۵] و أبوعاصم النبیل (۲۱۲) شیخ أحمد بن حنبل؛ و أبوعاصم آخر تلامیذ الامام الصادق وفاة، و قد روی عنه کتابا؛ و الکسائی عالم اللغة؛ و عبدالعزیز بن عبدالله الماجشون زمیل مالک فی الفتیا فی موسم الحج؛ و عبدالعزیز بن عمران... بن عبدالرحمن بن عوف؛ و ابن‌جریح امام مکة؛ و الفضیل بن عیاض؛ و القاسم بن معن؛ و حفص بن غیاث - و الثلاثة أصحاب أبی‌حنیفة؛ و منصور بن المعتمر؛ و مسلم بن خالد الزنجی شیخ الشافعی بمکة؛ و یحیی بن سعید القطان. و إنما أحدثت السیاسة الخلافات بین فقهاء السنة و الشیعة فانتجت وجوها لخلافات فقهیة و حدیثیة. فوجدنا للشیعة رواة لیسوا من رواة الکتب التی یتداولها أهل السنة و منها الصحاح الستة المشهورة. فالشیعة لا یقبلون أحادیث من حاربوا علیا (علیه‌السلام) أو أخطأوا فی حقه. و من الناحیة الأخری وجدنا فی بعض کتب الحدیث لأهل السنة، أوصافا للرواة من الشیعة، تتضح منها جذور هذه الخلافات. و الیک بعض أمثال: - کان الشعبی - شیخ المحدثین بالکوفة علی رأس المائة الأولی - یکذب الحارث الهمدانی، صاحب علی (علیه‌السلام)، فیسلط الله علی الشعبی ثقات أثباتا من الرواة یستخفون به. - و أبان بن تغلب خریج مدرسة السجاد و الباقر و الصادق (علیهم‌السلام). یقول فیه الحافظ السعدی: زائغ مجاهر. و یقول فیه الجوزجانی: زائغ مذموم المذهب. و یقول عنه الحافظ الذهبی فی میزان الاعتدال: «شیعی جلد. و لکنه صدوق. فلنأخذ صدقه و علیه بدعته». - و علی هذا النحو تجد خالد بن مخلد القطوانی (۲۱۳)، و هو من مشایخ البخاری، یقول عنه ابن‌سعد، إنه کان مفرطا فی التشیع. و یقول عنه ابوداود: صدوق لکنه یتشیع. [صفحه ۲۱۶] - و تجد تلید بن سلیمان. یقول فیه أبوداود - تلمیذ أحمد - رافضی یشتم أبابکر و عمر. فلنا «صدقه» و علیه «بدعته». لکن ابن‌حنبل یأخذ عنه. و حسب الرجل شهادة ابن‌حنبل. - و جعفر بن سلیمان یقول فیه ابن‌عدی: «أرجو أنه لا بأس به»، فی حین أن أحمد بن حنبل عندما یقال له ان سلیمان بن حرب یقول لا تکتبوا حدیث جعفر بن سلیمان، یرد أحمد: «لم یکن ینهی عنه انما کان جعفر یتشیع» فیبین سبب ظلم سلیمان له. - و لقد تجد الراویة یقول بالرجعة، فیضعه یحیی من معین، استاذ الجرح و التعدیل و زمیل

أحمد بن حنبل، لكنك تجد عبدالرزاق بن همام يقول بالرجعة و مع ذلك يروى عنه الأعمش و سفيان و شعبة و ابن‌حنبل و يحيى نفسه و سفيان بن عيينة شيخ المحدثين بمكة و استاذ الشافعى. و أحمد ابن‌حنبل صاحب المسند العظيم. - أو تجد زبيد بن الحارث، يقول فيه الجوزجانى: «كان ممن لا يحمد الناس مذاهبهم». و يضيف: «احتملهم الناس لصدق ألسنتهم فى الحديث» لذلك يحتج به أصحاب الصحاح و أرباب السنن، و كمثلهم الشعبى و إبراهيم بن يزيد النخعى. و الحافظ بن حجر فى تهذيب التهذيب يقول فى الجوزجانى: «و أما الجوزجانى فلا عبرة بحطه على الكوفيين فالتشيع فى عرف الأقدمين هو: أن عليا كان مصيبا فى حروبه و ان مخالفه مخطئ، مع عدم تقديم الشيخين. و ربما اعتقد بعضهم أن عليا أفضل الخلق بعد رسول الله. و إذا كان معتقد ذلك ورعا دينا، صادقا، مجتهدا، فلا ترد روايته». و هذا هو الذى جعل روايات الرواة الذين ذكرناهم، و أمثالهم، تتردد فى كتب الصحاح و السنن. هكذا كان انقسام الأمة نقمة على العلم. و كان الوقوف على أبواب السلاطين نقمة أخرى. و الوسائل طيعة، من ترهيب و ترغيب و بث للعيون و الارصاد، و بخاصة على [صفحه ۲۱۷] الشيعة، مما أورث هؤلاء العمل بالتقية. و التقية أو الحذر يوجبان الانطواء أو التباعد. و فى عصر الخلافة العباسية كان «مذهب السلطان» مذهب أبى‌حنيفة فى المشرق ، و مذهب مالك بإفريقية فى المغرب، فى حين كانت المعتزلة تتزعم التجديد و تلتصق بالخلفاء. و كان - الشافعية - كإمامهم - أساتيذ جدل، و كمثلهم كان أهل الظاهر أتباع داود، و قد بدأ شافعيا. و أما المحدثون فقد كانوا يمثلون السلف و الدفاع عن السنة. و كانت خلافات المتفقهة سمة العصر، و مثلهم المالكية. و فى القرن الرابع الهجرى جاب المقدسى (۳۸۰) العالم الاسلامى، فذكر أن أهل الأندلس كانوا إذا وقعوا على معتزلى أو شيعى قتلوه، ثم وصف تناحر الوسط العلمى فى عصره بعبارات حادة، قال: «قلما رأيت فى بغداد من فقهاء أبى‌حنيفة إلا رأيت أربعا: الرياسة، مع لباقة فيها، و الحفظ، و الخشية، و الورع. و فى أصحاب مالك أربعا: النقل و البلادة و الديانة و السنة. و فى أصحاب الشافعى: النظر و الشغب و المروءة و الحمق - و فى أصحاب داود: الكبر و الحدة و الكلام و اليسار. و فى الشيعة: البغضة، و الفتنة، و اليسار، و الصيت». أما الصفتان الأوليان اللتان يصف بهما الشيعة فمردهما الى التمسك بمقدساتهم و علومهم فى مواجهة المتعصبين الذين لا يكفون عن التناوش معهم من قريب أو بعيد. و اما الصيت، فأى صيت فى الأمة أبعد من صيت أهل‌البيت (عليهم‌السلام) أو محبيهم! و أما اليسار فمرده الى فتوح الله عليهم، بالعلم الذى طالما علمهم الامام جعفر الصادق (عليه‌السلام)، فى «منهج كامل فى الاقتصاد»، سنعرض له فيما بعد. [صفحه ۲۱۹]

الدرس الكبير

اشاره

لكن نبى وصى و وارث. و إن وصيى و وارثى على بن أبى‌طالب (حديث شريف) [صفحه ۲۲۱] أحدث انقسام الأمة بفعل بنى‌أمية أثره فى الفقه. و ليس كلام بعض المسلمين فى أفراد الصحابة إلا أثر من آثار هذا الانقسام. و من الطبيعى ألا تمتنع الألسنة عما لم تمتنع عنه الأسلحة، و أن تستمر معارك الكلام و إن توقفت رحى الحرب. شق أهل الشام عصا الطاعة لأميرالمؤمنين منذ استخلف. و انتهت يوم «وقعة الجمل» فتنة عمياء. فيومئذ قال محمد بن الحنفية و هو يحمل الراية: هذه و الله الفتنة الكاملة العمياء. و ناداه أميرالمؤمنين (عليه‌السلام): «هل عندك فى جيش مقدمه أبوك، شىء!». و نفر البطل للقاء أهل الشام فى صفين... و رفع جيش معاوية المصاحف. ثم كانت خدعة التحكيم و تمرد الخوارج و هزيمتهم. لكنهم ظلوا يمثلون التعصب العميق لفكر لم يتمرس بالسياسة و تبعات القيادة و حقن الدماء. فلاموا عليا (عليه‌السلام) لقبوله التحكيم مع معاوية. [۶۰] و عندئذ لم يوالوا عليا و لا - من والاه - لكن الدولة لم تؤل اليهم، و لهذا قل أثرهم فى الاتجاه العام للأمة. و انما الذى أحدث أثره العظيم فى الأمة خلاف معاوية، إذ ولى الحكم و ألزم ولاته بالطعن فى على، و التنكيل بمن والاه. و نظرت العامة الى مصلحتها العاجلة فى توقى الشرور من السلطة. و نظر المتفقهون

– و معهم جمهور الأمة – بفقه طابعه [صفحه ۲۲۲] الشمول، أنزل الخلفاء الراشدين الأربعة منازلهم. و سبحت ثلة منهم بزوارق السلطة خوفا أو طمعا. و رأى البعض إرجاء إبداء الآراء. و بطش بنوأمية جبارين. فتضاءل عدد الشيعة أو توارى بعضهم تقية، كما قل اتصال أهل‌البيت (عليهم‌السلام) بالعامة و فقهاء الجمهور. و استمسك الشيعة بفقههم و روايات الأحاديث من أئمتهم أو عن أئمتهم. و لما قتل معاوية حجر بن عدى، لغضب الصحابى الجليل من القدح فى أهل‌البيت (عليهم‌السلام)، كان معاوية يقتل استقلال الآراء عن السلطة. ثم كانت المذبحة الكبرى بأهل البيت فى كربلاء سنة (۶۱) متابعة من يزيد لأبيه فى حماية «العرش» الأموى بغير حساب. ثم صفت وقعة الحرة (۶۳) جيل الصحابة من المهاجرين و الأنصار. و فصلت حروب المختار بين عبيدة بين أشياع السلطة و بين على من جديد. و لم تكن حرب ابن‌الزبير مع أهل الكوفة، و لا- حربهم لبنى مروان، إلا- أسبابا جديدة لانكماش الشيعة. و الحجاج – والى عبدالملك بن مروان – مصلت سيفه. و كمثله الولاة بعده. فى أخريات العهد كان زين‌العابدين (عليه‌السلام) قد ملأ الأفق بورعه و علمه و سخائه، و بعده بزغ نجم الباقر (عليه‌السلام) فى سماء المدينة، و أعقبه الصادق (عليه‌السلام)، ليبدأ إمامة مهد لها أبوه. و مكن لهم أن ينشروا العلم، الانصراف عن السياسة أو المطالبة بالحكم، فأشرق الفجر الجديد. لكن ثورة زيد بن على، ثم هجوم الخوارج على المدينة، ثم هزيمتهم، ثم هزيمة بنى‌مروان أمام العباسيين، ثم مطاردة العباسيين لأبناء على (عليه‌السلام)، و قد تضاءلت بالنسبة لها مذابح الأمويين، كل أولئك زاد من القطيعة بين أصحاب السلطة و بين أهل‌البيت، و الانطواء من الشيعة على أنفسهم، و الانفصال بين معظم الرواة من أهل السنة و بينهم: فرأينا عامر بن شرحبيل الشعبى (۱۰۴) شيخ المحدثين فى العراق و قاضى بنى‌مروان يقول: «ماذا لقينا من آل على إذا أحببناهم قتلنا و إن عاديناهم دخلنا النار». [صفحه ۲۲۳] و من كثرة ما عمل للخفاء، صار دربا على معاملة الأمراء: سأله الحجاج كم عطاءك؟ قال: ألفين. فاستدرك الحجاج و قال: ويحك كم عطاؤك؟ قال: ألفان. قال: لم لحنت؟ قال: لما لحن الأمير لحنت، و لما أعرب أعربت... و سمعنا الحسن البصرى (۱۱۰) الجسور، إذ يروى عن على (عليه‌السلام)، يقول: «قال أبوزينب» – و لما سأله ابن‌عياش «ما هذا الذى يقال عنك إنك قلته فى على؟» أجاب: «يابن أخى... احقن دمى من هؤلاء الجبابرة، لولا ذلك لسالت بى أعشب». و لما تقطعت بين الشيعة و غيرهم الأسباب، اضمحلت، أو قلت، المشاركة العلمية. و صار هنالك عالمان فقهيان متقاطعان. و لم يكن غريبا فى هذه القطيعة أن تقل رواية أهل السنة عن أهل‌البيت، أو أن نرى مالك بن أنس – فى المدينة ذاتها – يسأل عن سبب ندرة الرواية منه عن على و ابن‌عباس فيجيب: لم يكونا ببلدى (يقصد أن عليا كان بالكوفة و ابن‌عباس بمكة)، أو نراه يقتصر – فيما يرويه عن الإمام الصادق – على أحاديث قليلة جدا فى الموطأ، و فيه نحو من ألف حديث. [۶۱] . [صفحه ۲۲۴] و لما قال البخارى بعد أكثر من مائة عام من قيام الدولة العباسية – عن صحيحه «ما وضعت فيه إلا الصحيح. و ما تركت من الصحاح أكثر»، كان فى هذا القول دلالة على الاحتياط العلمى، و على أن أحاديث صحاحا قد أغفلت، و أنها أكثر مما تضمنه كتابه من الصحيح. و لعله بهذا يقصد، فيما يقصد ، أحاديث على و أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فيما تركه من صحاح. فهو لم يرو أحاديث أهل‌البيت، فى حين احتج بها الجميع [۶۲] وورد الكثير منها فى سائر الصحاح [۶۳] و المسانيد. [صفحه ۲۲۵] و مع أن الحرب الكلامية و الافتراءات الموجهة للرواة كانت ضروسا فقد وثق الأئمة الفقهاء و المحدثون – أعظم التوثيق – الإمام جعفر الصادق (عليه‌السلام)، و شرفوا بالرواية عنه، و وقفت المذاهب الأربعة موقف الإجلال له. فكان ذلك إعلانا من أهل العلم أن أئمة أهل‌البيت (عليهم‌السلام) للجميع لا للشيعة وحدهم، و أن الحديث متى ثبت عنهم هو حديث جدهم (صلى الله عليه و آله و سلم). كان يوسف بن أبى‌يوسف يروى عن أبيه عن أبى‌حنيفة عن «جعفر بن محمد عليهماالسلام» عن سعيد بن جبير عن ابن‌عمر حديث رسول الله؛ و فى الوقت ذاته يروى عن أبيه عن أبيه حنيفة عن اسحاق بن ثابت عن أبيه عن على بن الحسين حديث رسول الله (عليهم‌السلام)، مع أن على بن الحسين (زين‌العابدين عليه‌السلام) لم ير جده – و اللقاء من شروط البخارى. و يروى يوسف عن أبيه عن أبى‌حنيفة عن «جعفر بن محمد» حديث رسول الله – مع أن الصادق حفيد زين‌العابدين – فهذا أبوحنيفة و من روى عنهم – كمثل مالك و غيره – يروون عن أئمة أهل البيت، و يأخذون بحديثهم عن رسول الله، مع أنهم لم يلقوه أو لم يكن بينهم و بين الرسول صحابى. و الكتب التى يقوم عليها الفقه

الشيعى تروى كلها عن الامام جعفر الصادق أو الأئمة المعصومين (عليهم‌السلام)... يستوى فى ذلك الكتب الأربعة الشهيرة و غيرها. و فى ضوء ذلك نستطيع أن نفهم انقسام العلم بانقسام مصادره، و انحسار هذا البحر من بحاره عن الجمهور، باقتصاره على الشيعة... و لا جرم كانت فيه كفاية لإنتاج هذا التراث، بما فيه عن غزارة، و باعتماده على النقل و العقل معا، و بإقبال الشيعة - شأن الأقليات جميعها - على تعميق علومها، و تقوية شعوبها. و ساعدهم انفتاح الفكر و اجتهاد الرأى فى تطهير و سطهم العلمى و الاجتماعى ممن ينتسبون، أو ينسبهم [صفحه ۲۲۶] الخصوم اليهم، من الغلاة فى على بن أبى‌طالب (عليه‌السلام)، [۶۴] ثم تمييز علمهم من علم المخالفين الذين يتولون غير الامام جعفر و غير أبيه كالزيدية. [۶۵] . [صفحه ۲۲۷] أو من علم الذين يتولون غيره و غير أبيه وجده كالكيسانية. [۶۶] . يقول الشيخ المفيد فى غلاة الشيعة: «و هم نسبوا أميرالمؤمنين و الأئمة من ذريته (عليهم‌السلام) إلى الألوهية و النبوة، و وصفوهم فى الدين و الدنيا بما تجاوزوا فيه الحد و خرجوا عن القصد. فهم ضلال و كفار». و الإمامية لا يجيزون القدح فى الصحابة. فإذا وجد قادحون منهم فآراؤهم فردية، فى أفراد من الصحابة... يبديها المتطرفون، و أشباههم موجودون فى أهل السنة، ممن قدحوا بطل الإسلام «على»، و ريحانتى النبى «الحسن» و «الحسين». و القدح «معصية» لا تخرج من الإسلام. و لا يعتبر معصية اجتهاد «مجتهد» تأول فأخطأ. و قد نظر علماء السنة هذا النظر الأخير الى خلافات المعتركين من الصحابة فى الجمل و صفين، فاعتبروها اجتهادات فيها الخطأ و الصواب. و الإمام على معلم أول للأصول و الفقه و أدب الدنيا و الدين، يقول عن الخوارج الذين كفروه! و طلبوا إليه التوبة!: «إخواننا بغوا علينا». [۶۷] . [صفحه ۲۲۸] و الإمامية يقولون إن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أوصى الى اثنى عشر إماما بأسمائهم؛ كل منهم يبين خلفه باسمه، إذ يكشفه الله له... أولهم على الذى أوصى للحسن. و أوصى الحسن للحسين. و تتابعت لزين‌العابدين و منه للباقر الذى أوصى للصادق. و تتابعت الوصية من الصادق الى ابنه موسى الكاظم (۱۸۳) فابن الكاظم على الرضا (۲۰۳) فابن الرضا محمد الجواد (۲۲۰) فابن الجواد على الهادى (۲۵۴) فابن الهادى الحسن العسكرى (۲۶۰) فابن العسكرى محمد المهدى المولود بسامراء سنة (۲۵۶)، و المختفى بعد عام ۲۶۰ و المنتظر ظهوره ليملأ الدنيا عدلا.

السنة

يروى الحارث الاعور: قلت يا أميرالمؤمنين إذا كنا عندك سمعنا منك ما يشد ديننا، و إذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة و لا ندرى ما هى؟ قال: أو فعلتموها؟... سمعت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول «أتانى جبريل فقال: يا محمد ستكون فى أمتك فتن. قلت فما المخرج منها؟ فقال كتاب الله». و اذا كان فى الكتاب حل لكل مشكلة، فالسنن موضحة و منفذة لأحكامه. و السنن إذ تروى عن جعفر بن محمد الصادق أو عنه عن آبائه أو تروى عن الأئمة عامة لا يوجد فيها صحابى يختلف الشيعة معه. و على أساس هذه الأحاديث قام فقه الشيعة الإمامية، مرويا عن الامام، فلا يناقشونه، فكلامه نصوص، أى هو سنة، فى غنى عن الإسناد، تغنى عنى الاجتهاد. و فى كتبهم - كما قيل - ما يكفى الأمة حتى أرش الخدش. [صفحه ۲۲۹] و قد دون علم الأئمة و فقههم فى كتبهم؛ و منه علم لدنى عن الإمام المعصوم، و منه تفسيرهم للقرآن. [۶۸] و الأئمة - عندهم - قد اختصوا بعلم ما لم ينص عليه و ما لم يعلنه النبى (صلى الله عليه و آله و سلم). و السنة أساسها القرآن. يقول الإمام الصادق: «إذا رويت لكم حديثا فسلونى أين أصله من القرآن». روى يوما نهى النبى «عن القيل و القال و فساد المال و كثرة السؤال» فقيل له: أين هذا من كتاب الله؟ فأجاب: إن الله تعالى يقول: «لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس» و قال تعالى: «و لا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما» و قال تعالى: «لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم». فهذه أصول قرآنية ثلاثة لحديث واحد فى السلوك. و هو عليه الصلاة و السلام لا ينطق عن الهوى. و إذا لم يكشف الإجماع عن رأى الامام، فباب الاجتهاد مفتوح لطلب الحكم الشرعى فيما ليس فيه نص، و العقل - مع الضوابط التى يضعونها من قواعد و أصول - قدير على أن يبلغ المجتهد طلبه. روى هشام بن سالم قول الصادق «إنما علينا أن نلقى إليكم الأصول و عليكم أن تفرعوا» - و فى نهج‌البلاغة جملة من الأصول التى نبه عليها أميرالمؤمنين على

(علیه‌السلام)، و تکلم فیها الأئمة الباقر و الصادق و الرضا؛ کالکلام عن الناسخ و المنسوخ، و العام و الخاص، و النوافل و الفرائض، و الرخصة و العزیمة، و المطلق و المقید، و المحکم و المتشابه، والواجب و غیر ذلک. و مما ردده الأئمة الثلاثة قواعد الجمع بین الحدیثین المتعارضین، و الترجیح بینهما، و التخییر، و أحکام النسخ، [صفحه ۲۳۰] و لزوم رد المتشابه إلی المحکم، و جواز الأخذ بخبر الواحد، و العمل بالظاهر، و منع القیاس أو تفسیر القرآن بالرأی، و العمل بالاستصحاب، و أصالة الحل و الإباحة، و الطهارة و البراءة و الصحة، و قواعد الفراغ والید و القرعة. و کلام الامام الصادق فی هذه الأبواب کثیر. و لهشام بن الحکم کتاب فی مباحث الألفاظ، و فی الأصول. و کذلک لیونس بن عبدالرحمن کتاب فی الاصول. و السنة المتواترة هی التی یتکاثر رواتها و یتفرقون الی حد لا یمکن معه اتفاقهم علی الکذب. و بهذا یتحصل علم قاطع بأنهم لم یجمعهم جامع علی الکذب. و التواتر عن الرسول کالتواتر عن الإمام المعصوم. و الإمام الصادق یقول: «حدیثی حدیث أبی، و حدیث أبی‌حدیث جدی، و حدیث جدی حدیث الحسین، و حدیث الحسین حدیث الحسن، و حدیث الحسن حدیث أمیرالمؤمنین، و حدیث أمیرالمؤمنین حدیث رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم)، و حدیث رسول الله قوله تعالی». و التعبیر بأن حدیث الرسول هو قوله تعالی یعدل القول بأن السنة هی الحکمة التی ذکر القرآن ان الرسول یعلمها للمسلمین. و خبر الواحد مقبول لدی جمهور الفقهاء عندهم. و حجتهم فی ذلک - علی الجملة - کحجج أهل‌البیت. [۶۹] . و الصادق لا یری بأسا فی روایة الحدیث بالمعنی. سأله تلمیذه: أسمع منک الحدیث فأزید و أنقص؟ فأجاب: «أن ترید معانیه فلا بأس». و لا یضیقون صدرا بالإرسال من الثقات، بغیر معارض، فلقد تقرأ «صحیح فلان [صفحه ۲۳۱] عن بعض أصحابنا عن الصادق علیه‌السلام». [۷۰] . و یمکن القول إجمالا إن الحدیث عندهم صحیح و حسن و موثق و ضعیف. فالحدیث الصحیح هو الذی ینقله العدل الضابط عن مثله فی جمیع الطبقات حتی الإمام المعصوم. و الحدیث الحسن هو المتصل السند بالإمام المعصوم. فان انقطع السند لم یعد حسنا. و یشترط أن یکون الراوی ممدوحا من غیر معارضة ذم و إن لم تثبت العدالة. فلو ثبتت لکان صحیحا. و الحدیث الموثق هو ما دخل فی طریقه غیر إمامی إذا کان الأصحاب الإمامیة یوثقونه. و هنا لا یشترط الاتصال بالإمام المعصوم. و هناک من یشترط أن یتوسط غیر الإمامی إمامیین. و هناک من یرفضه. و الحدیث الضعیف غیر هذه الأقسام الثلاثة: و ما لا یبلغ حد التواتر یسمی خبر الواحد. فوصف الواحد یراد به عدم التواتر، و قد یکون عن متعددین. فالخبر المستفیض و المشهور نوع من خبر الواحد؛ المستفیض ماورواه أکثر من اثنین، و المشهور ما اشتهر علی الألسن و فی الکتب، و إن کان روایة واحد. [۷۱] . [صفحه ۲۳۲] أما الشهادة فیقول فیها الإمام الصادق: «لو لم تقبل شهادة المقترفین للذنوب لما قبلت إلا شهادة الأنبیاء و الاوصیاء، فمن لم تره بعینیک یرتکب ذنبا و لم یشهد علیه بذلک شاهدان فهو من أهل العدالة و الستر. و شهادته مقبولة و إن کان فی نفسه مذنبا». و إذا کان فی بعض المذاهب من لا یقبل شهادة أصحاب الصنائع التی یسمونها (دنیئة)، فالإمامیة یرون قبول شهادتهم، و الله یقول: «إن اکرمکم عند الله اتقاکم» فلیس فی الصناعات شریف و مشروف، و إنما الصناع فیهم من هؤلاء و هؤلاء. و الشیعة - مع هذا - ضائق صدرهم بالطفیلیین و المستجدین، فهؤلاء متساهلون فی عزة النفس التی أمر الله بها المسلمین. و الصادق یقول: «إن الاجماع لا ریب فیه». و هو عند الإمامیة «اتفاق جماعة یکشف اتفاقهم عن رأی المعصوم» فلا یخلو عصر من وجود الإمام ظاهرا أو خافیا. و إذا کان اتفاق جماعة من الإمامیة فیخرج غیرهم. و من أجل ذلک عرفت آراء الصادق من خلال اتفاق تلامیذه. و لیست الحجة للإجماع، بل هی لرأی الإمام المعصوم الذی یکشف عنه الإجماع. و الإجماع یثبت بالتواتر و المشاهدة و بخبر الواحد. و لیس اجتماع الرجال شرطا عندهم. و الإجماع من عصر أو عصرین لا یجعل الحکم ضرورة دینیة أو مذهبیة، بل [صفحه ۲۳۳] یکون اجتهادیا یقبل الجدال. أما إجماع الأمة فی کل عصر و مصر، من عهد الرسول الی الآن، فیجعل الحکم من ضرورات الدین. و الاجماع من الصحابة یدخل فیه علی بن أبی‌طالب (علیه‌السلام)، فهو الإمام المعصوم. و العقل یکشف عن نظر الإمام ان لم یوجد نص أو إجماع. فالاجتهاد [۷۲] مفتوح أبدا فی الظنیات التی لیس فیها دلیل من الشرع یفید الیقین، و لیس للعقل فیها حکم واجب حتم، کخلاف الصحابة فی العول فی المواریث وعدة الحامل المتوفی عنها زوجها، و کالمعاملات. أما القطعیات فلا اجتهاد فیها کالعقائد الواجبة، و ما ثبت من الاحکام

العملية بالتواتر؛ و العقائد كاتصاف الله بالكمال و إرسال الرسل، و انزال الكتب، و البعث و الحساب؛ و الأحكام العملية كالصلاة و الصوم و الحج. و ليس من وسائل اجتهاد الشيعة القياس. فالإمام الصادق (عليه‌السلام) يقول: «إن السنة إذا قيست محق الدين». و لما قيل: له أرأيت ان كان كذا و كذا ما يكون القول فيها؟ قال: «ما أجبتك فيه من شيء فهو عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. لسنا من أرأيت فى شيء» لكن وسائل استعمال العقل مباحة للمجتهد. و الامام الصادق (عليه‌السلام) يقول: «مامن أمر يختلف فيه اثنان إلا و له أصل فى كتاب الله و لكن لا تبلغه عقول الرجال». و آيات الأحكام قليلة، و كمثلها قلة؛ أحاديث أصول الأحكام، [۷۳] فوجب الاجتهاد. [صفحه ۲۳۴] و نحن مأمورون بتوظيف العقل، و أحكام السماء تظهر للعقول بالتدريج. كان أصحاب النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) يجتهدون فى وجوده، و ازدادت حاجتهم للاجتهاد بعد وفاته، و الدنيا أطوار تحتاج للفقه الذى يطبق عليها حكم الشريعة لتبقى الحياة محكومة بالدين، و تتطور فى حدود مقاصد الشارع. و حكم الله فى كل مسألة معين، نصب الله دليلا عليه، فمن المجتهدين من يصل اليه و يصيبه، و منهم من لا يصل اليه و يظن غيره... فهو مخطئ معذور... مغفور له خطؤه مادام قد بذل جهده دون هوى. و للمصيب أجران لصوابه و اجتهاده، و للمخطئ أجر واحد على اجتهاده. فذلك حكمه صلى الله عليه و آله و سلم، و من أجله كانت السماحة التى اتصف بها الصحابة إذ يختلفون. و المنصفون من كل المذاهب يعلنون ان فى المذاهب الفقهية المعتبرة خطأ و صوابا. و ليس منها مذهب واحد كله خطأ أو كله صواب. لذلك كان التعصب المطلق آفة الفقهاء. لقد كثرت مخالفات على لعمر، و نزول عمر عند رأى على (عليه‌السلام). و على هو القائل بأنه ترك لعمر تنفيذ رأيه (فى بيع أمهات الأولاد) فى حياة عمر، و لما آل اليه الأمر أنفذ رأيه. فعلمنا أمورا؛ منها: ۱ - ان المذهب الشيعى و هو يدور حول آراء على (عليه‌السلام)، إنما هو مذهب حيى فى حياة الخلفاء الراشدين أنفسهم. فلما آل اليه الأمر و أتيحت له الفرصة التى أتيحت لغيره لتطبيق اجتهاداته أنفذها - و لكن المكان و الزمان ضاقا عليه لانشغاله فى الحروب و الفتن، و انحصار سلطانه على الأرض، و اغتياله على أيدى الخوارج. ۲ - حق الخليفة فى إنفاذ رأيه. و من هنا أنفذ عمر رأيه فى أمور شتى كما أنفذ أبو [صفحه ۲۳۵] بكر رأيه من قبل. و الرأى اجتهاد. ۳ - مشروعية الخلاف. و هو درس تعلمه الصحابة من رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)، مطلوب من الجميع أن يتعلموه، و أن يعلموا الناس أنه وسيلة التقدم. روى النسائى ان رجلا أجنب فلم يصل. فذكر ذلك للنبى (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: أصبت. و أجنب رجل فتيمم وصلى، فذكر ذلك للنبى (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: أصبت. و روى البخارى عن عمران بن حصين أنه قال للرجل الذى اعتزل فلم يصل فى القوم «فما يمنعك أن تصلى» فقال: أصابتنى جنابة و لا ماء. قال: «عليك بالصعيد. فإنه يكفيك». و الآثار فى الخلاف بين الصحابة كثيرة جدا. [۷۴] . و الخلاف بين المجتهدين أجل من أن يحصر، و فيه ثراء للفكر، وسعة فى الدنيا، و رحمة بالأمة. كان أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الفصد و الحجامة و الرعاف. فقيل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم و لم يتوضأ هل تصلى خلفه؟ فقال: كيف لا أصلى خلف «مالك» و «سعيد بن المسيب»؟ و كان مالك يفتى الرشيد أنه لا وضوء عليه إذا هو احتجم. فصلى يوما بعد الحجامة و صلى خلفه «أبويوسف» صاحب «أبى‌حنيفة» (و هو يرى الوضوء من الحجامة). و اغتسل أبويوسف فى الحمام، و أخبر بعد صلاة الجمعة أنه كان فى بئر الحمام فأرة ميتة فلم يعد صلاته و قال: «نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة: إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا». فهؤلاء أئمة المذاهب لا يتسامحون فى خلافاتهم فحسب، بل يتجاوزون [صفحه ۲۳۶] الخلاف العلمى الى التطبيق العملى. من أجل ذلك يقول أحمد لتلميذه إسحاق بن بهلول إذ ألف كتابا يريد أن يسميه «كتاب الاختلاف»: «سمه كتاب السعة». و يقول عمر بن عبدالعزيز «ما سرنى باختلافهم حمر النعم».

الامامة

اشارة

الإسلام دين و دولة. فالدولة تكفل لمبادئ الإسلام التطبيق، و الانتشار، و انتفاع الجماعة و الأفراد به. و بالدين عزة الفرد و الجماعة، و رسوخ أركان الدولة. و الدين للدولة روح للجسد. و هو للفرد دم نقى يجرى فى عروقه أو هواء صحى يتنفسه. و لا حياة إلا بالدم و التنفس. و كان من آيات الإعجاز الإسلامى أن يبلغ المسلمون الذروة أفرادا أو دولا- أو مجتمعات فى عصر، أو فى أشهر، بل فى ساعات، بمجرد إخلاصهم فى التمسك بالإسلام. لقد بلغوا ما يدعو اليه السلام فى «خلافة» أبى‌بكر و عمر، و السنين الستة الأولى من «خلافة» عثمان، و فى أقل من ثلاثين شهرا فى «خلافة» عمر بن عبدالعزيز. و الخلافة الراشدة قيادة مسددة. و لقد بلغ المحاربون مبالغهم، فى يوم واحد، هو العاشر من رمضان سنة ۱۳۹۳، إذ كانوا يقتحمون حصون اسرائيل و هم يهتفون: الله أكبر: الله أكبر. و الإمامة - أو الخلافة - قد تكون خلافة عن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) فى تبليغ الأمور الدينية أو فى الولاية السياسية أو فيهما جمعيا . و هى عند الشيعة دينية و سياسية محصورة فى أهل‌البيت (عليهم‌السلام). لكنها عند جمهور أهل السنة تجوز لأى قرشى عادل، يختاره المسلمون بشورى صحيحة، و بيعة عامة. و لا تبقى الخلافة إلا ما بقى الخليفة قائما بالعدل، فإذا انحرف لم تبق خلافة نبوية بل استحالت سلطة زمنية . و الشافعية و المالكية و الحنابلة يرون القرشى العادل إذا تغلب، فبايعه المسلمون بيعة صحيحة راضين مرضيين، تكون البيعة له صحيحة، و ان تأخرت عن الولاية التى [صفحه ۲۳۷] نالها بالغلبة. أما الحنفية فيشترطون سبق البيعة ضمانا للحرية و كفالة للمشورة. و الشيعة الامامية يرون الإمامة ثابتة لاثنى عشر إماما بذواتهم لا بالبيعة لهم، و لكن بالوصية اليهم؛ و هم على و بقية الاثنى عشر (عليهم‌السلام)، و الله يعلن الإمامة لمن قبله فيوصى السلف للخلف. و ليست بيعة الجماعة لهم إلا إعلان رضا المسلمين بهم، و لا- ترشيحهم أو اختيارهم. و الشيعة الامامية يرون «واجبا على الله تعالى» أن ينصب إماما للناس لطفا منه بعباده. و أهل السنة يرون نصب الامام «واجبا على الناس». أما الخوارج فلا يرون واجبا نصب الامام، بل يرونه «جائزا»، إلا اذا قامت الحاجة اليه فيجب. و هم كالمعتزلة يرون أن الخلافة يصلح لها أصلح رجل فى الأمة عربيا أو غير عربى، و يرون أنها تكون بانتخاب حر، و يؤثرون ان ينتخب غير قرشى، لتيسر اقصائه ان أخطأ. يقول الامام الصادق (عليه‌السلام): «لا يموت الامام حتى يعلم من يكون من بعده فيوصى له». «أترون الموصى منا يوصى الى من يريد؟ لا- و الله. و لكن عهد من الله و رسوله لرجل فرجل، حتى ينتهى الأمر الى صاحبه». و يقول لتلميذ له: «يا أبامحمد ان الله افترض على امة محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) خمس فرائض؛ الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج و ولايتنا. فرخص لهم فى أشياء من الفرائض الأربعة، و لم يرخص لأحد من المسلمين فى ترك ولايتنا. لا و الله ما فيها رخصة. و قال النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) «من مات و عليه إمام مات ميتة جاهلية». عليكم الطاعة فقد رأيتم أصحاب على. و من توفيق الامام جعفر، و أبنائه (عليهم‌السلام)، أنهم لم يطلبوا لأنفسهم خلافة دنيوية. و بهذا يتميز تاريخ الشيعة الامامية من الشيعة الاسماعيلية، التى ستظهر بعد موت الامام بوقت طويل... و التى كان من أهدافها ولاية السلطة، و إقامة الدول. [صفحه ۲۳۸] قال سليمان بن خالد للامام الصادق (عليه‌السلام): إن الزيدية قوم عرفوا و خرجوا و شهدهم الناس، و ما على الأرض محمدى أحب اليهم منك. فان أردت أن تدنيهم و تقربهم منك فافعل. فأجاب (عليه‌السلام): «ان كان هؤلاء السفهاء يريدون أن يصدونا عن علمنا الى جهلهم، فلا مرحبا بهم، و ان كانوا يسمعون قولنا و ينظرون أمرنا، فلا بأس». و مع أن «مؤمن الطاق» - تلميذ الامام الصادق (عليه‌السلام) - ثبط زيدا عن الخروج، «فالصدوق» يروى عن الامام «الكاظم عليه‌السلام» قول أبيه: «رحم الله عمى زيدا. إنه دعا الى الرضا من آل محمد. ولو ظفر لوفى». فزيد لم يدع لنفسه، لأن الامامة كانت للباقر (عليه‌السلام). و انما كان خروجه تجديدا للاستشهاد عندما تدعو دواعيه. يقول الصادق (عليه‌السلام): «مضى و الله عمى زيد و أصحابه شهداء على مثل ما مضى عليه الحسين بن على بن أبى‌طالب و أصحابه» - بل هو يعلن الاستعداد للاستشهاد، ويراه واجبا من واجبات أهل‌البيت عامة، و الأئمة خاصة. و أبوبصير يروى عنه قوله «ان الله تعالى أعفى نبيكم أن يلقى من أمته ما لقيت الأنبياء من أممها. جعل ذلك علينا». و الشيعة مجمعون أن عليا (عليه‌السلام) أولى بالخلافة - من أبى‌بكر و من عمر و من عثمان - لكن عليا سما عن أن يترك فى الأمة صدعا يوم بايع لأبى بكر، و قبل استخلاف أبى‌بكر لعمر، و بايع لعثمان مع المسلمين. و تسبيب البيعة بأنها كانت لرأب الصدع فيه تسليم بأن ولاية شؤون الدولة يمكن أن تنفصل عن الخلافة

الدينية. فلو كانت غير ذلك لما سلم على (عليه‌السلام) فى أمر يخالف الدين. و طالما صارح الخلفاء الثلاثة برأيه الشجاع، و أجمعوا دائما على تقديره، و نزلوا عنده - و سيبقى له فى ضمير التاريخ و صحفه أنه دخل فى إجماع المسلمين. فذلك درس لهم - من دروسه التى لا- تكاد تحصى - ليعتصموا بحبل الله جميعا و لا- يتفرقوا. و الذين يقولون - من أى فريق - انا عليا (عليه‌السلام) بايع «مرغما» يتأولون. فعلى أعلى [صفحه ۲۳۹] صوتا و مكانا من أن يرغم، أو لا- يعلن رأيه، مواجهة. و لما بايع عمر لأبى بكر يوم السقيفة، كان يومئذ - كعلى يوم بايع - يرأب الصدع بين المهاجرين و الأنصار، و هم بين أظهرهم. و لما جعل عمر الخلافة شورى فى الستة بعده، كان مسؤولا عن المسلمين، كما كان أبوبكر يوم استخلفه. و على (عليه‌السلام) فى طليعة المسؤولين، و كمثله الأئمة من بعده. و الذين ينسبون الى الشيعة ما صنعه أو فهمه الدهماء منهم من قدح فى أبى‌بكر أو فى عمر ظالمون. و من الشيعة مفكرون يعلنون أن من تعود البعض من الشيعة أن يلعنوه فى احتفالات مآتم عاشوراء - و قد ظهرت بعد موت الامام جعفر الصادق (عليه‌السلام) بقرن، فى عهد دولة بنى بويه - هو عمر بن سعد قائد الجيش الذى قتل الحسين (عليه‌السلام). جاء فى كتاب الاستاذ أحمد مغنية عن الامام جعفر الصادق (عليه‌السلام): «و قد حورب المذهب الجعفرى فى عهد العثمانيين و الاتراك... كما أن المفرقين أنفسهم و جدوا فى اتفاق الاسمين: عمر بن الخطاب و عمر بن سعد قاتل الحسين، ميدانا واسعا يتسابقون فيه فى تشويه الحقائق... يعرف الناس جميعهم ان الشيعة يعنون عناية تامة فى المآتم الحسينية التى تقام أيام عاشوراء و غير عاشوراء من أيام السنة... و الحسين هو موضوع تلك المآتم... و كان طبيعيا أن يكون لعنة اللعنات عمر بن سعد. و من من المسلمين و غير المسلمين لا يلعن عمر بن سعد قاتل ابن‌بنت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)؟... لا أنكر وجود أفراد - بالأمس - سواد الشيعة و بسطائهم لا يفرقون بين هذين الاسمين بل لا يعرفون أن فى دنيا التاريخ الاسلامى عمرين تقيا و شقيا... و ساعد على بعد الشقة و توسيع نطاق الفتنة شيوخ جهلة مرتزقة أئمة من كلتا الطائفتين السنية و الشيعية...». و أيا كانت الجهالة أو العصبية فهى بلاء ابتليت من الأمة يتفجر بذاء و خصومات فى المناسبات - و فيما كان يقع بين مذاهب أهل السنة مشابه منها - و المؤكد أن أئمة [صفحه ۲۴۰] المذاهب منها براء. و أن الجيل الذى تعلم عليهم برىء من التعصب أو الافتراء. و أن العلماء الصدق بعيدون عن متابعة السواد و البسطاء. [۷۵] . و فقه المذهب غزير فى الإمام مذ فتق الكلام فيها التلاميذ فى حياة الامام و بعدها. مستندين الى أحاديث النبى (عليه‌السلام)، وردت فى كتبهم و فى كتب أهل السنة ذاتها - و يرتبون عليها نظرية الإمامة. أما أهل السنة فلهم فى شأن هذه الأحاديث و جهات نظر أخرى حول السند و حول المعنى اللازم. اليك «بعض» الأحاديث: يقول عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس. انى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا... كتاب الله، و عترتى: أهل‌بيتى» [۷۶] و يقول: «إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى: كتاب الله حبل ممدود من السماء و عترتى أهل‌بيتى. و لن يفترقا حتى يردا على الحوض. فانظروا كيف تخلفونى فيهما» [۷۷] و يقول: «إنى تارك فيكم خليفتين كتاب الله... و عترتى أهل‌بيتى» [۷۸] و يقول: «انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزوجل و عترتى... فانظروا كيف تخلفونى فيهما» [۷۹] أو: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب [صفحه ۲۴۱] الله و أهل‌بيتى. و انهما لن يفترقا» [۸۰] - ذلك أنه لما رجع عليه الصلاة و السلام من حجة الوداع نزل بغدير خم يوم ۱۸ ذى الحجة فى السنة العاشرة - و الشيعة تعتبره عيدا يسمى عيد الغدير - و كان قد نزل عليه الوحى: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك. و ان لم تفعل فما بلغت رسالته. و الله يعصمك من الناس»، فأمر بدوحات فقممن فقال: «كأنى دعيت فأجبت. انى قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله تعالى و عترتى. فانظروا كيف تخلفونى فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض...» ثم قال: «إن الله عزوجل مولاى. و أنا مولى كل مؤمن». ثم أخذ بيد على و قال: «اللهم وال من والاه و عاد من عاداه». [۸۱] . و ابن‌حجر فى صواعقه يقرر أن لهذا الحديث طرقا كثيرة وردت عن نيف و عشرين صحابيا مع اختلاف فى المكان أهو غدير خم أم‌الطائف أم‌المدينة. أما طرقه عن أهل‌البيت فنحو ثمانين طريقا. و فى على قوله (صلى الله عليه و آله و سلم): «من أحب أن يحيا حياتى و يموت ميتتى و يدخل الجنة التى وعدنى ربى فليوال عليا و ذريته من بعده. فانهم لن يخرجوكم من باب هدى و لن يدخلوكم فى باب ضلالة». [۸۲] . و فى أهل‌البيت قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «ألا- إن مثل

أهل‌بيتى فيكم مثل سفينة نوح. من ركبها نجا و من تخلف عنها غرق. و إنما مثل أهل‌بيتى فيكم مثل باب حطة فى بنى‌إسرائيل. من دخله غفر له» [۸۳] و قوله (عليه‌السلام): «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق و أهل‌بيتى أمان لأهل الأرض من الاختلاف». [۸۴] . [صفحه ۲۴۲] و الشيعة مؤمنون بأنه لا ينقض حجة هذه الأحاديث على منزلة أهل‌البيت و مكانة على، تأويلها من بعض أهل السنة أو التشكيك فيها من البعض الآخر. و الآخرون يرونها سندا صحيحا فى تكريم على (عليه‌السلام) و لا يرونها سندا فى الإمامة بالمعنى الذى يريده الشيعة. و لقد كان الصحابة يجلون عليا (عليه‌السلام) كل الإجلال. و الكثرة منهم لا تسلم له بأولوية الخلافة على سابقيه من الخلفاء. ثم جاء جيل جديد أصبح فيه إنكار هذه الأولولة وسيلة للسلطة لتثبيت شرعيتها، بل طريقا الى أصحاب السلطة، يسلكه من يلتمسون المصلحة أو الجاه أو الراحة. لكن الأمة بقيت على حب على و أبنائه (عليهم‌السلام). و كثرتها ككثرة الصحابة فى إجلاله. فالشافعى - أكبر عقل علمى - يضع حب أهل‌البيت بين فرائض الدين، و يذكر المسلمين بأن الصلاة على أهل‌البيت (عليهم‌السلام) جزء من الصلاة لله. يقول: يا أهل‌بيت رسول الله حبكمو فرض من الله فى القرآن أنزله كفاكمو من عظيم القدر أنكمو من لم يصل عليكم لا صلاة له و الامام أحمد يقول: «ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله من الفضائل ما جاء لعلى» و تشيع أبوحنيفة محل إقرار أو إنكار، و هو القائل: «لو لا السنتان لهلك النعمان» قاصدا مدة دراسته على الامام الصادق (عليه‌السلام). و مالك بن أنس من أنبه تلاميذ الأمام جعفر ذكرا. و الأربعة أئمة أهل السنة. أخرج أحمد بن حنبل عن عائشة: «جاء رجل فوقع فى على و عمار عند عائشة. فقالت: أما على فلست قائلة لك فيه شيئا. و أما عمار فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول فيه: «لا يخير بين أمرين إلا اختار أرشدهما». و لقد كان عمار من أول حياته فى الاسلام، حيث كان فى آخر يوم فى حياته فى [صفحه ۲۴۳] الدنيا، مع على، و فى جنده، استشهد فى صفين و هو فى التسعين... قتلته الفئة الباغية عليه و على على معه. و لقد أوصى [۸۵] النبى لعلى أن يغسله صلى الله عليه و آله و سلم و يجهزه و يدفنه و يفى دينه و ينجز وعده، و يبرئ ذمته و يبين للناس ما اختلفوا فيه. و ما ذلك إلا لأن عليا منه و من أهل‌بيته حيث هو. من هذه المكانة لعلى كان معه فى صفين ثمانون من الصحابة الأحياء كلهم بدرى، و هؤلاء من أهل الجنة. أما معاوية فمعه الواهمون أو أهل الدنيا الذين يعدهم و يمنيهم، لتصير الأمور الى ما انتهت اليه فى أيامه و ما بعد أيامه. و أما الأمة فجعلت مكان معاوية من على (عليه‌السلام)، مثلا سائرا فى اللسان العربى: (و أين معاوية من على). يقول الأحنف بن قيس: دخلت على معاوية فقدم الى الحار و البارد و الحلو و الحامض مما كثر تعجبى منه. ثم قدم لونا لم أعرف ما هو. فقلت: ما هذا؟ قال: هذا مصارين البط محشوة بالمخ... و قد قلى بدهن الفستق، و ذر عليه بالطبرزد! فبكيت. فقال ما يبكيك؟ قلت: ذكرت عليا (عليه‌السلام): بينا أنا عنده و حضر وقت الطعام و إفطاره (إذ كان صائما) و سألنى المقام. فجىء له بجراب مختوم. فقلت: ما فى الجراب؟. [صفحه ۲۴۴] قال: سويق شعير. قلت: خفت عليه أن يؤخذ أو بخلت به؟ قال: لا، و لا أحدهما، و لكنى خفت أن يلته الحسن و الحسين بسمن أو زيت. فقلت: محرم هو يا أميرالمؤمنين؟ قال: لا، و لكن يجب على أئمة الحق أن يعتدوا أنفسهم من ضعفة الناس لئلا يطغى الفقير فقره. فقال معاوية: ذكرت من لا ينكر فضله. يرى الشيعة أهل‌البيت (عليهم‌السلام) ثانى الثقلين و أولهما القرآن، و الثقل كل خطير نفيس. و هم عدل القرآن فى الأمة، و خلفاء الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) فى الحفاظ على الشريعة. فللأئمة جميع ماله من المناصب ماعدا رتبة النبوة... ولديهم الكتب التى دون فيها علم النبوة، و فيهم ينحدر الهدى النبوى، و تنحصر الإمامة. و أن الله سبحانه و تعالى يختار للنبوة من يشاء و يختار للامامة من يشاء، و يأمر نبيه بالنص عليه وتنصيبه للناس بعده للقيام بوظائفه، إلا أن الإمام لا يوحى اليه بل يتلقى الأحكام عن النبى مع تسديد السماء له، فهو مبلغ عن النبى، فى حين ان النبى مبلغ عن الله جل شأنه. و الإمامية يرون الإمام إنسانا من البشر، لكنه أفضل أهل زمانه، و لا تجوز عبادته، فهذا عمل من خداع إبليس. و ان من هذا شأنه يجب أن يكون معصوما من الخطأ. فالناقص لا يكمل غيره. و وجه الحاجة الى العصمة فيه و فى النبى واحد؛ [۸۶] و هو حفظ الأحكام عن الخطأ. و إذ كان ذلك كذلك، فما يرد عن الإمام سنة، سواء أكان رواية عن النبى أم كان رأيه لأنه نص. أما مالا لايرد عن الامام فهو محل للاجتهاد وفق القرآن و السنة و الإجماع و الدليل العقلى. [صفحه ۲۴۵] أما ولاية الحكم، فقد رأينا الإمام الصادق و آباءه (عليهم‌السلام) لم يطلبوها

كما لم يطلبها الأئمة من بعده. يقول الكاظم (عليه‌السلام) لهشام: «كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا». فما أحراهم أن يتركوا للملوك ما يتناحرون عليه. و يعتبر الشيعة الاعتقاد بإمامة الأئمة الاثنى عشر من أصول الدين عندهم. و انها «رديفة» التوحيد و النبوة، فى حين لا يوافق أهل السنة على ذلك. لا تكفر الشيعة أهل السنة فى إنكارها هذا الأصل... و لا يكفر أهل السنة الشيعة باعتقادها فى الامامة. و انما يشتد الخلاف من جراء الغلو فى الأئمة و نسبة أشياء اليهم يختلف فى بعضها أهل السنة أنفسهم، كالرجعة، أو القدح فى بعض الصحابة، كعمرو و معاوية و المغيرة. أو يختلف فيها الشيعة أنفسهم كولاية المفضول، و النص على الامام بالاسم لا بالوصف... مما حدا بالأضداد و الأشياع الى تبادل أزمة الثقة. أما الفقهاء فأدخلوا خلافاتهم فى إطار ما يختلف فيه المجتهدون. و أما المتعصبون، من كل ملة، فيتقاطعون... و ما يتقاطعون إلا للمصلحة أو للغلواء أو لضيق الأفق. [۸۷] . [صفحه ۲۴۶] و مرد عدم التكفير - بين الشيعة و اهل السنة - مع الخلاف فى الاعتقاد بالإمامة، [صفحه ۲۴۷] الى ان الأصول - كما يقول الشيعة - ثلاثة: التوحيد، النبوة، و البعث - و يكفى من التوحيد الايمان بوحدانية الله تعالى... و يكفى من النبوة الايمان بأن محمدا رسول الله صادق فيما أخبر به معصوم... و يكفى من المعاد الاعتقاد بأن كل مكلف يحاسب بعد الموت. أما الفروع التى هى من ضرورات الدين فهى كل حكم اتفقت عليه المذاهب الإسلامية كافة، من غير فرق بين مذهب و مذهب كوجوب الصلاة... فإنكار حكم من هذه الأحكام إنكار للنبوة و تكذيب لما ثبت فى دين الاسلام بالضرورة... [۸۸] . و ضرورات «المذهب الشيعى» نوعان... نوع يعود للأصول و هو الإمامة. فيجب أن يعتقد كل «شيعى» إمامة الاثنى عشر إماما. و النوع الثانى يرجع الى الفروع كنفى العول و نفى التعصيب. فمن أنكر فرعا منها كان غير شيعى و ان كان مسلما. و الايمان و الاسلام عند الشيعة مترادفان... يثبتان لمن آمن بالتوحيد، و النبوة، و البعث. و يطلقان على معنى أخص... هو هذه الأركان، و معها ركن العمل بدعائم الاسلام - و هى الصلاة و الزكاة و الصوم و الحج و الجهاد - و يزيدون ركنا خامسا هو الاعتقاد بالإمامة، و أنها منصب إلهى كالنبوة، منصوص على من يليها، و ان الإمام [صفحه ۲۴۸] أفضل أهل زمانه، و معصوم. فمن اقتصر على الأركان الأربعة الأولى مسلم مؤمن. و انما الاعتقاد بالإمامة له أثر فى منازل القرب و الكرامة يوم القيامة. يقول الامام محمد الحسين آل كاشف الغطاء: «نعم يظهر أثر التدين بالإمامة فى منازل القرب و الكرامة يوم القيامة - أما فى الدنيا فالمسلمون بأجمعهم سواء. و بعضهم لبعض أكفاء. و أما فى الآخرة فلا شك أن المسلمين تتفاوت درجاتهم و منازلهم حسب نياتهم و أعمالهم. و أمر ذلك و علمه عند الله سبحانه. و لا مساغ للبت به لأحد من الخلق. و الغرض أن أهم ما امتازت به الشيعة عن سائر فرق المسلمين هو القول بإمامة الأئمة الاثنى عشر؛ و به سميت هذه الطائفة بالإمامية. إذ ليس كل الشيعة تقول بذلك... و القول بالاثنى عشر ليس بغريب عن أصول الاسلام و صحاح كتب المسلمين. فقد روى البخارى و غيره فى صحاحه حديث الاثنى عشر خليفة بطرق متعددة، فيها بسنده عن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم): «أن هذا الأمر لا ينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة». [۸۹] . [صفحه ۲۴۹] و الشيعة يعتقدون أن الأرض لا تخلو من حجة على العباد من نبى أو وصى، ظاهر أو مستور، فالامام «المهدى» الثانى عشر «غائب» منتظر. و الامامة منصب دينى لا- يجوز التنازل عنه لأنه من الله. و لما تنازل على (عليه‌السلام) للخلفاء السابقين عليه كان التنازل عن الخلافة الدنيوية، وحدها، و بناء على أسباب. [صفحه ۲۵۰]

امور خلافية فى الفقه

اشاره

يظهر من استعراض كبريات مسائل الخلاف بين الشيعة و بين مذاهب أهل السنة، فى الفقه، أنها لا تمس أصل الدين، و أنها تحتمل الاجتهاد، و تتسع للخلاف عليها، كما اتسعت أمور أمثالها للخلاف بين مذاهب أهل السنة ذاتها - إلا زواج المتعة. فالخلاف فيه يتميز مما عداه: أما الفرائض الدينية فواحدة عندهم و عند أهل السنة. فى «الصلاة»: الفروض واحدة لدى أهل السنة ولديهم. و عدد

الرکعات فیها واحد. اما المندوب عندهم فلا حصر له. و أفضله عندهم «الرواتب». و عددها «علی المشهور» ثمانیة للظهر و ثمانیة للعصر قبل الفریضة و أربع للمغرب بعد الفریضة و العشاء رکعتان جالسا و یجوز قائما و ثمانیة رکعات صلاة اللیل و رکعتا الشفع و رکعة الوتر و رکعتا الصبح قبل الفریضة... فالرواتب عندهم کثیرة... و یشترطون القراءة فی الصلاة باللغة العربیة. و لا یجیزون الترجمة. و یشترطون الجهر بالبسملة. و فی «الزکاة» و وجوه البر، لا یختلفون عن جمهور المسلمین. بل هم یضیفون الیها «خمس» الدخل، الذی یجبی للإمام، لإنفاقه فی مصارفه الدینیة. و فی «الصوم»: یرون الکذب علی الرسول (صلی الله علیه و آله و سلم) یفطر الصائم. و فی «الحج»: جهاد لا یسقط بالموت بل یؤدیه الوارث عن مورثه. و للغیر أن یؤدیه عنه من مال للموروث قبل أن تقسم الترکة. و یکثرون من مظاهر «الروح الإسلامی» فی العقود. فیستحبون البدء بالبسملة فی کل معاملة، و یحرصون علی الصیغة العربیة. و یکرهون معاملة تارک الصلاة و المستهتر. و یحرمون الاتجار بما یترتب علیه فساد المجتمع. و فیما یلی أنواع خلاف بینهم و بین أهل السنة، لعلها تبین الإطار العام أو المعالم المهمة، للوفاق و للخلاف بین الفریقین. [صفحه ۲۵۱]

الجمع بین الصلاتین

المسلمون مجمعون علی جواز الجمع فی الحج فی جبل عرفة بین الظهر و العصر و فی المزدلفة بین المغرب و العشاء للحجاج خاصة - أما غیر ذلک فمحل خلاف. فالشیعة یجیزون الجمع مطلقا جمع تقدیم و تأخیر، لعذر و غیر عذر، فی السفر و الحضر، و ان کان التفریق عندهم أفضل - إلا إذا حدث حرج. و حجة الشیعة مشتقة من صحاحهم و من تفسیر الامام الصادق علیه‌السلام لقوله تعالی: «أقم الصلاة لدلوک الشمس الی غسق اللیل و قرآن الفجر إن قرآن الفجر کان مشهودا». فالغسق هو تراکم اللیل و اشتداد الظلمة. و بهذا تکون أوقات الصلاة الأربعة ممتدة من الزوال الی نصف اللیل. فالظهر و العصر ینتهیان فی الغروب. و المغرب و العشاء الی نصف اللیل. اما الصبح فقد اختصها الله بقوله: «و قرآن الفجر ان اقرآن الفجر کان مشهودا».

الاذان

کان بلال - مؤذن الرسول - یؤذن لصلاة الصبح فیقول بعد «حی علی الفلاح»: «الصلاة خیر من النوم». و أقره الرسول (صلی الله علیه و آله و سلم) علی ذلک. و الشیعة یقولون إن الاذان کان فیه (حتی علی خیر العمل) حتی عهد عمر - کما قال الامام الباقر (علیه‌السلام). و سبب رفعها من الأذان ان المؤذن وجد عمر نائما عند أذان الصبح فأضاف: (الصلاة خیر من النوم) - کما أورد الزرقانی فی تعلیقه علی الموطأ - فاستحسنها عمر [صفحه ۲۵۲] فأمر أن تضاف الی أذان الصبح. و أخرج ذلک ابن أبی‌شیبة. [۹۰] . و علماء الشیعة متفقون علی أن قول «أشهد ان علیا ولی الله» لیس من فصول الأذان و أجزائه. و أن من یأتی به بنیة أنه من الأذان فقد أبدع فی الدین، أی أدخل فیه ما هو خارج عنه. و یقول الشیعة إن إسقاط (حی علی خیر العمل) کان بأمر من أولی الأمر فی عهد عمر، حرصا منهم علی أن تفهم العامة أن الجهاد فی سبیل الله هو خیر العمل، و أن النداء علی الصلاة بخیر العمل مقدمة لفرائضها الخمسة ینافی التحریض المطلوب للجهاد. فخطب عمر فنهی عنه. [۹۱] . [صفحه ۲۵۳]

المسح علی الرجلین

اشارة

یختلف الناس فی أن مسح القدمین هو الفرض أو الغسل هو الفرض، لأن رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم) توضأ و مسح علی قدمیه. و الشیعة تستدل بمسح الرسول علی قدمیه علی ان المسح هو الفرض - و مروی عن ابن‌عباس انه قال: ما صح عن رسول الله الا

غسلتين و مسحتين. و يفسرون الآية «و امسحوا برؤوسكم و أرجلكم» بما يسعفهم فى المسح.

الزواج و الطلاق

فى الزواج

المهر لا يقدر قلة و لا كثرة، إلا ان يقصر عن التقويم كأن يقول حبة قمح! أما الكثرة ففيها قول الله: «و آتيتم إحداهن قنطارا»، و ان كان يكره تجاوز مهر السنة الذى أصدقه النبى صلى الله عليه و آله و سلم زوجاته؛ و هو خمسمائة درهم. و يجوز النظر الى وجه المطلوب زواجها دون استئذان و مع الوجه الكفين. و ينظرها قائمة وماشية . و للمرأة أن تنظر الى الرجل - و لا يجوز العزل عن المرأة إلا بإذنها. و للمرأة - بكرا أو ثيبا - أن تزوج نفسها ممن تريد إذا بلغت رشدها، و ان كان من المستحسن أن تستأذن وليها فى ذلك.

فى الطلاق

أما الطلاق الثلاث بفم واحد، فجعله عمر ثلاثا زجرا للناس. و بقى الأمر كذلك ثلاثة عشر قرنا ظهر فيها ما أحوج الى العودة الى الأمر الأول. و الشيعة لم يقبلوا عمل عمر من بادئ الأمر. فالطلاق الثلاث فى مجلس واحد [صفحه ۲۵۴] يقع مرة واحدة. ولا حلف عندهم بالطلاق على عمل. و هذان إصلاحان أحدثتهما مصر فى سنة ۱۹۲۹. و هم يوجبون حضور شاهدين للطلاق، فى حين لا يوجبون حضور شاهدين للزواج. فالزوجية تنشأ دون شهود. لكن الطلاق واجب له الشهود. و المتفقهة الآن من أهل السنة فى مصر يستحسنون إيجاب حضور شاهدين للطلاق، بل هذا تعديل مطلوب فى مشروع قانون للأحوال الشخصية. و هم يمنعون طلاق المغضب، و المتهيج و المنزعج. و يقررون ان الطلاق الذى أمر به الله رسوله هو الذى يقع إذا خاضت المرأة و طهرت من حيضتها، فأشهد الرجل شاهدين عدلين قشبل أن يجامعها على تطليقه. ثم هو أحق برجعتها مالم تحض ثلاثا. فإن مضت ثلاثة قروء قبل أن يراجعها فهى أملك لنفسها. فإن أراد أن يخطبها مع الخطاب خطبها. فإن تزوجها كانت عنده. و ليس للمريض ان يطلق. و له أن يتزوج. فان تزوج و دخل بها فجائز. و ان لم يدخل و مات بطل الزواج. و لا مهر و لا ميراث للزوجة. فلنلاحظ اليسر فى الزواج عندهم. و التشدد فى الطلاق. و رعاية المرأة فى كل حال. و الحرص على الأسرة.

زواج المتعة: (الى أجل معين)

و الشيعة يسمونه الزواج المؤقت. و يرجعونه الى قوله تعالى: «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن». و المفسرون متفقون على ان جماعة من الصحابة العظماء أفتوا بإباحتها؛ منه: ابن‌مسعود، و أبى بن كعب، و ابن‌عباس، و جابر بن عبدالله، و عمران بن حصين. بل كانوا و هم يتلون الآية ينطقون بتفسيرها فيقرأون «فما استمتعتم به منهن الى أجل مسمى». فالمشروعية ثابتة و العمل بها ثابت. و إنما يحزم أهل السنة بأنها أبيحت لدواعيها ثم نسخت بأحاديث جازمة. [صفحه ۲۵۵] و الشيعة لا يرونها أحاديث ثابتة. و يقولون ان الحلال القطعى الثبوت لا ينفيه تحريم غير قطعى. و هم يقولون ان المتعة سائغة فى السفر لطلب العلم و التجارة و الجهاد، فلقد كانت مشروعيتها للسفر و للجهاد. و إنها زواج عادى، لولا انه الى أجل. فالزوجة فى زواج المتعة تعد اذا انتهى الأجل، ككل طلاق. و لابد من المهر... و الابن من الزواج هو ابن‌عادى، له الميراث و النفقة. اما الزوجة فلا نفقة و لا ميراث لها، إلا اذا اشترطت. و ليست النفقة من لوازم الزوجية، فالناشز زوجة و لكنها بلا نفقة. و من النساء من ترث و ليست زوجة، كمن طلقت فى مرض الموت، و مات زوجها قبل مضى سنة. و الثابت أن عمر أعلن تحريم المتعة إذ خطب الناس فقال «متعتان كانتا على عهد رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و على عهد أبى‌بكر رضى الله عنه، و أنا أنهى عنهما...» و أنه حرمها و هو بصدد قضية لعمرو بن حريث ثم أطلق النهى. و أهل

السنة يقرون ان نهى عمر عنها كان إعلانا لتحريم ثابت قبل ذلك. و لم تقبل الشيعة نهى عمر من بادئ الأمر بل قال على: «لو لا نهى عمر عن المتعة مازنى إلا شفا (قليل أو مشرف على الهلكة) أو شقى». وثبت عن الامام الصادق (عليه‌السلام) قوله: «ثلاث لا أتقى فيهن أحدا متعة الحج و متعة النساء و المسح على الخفين». و من نوادر يحيى بن أكثم قاضى المأمون أنه سأل شيخا من أهل البصرة: بمن اقتديت فى جواز المتعة؟ قال: بعمر. قال: كيف، و كان من أشد الناس فيها؟ قال: إنه صعد المنبر فقال: أيها الناس! متعتان أحلهما الله و رسوله لكم، و أنا أحرمهما عليكم و أعاقب عليهما. فقبلنا شهادته و لم نقبل تحريمه. [۹۲] . [صفحه ۲۵۶]

الميراث

للشيعة تفسير فى المواريث فى صالح البنات، لذواتهن، و لمن يتوسل للميراث بهن. يقول تعالى: «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد و له أخت فلها نصف ماترك و هو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك و انما كانوا إخوة رجالا و نساء فللذكر مثل حظ الأنثيين». و هم يرون البنت ولدا فى اللغة و العرف، و لذلك يعطون البنت دائما، و لا يعطون الأخت أو الأخ ان كان هناك بنت أو ابن فكلاهما ولد. و هم يسقطون الوصية مادام هناك ولد (ابن أو بنت). و للشيعة قاعدة: ان كل فريضة لم يهبطها الله إلا الى فريضة، تكون مقدمة عند «العول»؛ و كل فريضة، إذا زالت عن فرضها، لم يكن لها إلا ما بقى، تكون مؤخرة. [صفحه ۲۵۷] مثال ذلك للزوج النصف فإن هبط له الربع، فإن دخل عليه فى التقسيم ما يزيد عن السهام رجع الى الربع المفروض. و لا يزيله عن الفرض شىء. و مثله الزوجة و الأم. أما البنات و الأخوات فلهن النصف و الثلثان. فإذا أزالتهن الفرائض عن ذلك لم يكن لهن إلا ما بقى. فإذا اجتمع ما قدم الله و ما أخر بدئ بما قدم الله فأعطى حقه كاملا. فان بقى شىء كان لما أخر. و هو تطبيق لحديث ثابت عندهم، أورده الشهيد الثانى [۹۳] – و أورده الحاكم فى المستدرك و قال: إنه صحيح على شرط مسلم – و يستشهد أهل السنة بآيات و يستشهد الشيعة بآيات. و هم ينفردون بما يسمى (الحبوة) للولد الأكبر؛ ملابس أبيه و ثيابه و مصحفه و خاتمه زيادة على حصته فى الميراث – كما ينفردون بعدم توريث الزوجة من عقار الزوج و رقبة الأرض عينا و قيمة، لأخبار وردت عن الأئمة مروية عن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم).

متعة الحج

ينوى الحاج إحرامه من ميقاته (أماكن القصد الى البيت الحرام) و المتمتع يأتى مكة و يطوف بالبيت، ثم يقصر و يحل من إحرامه و يقيم بعد ذلك حلالا، ثم يفيض الى المشعر الحرام، ثم يأتى بأفعال الحج بإحرام جديد. و هذان التقصير و الإحلال تيسير بإباحة محظورات الإحرام فى المدة المتخللة بين الإحرامين. و هذا ما كرهه عمر و حرمه قائلا: هى سنة رسول الله لكنى أخشى أن يعرسوا بهن – نسائهم – تحت الأراك ثم يروحون بهن حجاجا، فخطب و نهى عن هذه المتعة مع متعة الزواج. و مع ذلك فابن عمر يقول عن عمل أبيه: أرأيت إن نهى عنها أبى، و صنعها رسول الله! أأمر أبى أتبع أم أمر رسول الله؟ و ابن عباس كعلى لا يحرمان ما حرمه عمر. و لما قدم على من اليمن وجد فاطمة الزهراء (عليهاالسلام) قد حلت و لبست صبيغا، و اكتحلت، فأنكر ذلك عليها فقالت: ان أبى أمرنى بهذا. فذهب الى [صفحه ۲۵۸] رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: صدقت صدقت. و الشيعة لهذا يرون متعة الحج.

التفسير بالتأويل

يروى الشيعة عن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) أنه قال: «ان للقرآن ظاهرا و باطنا، و لبطنه بطن الى سبعة أبطن» و يروون عن على (عليه‌السلام) أنه قال: «ما من آية قرآنية إلا و لها ظاهر و باطن، وحد و مطلع». و يروى هذا البيان عن «سهل التسترى»، من المفسرين الصوفيين، و انه أضافه. فالظاهر: التلاوة. و الباطن: الفهم. والحد: حلالها و حرامها. و المطلع: إشراف القلب على المراد به فقها عن الله

عزوجل. قيل له ما الباطن؟ قال: فهمه. و يروون عن الامام الصادق (عليه‌السلام) انه قال: «ان فى كتاب الله أمورا أربعة: العبارات و الإشارات، و الحقائق و اللطائف. فالعبارات للعوام. و الإشارات للخواص. و اللطائف للأولياء. و الحقائق لأنبياء الله». و المتتبع لتفسيرات الامام الصادق و أجوبته على المسائل يجدها تنبع من بحر عميق فى فهم القرآن و اللسان العربى، أمكنه أن يكشف للناس بين الفينة و الفينة ما فيه من شمول و ما بينه و بين السنة من صلة الأصل بفرعه. و بذلك قدر الامام (عليه‌السلام) أن يفسر القرآن بالقرآن - ففى بيته نزل - و ان يجد للحديث الواحد أصولا عدة، فى آيات متفرقة، بمجرد ان يدلى اليه سائل بسؤال! و هو منهج سيتتابع عليه عظماء الأئمة من أهل السنة، و فى طليعتهم أحمد بن حنبل. و لا يسوغ لنا أن نعتبر تفسيرات الامام الصادق (عليه‌السلام) من أضرب التفسير بالرأى أو بالمأثور أو بهما - و هى مصنفة بين عقلى و نقلى و صوفى و رمزى و قصصى... الخ - و فى البعض منها تأويل باطنى. و ابن‌عطية من كبار مفسرى أهل السنة ينفى صحة نسبة تفسير باطنى أو رمزى الى الامام الصادق، و يقول: «... و هذا قول جار على طريقة الرموز. و لا يصح عن جعفر [صفحه ۲۵۹] بن محمد - رضى الله عنه - و لا ينبغى أن يلتفت اليه». اليك مثلا - بين نظائر تجل عن الحصر - لاستعمال اللسان العربى فى التفسير: يقول زرارة للامام الصادق (عليه‌السلام): من أين علمت أن المسح ببعض الرأس؟ و يجيب الامام: لمكان الباء فى قوله تعالى «و امسحوا برؤوسكم». يقصد أن الباء للبعضية. و لقد تتابع على هذا التفسير الائمة فى اللغة و الفقه. جاء فى المصباح المنير فى مادة (بعض) ان الباء فى قوله تعالى (و امسحوا برؤوسكم) للتبعيض... و نص على مجيئها للبعض ابن‌قتيبة، و أبوعلى الفارسى، و ابن‌جنى. و ذهب الى مجيء الباء بمعنى البعض الشافعى، و هو من أئمة اللسان. و قال بمقتضاه أحمد و أبوحنيفة. و من استعمال ظاهر اللسان العربى تفسير «الكوثر» بأنه الذرية الكثيرة، فى قوله تعالى: «إنا أعطيناك الكوثر». فهى صيغة مبالغة من الكثرة (فوعل)، يؤيد ذلك. الآية التى تجيء فيما بعد «ان شانئك هو الأبتر»، و الأبتر من لا عقب له. و بهذا ساغ تفسير الشيعة بأن الكوثر هو الذرية. و قد رزق الله النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) الذرية الكثيرة من فاطمة (عليهاالسلام). فهى الكوثر المقصود. و الآخرون يقولون ان الكوثر نهر فى الجنة، و غيرهم يؤولونه بأنه النبوة. و لقد أسلفنا طائفة من تفسيرات الامام، كالخوف من عدم العدل بين النساء، و الإنفاق من رزق الله، و رؤية الله جل شأنه، و قتل النفس بإخراجها من الهدى الى الضلال، و التفسيرات التى جعلت أباحنيفة يقول عن آية «و ما نقموا إلا أن أغناهم الله و رسوله من فضله»، لكأنى ما قرأتها قط فى كتاب الله و لا سمعتها إلا فى هذا الموقف. و هى جميعا صادرة عن فهم دقيق للسان العربى الذى نزل به القرآن. و التفسير بالظاهر ممن يفهم البلاغة العربية و مجازاتها المتعددة و الاستعارة، و الإيجاز اللفظى، و هو بعض خصائص الإعجاز البيانى فى القرآن، لا ينفى استعمال العقل، بل فيه مجال واسع له، و لا ينفى القيمة العظيمة لتفسير الزمخشرى المعتزلى، و هو حجة فى اللغة، و حجة فى الجمع بين الظاهر و بين وجوه «الرأى»، بالمعانى [صفحه ۲۶۰] الدقيقة و أسرار البلاغة. [۹۴] . و ممن أثارهم الإعجاب به الامام يحيى بن حمزة العلوى (۷۴۹) صاحب كتاب الطراز. و ما من تفسير ثبت عن إمام عن أهل‌البيت (عليهم‌السلام) إلا- تلقته العقول بالقبول، لأنه لا يغاير النص من القرآن و السنة، و إنما يشرحهما فى نورانية باهرة، [۹۵] فى حين ان المعتزلة يؤولون ليخضعوا المعنى لأصولهم الخمسة. [۹۶] و هذا خلاف عظيم بين [صفحه ۲۶۱] المؤولين، و بين الامام الصادق و الشيعة الامامية. أما الاسماعيلية، فلهم بعض التأويلات الباطنية التى تهمل المعنى الظاهر و تحمل الألفاظ ما لا تحتمله. و الاسماعيلية فرقة شيعية لم تظهر إلا بعد موت الامام جعفر الصادق (عليه‌السلام) بقرن أو أكثر.

البداء؛ و مفهومه الشائع: الظهور بعد الخفاء

نسب الى الشيعة القول بأن الله يبدو له فيغير ما قرره لظهور طارئ. و أطلقوا على ذلك لفظ البداء. و الشيعة الامامية لا تقول شيئا بهذا المعنى - بل تعتقد ان الله عالم بكل شىء... و علمه أزلى بما كان و ما يكون. يقول الامام الصادق (عليه‌السلام): «ما بدا لله فى شىء إلا كان فى علمه قبل أن يبدو له». و سأله منصور بن حازم: هل يكون اليوم شىء لم يكن فى علم الله بالأمس؟ قال: «لا... من قال هذا

فقد أخزاه الله». قال منصور: ما كان و ما هو كائن الى يوم القيامة أليس فى علم الله؟ قال: «بلى قبل أن يخلق الخلق» و يروى عنه (عليه‌السلام) قوله: «إن الله لم يبد له عن جهل». فجميع الكائنات الممكنة، قبل أن تخلق، قدرها الله تعالى و كتبها بمشيئته و إرادته فى اللوح المحفوظ. و الله تعالى يقول: «يمحو الله ما يشاء و يثبت» و كل ما يتعلق به القضاء، و التقدير، لابد له من تعلق الإرادة و المشيئة به. و ما لا يكون قضاؤه و تقديره حتميا مما هو مورد المحو و الإثبات تتعلق المشيئة بمحوه و إثباته. و قد يكون وجوده، و تكوينه بإرادة الله تعالى، منوطا أى مشروطا، بتحقق أمر آخر. فيكون قد جرى فى علمه تعالى أن يوجد اذا حصل ما اقتضت المصلحة، التى يعلمها الله، أن تكون شرطا. و الله تعالى يقول: «فقلت استغفروا بكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا» و يقول: «ولو ان أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء [صفحه ۲۶۲] و الأرض و لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون». و روى أحمد فى المسند أن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه. و لا يرد القدر إلا الدعاء. و لا يزيد فى العمر إلا البر». و عن أبى‌سعيد ان النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم و لا قطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث: إما أن يستجيب لدعوته أو يصرف عنه من السوء مثلها أو يدخر له من الأجر مثلها». قالوا: يا رسول الله إذن نكثر. قال: «الله أكثر». و من القضاء علم مخزون لا يطلع الله عليه أحدا... فلا بداء فيه، و قضاء أخبر به ملائكته و رسله، فهذا أيضا لا بداء فيه، و قضاء معبر عنه بلوح المحو و الإثبات؛ و فى هذا القسم يرد قول الشيعة بالبداء: «يمحو الله ما يشاء و يثبت». و الشهرستانى ينفى عن الامام جعفر عليه‌السلام ما ينسب اليه من أقوال فى الغيبة و البداء بمعنى تغيير إرادة الله.

الرجعة

القول بالرجعة ليس مجمعا عليه فى الفكر الشيعى. فمنهم من لا يعتبرها عقيدة، و منهم من يأخذ بها، كما أخذ بعض أهل السنة ببعض أنباء الغيب و حوادث المستقبل و أشراط الساعة... مثل نزول عيسى من السماء، و ظهور الدجال الذى يظهر قبل الإمام بقليل فيقتله الامام، و خروج السفيانى. يقول بعض الشيعة: ان عقيدة البعث أصل مجمع عليه، و انه عندما يؤخذ القول بالرجعة على انها بعث فلا وجه لنفى العدالة عمن يفهمها كذلك. و يقول الامام محمد حسين آل كاشف الغطاء من أئمة الشيعة (الامامية) المعاصرين: «و ليس التدين بالرجعة فى مذهب التشيع بلازم، و لا انكارها بضار، و ان كانت ضرورية عندهم و لكن لا يناط التشيع بها وجودا أو عدما». و يقول: «و حديث الطعن بالرجعة كان هجيرى علماء السنة... فكان علماء الجرح [صفحه ۲۶۳] و التعديل اذا ذكر بعض العظماء من رواة الشيعة و محدثيهم و لم يجدوا مجالا للطعن فيه لو ثاقته و ورعه و أمانته نبذوه بأنه يقول بالرجعة فكأنهم يقولون يعبد صنما أو يجعل لله شريكا. و نادرة مؤمن الطاق مع أبى‌حنيفة معروفة. و أنا لا أريد أن أثبت فى مقامى هذا و لا غيره صحة القول بالرجعة و ليس لها عندى من الاهتمام قدر قلامة ظفر...». يقول الشيخ محمد رضا المظفر فى كتابه (عقائد الامامية): «من يستغرب الرجعة يكون بمثابة من يستغرب البعث فيقول «من يحيى العظام و هى رميم» فيقال: «قل يحييها الذى أنشأها أول مرة و هو بكل خلق عليم»، و ينهى بحثه فى هذا الصدد بقوله: على كل حال، فالرجعة ليست من الأصول التى يجب الاعتقاد بها. و انما اعتقادنا بها كان تبعا للآثار الصحيحة الواردة عن آل البيت الذين ندين بعصمتهم من الكذب. و هى من الأمور الغيبية التى أخبروا بها و لا يمتنع وقوعها». و ابن‌الجوزى الحنبلى يسمى القائلين بالرجعة فى كتابه «تلبيس إبليس» (الرجعية). و لقد أسلفنا تضعيف بعض محدثى أهل السنة للقائين بالرجعة. [صفحه ۲۶۵]

المنهج العلمى

اشاره

ان العلم هو علم محمد (صلی الله علیه و آله و سلم)، فی میراث محمد (صلی الله علیه و آله و سلم). (ابن‌تیمیة) [صفحه ۲۶۷] فی الباب الحالی فصول ثلاثة تحاول تصویر منهج الإمام الصادق (علیه‌السلام) «العلمی»، و«الحضاری» «السیاسی و الاقتصادی»، کما رسم خطوطه بالفعل و بالقول، و کما اقتفی آثاره و بنی علیه علماء الاسلام، الفقهاء منهم و الریاضیون و التطبیقیون، مستمتعین بحریة الفکر و البحث التی وردت بها نصوص الکتاب العزیز و أمرت بها السنة. و کان الامام الصادق (علیه‌السلام) من الأوائل فی تعلیمها للمسلمین، ممن انتسبوا الیه و ممن أخذوا عنهم... یستوی فی ذلک الشیعة و فقهاء أهل السنة. علی هؤلاء الفقهاء و العلماء تعلمت أوربا منهج النزاهة العلمیة و الواقعیة الذی تبلور فی طریقة «التجربة و الاستخلاص»، و الذی أعلنه جابر بن حیان - أول من استحق فی العالم لقب کیمیائی کما یعبر عنه الأوربیون. و من المنهج الحضاری: المنهج السیاسی و الاقتصادی الذی یستهدف عمارة الدنیا بالعدل فی الناس، و العمل للحیاة، و التکافل بین أعضاء الجماعة، و السعی لاستثمار طاقات الناس و أموالهم - و هی قواعد بلغ بها الفقه الشیعی غایته، ابتداء من منهج أمیرالمؤمنین علی، معمولا به فی حیاته أو خلافته، أو منصوصا فی عهده للأشتر النخعی، و کله سیاسة و اجتماع و اقتصاد، الی رسالة حفیده زین‌العابدین فی الحقوق، و هی تجری فی آثاره، الی برنامج حفیده الصادق العلمی و الحضاری، السیاسی و الاقتصادی، یدلی به للناس، و یطبقه بنفسه، و یضع به الأسس لدول أو مجتمعات، أو جماعات، أو جمعیات، تعمل بمنهاجه لتبلغ أوجها به. و هذه خصیصة لا یجاری الصادق (علیه‌السلام) فیها عالم من العلماء فی التاریخ . و حسبنا فی هذا المقام کلمات، کالاشارات، تضمنتها الفصول الثلاثة التی حواها هذا الباب. [صفحه ۲۶۸]

التجربة و الاستخلاص

اشارة

أما اذا خرجت من الإنکار الی منزلة الشک، فإنی أرجو أن تخرج الی المعرفة. (جعفر الصادق علیه‌السلام) لو أتیح لی الأمر لحرقت کتب أرسطو کلها، لأن دراستها یمکن أن تؤدی الی ضیاع الوقت و إحداث الخطأ و نشر الجهالة. روجیر بیکون (۱۲۹۴ میلادیة) لم یکن روجیر بیکون فی الحقیقة إلا واحدا من رسل العلم الاسلامی و المنهج الاسلامی الی أوربا المسیحیة. روبر بریفو [صفحه ۲۷۱] أتیحت للإمام الصادق حقبة طویلة للتعلیم یتلقاه أو یلقیه. فلم یحبس کمثل ما حبس الکثیرون من أهل‌بیته، أو یقتل کما قتل عظماؤهم. و لم یصطدم مذهبه الفقهی بمذهب فقهی للسلطان. فبنو أمیة و بنوالعباس، حتی عهده، لم یکن لهم مذهب فقهی - ان لم تظهر المذاهب «رسمیا» إلا فی أخریات القرن الثانی للهجرة، عندما صیر أبویوسف مذهب أبی‌حنیفة مذهب السلطان. و استعصمت المدینة بفقهها، ثم ظهر الشافعی فی أواخر القرن الثانی. و لم یصطدم الامام بمذهب سیاسی للخلیفة - إذ لم یظهر اعتناق الدولة للاعتزال إلا فی عصر المأمون فی مطلع القرن الثالث. و کان الجهمیون و القدریون مستضعفین، و لم یکن لمناقشات أصحاب الملل و النحل شأن یستلفت النظر. بهذا أتیح للإمام (علیه‌السلام) فی مجلسه العلمی، و اقتداره الذی یسلم به الجمیع... ان یرسی فی أمنة و اطمئنان، قواعد «منهج علمی» ما یزال یعبر القرون باعتباره فتحا من الفتوح التی فتحها الله علی البشر. و فحوی المنهج ان العلم «مشاهدة» و «نزاهة فکریة» فی «استخلاص» النتائج لا- یقبل الله سواها من عالم أو متعلم. فی هذا الفحوی قول الامام (علیه‌السلام): «اطلبوا العلم، فانه السبب بینکم و بین الله». - و السبب الی الله لا- یقوی إلا- بقلب خاشع. و من ثم وجب إخلاص النیة فیه، و صدق الهمة فی تلقیه، و قبول حقائقه دون تلویثها بشوائب الهوی أو الغرض أو المقررات السابقة، أو العوامل الخارجیة. [صفحه ۲۷۲] و بهذه الخصائص تصبح «النزاهة العلمیة» سمتا للعبادة و شأوا للسیادة - یقول الامام (علیه‌السلام): «الملوک حکام علی الناس و العلم حاکم علیهم... حسبک من العلم أن تخشی الله. و حسبک من الجهل أن تعجب بعلمک». و لتحقیق ذلک یأمر الإمام طالب العلم - من بدء أمره - بالتحلی بخصال، و ینهاه عن نقیضها. یقول (علیه‌السلام): «لا تطلب العلم لثلاث؛ لترائی به و لا لتباهی به و لا لتماری

به. و لا تدعه لثلاث: رغبة فى الجهل و زهادة فى العلم و استحياء من الناس». و ما المراء أو الإصرار على عدم المعرفة أو تحقير العلم أو خوف النقد إلا خروق واسعة تتساقط منها كنوز العلماء، و مواهب المتعلمين، و واجب الفرد فى أن يتعلم، فى أمة فرض رسولها العلم على كل مسلم و مسلمة. فالعلم فى الإسلام طريق للبقاء و التقدم. و يقول لمحمد بن النعمان (مؤمن الطاق)، و هو المناضل الجدل: يابن النعمان: إياك و المراء فإنه يحبط عملك، و إياك و الجدل فإنه يوبقك. و إياك و كثرة الخصومات فإنها تبعدك من الله. و ان من قبلكم كانوا يتعلمون، و انتم تتعلمون الكلام... إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء... إن أبغضكم إلى المترئسون، المشاءون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم. و انما أوليائى الذين سلموا لأمرنا و اتبعوا آثارنا. و ليست البلاغة بحدة اللسان، و لا بكثرة الهذيان، و لكنها إصابة المعنى و قصد الحجة... يا بن النعمان... إن أردت أن يصفو لك ود أخيك فلا تمازحنه و لا تجارينه و لا تباهينه. لا تطلع صديقك من سرك إلا على ما لو اطلع عليه عدوك لم يضرك. فإن الصديق قد يكون عدوك يوما... و من أدوات المنهج طمأنينة المعلم و المتعلم، بالاستغناء عن الناس، فالإمام يحث تلاميذه على العمل للرزق، و يمدهم بالمال، ليتجروا، و يستغنوا عن الناس ليستمع اليهم الناس، و ليقدروا على الاستمرار فى التلقى و فى الإلقاء. و من أدواته التعمق و التخصص. فالعلم لا يعطيك بعضه إلا ان تعطيه كلك، كما [صفحه ۲۷۳] يقول أبويوسف: فأبان بن تغلب وزرارة بن أعين متخصصان للفقه . يفتيان الناس فى مسجد الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم). و حمران بن أعين حجة فى علوم القرآن. و مؤمن الطاق للكلام = علم التوحيد. و هشام بن الحكم للكلام فى العقائد و فى الإمامة. و أبان بن عثمان للكلام فى الاستطاعة و ما اليها. و المنهج شامل: يسأل الإمام (عليه‌السلام) عن قوله تعالى: «و من يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» فيقول: «الحكمة هى المعرفة و التفقه فى الدين». و لما جمع للحكمة المعرفة و التفقه فى الدين كان يعلم الناس أن الفقه وحده ليس الحكمة و إنما هو درجة فيها. و هو القائل: «تفقهوا فى الدين فإن من لم ينفقه منكم فهو اعرابى». و لما جعل مطلق المعرفة بعض الحكمة فتح الباب لكل أنواع العلوم. فليست المعرفة قاصرة على العلم الدينى. فهذا ينفيه نصه على التفقه فى الدين معها. و انما قصد الامام (عليه‌السلام) العلم عموما؛ و منه العلوم التطبيقية و الفلسفات الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية التى كان لها فى مجالس الامام الصادق (عليه‌السلام) مكان، هو أول مكان تلقاه فى حلقة إمام للدين فى مدارس الاسلام... كمكان جابر بن حيان، و هذه التفرقة بين ألوان المعرفة يوجبها المنهج العلمى على الدارسين. و هذا الجمع لشتى العلوم إيذان بتطبيق المنهج الإسلامى فى فنون العلم العالمى كما سنرى بعد. و للمنهج – بعد – شعار من حب رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)، و تقدير أصحابه «محمد رسول الله و الذين معه»، فلا يقبل العلم من رجل، أو يقبل العلم على رجل، قصر إيمانه عن صيانتهم. [صفحه ۲۷۴] و النص على العقل و استعماله مستمد من القرآن الذى طالما خاطب فطرة البشر «لتعتبر» بما تدركه الحواس من آيات الله، و تتدبرها، و تستصحبها، لترى آلاءه على عباده، و تشهد تقديره و تدبيره، فتقنعهم بوجوده و وحدانيته و قدرته، فتصبح الدليل ما بعده دليل. [۹۷] . و كما استعمل الصادق (عليه‌السلام) العقل، استعمل الحرية، التى منحها القرآن للإنسان: لا يكره الناس على أن يكونوا مؤمنين، و لا يستعمل فى جدالهم إلا التى هى أحسن. و لا فى وعظهم إلا الموعظة الحسنة... حتى ثبوت الألوهية لا يرضاه الله بإكراه. و العقل لا يعمل إلا حرا. و اذا أكره تعطل أو انحرف. و الجدال بعنف تعسف. و للعقل كرامة. و الكرامة هى الحرية. و الاعتبار بالآثار و الأشياء المحيطة بالناس، بالمشاهدة و الاستخلاص، ثم الحرية و الأمانة فى التفكير و التقدير، أى النزاهة الفكرية، هما صميم المنهج. و هو لا يتجلى قدر ما يتجلى فى الدلالة على الله جل ثناؤه. اليك مثلا من زنديق تحداه بقوله: كيف يعبد الله الخلق و لم يروه؟ قال الصادق (عليه‌السلام): رأته القلوب بنور الإيمان. و أثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان، و أبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب و إحكام التأليف. ثم الرسل و آياتها. و الكتب و محكماتها. و اقتصر العلماء على ما رأوه من عظمته دون رؤيته. فلنلاحظ أنه يبدأ بآثار الله التى يراها الناس فى نور الايمان، و يثبتها العقل و البصر، ثم يثنى بالرسل اللافتين انظار الناس الى آيات الله، و بالنصوص المحكمة التى جاءوا بها. و أخيرا يذكر ما يحصله العلم المحدود بما يراه العلماء من آثار ذلك. لكن الزنديق يستمر: أليس هو قادرا أن يظهر لهم. فيعرفوه فيعبد على يقين؟ قال الصادق (عليه‌السلام): «ليس للمحال جواب». قال الزنديق: فمن أين

أثبت أنبياء و رسلا؟ [صفحه ۲۷۵] قال الصادق (عليه‌السلام): «إنا لما أثبتنا أن لنا خلقا صانعا متعاليا عن جميع ما خلق، و كان ذلك الصانع حكيما، لم يجز أن يشاهده خلقه أو يلامسوه... ثبت أن له سفراء فى خلقه و عباده يدلونهم على مصالحهم...». و مثلا مما يروى محمد بن سنان: «حدثنى المفضل بن عمر قال: كنت ذات يوم بين القبر و المنبر - قبر الرسول بالمدينة - و أنا أفكر فيما خص به الله تعالى سيدنا محمدا (صلى الله عليه و آله و سلم)... إذ جاء ابن أبى‌العوجاء فجلس بحيث أسمع كلامه... فخرجت من المجلس محزونا متفكرا فيما بلى به الاسلام و أهله من كفر هذه العصابة و تعطيلها. فدخلت على مولاى (عليه‌السلام)، منكسرا فقال: مالك؟ فأخبرته. فقال: بكر على غدا... فلما أصبحت غدوت فاستؤذن لى فجلست و قمت بين يديه فقال: إن الشكاك جهلوا الأسباب و المعانى فى خلقه. و قصرت أفهامهم عن تأمل الصواب و الحكمة، فخرجوا بقصر علومهم الى الجحود... فهم فى ضلالهم و تجبرهم بمنزلة عميان دخلوا دارا قد بنيت أتقن بناء و فرشت بأحسن الفرش... و وضع كل شىء من ذلك موضعه... فجعلوا يترددون فيها يمينا و شمالا... محجوبة أبصارهم عنها... و الإنسان كالمالك لهذا البيت... ففى هذه دلالة على ان العالم مخلوق بتقدير و حكمة و نظام و ملاءمة. و أن الخالق له واحد. و هو هنا يدلل بما تلمسه الحواس على لزوم وجود ما لا تلمسه، فهو يستعمل العقل و الواقع معا. و يروى ابن‌بابويه القمى (۳۸۱): «كان ابن أبى‌العوجاء و ابن‌المقفع يلاحظان الجمع الذى كان يطوف بالكعبة فقال ابن‌المقفع لأصحابه: لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الانسانية إلا هذا الشيخ الجالس - و أشار الى جعفر بن محمد (عليه‌السلام) - فقام ابن أبى‌العوجاء الى الشيخ، و تحدث معه ثم رجع الى صاحبه و قال: ما هذا ببشر، ان كان فى الدنيا روحانى يتجسد إذا شاء ظاهرا، أو يتروح إذا شاء باطنا، فهو هذا... ظل يحصى لى قدرة الله التى فى نفسى، و التى لم أستطع رفضها، حتى ظننت أن الله قد نزل بينى و بينه. [صفحه ۲۷۶] و نزول الله بين الامام و بين ملحد، باعتراف الملحد، آية باقتدار المنهج على بلوغ غرضه، و قدرة مجادل جمع الآيات الربانية حججا بين يدى منكر أخذته حجة الأمر الواقع فأبلس. فاذا تصدى الإمام (عليه‌السلام) للمغالطين أزرى بالسفسطات، و صدمهم - كدأبه - «بالواقع»، فبهتتهم - كأن لم يشهدوها قبل - حقائق الأمر الواقع. طلب واحد من تلاميذه بيانا عن قول أبى‌شاكر الديصانى - زعيم الفرقة الديصانية - و هى طائفة ملحدة تنعم بحرية العقيدة فى بلدان الإسلام - ان فى القرآن ما يدل على ان الإله ليس واحدا، ففيه: «و هو الذى فى السماء إله و فى الأرض إله» فأجاب الامام بقوله: قل له ما اسمك فى الكوفة فيقول: فلان. فقل له ما اسمك فى البصرة؟ فيقول: فلان. فقل له فكذلك: ربنا فى السموات إله و فى الأرض اله و فى البحار إله و فى كل مكان إله. و فى كتاب الإهليلجة المروى عن طريق المفضل بن عمر يوظف الجدل العلمى، فى تنبيه الشكاك على أنهم فى بداية الطريق نحو المعرفة يقول: «أخبرنى هل رقيت الى الجهات كلها و بلغت منتهاها؟... فهل رقيت الى السماء التى ترى أو انحدرت الى الأرض السفلى فجلت فى أقطارها... فما يدريك لعل الذى أنكره قلبك هو بعض مالم تدركه حواسك و لم يحط به علمك... أما إذ خرجت من الإنكار الى منزلة الشك فإنى أرجو أن تخرج الى المعرفة». فلنلاحظ أنه يجادل الرجل بأن يرتفع من الإدراك المادى الى حيث يفكر، و انه يرفع المفكر الى حيث يستيقن، فيطالب الشاك بمزيد من التجربة المحسوبة الملموسة. ليصل من الشك الى المعرفة، و هى مراحل العلم الذى يصل اليه الناس بوسائل مأمونة و مجربة. و هذا المنهج «الواقعى» القائم على النزاهة الفكرية و الحرية العقلية هو الآن منهج [صفحه ۲۷۷] عالمى، يدين بن الجميع للقرآن و أصول الفكر الإسلامى على ما سنرى فيما بعد. [۹۸] . ففى حين استخلص علماء العالم القديم من اليونان «نظريات» عمموها ليخضعوا لها نتائج الاستنباط، و فرضت سيادة الفكر الأرسطى على العقل فى أوربا منطق النظريات و العمومات، و قاومت الكنيسة فى تاريخها القديم حرية التفكير، نرى القرآن ينبه «العقل» على الاعتبار بالمحسوس التى يتمثل فى «الواقع» و ان يرفض الاستسلام للعموميات التى تحكم مقدما أى أمر واقع، و يرشد الإنسان الى توظيف فكره بحرية. بل نرى الامام الصادق (عليه‌السلام) يعتبر «التقليد» مذلة عقلية «و استعبادا للنفس»، و يحاجج فى ذلك قرآنيا، و يفسره تفسيره الرائع. عن أبى‌بصير عن أبى عبدالله الصادق (عليه‌السلام) فى معنى «اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله» قال: «أما و الله ما دعوهم الى عبادة، ولو دعوهم ما أجابوهم، و لكن أحلوا لهم حراما و حرموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون». و فى تعبير آخر يقول؛ عن

أبی‌بصیر عن أبی‌عبدالله الصادق (علیه‌السلام)؛ اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دول الله قال (علیه‌السلام): «و الله ما صاموا لهم و لا صلوا، لکن [صفحه ۲۷۸] أحلوا لهم حراما و حرموا علیهم حلالا- فاتبعوهم». فالاتباع دون فهم، فی الحلال و الحرام، أو غیرهما، ترک لزمام النفس فی قبضة الغیر، و إهدار لحریتها و قدرتها، و تلک عبادة لغیر الله، و لیس بعد ذلک کفر. و لیس أبلغ من هذه العبارات فی الدعوة للحریة الفکریة و الحث علی الاجتهاد و توظیف العقل. یقول الشافعی عن مکانة علی فی علوم الاسلام: «کان علی کرم الله وجهه قد خص بعلم القرآن و الفقه لأن النبی (صلی الله علیه و آله و سلم) دعا له. و أمره ان یقضی بین الناس. و کانت قضایاه ترفع الی النبی فیمضیها». و لقد آلی علی نفسه بعد الفراغ من تجهیز الرسول (صلی الله علیه و آله و سلم) ألا یرتدی إلا للصلاة أو یجمع القرآن - کما أسلفنا - فجمعه مهتما بأمور «أصولیة» فی الشریعة و فقهها تتعلق بالمحکم و المتشابه، أی بما لا یحتمل الاجتهاد و ما یحتمله، و بالنصوص التی نسخت و التی هی واجبة التطبیق، و بالمطلق منها و الذی یحتمل التخصیص، و العزائم و الرخص، و بالفروض و المندوبات، و فیها المحرم و المکروه، و ما هو تهذیب للأمة من فضائل و آداب. [۹۹] . [صفحه ۲۷۹] و فی «نهج‌البلاغة» طائفة من أصول الفقه التی ینبه علیها أمیرالمؤمنین (علیه‌السلام) و هذه و تلک أساسیات فی أصول الفقه. و الأصول أدلة فی طریق أو نهج. و لا إمامة إلا بمنهج. و الفقه السنی یعتبر الشافعی أول من اتجه الی تجلیة أصول الفقه فی کتابه (الرسالة) و قد وضعه، و الناس یتحلقون حوله، فی جوار الکعبة بعد سنة ۱۸۴. ولیس غریبا ان نجد النبوغ الشافعی یتلاقی و أمورا أساسیة أهمت من بادئ الأمر علی بن أبی‌طالب (علیه‌السلام)، أو تجد أفکارا «علویة» أو آراء «شیعیة» تظهر بقوة فی مذهب الشافعی و آرائه. و الشافعی من ابناء عمومة النبی و علی، یباهی بحب أهل‌البیت (علیهم‌السلام) و یتحدی به، و هو إمام فی اللسان العربی، له لغة خاصة تعلنها قوامیس اللغة... طوعت له إمامته فیها أن یفهم القرآن فهم الذین نزل فیهم. و اتصال اللغة و البلاغة بالفقه فی الاسلام أساسی، لأن الفقه فهم للقرآن؛ و القرآن عربی. فالشافعی فی استنباطه للأصول من القرآن کان موجها بفهم عربی عمیق للکتاب الکریم، الذی صنعت علی أسسه العقلیة الاسلامیة. یقول أحمد بن حنبل - و هو الإمام الرابع لأهل السنة فی الفقه، فوق أنه إمام فی اللغة: «الشافعی فیلسوف فی أربعة أشیاء: فی اللغة، و اختلاف الناس، و المعانی، و الفقه». و هذه هی الأمور الأساسیة فی کل فقه. و سواء انبثقت الأصول من اهتمامات علی (علیه‌السلام)، فی جوار قبر النبی (صلی الله علیه و آله و سلم) بالمدینة غداة عروج النبی الی الرفیق الأعلی، أو ممن نحوا ذلک النحو من الشیعة، أمانبثقت من «رسالة الشافعی» فی جوار البیت الحرام بمکة... و سواء اطلع الشافعی علی کتب لأهل البیت (علیهم‌السلام) أو علی آرائهم، أم لم یطلع، فالأصول قرآنیة المبدأ و المنتهی، مشتقة من نصوص القرآن و السنة و منهاجهما و أسلوبهما. و من ذلک شرفها فی الفکر الدینی و العلمی. و حریة التفکیر توجب «الاجتهاد» علی أساس العلم کما یقرر الشافعی فی «رسالته»، مع النزاهة الفکریة الکاملة، غیر المقیدة إلا بما تثق بوجوده، و تحقیق المناط [صفحه ۲۸۰] و تنقیحه، و التدقیق فی الفرع و فی الأصل؛ و السند، فیما لیس قطعی الورود فی السنة أو قطعی الدلالة فیها أو فی الکتاب العزیز... و مع اتخاذ الأهبة. و هذه کلها أمور یوجبها القرآن و السنة. و الحضارة العالمیة مدینة بهذا المنهج للإسلام بما طور من فکر الأمم التی دانت به، فی أربعة عشر قرنا، و من أسالیبها، و وسائلها العلمیة، حتی صبغ فکرها، فی شکله و موضوعه، صبغة الله... و من أحسن من الله صبغة! و کما ارتفع العرب درجات بالإسلام انتفع به کل الأمم ممن أسلموا، و ممن لم یسلموا. و من هنا کان الاسلام خیرا للعالم کله. فتلک خصائص رسالته العالمیة، و الأبدیة. و السمو، و الطریق الیه مفتوحة حتی یرث الله الأرض و من علیها. و ما تقدم الإنسانیة إلا حاصل دفع الله الناس بعضهم ببعض، و أخذ بعضهم بید البعض - و من أجل ذلک اختص الفقه الاسلامی بمیزة القدرة علی إحداث التطور و مواکبته، مع الیسر و حفظ الدین، «بالاجتهاد» الذی أمر به الله علی أصول القرآن و السنة. [۱۰۰] . أعلن علی علیه‌السلام تمسکه «بالاجتهاد» إذ تولی إمارة المؤمنین بعد عمر ابن‌الخطاب. و من أجل ذلک وحده، لم یبایع له عبدالرحمن بن عوف. و أعلن عثمان التزامه بأن «یتبع» عمل السابقین فجعل عبدالرحمن یبایع له. «فالاجتهاد» شعار من شعارات «علی» من بادئ الأمر، و شعارات الشیعة من بعده، و من ذلک لم یصخ عظماؤهم الی ذلک الصوت البغیض الذی أعلن إقفال باب الاجتهاد فی القرن الرابع الهجری، لتنفتح أبواب التقلید، و تخبو شعلة الفکر، بل شهد

الشيعة فى القرن الرابع ذاته نهضة شاملة تتراءى فى أعمال عظمائهم. فالعقل أصل؛ [صفحه ۲۸۱] و الأصل لا يتعطل. و ما الاجتهاد إلا الحرية الفكرية فى استخلاص النتائج، و النزاهة العلمية أو الاعتبار «بالواقع و الصحيح». و هاتان العجلتان اللتان تحملان موكب الفكر الإنسانى المنجب، هما شعار مجالس الامام الصادق (عليه‌السلام) كما سلف البيان؛ بل هما أساس ما استخلصه تلميذه جابر بن حيان، من تجاربه العلمية، و عنه انتقل الى أوربا المنهج التجريبى، أو منهج «التجربة و الاستخلاص» كما يسمى فى العصور الحديثة. و من نزاهة المنهج فى الفقه، كان الإقرار بضعف الإنسان. فليس الاجتهاد مقابلا للحقيقة، و انما هو أحسن أداة توصل المرء اليها. يقول أبوحنيفة: «علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه كان أولى بالصواب منا». و لما قال الشافعى (الاجتهاد بالقياس) و إنهما اسمان لمعنى واحد، و استطرد فقعد له القواعد، ليجرى علماء أهل السنة فى مضماره، صلى الأصوليون من أهل السنة بعده فى حلبة الفكر العالمى، منذ القرن الثانى للهجرة، و التاسع للميلاد، فوضعوا القواعد التى لم يبدأ فى تعريفها الأوربيون إلا بعد ثمانية قرون تحت عناوين اطراد العلة... و انها اذا توفرت ثبت الحكم، أو قانون اطراد الحوادث لوجود «نظام» فى الكون، أو تناسق تخضع له الأشياء، طردا و عكسا، باطراد أسبابها و ملابساتها فيها. و هذا ما قرره الأصوليون المسلمون عند تماثل العلل لاستنباط الأحكام. غير أن الأصوليين المسلمين فاقوا فى تمحيصهم «جون ستيوارت مل» فى أبحاثه. إذ تعمقوا فى مسالك العلة، و دققوا فى الاستقراء و الاستنباط، مع الاحتياط الكامل و النزاهة الفكرية المثلى. فكان عندهم لكل ركن من أركان «القياس» أبحاثه، و ضمانات صحته، باتساع الاختبار و امتحان الاستخلاص، و ايجاب أن تجمع الأصل «المقيس عليه» و «الفرع» «المقيس» «علة»، لتنتج ثمرة القياس و هى «الحكم». و أولى الأصوليون العلة و تخريجها اهتماما منقطع النظير، فشرطوا لها مسالك نقلية من نص أو إجماع، أو عقلية من تحقيق المناط بوجود العلة، و تنقيح المناط بحذف ما لا يدخل فى الاعتبار، و بطرائق السبر و التقسيم و الطرد، لحصر الأوصاف التى تصلح [صفحه ۲۸۲] للعلية، و استبعاد ما لا يصلح منها، و مقارنة الأوصاف للحكم، و دوران العلة مع المعلول وجودا و عدما الخ... مع تكامل اختبار الوقائع و سلامة النتائج ثم قبولها. كل أولئك دون تأثير لمقررات أو نظريات سابقة. و مع التقرير بأن ما يصل اليه المجتهد ليس الحقيقة و إنما هو الراجح بغلبة الظن، فإن اجتهادا آخر قد يغيره. و الاجتهاد مفتوح. و قانونه الحرية. فإذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران. و اذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر. و على هذا التحديد أخذ المنهج التجريبى فى الوجود: تمحيص الواقعة و الاستخلاص بحرية و نزاهة. و القرآن يحوى جميع صور الاستدلالات العقلية؛ و منها قياس الأولى و فى هذه الصور تبرز طريقة الاعتبار بآيات الله المادية الواقعية المحيطة بالناس و التى تحسها حواسهم. و كذلك كانت طريقة الأنبياء فى الاستدلال على الله بلفت النظر الى آياته أو بقياس الأولى، و هو ما يكون الحكم المطلوب فيه أولى بالثبوت من الصورة المذكورة فى الدليل الدال عليه – و كان أحمد بن حنبل يستعمل هذا القياس، و هو القائل إنه لا يصار الى القياس إلا عند الضرورة. و ابن تيمية يجعل للفطرة مكانها فى الميزان الذى تعرف به الأحكام، و يروى ان معرفة الاختلاف و التماثل أمر فطرى. و استعماله ضرورى. و الميزان عنده هو العدل، و ما يعرف به العدل... و انه هو القياس العقلى القرآنى. [۱۰۱] . [صفحه ۲۸۳] و الوزير الصنعانى (۸۴۰) صاحب كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان)، يذكر ان أئمة أهل‌البيت لم يعرفوا المنطق (اليونانى و الإرسطاطاليسى) و لم يصوغوا أدلتهم على التوحيد فى صور منطقية. و انما فى «منهج قرآنى أساسه الاعتبار». و ان الامام عليا (عليه‌السلام) لم يعرفه فى خطبه و مواعظه، و ان الأئمة قدموا أدلة التوحيد من غير ترتيب مقدمات المنطق و لا تقاسيم المتكلمين. و يقرر الوزير الصنعانى أن أسلوب المسلمين أرجح و أحجى من أسلوب المناطقة: «فهذا أسلوب الأنبياء و الأولياء و الأئمة و السلف فى النظر. و خالفهم بعض المتكلمين و أنواع المبتدعة فتكلفوا و تعمقوا و عبروا عن المعانى الجلية بالعبارات الخفية». و الذين ينكرون القياس، من أهل السنة، كداود (۲۷۰) امام أهل الظاهر و ابن‌حزم (۴۵۶)، أو من المعتزلة كالنظام (ابراهيم بن سيار شيخ الجاحظ)، يعتمدون على النص وحده – و قد أسعفتهم النصوص فى إقامة مذهب بتمامه. و لم تخذلهم قدرتهم الفقهية فى استخراج الفقه باستعمال كليات الشريعة فى الاجتهاد. فدل هؤلاء على أن نصوص الكتاب و السنة تجعل كليات الشرع و قواعده كافية «للعقل» ليبلغ بالفقه الاسلامى مبالغه، فيحقق أن الله تعالى ما فرط فى الكتاب من شىء. فلكل واقعة

حكم. و على المجتهد طلبه بالعقل و النقل معا. و الشافعى من حرصه على العمل بهما معا، يندد «بالاستحسان». و يسميه تلذذا. مع ان الاستحسان فى جملة أمره استعمال لنص خاص أو قاعدة متعلقة «بالواقعة» [صفحه ۲۸۴] المطلوب لها الحكم. [۱۰۲] . و أهل القياس مجمعون على ان المنهى عنه هو الاجتهاد فى مقابل النص القطعى، أو إطلاق العنان لاستخراج الأحكام دون تقيد بالنصوص الخاصة أو العامة. و هم يجمعون على قياس العلة و يختلفون فيما عداه. و من المعانى الجامعة التى تترد فى أبواب الاجتهاد أن أحكام الشريعة جميعا - حتى فى الأعمال غير التعبدية - فيها معنى تعبدى... أى حق لله، يطاع فيه الله و يعبد. فمن أحسن بيعه و شراءه و إجارته و إعارته، أو قضاءه أو فتواه... الخ فهو يطيع الله و يستحق ثوابه. و من ساءت معاملته فهو خاسر فى أمرين، قضاء الناس ضده، و غضب الله عليه، لأنه يعصى الله فيما عمل من عمل غير صالح. و من ثمة تأثير الجانب الروحى أو الوازع الدينى فى الحياة الواقعة، و فى الدراسة العلمية، و فى طلب الأحكام الفقهية، فى المجتمع الاسلامى، و هو امتياز لا- تبلغه الأمم الأخرى أو مجتمعاتها. و فى منهج الاعتبار بالواقع أو بالآثار الدالة على المطلوب «واقعية» أدنى الى التصديق من مجازفات الفكر. و فى الواقع المادى ضمان أن لا- يبعد الاستخلاص من الملموس و المحسوس بالحواس الخمس. و هذه الواقعية أو النزاهة الفكرية تسبق واقعية «أوغست كومت» [۱۰۳] بقرون عشرة، و عقلانية «ديكارت» بقرون تسعة، كما تسبق «جون سيتوارت مل» [۱۰۴] فى نظرية اطراد العلل بقرون عشرة. و بهذه القرون [صفحه ۲۸۵] يقاس سبق الحضارة الاسلامية. والى جوار المشاهدة الواقعية و التحقيق النزيه و الاستخلاص الصادق، يضيف الفقه الاسلامى ضمانا جديدا هو اعتبار الاجتهاد سعيا لبلوغ الحق لا بلوغا له. فثمة عوامل أخرى قد تكون موجودة أو قد يدركها عقل آخر فتجعله أدنى الى السداد، أو تجعله يصل الى السداد. و هذا الاحتمال الذى يلازم الاجتهاد يحتمل تداخل العناصر. فالنتائج نسبية حتى تقطع التجربة بأنها لا تتخلف أبدا... و هى فى الفقه تبقى نسبية حتى تبلغ الحكم الذى شرعه الشارع - فشرع الله هو الثابت... الذى يقصده المجتهدون. و ربما كان الكلام المنقول عن «جابر بن حيان» أوضح كلام فى الدلالة على المنهج التجريبى الذى تعلمه فى مجلس الامام أو من كتب الامام (عليه‌السلام). يخاطب جابر الامام فى مقدمة كتابه الأحجار بقوله: «و حق سيدى - لو لا ان هذه الكتب باسم سيدى - صلوات الله عليه - لما وصلت الى حرف من ذلك الى الأبد». و يقول جابر فى كتابه الخواص عن طريقته: «اتعب أولا تعبا واحدا. و اعلم. ثم اعمل. فإنك لا تصل أولا. ثم تصل الى ما تريد». و فى كتابه السبعين يقول: «من كان دربا (مجربا) كان عالما حقا. و من لم يكن دربا لم يكن عالما. و حسبك بالدربة فى جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق و غير الدرب يعطل». و يحصر جابر طريقته فى عبارته المأثورة: «عملته بيدى، و بعقلى، و بحثته حتى صح، و امتحنته فما كذب». و فى هذا المقام يقول استاذ الفلسفة الاسلامية فى جامعة القاهرة، د. زكى نجيب محمود: «... فلو شئت تلخيصا للمنهج الديكارتى [۱۰۵] كله لم تجد [صفحه ۲۸۶] خيرا من هذا النص الذى أسلفناه عن جابر». و يرى الصيدلى المعاصر د. محمد يحيى الهاشمى ان «الواقعية» هى التى سوغت لجابر أن يقسم القياس أو الاستدلال و الاستنباط الى ثلاثة أقسام - المجانسة و مجرى العادة و بالآثار - و من دلالة المجانسة دلالة الأنموذج كمن يريك بعض الشيء دلالة على كله، و هو استدلال غير قاطع إذ الأنموذج لا يوجب وجود شيء من جنسه يساويه تماما فى الطبيعة و الجوهر. و كذلك دلالة مجرى العادة فإنه - كما يقول جابر - «ليس فيه علم يقين واجب اضطرارى برهانى اصلا، بل علم إقناعى يبلغ ان يكون: أحرى و أولى و أجدر لا غير، لكن استعمال الناس له و تقبلهم فيه و استدلالهم به و العمل فى أمورهم عليه أكثر كثيرا جدا... و ليس فى هذا الباب علم يقين واجب. و انما وقع منه تعلق و استشهاد الشاهد على الغائب، لما فى النفس من الظن و الحسبان فان الأمور (ينبغى أن تجرى على نظام و مشابهة و مماثلة) فانك تجد أكثر الناس يجرون أمورهم على هذا الحسبان و الظن». يقول جابر: «... و بالجملة فليس لأحد أن يدعى انه ليس فى الغائب إلا مثل ما شاهد... إنما ينبغى له أن يتوقف حتى يشهد البرهان بوجوده من عدمه...». فهو ينقد القياس من الناحية المنطقية أو الرياضية ليترك المجال مفتوحا للحقائق القاطعة التى تثبت بالتجارب. و حسبك دليلا على دقة طريقة التدليل بآثار الأشياء، أن تجدها احدى المسلمات فى المعامل و الجامعات، فى القارات جميعا، منذ بدأ الأخذ بطريقة التجربة و الاستخلاص حتى اليوم. و ستبقى أبدا. و عندما توضع آراء جابر [۱۰۶] فى القرن الثانى للهجرة

الى جوار آراء «الحسن بن [صفحه ۲۸۷] الهيثم» (۴۳۰ - ۳۵۴) بعد أكثر من قرنين، و قد عمل فى خدمة الدولة الفاطمية، و هى دولة من دول الشيعة، و له ۴۷ كتابا فى الرياضيات و ۵۸ كتابا فى الهندسة، تتأكد لنا طريقة التجربة و الاستخلاص التى سلكها الامام الصادق (عليه‌السلام) و أتقن العمل بها و وصفها جابر و الحسن. و قد أحسن الحسن التعبير عنها بمنهج علمى واضح الفحوى محدد العبارات. [۱۰۷] . [صفحه ۲۸۸] و يشهد بها من أهل أوربا دراپير فى كتابه (النزاع بين العلم و الدين) فيقول: «كان الأسلوب الذى توخاه المسلمون سبب تفوقهم فى العلم. فإنهم تحققوا أن الأسلوب النظرى لا يؤدى الى التقدم. و ان الأمل فى معرفة الحقيقة معقود بمشاهدة الحوادث ذاتها. و من هنا كان شعارهم فى أبحاثهم هو (الاسلوب التجريبى). و هذا الأسلوب هو الذى أرشدهم الى اكتشاف علم الجبر و غيره من علوم الرياضة و الحياة. و إننا لندهش حينما نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من ثمرات العلم فى هذا العصر». و القارئ يلاحظ فى هذا المقام أمورا؛ منها: الأول: أن جابرا يقرر - إذ يقسم بالإمام (عليه‌السلام) - استرشاده فى طريقته هذه به. و ان علمه منه هو سبب توفيقه. ولو كان قد تلقى الطريقة عنه دون لقاء له لما نقص الفضل. فذلك شأن العلماء فى كل زمان. الثانى: ان ممارسة جابر لطريقته مع إقرار الامام (عليه‌السلام) له، قد ضبطتها مدارسة أبى‌حنيفة للإمام. إذا انبهت القياسين على وجوب ضبط طريقة القياس بوضع حدود له و استبعاد ما ليس منه. [۱۰۸] . [صفحه ۲۸۹] و ظاهر من قبول أبى‌حنيفة لنهى الامام عن القياس و عدم مجادلته للامام بكلمة، أن أباحنيفة أدرك أن النهى عن القياس نهى عن القول فى الدين بالرأى، و ليس مقصودا به النهى عن الاجتهاد و استعمال العقل. و ظاهر أن الإمام بلغ مراده من أبى‌حنيفة و ممن تابعوه فى القياس. فلم يقل أحد منهم فى الدين برأيه. و التزم القائلون بالقياس كل الدقة، بعد إذ جاء الشافعى و فصل شروطه تفصيلا. الثالث: انه يظهر من محاورة الامام (عليه‌السلام) لأبى‌حنيفة يوم استأذن عليه فحجبه فدخل مع أهل الكوفة التى سلف ذكرها أمران: ۱ - ان الأحكام التى ذكرها الامام لأبى‌حنيفة، وارد فيها نصوص، مما يجعل لتحريم القول فى الدين بالرأى أو مطلق القياس حجة مسلمة. ۲ - ان الإمام ذكر أباحنيفة بقياس إبليس، إذ أعلن انه يخرج عن طاعة الله برأيه. فكان رأيه عصيانا صريحا، لأمر صريح، و خروجا على نص وارد على سبيل الجزم. و ليس عجيبا و إنما هو التواتر على استعمال العقل، أن يقرر أئمة أهل السنة جميعا أن باب الاجتهاد مفتوح إذا لم يكن ثمة نص، و ان يجمع علماؤهم أن أحدا لا يقول الكلمة الأخيرة فيه، و أن يكون هذا منهج الفقه الشيعى الذى دأب عليه علماؤه. يقول ابن‌إدريس (۵۹۸) من فقهاء الشيعة المتقدمين: «اذا فقدت الثلاثة - الكتاب و السنة و الإجماع - فالمعتمد عند المحققين التمسك بدليل العقل». و من فحولهم المحقق نجم‌الدين الحلى (۶۷۶) يقسم الدليل العقلى قسمين؛ الأول: يتعلق بالخطاب - و فحواه و لحنه و دليله -، و الثانى: ما ينفرد العقل بالدلالة عليه لحسنه أو قبحه. و الشهيد الأول محمد بن مكى (۷۸۶) يوسع فى القسم الأول و يفصل فى القسم الثانى فيزيد البراءة الأصلية، و ما لا دليل عليه، و الأخذ بالأقل عند التردد بين الأكثر و الأقل، و الاستصحاب. [صفحه ۲۹۰] و ربما أجمل التفصيل فى قول بعض المتأخرين [۱۰۹] من الاصوليين عن الدليل العقلى: إنه كل حكم للعقل يوجب القطع بالحكم الشرعى. فالدليل العقلى يوجب القطع. و ليس بعد القطع حجة. بالعقل أدرك الإنسان وجود ربه، ودان بالرسالات، و أدرك المعانى و العلل، و قدر على تمييز القبيح و الحسن بفطرة البشر. فالقبح مفسدة و الحسن مصلحة. [۱۱۰] و ما يدركه العقل منهما هو حكم عقلى يستقل الإنسان بتقريره. و ما يستقل العقل بتقريره من مصلحة أو مفسدة هو مصلحة أو مفسدة شرعية. و على كليهما تدور الأحكام. فالشرع هاد للبشر، و البشر مفطورون على استعمال نعمة الشارع. و لا يمنع هذا التأييد الشرعى للعقل أو التأييد العقلى للشرع، أن توجد بعض مصالح يراها الشرع و لا يفطن لها العقل العادى فيتردد أمامها بظنه. و اذا كان أصل استعمال العقل يسع كل وسائل النظر، فالفقيه ملزم بالاحتياط - و هو أول ما تستوجبه النزاهة العقلية - لوجود احتمال التزاحم و التعارض. فلا تجوز المجازفة بالتحليل و التحريم مع وجود هذا الاحتمال... و إنما يلجأ الفقيه لاستخراج الحكم، عند عدم ظهور النص، الى استعمال العقل، و بقواعد يمليها العقل و النقل، مثل وجوب دفع الضرر المحتمل، و مثل عدم العقاب بلا بيان. و العقل إذ يقرر قبح العقاب بلا بيان، يسوغ للمكلف أن يصنع ما يراه عند عدم البيان؛ و بتعبير آخر تصبح الإباحة هى الأصل. و الحرية هى الأصل، حتى تتقيد بنص. يقول الامام الصادق (عليه‌السلام): «كل شىء لك حلال

حتى تعلم أنه حرام بعينه». و من هنا اتسع مجال النشاط الإنسانى. فلا حرام إلا ما حرم الله. [صفحه ۲۹۱] و النص نقطة الثبات، أو حجر الزاوية فى الفقه. فلا اجتهاد مع وروده. و التزام فحواه أو التزام مقاصد الشارع التى ينطق النص بها، أو يدل على معناها مجموع النصوص، لا يدخل بالمصلحة أو بالقياس شيئا على الشرع ليس منه. و الامام الصادق (عليه‌السلام) يفتح أبواب رحمة الله و يرفع الحرج و يبيح الرخص. يقول: «الوضوء نصف الايمان». و يقول: «إنه توبة من غير استغفار». و مع هذا سئل عن رجل يكون معه الماء فى السفر و يخاف قلته؟ فقال: «يتيمم بالصعيد و يستبقى الماء». و يقول (عليه‌السلام): «من خاف عطشا فلا يهريق قطرة. و ليتيمم بالصعيد. فالصعيد أحب الى». سئل عن رجل ليس معه ماء و الماء عن يمين الطريق و يساره غلوتين أو نحو ذلك (الغلوة مسافة مرمى السهم)؟ فقال: «لا آمره أن يغرر بنفسه فيتعرض له لص أو سبع». و سئل عن رجل يمر بالركية (البئر) و ليس معه دلو. قال: «ليس عليه أن يدخل الركية، لأن رب الماء هو رب الأرض. فليتيمم. إن الله جعل التراب طهورا كما جعل الماء طهورا». و يقول: ان أباذر قال: يا رسول الله هلكت. جامعت أهلى على غير ماء. فقال (صلى الله عليه و آله و سلم): «يا أباذر يكفيك الصعيد عشر سنين». و سئل عن رجل به القروح و الجراحات فيجنب؟ قال: لا بأس بأن يتيمم و لا يغتسل. و الفقهاء يقولون: إن نفى الحرج فى الشريعة من باب الرخصة لأن تحمل الألم و المشقة غير منهى عنه. و نفى الضرر من باب العزيمة لأن الضرر منهى عنه. يقول تعالى: «و لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة». يقول الامام الصادق (عليه‌السلام): «لا صلاة إلا الى القبلة»، فقيل له: أين حد القبلة. قال: «ما بين المشرق و المغرب كله قبلة» و يشرح ذلك قوله: «يجزى التحرى أبدا إذا لم يعلم وجه القبلة». و الفقهاء يصرحون بالإذن لمن يشك فى الدليل بأن يستعمل قواعد الشرع من [صفحه ۲۹۲] أصول الحل و الطهارة و التخيير و استصحاب الحال - و معناه استدامة ما كان ثابتا، و نفى ما كان منفيا - فمن شك فى قيامه بالوضوء قبل أن يصلى فعليه أن يتوضأ. لأن الوضوء شرط واجب قبل الصلاة، و الحال قبل الوضوء للصلاة حال تقتضى الوضوء. و من توضأ ثم شك فى نقض الوضوء فهو على وضوء. و من شك فى أنه توضأ بعد أن دخل فى الصلاة قطعها و توضأ، ليحرز شرط الصلاة. فإن شك بعد إتمام الصلاة فليس عليه أن يعيدها. فقد فرغ منها. لكن عليه أن يتوضأ لصلاة تالية لأنه لم يبدأها و لم ينته منها. أى لم يتجاوز الشىء الذى شك فيه الى غيره. سئل الامام الصادق (عليه‌السلام) عن رجل شك فى الأذان، و قد دخل فى الإقامة؟ قال: يمضى. قيل له: شك فى الإقامة، و قد كبر؟ قال: يمضى... و فى التكبير، و قد قرأ؟ قال: يمضى... و فى القراءة، و قد ركع؟ قال: يمضى... و فى الركوع، و قد سجد؟ قال: يمضى... الى ان قال: «اذا خرجت من شىء ثم دخلت فى غيره فشككك ليس بشىء». يقول: «اذا شككت فى شية من الوضوء و قد دخلت فى غيره فليس شككك بشىء. انما الشك اذا كنت فى شىء لم تجزه». و سئل عن رجل يشك كثيرا فى صلاته، فقال فيما قال: «ان الشيطان خبيث معتاد لما عود. فليمض أحدكم فى الوهم» أى لا يحفل به... و بنى الفقهاء على ذلك قاعدة: (لا شك لكثير الشك). يقول الامام الصادق (عليه‌السلام): «من كان على يقين ثم شك فلا ينقض اليقين بالشك». و هذا اعلان عن دليل استصحاب الحال، و اعتماد الواقع و الظاهر كمن استأجر ارضا و شاع أمره فى الناس يعامل معاملة المستأجر، و لا يقبل منه ادعاء الملك إلا بدليل. و تتعاون مع هذا الأصل أصول أخرى مثل أصل البراءة و الإباحة حتى يرد منع الشارع. و يستثنى الفقهاء الشيعة من المنع من القياس فى حالتين: ۱ - حالة العلة المنصوصة... و كثير ما هى فى الكتاب و السنة. ۲ - حالة مفهوم الأولوية، كقول أف للوالدين اذ نهى الله عنها، فمن باب أولى ما هو أشد. [صفحه ۲۹۳] و يفرعون على العمومات و المبادئ الكلية الواردة فى النصوص و الإجماع... كمثل قواعد الوفاء بالعقود، و درء الحدود بالشبهات، و جواز كل شرط إلا أن يحل حراما أو يحرم حلالا. و على هذه الكليات مدار الفقه. و الاجتهاد بها واجب. و بالاجتهاد بلغ الفقه الشيعى ما بلغه فقه أهل السنة؛ كل على شاكلته. ندب الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) عليا (عليه‌السلام) الى اليمن. فسأله الامام: أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ - أى اجتهد رأيى فيما بين يدى مما ليس بين يديك - قال عليه الصلاة و السلام: «بل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب». فهو يأذن له أن يجتهد، أو يأمره أن يجتهد. و يقول ابن‌مسعود للقضاة و المفتين و المجتهدين: «من عرض له منكم قضاء فليقض بما فى كتاب الله. فان لم يكن فى كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه (صلى الله عليه و آله و سلم). فإن جاء أمر ليس فى

كتاب الله و لم يقض به نبيه فليقض بما قضى به الصالحون - فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله و لم يقض به الصالحون فليجتهد رأيه. فإن لم يحسن فليقم و لا يستحى». و الشيعة فى اجتهادهم يعملون بأصل الاحتياط الواجب، مع العلم بالتكليف الملزم، و أصل التخيير اذا تردد الفعل بين الوجوب و الحرمة. و يرون الحسن و القبح أمرين «عقليين» ثابتين بالعقل. و ما أمر الشارع و نهيه فى صددهما إلا لأن العقل يأمر بهما. فلا حاجة إذن لسؤال الشرع ابتداء، بل يسأل العقل. فعدم العلم بالنهى كاف للحل. و لا تحتاج الإباحة لدليل ، و انما يحتاج ادعاء عكسها الى دليله. فالاختراعات الحديثة مباحة استنادا الى ما ثبت شرعا من أن كل شىء مطلق حتى يرد فيه نهى. و الجواز فى التصرف مطلق لا- يقيده إلا التثبت من حق الغير. فالمعاملات، أية كانت، صحيحة مالم تزاحم حقا عاما أو خصا أو يوجد نص أو معنى يحرمها. [صفحه ۲۹۴] و فى كثير من الأحيان، يكون عمل الفقيه مجرد تحكيم النصوص بعضها على بعض، مثل قوله تعالى: «و ما جعل عليكم فى الدين من حرج»، و قول الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم): «لا ضرر و لا ضرار» و قاعدة «ان الله يأمر بالعدل و الإحسان» و هذه أمثال للأدلة الحاكمة على أدلة سواها. فالعمل بها ليس تخصيصا للنص بالمصلحة، و انما هو حكومة نص على نص. أى رفع اليد على الكتاب و السنة بدليل منهما - أيضا - مجعول فى ظرف خاص يزاحم الدليل الآخر أو يحكم عليه. و الشيعة إذ يبنون فهمهم على ان الله يأمر بالفعل لمصلحة، و ينهى عن الفعل لمفسدة، لا يعتبرون مخالفا للأمر و النهى من يوجد فى حالة اضطرار، و انما يشترطون أن تكون المخالفة على قدر الضرورة، و ارتفاع المسوغ حالة انتهاء الاضطرار، أو عند تجاوز المقدار. يقول تعالى «و ما جعل عليكم فى الدين من حرج» و «يريد الله بكم اليسر و لا- يريد بكم العسر» و «يريد الله ان يخفف عنكم». و بالانتفاع بهذه الرخص يظهر ان الاضطرار نسبى. بل يظهر انه ليس إلا خيار، و فيه إرادة. و الإجبار هو ما يعدم الاختيار بما يزيل من القدرة - و هى شرط التكليف. فالمضطر فى الواقع «يختار» الفعل لعامل خارجى أو داخلى (نفسى)... كمن لا يملك إلا ثوبا واحدا يلبسه ليستره (و يختار) أن يبيعه ليأكل، إذ يؤثر العرى على الجوع إذا لم يقدر أن يواجه جوعه بطريق آخر. و لا عجب أن تتآمر كثرة الأوربيين بالصمت عن مناهج العلم الحديث المنقولة من نهج المسلمين، كدأبهم فى التنكر لآباء العلوم الرياضية و الهندسية، و المهد الذى نشأت فيه. فذلك استمرار للحرب الصليبية، و إخضاع للحقائق العلمية للتعصب الدينى المتأصل فى الحضارة الأوروبية. فهم لا يذكرون أن فيثاغورس و ارخميدس و إقليدس آباء الرياضيات ألقوا الدروس و تلقوها فى مدرسة الإسكندرية بمصر - و لا يذكرون أنهم لم يعرفوا كتاب إقليدس المسمى (الأساسيات) أو (العناصر) إلا عن [صفحه ۲۹۵] نسخة عربية. و لا يذكرون أن أوروبا المعاصرة أخذت عن العلم الاسلامى المنهج العلمى المعاصر، أى منهج التجربة و الاستخلاص. يقول الشاعر محمد إقبال [۱۱۱] إن دبرنج Dubring يقول: «ان آراء روجير بيكون أصدق و أوضح من آراء سلفه... و من أين استمد روجير بيكون دراسته العلمية؟ من الجامعات الاسلامية فى الأندلس». و يقول بريفو [۱۱۲] Robert Briffault: «إنه لا ينسب الى روجير بيكون (۱۲۹۴) [۱۱۳] و لا [صفحه ۲۹۶] الى سميه الآخر فرانسيس بيكون (۱۶۲۶) أى فضل فى اكتشاف المنهج التجريبى فى [صفحه ۲۹۷] أوربا. و لم يكن روجير بيكون فى الحقيقة إلا واحدا من رسل الحضارة الاسلامية و المنهج الاسلامى الى أوربا المسيحية. و لم يكف بيكون عن القول بأن معرفة العرب و علمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة... و لقد انتشر منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون و تعلمه الناس فى أوربا يحدوهم الى هذا رغبة ملحة». و يضيف: «انه ليس هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربى لم يكن للثقافة الاسلامية عليها تأثير اساسى، و ان أهم أثر للثقافة الاسلامية هو تأثيرها فى العلم الطبيعى و الروح العلمى و هما القوتان المميزتان للعلم الحديث». ثم يضيف: «ان ما يدين به علمنا للعرب ليس ما قدموه لنا من اكتشاف نظريات مبتكرة غير ساكنة. ان العلم مدين للثقافة الاسلامية بأكثر من هذا. فقد أبدع اليونان المذاهب و عمموا الأحكام. لكن طرق البحث و جمع المعرفة الوضعية و تركيزها و مناهج العلم الدقيقة و الملاحظة المفصلة العميقة و البحث التجريبى كانت كلها غريبة عن المزاج اليونانى... ان ما ندعوه بالعلم ظهر فى أوربا نتيجة لروح جديدة فى البحث، و لطرق جديدة فى الاستقصاء... طريقة التجربة و الملاحظة و القياس. و لتطور الرياضيات، صورة لم يعرفها اليونان. و هذه الروح و هذه المناهج أدخلها العرب الى العالم الأوربى». [صفحه ۲۹۸] أو كما يقول المستشرق المعاصر برنارد لويس : «ان

أوربا القرون الوسطى تحمل دينا مزدوجا لمعاصريها العرب. و هم الواسطة التى انتقل بها الى اوربا جزء كبير من ذلك التراث الثمين. كما تعلمت أوربا من العرب طريقة جديدة وضعت العقل فوق السلطة، ونادت بوجوب البحث المستقل و التجربة. و كان لهذين الأساسين الفضل الكبير فى القضاء على العصور الوسطى و الإيذان بعصر النهضة». و روجير بيكون يعلن تأثره المنهج العربى و رفضه للمنهج الأرسطى الذى سيطر على الفكر الأوروبى من جراء الفساد فى بعض استنتاجاته فى العلوم الطبيعية فيقول: «لو أتيح لى الأمر لأحرقت كل كتب أرسطو، لأن دراستها يمكن أن تؤدى الى ضياع الوقت و الوقوع فى الخطأ و نشر الجهالة». [۱۱۴] . و كما قال (غوستاف لوبون) بعد ستة قرون من وفاة بيكون: «أدرك العرب بعد لأى أن التجربة و المشاهدة خير من أفضل الكتب. و لذلك سبقوا اوربا الى هذه الحقيقة. فالمسلمون أسبق الى نظام التجربة فى العلوم». [صفحه ۲۹۹]

فى السياسة و الاجتماع

اشاره

«و إنما عماد الدين و جماع المسلمين و العدة اللأعداء العامة من الأمة. فليكن صغوك لهم. و ميلك معهم» «على بن أبى‌طالب عليه‌السلام» [صفحه ۳۰۱] لم تكن خلافة أميرالمؤمنين على هادئة أو هانئة. ولو هدأت لحمل الناس على الجادة بعلمه و عدله، و شجاعة رأيه و زهده. و الزهد آية على صدق الولاة، و سبيل معبدة لهم الى أنفس الرعية. فالشجاعة تروعها. أما الزهادة فتقنعها. و على (عليه‌السلام) إمام الزاهدين و المتقشفين من الصحابة. أجمع عليه العلماء، و الفقهاء و البلغاء و أبطال الحروب و الحكماء، و كل محب لأهل بيت النبى (صلى الله عليه و آله و سلم). و الصوفية يمدون اليه بالأسباب، فيضعونه فى قمتهم، كما يصرح بذلك: الشبلى، و الجنيد، و سرى السقطى، و أبويزيد البسطامى، و معروف الكرخى. و هم يسندون اليه الخرقة التى يتخذونها شعارا لزهدهم. و أحمد بن حنبل - و الصوفية يعتبرونه من أئمتهم - يقول إنه: «ما اجتمعت لأحد من الفضائل بالأسانيد الصحاح ما اجتمع لعلى»، يقابله الجاحظ زعيم المعتزلة - أى فى الطرف الأقصى من الخصومة لأحمد - و مع ذلك يتلاقى الطرفان فى «على» حيث يقول الجاحظ: «لا يعلم رجل من أهل الأرض: متى ذكر السبق فى الاسلام و التقدم فيه، و متى ذكرت النخوة و الذب عن الاسلام، و متى ذكر الفقه فى الدين، و متى ذكر الزهد فى الأمور التى يتناحر الناس عليها، كان مذكورا فى هذه الخلال كلها، إلا على». و المعتزلة يمدون اليه أسبابهم الفكرية عن طريق حفيده أبى‌هاشم بن محمد بن الحنفية. و فى مكان بعيد جدا من المعتزلة يقف محيى الدين بن عربى، من فلاسفة المتصوفة، ليقول: «على من أصحاب العلم و ممن يعلمون من الله ما لا يعلمه غيره»، و يقول السراج الطوسى: «لأميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) من بين جميع أصحاب [صفحه ۳۰۲] رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم (خصوصية) بمعانى جليلة و إشارات لطيفة و ألفاظ مفردة و عبارات و معان للتوحيد و المعرفة و الايمان و العلم، و غير ذلك، و خصال شريفة تعلق و تخلق بها أهل الحقائق من الصوفية». و لقد طالما افتتن بشخصيته الناس؛ و منهم المستشرقون الذين يتحدثون عنه، على طريقتهم فى الإيضاح عن آرائهم، مثل كارادى فو، حيث يتصوره «ذلك البطل المتوجع المتألم، و الفارس الصوفى، و الامام ذو الروح العميق القرار، التى يكمن فى مكامنها سر العذاب الإلهى». و إذا ذكرت كلمة (الإمام) مطلقة، انصرفت الى على بن أبى‌طالب (عليه‌السلام) دون سائر الصحابة. و لم يكن النهج العلمى الذى أوجزنا الإشارة اليه، قبل، إلا استعمالا لأصول تهدى الى معرفة حكم الشرع و دليله، لبلوغ «السعادة فى الدنيا و الآخرة». و كان طبيعيا، و قد تضافرت فى رسم حدود هذه السعادة، و ضوابطها، و العلاقات الهادية اليها نصوص القرآن و السنة أن تجلى الامام على (عليه‌السلام) فى هذا المجال، و ان يتخلف لنا من حياته و سنوات حكمه على قصرها و انحسار سلطته فيها، مواقف معلمة و نصوص شارحة، و ان يتتابع فى نسقها أعمال الأئمة من بنيه ليتشكل منها «مذهب سياسى و اجتماعى و اقتصادى» متكامل: فترى الحسن (عليه‌السلام) يضرب مثلا فى العطاء و حقن الدماء. و نرى الحسين (عليه‌السلام) مثلا يضرب مثلا للجهاد فى

حروب الأمـة و للاستشـهاد فی سبیل الحق. و نری الائمـة الثلاثـة بعدهما یفصـلون القواعد للمجتمع العظیم، و الدولة المثلی، و الاسـرة الفاضـلة، و الانسان الـذی ینشد. و کان لزاما، ان تکون بین تعالیمهم تعالیم دسـتوریة و اقتصادیة و اجتماعیة. فالامام علی، و الأئمة من عقبه، بناة دول، و حماة مجتمعات، ازدهرت فیها الأسـرة و صـلح بها الرجل و المرأة، و اسـتغنی الناس فیها بکدهم وکدحهم. [صفحه ۳۰۳]

فی الدولة و قواعدها

لم یکد أمیرالمؤمنین (علیه‌السـلام) یتلقی البیعة حتی اطلق کلماته کالصواعق رجوما للمنحرفین، و کالبوارق المتألقة بآمال المصلحین، فی منهاجه السیاسی و الاجتماعی و الاقتصادی الجامع.

المساواة اساس الدولة

لقـد خطب فی الیوم التـالی لمبایعته فقال: «أما بعـد ألا لا یقولن رجال منکم غـدا قـد غمرتهم الـدنیا فاتخـذوا العقار و فجروا الأنهار و رکبوا الخیول الفارهة و اتخذوا الوصائف الرقیقة و صار ذلک علیهم عارا و شـنارا، إذا ما منعتهم ما کانوا یخوضون فیه و أصرتهم الی حقوقهم التی یعلمون، فینقمون ذلـک و یسـتنکرون و یقولون حرمنا ابن أبی‌طالب حقوقنا». فلما کان الغـد غـدا الناس لقبض حقوقهم. فأمر کاتبه عبیدالله بن أبی‌رافع أن یبدأ بالمهاجرین. و أعطی کل من حضـر منهم ثلاثة دنانیر، ثم ثنی بالأنصار، ثم سائر الناس کلهم... سوی بینهم الأـحمر فیهم و الأـسود. فقـال له سـهل بن حنیف: هـذا غلامـی أعتقته بالأمس. قال: نعطیه کما نعطیک ثلاثـة دنانیر. و قد تخلـف عن هـذه القسـمة طلحـة و الزبیر و سـعد بن أبی‌وقـاص و عبـدالله بن عمر و سـعید بن العـاص و مروان بن الحکم. و قـال علی (علیه‌السلام): «ألا إن کل قطیعة أقطعها عثمان و کل مال أعطاه من مال الله فهو مردود فی بیت المال، فإن الحق قدیم لا یبطله شیء، و الله لو تزوج به النسـاء و ملـک به الإمـاء لرددته. فـإن فی العـدل سـعة. و من ضاق علیه الحق فالجور علیه أضـیق». و لما جاءته امرأتان فسـوی بینهمـا، قـالت إحـداهما: إنی امرأة مـن العرب، و هـذه أعجمیـة! فقـال: «إنی لاـ أری لبنی اسـماعیل فی هـذا الغنی فضـلا علی بنی‌اسـحق». و غضب البعض مما یصـنع أمیرالمؤمنین (علیه‌السلام). و کتب عمرو بن العاص الی [صفحه ۳۰۴] معاویة یقول: «ما کنت صانعا فاصنع...». و دعی البعض فی السر الی رفض علی لمساواته بینهم و بین الأعاجم. و لما بلغه ذلک صعد المنبر متقلدا سیفه و قال: «... لیس لأحد عندنا فضل إلا بطاعة الله و طاعة الرسول... قال الله تعالی «یا أیها الناس إنا خلقناکم من ذکر و أنثی و جعلناکم شعوبا و قبائـل لتعـارفوا. إن أکرمکـم عنـد الله أتقـاکم». ثـم صـاح بـأعلی صـوته: «أطیعـوا الله و أطیعـوا الرسـول فـإن تـولیتم فـإن الله لاـ یحب الکافرین»... فی هـذه الأیام الأولی، وضع منهاجه الدسـتوری: المساواة فی الحقوق، و العدل بین الناس. و منهاجه الاقتصادی: المساواة فی العطاء بین فئات الشعب. و منهاجه الاجتماعی: لیس فی الاسلام شریف و مشروف، و لا أحمر و أسود، و لا عربی و أعجمی و انما أکرم الناس أتقاهم. و کان عـدله (علیه‌السـلام) مع الـذین حاربوه أو کفروه أو قتلوه دروسا فی الفقه: روی الغزالی فی المستصـفی أن قضاته اسـتشاروه فی شـهادة الخوارج بالبصرة فأمر بقبولها، کما کانت تقبل قبل خروجهم علیه، لأنهم إنما حاربوا علی تأویل. و فی رد شهادتهم تعصب و إثارة خلاف... حتی قاتله عبـدالرحمن بن ملجم نهی عن المثلـة به. و بالمساواة التی هی خصـیصة الإسـلام الأولی، بعـد التوحیـد، هرع أبنـاء البلاـد – من غیر العرب – الی اعتناق الاسـلام. ثم اختار کثیر منهم الانضـمام تحت لواء الشـیعة. و لما سادت الـدعوة لأهل البیت (علیهم‌السـلام) فی خراسان أقبلت جیوشـها تقیم دولة الدین علی انقاض بنی‌أمیة و بنی‌مروان. و کانت الدعوة الی «الرضـا» من «أهل‌البیت» و المساواة بین «الموالی و العرب»، شـعار الدولـة التی أقامها أبومسـلم الخراسانی و التی [صـفحه ۳۰۵] سرقها بنوالعباس من بنی علی (علیه‌السلام)، کما أوضحنا قبل. [۱۱۵] . [صفحه ۳۰۶] و لقد و هم الذین نسبوا أسباب التشیع فی خراسان الی مـا زعموه من تشـابه تتـابع الخلافـة النبویـة و الدینیـة فی بیت الرسول (صـلی الله علیه و آله و سـلم)، و توارث الملک عنـد الفرس فی

الدولة الكسروية، و حكم كسرى «بالحق الآلهى». فلقد ترك الفرس دين كسرى بتمامه الى الإسلام و قواعده. إنما كانت تفرقة الولاة و الحكام بين العجم و بين العرب سببا لتصبح المساواة صيحة التجمع منهم على أميرالمؤمنين على و بنيه (عليهم‌السلام). و كان أهل‌البيت مضطهدين، تهوى اليهم الأفئدة. و كانوا شجعانا يستشهدون. فاجتمع على ايجاب الانضمام اليهم الدين و العقل و المصلحة. و هى دوافع كافية للجهاد ضد بنى‌أمية. [صفحه ۳۰۷] أما زعم الزاعمين ان إصهار الحسين (عليه‌السلام) الى الفرس فى أم‌زين‌العابدين كان سببا لتشيعهم، فينقضه ان ابنى عمرو و أبى‌بكر اصهرا اليهم فى اختين لها، و مع ذلك لم يتعصب الفرس لأبويهما. لا مراء، كان طلب المساواة هو الباعث على التشيع لعلى (عليه‌السلام)، من قوم سلبت حقوقهم فى المساواة... و هم فى قمة المجتمع العلمى و الدينى يحملون مسؤوليات الدين الجديد مع العرب. و الدول العظيمة، و الحروب الدامية، و تغيير التاريخ، لا يحدثها الغضب من أجل النسب. و انما تحدثها المبادئ الخالدة و البطولات الرائعة و ابتغاء مستقبل أفضل. و تفسير التاريخ على أساس النسب تفسير أوربى يدفع المستشرقين اليه سوابق «الزواج السياسى» بين ملوكهم و «حروب الوراثة» بين دولهم.

العدل، و نزاهة الحكم

فى حياة على (عليه‌السلام) و مبادئه، و خطبه و قضائه، عن هذين، مالا نظير له فى أى عصر، و المقام يضيق عن الاستقصاء. فحسبنا ان نقف قليلا عند فقرات من عهده لمالك بن الحارث (الأشتر النخعى)، فهذا عهد مقطوع القرين فى شكله و موضوعه، فى التراث العالمى و الاسلامى، و بخاصة فى السياسة الاسلامية، و الحكم الصالح، سواء فى صياغته أو محتوياته. و هذا العهد يضع اسم على (عليه‌السلام) فى ذروة المؤسسين للدول (واضعى الدساتير) حيث يتكلم عما يسمى فى الدساتير العصرية بالمقومات الأساسية، و واجبات الولاة نحو الأمة، و طريقة قيامهم بحقوق الجماعة، بالتفصيل اللازم. و التنبيه على ملء الفراغ، فيما سكت عنه، بالرجوع الى اصل الشريعة: القرآن و السنة. و لقد تتابعت على هذا العهد شروح الأئمة من بعد. فرأينا لزين‌العابدين فى رسالة الحقوق تفصيلات جديدة يقتضيها الزمان، و شهدنا الامام جعفر الصادق يضيف التطبيق ، و التفصيل الدقيق، لما تضمنته رسالة زين‌العابدين و عهد على (عليهماالسلام) - [صفحه ۳۰۸] فيجعل من تنفيذهما و شروحه لهما، عهدا جديدا للمسلمين و للشيعة، تبلغ به مجتمعاتهم أو دولهم مبالغها كلما التزموهما أو قاربوا الالتزام بهما. يبدأ «عهد على» بتحديد مهمة الوالى (حين ولاه مصر، جباية خراجها و جهاد عدوها و إصلاح أهلها و عمارة بلادها) فهو قد جمع له ولاية الخراج و ولاية الحكم و قال: «و اعلم ان الرعية طبقات. لا يصلح بعضها إلا ببعض. و لا غنى ببعضها عن بعض؛ فمنها جنود الله، و منها كتاب العامة و الخاصة، و منها قضاة العدل. [۱۱۶] و منها عمال الانصاف و الرفق. و منها أهل الجزية و الخراج من أهل الذمة و مسلمة الناس. و منها التجار و أهل الصناعات. و منها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة و المسكنة. و كلا قد سمى الله سهمه. و وضع على حده فريضة فى كتابه أو سنة نبيه (صلى الله عليه و آله و سلم) عهدا منه عندنا محفوظا. فالجنود بإذن الله حصون الرعية؛ و زين الولاة؛ و عزالدين؛ و سبل الأمن؛ و ليس تقوم الرعية إلا بهم، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله تعالى لهم من الخراج... ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة و العمال و الكتاب، لما يحكمون من المعاقد و يجمعون من المنافع و يؤتمنون عليه من خواص الأمور و عوامها. و لا قوام لهم جميعا إلا بالتجار و ذوى الصناعات... ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة و المسكنة الذين يحق رفدهم و معونتهم. و فى الله لكل سعة. و على الوالى حق بقدر ما يصلحه»... أما ولاية الإدارة عامة، و العمال و الكتاب خاصة، فيقول عنها: «فول من جنودك أنصحهم فى نفسك لله و رسوله و لإمامك. و أطهرهم جيبا و أفضلهم حلما، ثم الصق بذوى المروءات. ثم تفقد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما... و لا تحقرن لطفا تتعاهدهم به و ان قل... و ليكن آثر جندك عندك من واساهم [صفحه ۳۰۹] فى معونته... و ان أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد بظهور مودة الرعية...». و أما عن العدالة، و قوامها القضاء، فيبدأ المشترع العظيم - فى التعبير الأوربى - الكلام فيها عن القانون الواجب التطبيق فيقول: «و أردد الى الله و رسوله ما يضلعك من الخطوب و يشتبه عليك من الأمور. فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم «يا

أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله و الرسول» - فالرد الى الله الأخذ بمحكم كتابه، و الرد الى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة». و يقرن القانون الإلهى بالقاضى كما يتطلبه الاسلام، فيقول: «ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور، و لا تمحكه الخصوم، و لا يتمادى فى الزلة، و لا يحصر عن الفىء الى الحق اذا عرفه، و لا تشرف نفسه على طمع، و لا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه؛ أوقفهم فى الشبهات، و آخذهم بالحجج، و أقلهم تبرما بمراجعة الخصم، و أصبرهم على تكشيف الأمور، و أصرمهم عند اتضاح الحكم... ممن لا يزهيه اطراء و لا يستميله إغراء. و أولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه و أفسح له فى البذل ما يزيح علته و تقل حاجته الى الناس. و أعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فى غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك». و لئن كانت رسالة عمر الى أبى‌موسى الأشعرى قد جمعت جمل الأحكام فى كلمات مختصرة، لا يجد محق عنها معدلا، ان عهد على (عليه‌السلام) للأشتر كان فى زمان مختلف، فجاء جامعا، بل مضيفا - فى الموضوع الذى وردت فيه رسالة عمر - أمورا شتى يحتاجها زمان على و كل زمان بعده. و ورود القانون، و الدعوى، و اختيار القاضى، و سلوكه، و طريقة القضاء، و استقلال القضاء، فى فقرتين بين فقرات ذلك العهد، مظهر من مظاهر شموله و اتساع نطاقه، و أسباب خلوده. أما الإدارة العامة - عمال الوالى - ففيهم يقول أميرالمؤمنين (عليه‌السلام): [صفحه ۳۱۰] «انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختيارا و لا- تولهم محاباة و أثرة... و توخ منهم أهل التجربة و الحياء من أهل البيوتات الصالحة و القدم فى الإسلام، فإنهم أكرم أخلاقا و أصح أعراضا ... ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، و غنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، و حجة عليهم إن خالفوا أمرك أو خانوا أمانتك... ثم تفقد أعمالهم...». و أما الكتاب ففيهم قوله: «ثم انظر فى حال كتابك، فول على أمورك خيرهم و اخصص رسائلك التى تدخل فيها مكائدك و أسرارك، بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق، ممن لا- تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملأ... ثم لا- يكن اختيارك إياهم على فراستك و استقامتك و حسن الظن منك... و لكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم فى العامة أثرا...». ثم يقول عن الضعفة: «و تعهد أهل اليتم و ذوى الرقة فى السن ممن لا حيلة، له و لا ينصب للمسألة نفسه... و اجعل لذوى الحاجات منك مجلسا عاما... فلا تكونن منفرا و لا مضيعا. فإن فى الناس من به العلة و له الحاجة. و قد سألت رسول صلى الله عليه و آله و سلم حين وجهنى إلى اليمن كيف أصلى بهم، فقال: صل بهم كصلاة أضعفهم و كن بالمؤمنين رحيما».

الشورى و العناية بالعامة

فى بداية العهد إلى الأشتر أمران؛ الأول: خاص بالأشتر، و الثانى: خاص بالعامة و الخاصة. و الأمران عصريان فى كل عصر، و مطلوبان فى كل مكان، و من كل الحكام: أما الأول، ففيه قوله له: «إن الناس ينظرون من أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، و يقولون فيك ما كنت تقول فيهم. و إنما يستدل على الصالحين بما يجرى بهم على ألسنة عباده... فاملك هواك، و شح بنفسك عما لا يحل لك... و أشعر [صفحه ۳۱۱] قلبك الرحمة للرعية و المحبة لهم و اللطف بهم. و لا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم. فإنهم صنفان: إما أخ لك فى الدين و إما نظير لك فى الخلق... يفرط منهم الزلل و تعرض لهم العلل، و يؤتى على أيديهم فى العمد و الخطأ. فأعطهم من عفوك و صفحك مثل الذى تحب و ترضى أن يعطيك الله...». [۱۱۷] . و قوله: «و إذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك... فطن الله يذل كل جبار و يهين كل مختال. أنصف الله و أنصف الناس من نفسك و من خاصة أهلك و ممن لك فيه هوى. و ليس شىء أدعى إلى تغيير نعمة الله و تعجيل نقمته من إقامة على ظلم...». و يقول عن الشورى: «و لا- تدخلن فى مشورتك من يعدل بك عن الفضل و يعدك الفقر. و لا جبانا يضعفك عن الأمور و لا- حريصا يزين لك الشر، بالجور، فإن البخل و الجبن غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله... و الصق بأهل الورع و الصدق... ثم رضهم على أن لا يطروك... و لا تنقص سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة...». و أما الثانى، ففيه قوله: «وليكن أحب الأمور

إليك أوسطها فى الحق. و أعمها فى العدل و أجمعهالرضى الرعية. فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة. و إن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة. و ليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤنة فى الرخاء، و أقل معونة فى البلاء، و أكره للإنصاف، و أسأل بالإلحاف، و أقل شكرا عند الإعطاء، و أبطأ عذرا عند المنع، و أخف صبرا عند ملمات الدهر، من أهل الخاصة. و إنما عماد الدين و جماع المسلمين، و العدة للأعداء، العامة من الأمة. فليكن صغوك لهم و ميلك معهم». بأبى أنت و أمى يا أميرالمؤمنين! إن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)يقول: «اطلعت فى الجنة [صفحه ۳۱۲] فوجدت أكثر أهلها الفقراء» و أنت فى طليعة أهل الجنة. تحب أكثر أهلها عددا فى الحياة الدنيا؛ و من أجل ذلك تكرم العامة، و هم كثرة الأمة، و تؤثر منها الفقراء. و لقد كنت دائما قدوة. و أردت الخاصة على أن تكون قدوة، و حذرتها من مطامعها و مزالقها. ولو حذرت، للزمت الجادة، و صلح أمر هذه الأمة. إن من يضع دستورا فى العصر الحديث خليق بأن يرتوى من عهدك و يروى الأمة من ينابيعك، فى تطبيع الشريعة، و سيادة القانون، و استقلال القضاء، و أمانة الولاة، و نزاهة الإدارة، و احترام العامة، و إلزام الخاصة أن تكون قدوة فى الأمة. يقول ابن‌المقفع فى شأن الخاصة بعد مائة عام، فى كتابه لأبى جعفر: «و قد علمنا علما لا يخالطه الشك أن عامة قط لم تصلح من قبل نفسها. و لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها... و حاجة الخواص إلى الإمام الذى يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم و أعظم من ذلك». و يتصدى الإمام زين‌العابدين فى «رسالة الحقوق» بالشرح الشامل، و التفصيل الطويل، لسلوك الجماعات و الأفراد و ما يجب لها شرحا و تفصيلا تقتضيهما حالة الناس و ظروف الزمان فى النصف الثانى من القرن، عصر كربلاء و الحرة و ضرب الكعبة و الدولة الهرقلية و تغير الناس. و استقصاء السجاد فيها للأحكام مظهر لتحمله مسؤولية تعليم المسلمين أمور دينهم و شؤون دنياهم؛ فهى تبدأ بحقوق الله عزوجل... و أكبرها ما أوجبه الله تعالى من حقه. فجعل للجوارح حقوقا و لأفعالها حقوقا: «ثم تخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوى الحقوق الواجبة عليك، و أوجبها عليك حق أئمتك ثم حقوق رعيتك ثم حقوق رحمك. فهذه حقوق يتشعب منها حقوق. فحقوق أئمتك ثلاثة... و حقوق رعيتك ثلاثة... و حقوق رحمك كثيرة متصلة... [صفحه ۳۱۳] فأوجبها عليك حق أمك ثم حق أبيك... ثم حق مولاك المنعم عليك ثم...». [۱۱۸] . و تطرقت رسالة الحقوق للعلاقات الحكومية و القضائية و الاجتماعية التى تنظم الجماعة الإسلامية، فنظمت آدابها و التزاماتها و الخليقة و القانونية بالتفصيل. و ربما أجزأ فى تقريب منهاجها إلى الألباب مثل ننقله منها عن معاملة السلاطين حيث يقول: «و أما حق سائسك بالسلطان فأن تعلم أنك جعلت له فتنة. و أنه مبتلى فيك بما جعله الله له عليك من السلطان. فعليك أن تخلص له فى النصيحة. و لا تماحكه و قد بسطت يده عليك. فتكون سبب هلاك نفسك و هلاكه... و تلطف لعطائه مايكفه عنك دون أن يضر بدينه. و تستعين عليه فى ذلك بالله فلا تعانده... فإنك إن فعلت ذلك عققته و عققت نفسك و عرضتها للمكروه».

الحكام

تابع الإمام الصادق عمل آبائه فى التنبيه على قواعد الحكم الصالح و منها حقوق [صفحه ۳۱۴] العامة - و هى جسم الجماعة - بنصوص دستورية يوجزها، لتحفظ عنه و تنقل منه... يقول: «أفضل الملوك من أعطى ثلاث خصال: الرحمة و الجود و البذل». و يقول: «ليس للملوك أن يفرطوا فى ثلاثة: حفظ الثغور و تفقد المظالم و اختيار الصالحين لأعمالهم». و ما هى إلا أركان الدولة الثلاثة: الجيش و القضاء و الإدارة. أو مبادئ الحكم الثلاثة: المنعة فى الخارج بالجيش. و العزة فى الداخل بالعدل. و الحكم الصالح بالإدارة الحسنة. و الرسول يقول: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» و هو مقال موجه للعامة و الخاصة فى أمة خصيصتها الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر. و أول المسؤولين عنهما الولاة و العلماء و القادرون. و الصادق يقول لكل هؤلاء «خير الناس أكثرهم خدمة للناس»، يقول للحكام: «كفارة عمل السلطان قضاء حاجات الإخوان» و يقول: «المستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل» (العثرات). و هى مقولة تنطق بها سجلات الطغيان، حيثما كان، و فى جميع الحقب. فالزلة الواحدة تزعزع قوام الطاغية أو المتعصب أو

المتحكم. فهو كالواقف على قدم واحدة. و تعاليم الصادق فى العدل و الرفق بالرعية مقولات دستورية فى الأمة. يقول: «ما أوسع العدل و إن قل» و يقول: «أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم». و يقول لوالى المنصور على الأهواز إذ استنصحه: «... فاعلم أن خلاصك و نجاتك فى حقن الدماء و كف الأذى عن أولياء الله و الرفق بالرعية. و الثانى حسن المعاشرة مع لين فى غير ضعف. و شدة فى غير عنف... و إياك و السعاة و أهل النمائم... و لا تستصغرن من حلو و فضل طعام فى بطون خالية ... إياك يا عبدالله أن تخيف مؤمنا». تلك دروس جده صلى الله عليه و آله و سلم؛ و هو القائل: «سبعة يظلهم الله يوم القيامة؛ إمام عادل...» فبدأ بالعدل. [صفحه ۳۱۵] بل يقول عليه الصلاة و السلام: «عدل السلطان يوما يعدل عبادة سبعين سنة...». و الدنيا قدم تدوم، و الدولة قد تقوم، مع العدل و الكفر. لكنها لا تبقى مع الظلم، و إن كان الظلم واقعا على غير مسلم. و الله تعالى يقول فى محكم كتابه: «كونوا قوامين لله شهداء بالقسط. و لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى». [۱۱۹] . يقول الإمام الصادق: «من نكد العيش السلطان الجائر و الجار السوء و المرأة البذيئة». فالسلطان الجائر أذى دائم، و منكر مستمر، تضيق الدنيا به، و إن رحبت، كما يضيق المكان - على رحبه - بالجار السوء، و تضيق الحياة - و إن طالت أو اتسعت - مع المرأة الطويلة اللسان. و الإمام يبدأ بالسلطان الجائر لأن أذاه يفسد الدنيا و إن صلحت، و الأسرة و إن هنؤت. و إذا عم العدل احتمل الناس همومهم حيث هم. و من فساد السلطان أن يتولى سدته المتكبرون؛ و المتعالون فى دخيلتهم منحطون. يقول الصادق: «ما من أحد يتيه إلا من ذلة وجدها فى نفسه». و من ذلك ينحى عن الرياسات من يجرون أزرهم خيلاء، فهؤلاء لا ينتفعون بتجربة من أنفسهم، و إلا لما تكبروا على الناس، أو من غيرهم، و إلا لما غرهم الغرور. يقول: «لا يطمع القليل التجربة المعجب برأيه فى الرياسة». و يقول: «من طلب الرياسة هلك». فإذا ولى الحاكم فليخش الله فى الناس، و ليعلم أن فيهم ضعفا، و أنه مطالب بالعفو و الصفح الجميل. يقول الإمام: «أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. و أنقص الناس عقلا من ظلم من دونه، و لم يصفح عمن اعتذر إليه». [صفحه ۳۱۶] و الناس مطالبون بأن يمحضوا النصح بإخلاص. و ليس الإخلاص مجرد النية الحسنة أو البدار بالكلام، و إنما هو الفكر الجاد، و تقليب الأمور على وجوهها، و الاستماع إلى المخالفين. فالإمام يقول: «لا تكن أول مشير. و إياك و الرأى الفطير». و كثيرا ما تأذى الناصح بنصحه، و ركبت المنصوح شياطين غلوائه. و قد يستفيد الظنة المتنصح. و ينبه الإمام الأمة على ألا تشترى الراحة بالرياء إذ «المؤمن يدارى و لا يمارى» كما يقول. و ينبه الناس - و منهم الحكام - على أن يسارعوا إلى الخيرات بإصلاح عيوبهم، و إعلانها دون تأثم أو تحرج. و الناس يمدون أيديهم إلى من يصارحم بمصاعبه، فيشركونه فى متاعبه. يقول «أنفع الأشياء للمرء سبقه الناس إلى عيب نفسه و أشدها مؤنة إخفاء الفاقة...». و كما يقول: «من لم يتفقد النقص فى نفسه دام نقصه. و من دام نقصه فالموت خير له». و لعل أنفع الناس للمرء، من يهدى إليه عيوبه، بأن ينبه عليها.

المجتمع الجعفرى

الإمام مبلغ عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم علمه. و هذا العلم أجناس و أنواع، نشير فى هذا المقام إلى بعض منها فى السياسة و الاجتماع، و الاقتصاد، و هو حسب أى مجتمع ليقيم دولة راسخة الأركان، و أمة تعمل كخلية النحل، لا مجرد جمعية للإصلاح أو جماعة متطلعة للتقدم، كالجمعيات و الجماعات التى تزخر بها المجتمعات فى العصور الحديثة، بقصد إصلاح جزئى أو الدعوة لمبادئ معينة. و كثير من المبادئ التى تحدثنا عنها قبل، و التى سنتحدث عنها بعد، شذرات من دروس، متداولة عن الإمام، لو حاولنا جمعها كنا كمن يجمع مصابيح السماء. و قد يكفى فى هذا المقام ذكر بعض توجيهات الإمام «لشيعتنا» كما يقول. أو «للجعفرى» الجدير بالانتسات للإمام، كما يسمى تابعيه. و إذ كانت هذه التوجيهات إشارات إلى مؤهلات الانتساب إليه، فهى تقطع بأنه كان [صفحه ۳۱۷] يعد «دعاة» يدعون لمجتمع يدين بمبادئه. و هذه المبادئ، مضافة إلى الفقه المدنى و الجزائى و نظرية الإمامة، كافية لإقامة مذهب متكامل تقوم على قواعده «دولة» تكفل الجزاء و الثواب. فالقاعدة القانونية، مع العقيدة الدينية و النظريات الخلقية،

كالماء الذى يسقى البذور الصالحة التى تنتظر الزمن لتشق الأرض و تظهر، فى حماية الدولة. و لقد كلل الله بالنجاح سعيه. و ظهرت دول و مجتمعات ازدهرت فى العالم، مع اصطناع التغييرات التى تستدعيها حاجات السلطان و الزمان و المكان، أو الدعاية للدولة، كما كان الشأن فى الدول و المجتمعات الاسماعيلية كالفاطميين المنتسبين إلى اسماعيل بن الإمام جعفر (عليه‌السلام). و أحدثت هذه المبادئ آثارا باهرة فى المجتمعات الشيعية، فى أمم إسلامية أو غير إسلامية، أنمت التمسك الدينى بفضائل الإسلام، و أمكنت من الدفاع عنه بقوة و إيمان، و أبدعت عبقريتها الاقتصادية التى طالما حضت عليها تعاليم الإمام. فالتعاليم الصادرة عن الإمام الصادق ليست مجرد أصول فقهية أو فروع علمية كما هو دأب الأئمة من أهل السنة. بل هى تتعدى ذلك المجال إلى كل مجال للناس فيه نشاط سياسى أو اجتماعى أو اقتصادى... و من أجل ذلك العموم فى رسالة الإمام و مقامه فى الإسلام، كان شعور أبى‌حنيفة و مالك و سفيان الثورى و عمرو بن عبيد و نظرائهم أو المقاربين لهم أنهم فى مجلسه تلامذة. و اعتبار الأمة أنهم هنالك كذلك و ان كانوا أئمة. و من نفاذ البصيرة، و عظمة الطريقة، و جلال السمت، و اتساع العلم، كان اعتراف خصوم المسلمين أنفسهم بأنه - بين الحجيج جميعا - الفرد العلم. أما المبادئ الفقهية و مبادئ العقيدة و السياسة فقد تكلمنا عنها. و تبقى كلمات، كالإشارات، عن المبادئ الخلقية و الاجتماعية التى انتخبنا بعضها، لتدل على اتجاه بها نحو تكوين مجتمع قوى و إعداد الدعاة له... [صفحه ۳۱۸] أوصى الإمام المفضل بن عمر بخصال يبلغهن من وراءه من «شيعة أهل‌البيت». «أن تؤدى الأمانة إلى من ائتمنك. و أن ترضى لأخيك ما ترضاه لنفسك. و اعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب. و أن للأمور بغتات فكن منها على حذر. و إياك و مرتقى جبل سهل إذا كان المنحدر وعرا». و أوصاهم: «صلوا عشائركم. و اشهدوا جنائزهم. و عودوا مرضاكم. و أدوا حقوقهم. فإن الرجل منكم إذا ورع فى دينه و صدق الحديث و أدى الأمانة و حسن خلقه مع الناس قيل (هذا جعفرى) و يسرنى ذلك. و إذا كان غير ذلك دخل على بلاؤه و عاره. و قيل هذا أدب (جعفر)! فو الله إن الرجل كان يكون فى القبيلة من (شيعة على) فيكون زينها. آداهم للأمانة. و أقضاهم للحقوق. و أصدقهم. يحمل إليه وصاياهم و ودائعهم. تسأل العشيرة عنه و يقال: (من مثل فلان؟)». و أوصاهم: «أوصيكم بتقوى الله و اجتناب معاصيه. و أداء الأمانة لمن ائتمنكم. و حسن الصحبة لمن صحبتموه. و أن تكونوا لنا دعاة صامتين». فهو بهذا يربط إحسان العمل بالانتساب لأهل البيت و يضع القواعد المثلى للمجتمع. دخل عليه المفضل بن قيس ذات يوم يسأله الدعاء، و كما قال: «فشكوت إليه بعض حالى و سألته الدعاء فقال: يا جارية هاتى الكيس... فقال: «هذا كيس فيه أربعمائة دينار فاستعن بها». قلت: ما أردت هذا الكيس، و لكن أردت الدعاء لى. قال: «و لا أدع الدعاء لك. و لكن لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتهون عليهم». هكذا تتابع منه العطاء غير المطلوب، و الدعاء المطلوب، و النصح الواجب. فهو معلم فى المقام الأول. أعطى فأغنى. ثم نصح، ليقبل النصح منه. و الأعمال أعلى صوتا من الأقوال. و هو يزيد العلاقة بين أصحابه وثاقة: [صفحه ۳۱۹] قال يوما لبعض أصحابه: ما بال أخيك يشكوك؟ قال: يشكونى إذ استقصيت عليه حقى. فقال مغضبا: «كأنك إذا استقصيت حقك لم تسئ؟ أرأيت ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب؟ أخافوا أن يجور عليهم؟ و لكن خافوا الاستقصاء. سماه الله سوء الحساب. فمن استقصى فقد أساء». أرأيت - إلى مدى ما يستنبط الإمام من النص؟ و إلى مقدار ما يدخل فى نفوس أمته من الإحساس الرقيق بمتاعب بعضهم، كالجسم تتداعى أعضاؤه بإدراك مرهف و تكافل كامل؟ ذلك ادب جده صلى الله عليه و على آله. و الإمام يعلمهم أن تكون لهم اليد العليا بالابتداء بالعطاء. و فى السؤال رهق. و الصلة تفقد رونقها، و ربما قيمتها، إن لم تكن فيها مبادرة: دخل عليه رجل من خراسان؛ قال: لقد قل ذات يدى و لا أقدر على التوجه إلى أهلى إلا أن تعينونى... فنظر الإمام للجالسين، و قال: أما تسمعون ما يقول أخوكم؟... إنما المعروف ابتداء. فأما ما أعطيت بعد ما سأل فإنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه... و قد قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «و الذى فلق الحبة وبرأ النسمة و بعثنى بالحق نبيا لما يتجشم أحدكم من مسألته إياك أعظم مما ناله من معروفك...» فجمعوا له خمسمائة درهم. و بهذا اشترك الجميع فى أداء الواجب. و هو القائل «أغنى الغنى ألا تكون للحرص أسيرا». و التنبيه على الإرهاق فى الاستقصاء. و على انعدام فضل المسؤول على السائل، خصيصتان إسلاميتان ترفعان قدر الجماعة - بما فيهما من مؤالفة و تكافل. و

التعبيرات العالية عنهما تعبيرات إمام. قال مصادف: «كنت عند أبى عبدالله فدخل رجل فسأله الإمام: كيف خلفت إخوانك؟ فأحسن الثناء عليهم. فسأله: كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم؟ قال الرجل: قليلة: قال الإمام: كيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال قليلة. قال الإمام: فكيف يزعم هؤلاء أنهم (شيعتنا)»؟ [صفحه ۳۲۰]

الجهاد

اشارة

يقول أبوالدرداء: «من رأى أن الغدوة إلى العلم ليست بجهاد فقد نقص فى عقله و دينه» و الصادق لا يكتفى بالتعليم بل يحض على الجهاد بالنفس و المال و يقول للمسلمين: «الجهاد واجب مع إمام عادل. و من قتل دون ماله فهو شهيد». و يرى الانحياز إلى الظالمين تمكينا لهم. و الجهاد مع العادلين تثبيتا للاسلام. سأل يوما عبدالملك بن عمرو: «لم لا تخرج إلى هذه الديار التى يخرج إليها أهل بلادك؟ - أى تجاهد مع الولاة - قال عبدالملك: أنتظر أمركم و الاقتداء بكم. قال الإمام: اى و الله لو كان خيرا ما سبقونا إليه. قال عبدالملك: إن الزيدية يقولون: ليس بيننا و بين جعفر خلاف إلا أنه لا يرى الجهاد. قال الإمام: «أنا لا أرى الجهاد...؟ بلى و الله. إنى أراه. لكنى أكره أن أدع حلمى إلى جهلهم». و لقد كان عظيما جهاد جده الحسين فى جيوش معاوية، بل جهاد الحسين ضد معاوية نفسه، إذ يخاطبه بقوله: «ثم سلطته (زيادا) على العراقيين يقطع أيدى المسلمين و أرجلهم و يصلبهم على جذوع النخل... فكتبت إليه أن اقتل كل من كان على دين على، فقتلهم و مثل بهم بأمرك...». أمر كربلاء فملحمة فى الإسلام. فإذا كان الجهاد للدفاع عن الإسلام إذا ما تهدده العدو، أو حين يغزو أرض المسلمين عدو، فذلك فرض عين على كل فرد، ولو كان تحت إمرة أمير جائر. سئل الإمام الرضا عن الرجل يرابط تجاه العدو... كيف يصنع؟ قال: يقاتل عن بيضة الإسلام لا عن هؤلاء (يقصد الحكام الظلمة). و المرابطة فى الثغور إن كانت للاستطلاع فلها مدة. و هى مستحبة. و إذا كانت لملاقاة العدو فهى واجبة. و الرجل المسلم كفء لرجلين عند اللقاء يقول الامام الصادق: «من فر من رجلين فقد فر و من فر من ثلاثة فلم يفر». و الجهاد لغير الدفاع... أى لمجرد الغزو، فرض كفائى، قال الصادق: «جاء رجل إلى [صفحه ۳۲۱] رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: إنى راغب فى الجهاد نشيط. فقال له (صلى الله عليه و آله و سلم) «فجاهد فى سبيل الله» قال الرجل: إن لى والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بى و يكرهان خروجى. قال النبى: «أقم مع والديك. و الذى نفسى بيده لأنسك بهما يوما و ليلة خير من جهاد سنة». و الامام بهذا يعلم الناس إيثار الوالدين بالرعاية. فهما النواة التى تزدوج لتصنع الأسرة. و هى بدورها نواة الأمة. و التمكين لهذه تكوين لتلك. أما إذا احتيج للرجل لكفاءة خاصة فيه فالجهاد فرض عين عليه. و الصادق يعلم المسلمين قوانين الإسلام فى الحروب فيقول: «إذا أخذت أسيرا فعجز عن المشى و لم يكن معك محمل فأرسله و لا تقتله» و يعلن أن «إطعام الأسير حق على من أسره. و إن كان يراد من الغد قتله. فإنه ينبغى أن يطعم و يسقى و يرفق به، كافرا كان أو غيره». و يعلم المسلمين «أن رسول الله كان إذا بعث سرية دعا أميرها فأجلسه إلى جنبه و أجلس أصحابه بين يديه ثم قال: سيروا باسم الله و على سبيل الله... و لا تغدروا. و لا تغلوا. و لا تمثلوا. و لا تقطعوا شجرة إلا أن تضطروا إليها. و لا تقتلوا شيخا فانيا. و لا صبيا. و لا امرأة». و ينهى الصادق عن قتل الرسل، أو قتل الرهائن، أو استعمال السم، حتى فى حرب المشركين. فإذا كانت حرب فلتكن حربا نظيفة، أى إسلامية. و لنتذكر فى هذا المقام قول «على» و هو يبعث الجند للقتال: «لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم. فإنكم بحمدالله على حجة. و تركككم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى عليهم. فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبرا و لا تجهزوا على جريح. و لا تهيجوا النساء بأذى... إن كنا لنؤمر بالكف عنهن و هن مشركات...». و قول الصادق «نهى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أن يلقى السم فى جهاد المشركين... و عن قتل النساء و الولدان فى دار الحرب. و عن الأعمى. و الشيخ الفانى... و ما بيت عدوا قط فى ليل...». [صفحه ۳۲۲] و قول الصادق لإحسان معاملة أهل الذمة «إن رسول الله (صلى الله عليه و

آله و سلم) قبل الجزية من أهل الذمة على ألا يأكلوا الربا و لا لحم الخنزير، و لا ينكحوا الأخوات و بنات الأخ و بنات الأخت. فمن فعل ذلك منهم فقد برئت منه ذمة الله و ذمة رسوله». فعلى المسلمين ألا يتعرضوا لأهل الذمة بسوء. بل إن عليهم أن يدافعوا عنهم، ماداموا لا ينشرون الدعوة ضد الإسلام، و لا يتظاهرون بارتكاب المنكرات، و لا يؤون إليهم أعداء الإسلام. و كل من له كتاب كاليهودى و النصرانى، أو شبه كتاب، كالمجوس، فهو ذمى، إذا قبل شروط الذمة و التزم بها. فإذا لم يلتزم فحكمه حكم الحربى.

فى المجتمع و دعائمه

الأسرة

إذا رتبت تعاليم الإمام تصدر تعاليمه للناس قوله «أصل الرجل دينه و تقواه. الناس فى آدم مستوون» و هذه المساواة الفطرية تسبقها البنوة لآدم، ثم يبلغها أغراضها حدب القوى على الضعيف، و العالم على الجاهل، و الذى أتيحت له الفرصة على من لم تتح له. و لما سأل الإمام رجلا: من سيد هذه القبيلة فأجاب: أنا. قال الإمام: لو كنت سيدهم ما قلت أنا. و لما فصل المكرمات المطلوبة من الناس قال: «المكارم عشر: صدق الناس، و صدق اللسان، و أداء الأمانة، وصلة الرحم، و قرى الضيف، و إطعام السائل، و المكافأة على الصنائع، و التذمم للجار، و التذمم للصاحب. و رأسهن الحياء». فهو يبدأ بالصدق الأمانة. ثم يتبعها صلة الرحم و لها عنده أعلى مقام. فبها قيام الأسرة - و هى نواة المجتمع الإسلامى - بتنظيمها القانونى الذى لا نظير له فى، أمم غير أمة الإسلام. [صفحه ۳۲۳] يقول: «خمسة لا يعطوا شيئا من الزكاة. الأب و الأم و الولد و الزوجة و المملوك. لأنهم عياله و لازمون له» فالانفاق على هؤلاء فرض. و الصدقات مع وجوبها و تعميمها و الحث عليها، لا تستحق للناس إلا أن يكتفى ذوو الأرحام. يقول الإمام: «لا صدقة و ذو رحم محتاج». ولو ظن واصل الرحم أنه يضع المعروف فى غير موضعه - و للمعروف دائما موضع - فالإمام يقول له: «لا تقطع رحمك و إن قطعك». وقع كلام بينه و بين عبدالله بن الحسن (و ربما كان ذلك من جراء يوم الأبواء، و سلف القول فيه) و كان عبدالله اكبر أهل‌البيت سنا، فأغلظ عبدالله القول. فلم يرد الصادق. ثم افترقا ثم تلاقيا على باب المسجد. فابتدره الصادق يقول «كيف أمسيت يا أبامحمد»؟ (فهو أبومحمد المهدى - النفس الزكية - و إبراهيم و الباقين، من بنى عبدالله بن الحسن). و قال عبدالله كالمغضب: بخير. قال الصادق: يا أبامحمد. أما علمت أن صلة الرحم تخفف الحساب؟ ثم تلا قوله «والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل و يخشون ربهم و يخافون سوء الحساب» فقال عبدالله: فلا ترانى بعدها قاطعا رحما. يقول الصادق: إن رجلا أتى النبى فقال: يا رسول الله إنى لى أهلا قد كنت أصلهم و هم يؤذوننى و قد أردت رفضهم. فقال له رسول الله: «إن الله يرفضكم جميعا» قال الرجل: كيف أصنع؟ قال: «تعطى من حرمك و تصل من قطعك و تعفو عمن ظلمك. فإذا فعلت ذلك كان الله عزوجل لك عليهم ظهيرا». و كان الإمام يصلى عن ولده فى كل ليلة ركعتين، و عن والده فى كل يوم ركعتين... يقول فى صدد الصلاة عن الميت: إنه ليكون فى ضيق فيوسع عليه ذلك الضيق، ثم يؤتى فيقال له خفف الله عنك ذلك الضيق لصلاة فلان أخيك عنك. و ربما أجمل منهاج الصادق فى القول و العمل للناس عامة، كلمات له يتناقلها الناس فى كل مكان: «خير من الصدق قائله، و خير من الخير فاعله». [صفحه ۳۲۴] فهنا فضائل كثيرة مجتمعة. هى الخير، و صنعه، و إمكان القتداء بصانعه، و إعلان لرأى الإمام بأن الإيمان عقيدة و عمل، و أن العمل الصالح يحول الفكر المجرد، إلى فعل نافع أو أمر واقع؛ و العمل هو الوسيلة المنجحة إذا جرى مجرى الأصول. و الصادق يروى عن على (عليهماالسلام): «سمعت رسول الله يقول: عليكم بسنتى، فعمل قليل فى سنة خير من كثير فى بدعة». و الإمام يرى أن «رأس الحزم التواضع» و أن التواضع هو «الرضى بأن تجلس من المجلس بدون شرفك و أن تسلم على من لقيت. و أن تترك المراء و إن كنت محقا». و يقول: «من أكرمك فأكرمه و من لم يكرمك فأكرم نفسك عنه». و يضيف إلى ذلك: «إنك لن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشره عليهم من فضلك». و هذا الفضل بعض المعروف. أما عن تمام المعروف فيقول: «المعروف لا يتم إلا بثلاثة: تعجيله، و تصغيره و ستره». يقول: «العافية نعمة يعجز عنها الشكر» بل يقول: «المعروف زكاة النعم». و الله تعالى يقول «و إن تعدوا نعمة الله لا

تحصوها». فما أكثر ما يستحق الناس من المعروف عند المسلم الصادق. و السخاء سمو، ولو من الجاهل. يقول (عليه‌السلام): جاهل سخى أفضل من ناسك بخيل. فلنتصور مجتمعا يسود فيه السخاء... و يعم العطاء، و يتواتر المعروف، ليتعاون الناس فى دنياهم... و تستوثق القربى فيهم، فتزداد لحمة الأسرة وثاقة، ثم تلتزم الجماعة و الأفراد بالمكارم العشرة التى نص عليها الإمام! إنه المجتمع الإسلامى!. لنقرأ وصية الإمام لعبدالله بن جندب لنلمس مواقع الجمال و الكمال فى هذا المجتمع. «لا تكن بطرا فى الغنى و لا جزعا فى الفقر. و لا تكن فظا غليظا يكره الناس قربك. و لا تكن واهنا يجفوك من عرفك. و لا تشار من فوقك. و لا تسخر ممن دونك. و لا تنازع الأمر أهله. يا ابن‌جندب: لا تتصدقن على أعين الناس يزكوك. فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك. و لكن إذا أعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك. فإن الذى تتصدق له سرا يجزيك علانية. فقد علم ما تريد». [صفحه ۳۲۵]

الأخوة

كان طبيعيا أن تمتد هذه المبادئ السياسية و الاجتماعية، الموجهة للأفراد، إلى بيئتهم، و أن يكون المقام العظيم للأصحاب و الصحبة... و هى القرابة التى يختارها المرء لنفسه و لا تفرض عليه من أسلافه. و الصحبة أداة منجحة للتكافل و التكامل. و بها تجتمع «الخلية الأولى» للجماعة الهادفة. و لعل فى اهتمام الإمام بالصحبة و الأخوة دليلا على اتجاه نحو إيجاد مجتمع أو جماعات تتآخى فى التشيع. و بمثل هذه الجماعات قامت الدول الشيعية على نظم مشهورة فى الدعوة لها، خافية أو معلنة، و بخاصة نظم الدعوة الاسماعيلية. و كما حفلت مجالس الإمام و مقولاته بوصف (الجعفرى) و بعبارة (شيعتنا)، حفلت بتوكيد أسباب التعاون بين الاخوان. هو أولا يجعل المودة بينهم من الدين فيقول: «من حب الرجل دينه حبه إخوانه» ثم ينتقل من الوضع الدينى إلى الاجتماعى فيقول: «و طن نفسك على حسن الصحبة لمن صحبت. و حسن خلقك و كف لسانك و اكظم غيظك. أما يستحى الرجل منكم أن يعرف جاره حقه و لا يعرف حق جاره. ليس منا من لم يحسن مجاورة جاره». و قديما قيل لأبى الأسود الدؤلى تلميذ «على»: «بعت دارك»؟ قال «بعت جارى» و قيل: «الرفيق قبل الطريق». و الإمام الصادق يقول: «أيسر حق من حقوق الإخوان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك و أن تكره لأخيك ما تكره لنفسك و أن تتجنب سخطه و تتبع مرضاته و تطيع أمره و تعينه بنفسك و مالك و لسانك و يدك و رجلك. و أن تكون عينه و دليله و مرآته. و لا تشبع و يجوع. و لا تروى و يظمأ. و لا تلبس و يعرى. و أن تبر قسمه. و تجيب دعوته. و تعود مريضه. و تشهد جنازته. فإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها و لا تلجئه إلى أن يسألكها». فكل وجه من الوجوه المشار إليها أداة تراحم... تمكن للأخوة الإسلامية. و كل [صفحه ۳۲۶] تفريط، مهما قل أمره، أو ضاق زمنه، تنقص من الأخوة الإسلامية. فإذا أطال المسلم قطيعة أخيه، فهى إحدى الكبر. فالمجتمع المتقاطع، هو كالمجتمع بين أعداء... أو كالجزر المتنازحة فى اليم، حدود كل منها مصالحها. يقول النبى عليه الصلاة و السلام: «هجرة الرجل أخاه سنة كسفك دمه». و ما أدق نصح الإمام فى معاشرة الناس: «لا تفتش الناس فتبقى بلا صديق. المؤمن يدارى و لا يمارى. مجاملة الناس ثلث العقل». و هو ينهى عن الظنة. فالظنين متهم. يقول: «ضع أمر أخيك على أحسنه. و لا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءا و أنت تجد لها فى الخير محملا». أما من فرط حيث تجب اليقظة فلا يلو من إلا نفسه - يقول الإمام: «من كتم سره كانت الخيرة بيده» و يقول: «لا تثقن بأخيك كل الثقة فإن سرعة الاسترسال لاتقال» و يقول: «صدرك أوسع لسرك» و «سرك من دمك فلا تجره فى غير أوداجك». و يقول: «من خان لك خانك. و من ظلم لك سيظلمك. و من نم إليك سينم عليك». و لما سئل عن الرجل العدل قال: «من غض طرفه عن المحارم و لسانه عن المآثم و كفه عن المظالم». و الإخوان - عند الإمام - هم المواسون، فهم بين ثلاثة: «مواس بنفسه و آخر مواس بماله و هما الصادقان فى الإخاء، و آخر يأخذ منك البلغة و يريدك لبعض اللذة فلا تعده من أهل الثقة». و الإمام يأمر بالرفق بالناس. فينبه الذين يتطاولون ليتطامنوا. فيقول: «من الجور قول الراكب للراجل: (الطريق)» فهو الراكب، و بيده الزمام، و الطريق للناس كافة. و كفى الراجلين أنهم يمشون. و كفاه أنه فوق ظهر. يقول الإمام عليه‌السلام «لا تسم الرجل صديقا، سمة معرفة، حتى تختبره بثلاثة: تغضبه فتنظر غضبه أيخرجه عن الحق إلى

الباطل. و عند الدينار و الدرهم. و حتى تسافر معه». و يقول: «ثلاثة لا تعرف إلا فى مواطن: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، و لا [صفحه ۳۲۷] الشجاع إلا عند الحرب. و لا الأخ إلا عند الحاجة» و من التبذل تنقص الكرامة. يقول: «لا تمار فيذهب بهاؤك. و لا تمزح فيجترأ عليك. و لا جهل أضر من العجب». و الغضب عند الإمام مفتاح كل شر، بما فيه من ذبذبة للذات و زعزعة للتوازن، فعنده أن «من ظهر غضبه ظهر كيده»، بل إن «من لم يملك غضبه لم يملك عقله» فى حين أن «المؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق و إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل». و يهتف الإمام بالشيعة: «يا شيعة محمد. ليس منا من لم يملك نفسه عند الغضب، و يحسن صحبة من صاحبه، و مرافقة من رافقه، و مخالفة من خالفه». و أى أدب للنفس و العقل كمثل ذلك الذى يعبر عنه الإمام بإحسان المخالفة! - و ما هو إلا الحلم و الأناة، قرظهما رسول الله للمنذر إذأتاه، و فى وفد عبدالقيس، فقال له «فيك خلتان يحبهما الله عزوجل: الحلم و الأناة». و فى عبارات تأخذ شكل ثلاثيات، قليلة العدد جليلة الفحوى، يجمع الإمام آلاف الرذائل المدمرة فى ستة أصحاب خرق. هم كالجيوب المخروقة للمجتمع لا تبقى و لا تذر: و هم المرائى و الكسلان و المسرف و المنافق و الحاسد و الظالم، تشتعل بنقائصهم نيران الرذالات جمعاء، و إذ يتكاثرون فى كل مكان، بالعدوى و التناتج، و يستهين الناس بخطرهم على أنفس الأفراد و مقومات الجماعة و قوة الدولة... مع أن أخطارهم السلبية تتوازن فى ضررها مع أعظم الإيجابيات فتفقد الأمم تماسكها. و جمعها فى صعيد واحد، و إجمالها فى كلمات، آية على نفاذ البصيرة و إحسان البيان. يقول الإمام: للمرائى ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده. و ينشط إذا كان الناس عنده. و يحب أن يحمد بما لم يفعل. و للكسلان ثلاث علامات: يتوانى حتى يفرط. و يفرط حتى يضيع. و يضيع حتى يأثم. و للمسرف ثلاث علامات: يشترى ما ليس له. و يأكل ما ليس له. و يلبس ما ليس له. [صفحه ۳۲۸] و للمنافق ثلاث علامات: إذا حدث كذب. و إذا وعد أخلف. و إذا اؤتمن خان. و للحاسد ثلاث علامات: يغتاب إذا غاب. و يتملق إذا شهد. و يشمت بالمصيبة. و للظالم ثلاث علامات: يعصى من فوقه. و يعتدى على من دونه. و يظاهر الظالمين. و لكل واحدة من هذه العلامات شعب يبلغ العلم بها أكثر من ألف باب.

المرأة

فى فقه الإمام عناية بالغة بالنساء فى الزواج و الطلاق و الميراث... و هى دعائم الأسرة و قوائم المجتمع. و قد عرضنا لبعضه... قبل. لكن اهتمامه الاجتماعى بالأسرة أو بالمرأة لايقف عند الحكم الفقهى و إنما يتعداه إلى الترغيب و التهذيب بالنصح الدؤوب. فمرآة المجتمع العظيم الأسرة السعيدة، و زينتها و حليتها المرأة الصالحة. و هى نصف الناس، و أمالجميع. يقول الإمام : «اتقوا الله فى الضعيفين: اليتيم و النساء». و يقول: «البنات حسنات و البنون نعم. الحسنات يثاب عليها. و النعم مسئول عنها». و إذا كان البنات حسنات يلقى بهن المرء بارئه، فيزدنه درجات، فالإمام يجعل للأمهات درجة فى طاعة أوامرهن، فيأمر بالمبادرة بطاعة الأم، إذا دعا الأبوان. و يلقى على الأم فى دارها واجب استثمار الزمن فى خدمة الأسرة و الأمة. و يفرض على المجتمع واجب إحصان أفراده بالتيسير فى المهور. و على المرأة واجب التعاون فى إنجاح الزوجية بالوفاء بحق الزوج. و يجمع بين حسن التبعل و بين حسن الجوار. فيقول: «الشؤم فى المرأة كثرة صداقها و عقوق زوجها - و فى الدار ضيق ساحتها و شر جيرانها». يقول عليه الصلاة و السلام: «علموا أبناءكم السباحة و الرماية و نعم لهو المرأة فى بيتها المغزل». فهن مطالبات ألا يفتحن الأبواب للشيطان بالفراغ... مطالبات بأن يعملن ما يجمل بهن. و المرأة التى تمسك المغزل بيد، و تهز مهد الطفل بيد، تضم بين ذراعيها أسرة [صفحه ۳۲۹] سعيدة. و لقد كان النساء آخر ما أوصى به صلى الله عليه و آله و سلم. يقول الإمام: «صلاح حال التعايش على مكيال ثلثاه فطنة و ثلثه تغافل». و هذه الأثلاث تتردد فى مضامين ثلاثيات شتى. تجتمع و تفترق. لكنها كلها أركان لسعادة المجتمع الكبير الذى هو الأمة، و الصغير الذى هو الأسرة. و قد سلف علينا فى ثلاثية سابقة كيف قرن نكد الزوجية، بالنكد فى الجيرة و السلطان الجائر. و هنا يستلفت الأنظار إلى ما يجب من إحسان العشرة، بالسلوك الرفيع و الإنفاق اللازم، و احترام الذات حيث يقول: «إن المرء يحتاج فى منزله و عياله إلى ثلاث خلال يتكلفها، و

إن لم يكن فى طبعه ذلك: معاشرة جميلة، وسعة بتقدير، و غيرة بتحصن». ثم يقول ليبين أثر المرأة فى سلام الأسرة: «ثلاث من ابتلى بهن كان طائح العقل: نعمة مولية، و زوجة فاسدة، و فجيعة نجيب». فهو يضع فسادها فى منزلة بين المنزلتين؛ النعمة الضائعة، و الفجيعة الحالة. فى حين يقدمها عند صلاح حالها على فلذة الكبد و الصديق الصافى إذ يقول: «الأنس فى ثلاثة: الزوجة الموافقة، و الولد البار، و الصديق الصافى». و الرجل رأس الأسرة، لا يلقى مقاده أو مقادها إلى الزوجة، و إلا غرقت السفينة. يقول الإمام: «ثلاثة من استعملها فسد دينه و دنياه: من ساء ظنه، و أمكن من سمعه، و أعطى قياده حليلته». و فى هذه الثلاثية تجتمع سلبيات خلقية ثلاثة فى دنيا الرجل. فتحل الأشباح محل الأشياء، و الأصداء محل الأصوات، و النساء محل الرجال. و ليس هذا عالم المسلمين. و فى ثلاثية أخرى نرى تصنيفا من نوع خاص: «النساء ثلاثة: واحدة لك. و واحدة عليك ولك. و واحدة عليك. أما التى لك فهى العذراء. و التى لك و عليك فهى الثيب. أما التى عليك فهى المتبع التى لها ولد من غيرك». و إنما ينبه الإمام الرجال ليزداد برهم بمن يمكن أن تكون لهم أو عليهم، كى يتكلفوا لها خصالا نص عليها: معاشرة جميلة وسعة بتقدير و غيرة بتحصن. [صفحه ۳۳۰]

العلم

أينما ذهبت فى سيرة الإمام فثم وجه العلم، و التعويل على العلماء، و التمسك بالخلق العلمى و أساليبه: يقول لعنوان البصرى: «اسأل العلماء ما جهلت و إياك أن تسالهم تعنتا و تجربة. و إياك أن تعمل برأيك شيئا. و خذ بالاحتياط فى جميع ما تجد إليه سبيلا. و اهرب من الدنيا هربك من الأسد...». و يقول لحمران بن أعين: «العمل الدائم القليل، على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير، على غير يقين». و هذان القولان لعنوان و حمران نصيحتان نابعتان من منهج الإمام فى الفقه و أصوله. فهو يلتزم الأشياء الثابتة و النصوص الواضحة. لأنها نقطة الارتكاز. و ينصح بعدم المجازفة فى طريق غير مؤكدة، يقول: «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا تزيده سرعة السير إلا بعدا». و من المنهج حسن التلقى و حسن الأداء فهو لا يحب المحال و العنت كما قال لعنوان: «الجهل نقص فى الدين و الخلق و معاملة الناس»، أو كما قال: «الجهل فى ثلاث: الكيد، و شدة المراء، و الجهل بالله». و يقول: «ثلاثة يستدل بهن على إصابة الرأى: حسن اللقاء و حسن الاستماع و حسن الجواب». أما البلاغة فهى «ليست بحدة اللسان و لا بكثرة الهذيان و لكنها إصابة المعنى و قصد الحجة». و قديما قيل: البلاغة الإيجاز. و قيل: من البلاغة حسن الاستماع. و الصادق ينبه العلماء و الأدباء و كل صاحب موهبة، على أن «من أدب الأديب دفن أدبه». إنما الطريق القاصدة طريق التقوى و الاجتهاد و التأمل. يقول: «كثرة النظر فى العلم [صفحه ۳۳۱] تفتح العقل، و كثرة النظر بالحكمة تلقح العقل». و يقول: «من أخلاق الجاهل الإجابة قبل أن يسمع، و المعارضة قبل أن يفهم، و الحكم بما لا يعلم». و يقول: «الرجال ثلاثة عاقل و أحمق و فاجر: العاقل إن كلم أجاب. و إن نطق أصاب. و إن سمع وعى. و الأحمق إن تكلم عجل، و إن حدث ذهل، و إن حمل على القبيح فعل. و الفاجر إن ائتمنته خانك و إن حدثته شانك». و من إجلاله وظيفة المعلم يقول: «أربعة ينبغى لكل شريف ألا يأنف منها. أو لها خدمته لمن تعلم منه...». و «العلم جنة... و العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس. و الله ولى من عرفه. العاقل غفور و الجاهل ختور... و من خاف العاقبة تثبت فيما لا يعلم. و من هجم على أمر من غير علم جدع أنف نفسه». و «أكمل الناس عقلا أحسنهم خلقا». و «الخشية طريق العلم. و العلم شعاع المعرفة و قلب الإيمان. و من حرم الخشية لا يكون عالما».

الدعاء

منهج أهل‌البيت فى إصلاح الدنيا هو المعرفة. و أولها معرفة الخالق جل شأنه بالعقل، و تثبيت الفهم بالخشوع و التقوى. فليس فى غيرهما قناعة أو جدوى. يقول عليه الصلاة و السلام: «أعوذ بالله من علم لا ينفع و قلب لا يخشع و نفس لا تشبع». و فى ذات يوم ذهب قوم يقولون للإمام الصادق: ندعو. فلا يستجاب لنا! فأجاب «لأنكم تدعون من لا تعرفونه» فمعرفة الله مطهرة للحياء. وصلة و ثقى بين

الرجاء و الرضى و بين الدعاء و الاستجابة. و الدعاء تزكية للنفس و سبيل لها إلى خالقها - بإخلاص تام - فهو ترياق من نفس الإنسان، و معراج إلى رضاء السماء بالالتجاء الكامل إلى الله، و الانفصال فى وقت الدعاء و حواليه عن الرذيلة. فإذا تعددت أوقاته، تكرر الانفصال مما يشين. وازداد [صفحه ۳۳۲] العبد قربا، و أوقات قرب، من خالقه سبحانه. بالتكرار، و إخلاص النية. - و من أجل ذلك يبرز الدعاء فى منهج الشيعة و مؤلفاتهم كالصحيفة السجادية - نسبة إلى السجاد زين‌العابدين و فيها عشرات الأدعية. و البعض يسميها مزامير أهل‌البيت - و مصباح التهجد و مختصر المصباح و هما من مؤلفات الطوسى. و من ضروب التربية العصرية الإيحاء إلى الذات... و فى الدعاء إيحاء ورجاء، و توجه إلى الله، وسعى لمرضاته. و للأئمة دعوات مأثورة، تحويها صحف مشهورة، و لها مناسبات معلومة، و أوقات تمارس فيها... فى الأصباح و الأمسية و الأيام و الليالى و الشهور... كأدعية ليلة الجمعة، أو رجب أو شعبان أو رمضان. و للصادق أدعية تتردد فى كتب الصوفية. فيها الإيحاء العميق بالفضائل إلى نفس من يدعو، فى موقف يعلم أن الله حاضره. و أنه المرجو سبحانه. فهى أداة إصلاح نفسانى منقطع النظير، فوق أنها نداء، يتعالى نحو السماء، فى التماس المغفرة. يقول (الشعبى) شيخ المحدثين من أهل السنة: «عجبت ممن يقنط و معه الممحاة». قيل و ما الممحاة؟ قال: الاستغفار. و لقد كان الصادق يدعو الله فى كل أوقاته؛ و منها لقاءاته مع أبى‌جعفر حيث كان يدعو الله قبل أن يدخل عليه. فيثبت الله جنانه و يحيل بطش الجبابرة إلى ما يشبه طنين الذباب. و من المأثور عنه قوله: «إن الدعاء يرد القضاء. و إن المؤمن ليذنب فيذهب بذنبه الرزق». [صفحه ۳۳۳]

المنهج الاقتصادى

اشاره

«ليس خيركم من ترك آخرته لدنياه و لا دنياه لآخرته. خيركم من أخذ من هذه لهذه». (حديث شريف) [صفحه ۳۳۵] ليس المنهج السياسى أو الاجتماعى - و منهما الاقتصادى - إلا متابعة للمنهج العلمى من الواقعية و إعمال العقل و العمل للتقدم، وفق حاجات الزمن و اختلاف الأقاليم... على أساس المساواة بين الناس، و عمارة الدنيا بالعدل و إحسان القيام على مرافقها. و المنهجان - سواء العلمى أو السياسى الاجتماعى - ينبعان من القرآن و تطبيقات السنة. و هما وجهان لعملة واحدة هى القيم الإسلامية. فكل ما أبعد من هذه القيم لا يكون إسلاميا و إن انتظم مسلمين. فالمسلمون لا يصلحون إلا أن يلتزموا قيم دينهم. و قد أصلها الإمام على، و تابعه فيها الأئمة من بنيه. و من القيم الاجتماعية السليمة ننشأ القيم الاقتصادية البناءة. و لذلك تتجلى الوحدة الموضوعية بين الدين و السياسة و الاقتصاد و الوحدة الفنية بين علمى المالية و الاقتصاد و بينهما و بين فن الإدارة، فى عهد أميرالمؤمنين على بن أبى‌طالب للأشتر النخعى. و سنرى بعض المقولات فيه تكاد تكتب فى النصف الثانى من القرن العشرين للميلاد بأيدى المصلحين الاقتصاديين العالميين. فهى عصرية أبدا لأنها إسلامية خالصة. يقول: «و تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى صلاحه و صلاحهم صلاحا لمن سواهم. و لا صلاح لمن سواهم إلا بهم. لأن الناس عيال على الخراج و أهله... و ليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى جباية الخراج. لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. و من طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد و أهلك العباد، و لم يستقم أمره إلا قليلا... و لا يثقلن عليك شىء خففت به المؤنة عليهم فإنهم ذخر يعود عليك فى عمارة [صفحه ۳۳۶] بلدك و تزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم و تبجحك باستفاضة العدل فيهم. فربما حدث من الأمور ما إذا عول فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم». أما عن «نشاط الأفراد» فى التجارة و الصناعة و الزراعة و الخدمات، و البيع و الشراء. و عن حرية التجارة و الانتقال و العمل كأداة للإنتاج، ففيها التعبير العلمى الرفيع عن التاجر و العامل، إذ يسميهما «المضطرب بماله» و «المترفق ببدنه». و فيها التأييد التيسير و الإشراف و المتابعة من السلطة و التعاون بين الراعى و الرعية حيث يقول: «ثم استوص بالتجار و ذوى الصناعات و أوص بهم خيرا؛ المقيم منهم، و المضطرب بماله، و المترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع، و أسباب المرافق، و جلابها من المباعد و المطارح... فإنهم سلم

لاـ تخاف بائقته. و تفقـد أمورهم بحضـرتك و فى حواشـى بلادك. و اعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضـيقا فاحشا... وشـحا قبيحا و احتكـارا للمنـافع. فـامنع من الاحتكـار...». أمـا الطبقـة الأـخرى، و هى التى تمثـل اليـد السـفلى، لعجزهـا، و لأنهـا تأخـذ من اليـد العليا لاقتدارها، فأوامره فى صددها قاطعة. يقول: «ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم و المساكين و المحتاجين و أهل البؤس و الزمنى. فـإن فى هـذه الطبقـة قانعـا و معترا... و اجعـل لهم قسـما من بيت مالك...». و لقـد سـلف القول عن المنهـج السياسـى لـدى أميرالمؤمنين... و هو المساواة التامـة بين المسـلمين فى العطاء و حقوق بيت المال و ترك الأرضـين فى أيدى أصـحابها بعد الفتح... و غير ذلك مما يكشف لنا منهاجه الاقتصادى بتمامه. و فيما أو ضحناه إشارة إلى مالم نعرض له بتوضيح. و النظريات تكشفها كليات. و الكليات و الجزئيات و التطبيقات ينتظمها جميعا أصل ثابت من قول الرسول: «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته و لا آخرته لدنياه. و لكن خيركم من أخذ من هذه لهذه». [صفحه ۳۳۷]

العمل

العمل عند الشيعة قوة الإنتاج الكبرى. و من أجل ذلك كان العمل للمعاش فرضا على المؤمن ليحيا فى هذه الدنيا، و لا يجوع فيها و لا يعرى، أو تجرفه القوى، أو يحرفه الفراغ و اللهو، أو تفسـده طراوة الدعـة – و أول ما ينبغى له البـدء بتقوية النفس و تبرئتها من الشح و الطمع، و حثها على طلب الحلال. يقول الإمام (عليه‌السـلام): «مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب العطشان منه ازداد عطشا» و «أربعة تذهب ضياعا؛ الأكل بعد الشبع و السراج فى القمر، و الزرع فى السبخة، و الصنيعة عند غير أهلها». أما المؤمن فهو «من طاب مكسبه، و حسنت خليقته، و وضحت سريرته، و أنفق الفضل من ماله، و أمسك الفضل من كلامه، و كفى الناس شره، و أنصف الناس من نفسه. و هو حسن المعونـة، خفيف المؤنـة، جيـد التـدبير لمعـاشه، و لاـ يلسع من جحر مرتين». ثم يضع الإمـام الضوابـط للسـعى فى الحيـاة و تحصيل المعايش فيقول: «ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع، و دون طلب الحريص الراضى بدنياه، المطمئن إليها. أنزل نفسك من ذلـك بمنزلـة المنصـف المتعفف. و ترفع بنفسـك عن منزلـة الواهن الضـعيف. و تكسب مـا لابـد منه للمؤمنين». و هو إذ يوصـى بالإجمال فى الطلب، ينادى بالحكمـة فى الإنفاق. فيقول «إن السـرف يورث الفقر، و إن القصد يورث الغنى». و تدبير المعاش أساسـى ليجتمع للمرء مال يكفى نفسه، و يفضل منه على غيره، و يؤدى به واجبه فى الـدين و الدنيا. و من أجل ذلك كان الصادق يعمل بيده، و يتجر، و ينفق أمواله على الناس، و هو الإمام القـدوة، ليوجه أنظار شـيعته للعمل فى الحياة الـدنيا، كى يقدروا على أعباء الحياة و أداء الزكاة وصـلة الرحم و الإنفاق على المحتاجين. و لا يمكن المرء من كل ذلك إلا رزق يحصـله من دأبه. يقول الإمام عليه‌السلام: «من لم يكن فيه خصلة من ثلاث لم يعد نبيلا؛ من لم يكن له عقل يزينه أو جدة تعينه أو عشيرة تقصده». [صفحه ۳۳۸] و الصحابة العظماء كانوا يعملون ليعيشوا. و ما أكثر ما عمل «على عليه‌السـلام» ليعيش. و هو تراث أهل‌البيت الـذين لا يضـيعون الزمان سدى. يقول الإمام عليه‌السـلام: «الأيـام ثلاثـة: يوم مضـى لاـ يـدرك. و يوم الناس فيه فينبغى أن يغتنموه. و غـد فى أيـديهم أمله» و ما الاغتنام إلا بالعمل الصالـح للنفس و للناس. أما من قعد يلتمس عطاء الآخرين فيده هى السـفلى... و مثله مثل القاعد عن العبادة... أو كالذى ينتظر الذهب و الفضـة تساقطان من السـماء. يقول عن القاعـدين: «الـداعى بلا عمل كالرامى بلا وتر». و الشـيعة فى كل مجتمعاتهم يـدأبون كدأب آبـائهم أو أشـد، و يتقلبون فى البلاد بتجاراتهم، كهيئـة ما كانوا يتقلبون فى الأيام الاولى، مع الزام صاحب المال المسؤوليـة عن طريقة كسـبه او ابواب إنفاقه... يقول يحيى بن معاذ «مصيبتان لم يسمع بمثلهما فى الأولين و الآخرين للعبد فى ماله عند موته: يؤخذ منه كله. و يسأل عنه كله». و هم إلى جوار إيجابهم العمل يوجبون الاسـتقلال فيه، و عدالـة توزيع الرزق منه، فلا يجوزون الشـركة المطلقة بين اثنين فى كل نشاطهما... و شرط الشركة وجود رأس المال. و هم يسمون الشركة بدونه «شركة أبدان» و لا يصححونها؛ لأن كل إنسان مسـتقل بجهده، و منافع جهده له. فإذا أخذ من الآخر اخذ ما لا يسـتحق – و فى هذا حض على الاستقلال الشخصى، و السعى الخاص، حتى لا يكون أحد كلا على غيره. و كمثلهم الشافعى لا يجوز هذه الشركة. فلكل ما سعى. و هم أعداء للتواكل. جاء أميرالمؤمنين عليا

عليه‌السلام العلاء الحارثى فقال: يا أميرالمؤمنين أشكو إليك أخى عاصما. لبس العباءة و تخلص من الدنيا. قال: على به. فلما جاء قال: «يا عدو نفسه. لقد استهام بك الخبيث (الشيطان). أما رحمت أهلك و ولدك. أترى الله أحل لك الطيبات و هو يكره أن تأخذها. أنت أهون على الله من ذلك». قال: يا أميرالمؤمنين؛ هذا أنت فى خشونة ملبسك و جشوبة مأكلك! قال: «ويحك إنى لست كأنت. إن الله قد فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس». [صفحه ۳۳۹] و لكم كان رقيقا صاحب هذا الملبس الخشن إذا عامل الضعفاء... ولو كانوا غير ناس، أو كانوا من الأعداء: كان يوصى من فى يده إبل الصدقة ألا يحول بين ناقة و فصيلها، و أن لا يبالغ فى حلبها خشية أن يضر ذلك بوليدها، و أن لا يركب ناقة و يدع غيرها، بل يسوى فى الركوب بينها و بين صاحباتها. و لما حال بينه و بين الماء جند معاوية، حاربهم عليه فأجلاهم عنه. ثم سقاهم منه! اسوة بجنده!

المضطرب بماله و المترفق بيده. أو: التجارة و الصناعة

إذا كانت الحضارة الغربية لم تفطن إلى أن العمل أداة الإنتاج الأولى إلا فى العصور الأخيرة، فلقد طالما أعلنت ذلك السماء. و العمل التجارى أو اليدوى ميراث الأنبياء. و من عمل الصحابة تعلم الناس جلال قدر المضطرب بماله أو المترفق بيده، أو ببدنه، كما يعبر أميرالمؤمنين (عليه‌السلام). و الصادق عليه‌السلام يمسك المسحاة و يعمل فى بستان له، و حبات العرق تنساب كالبلور المذاب، على الجبين المزهر! فيهيب به تابع له: جعلت فداك. أعطنى المسحاة أكفك. فيجيبه: «إنى أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس فى طلب المعيشة». و كان عندئذ يلبس قميصا و يفتح الماء بالمسحاة و يقول: «إنى لأعمل فى بعض ضياعى ولى ما يكفينى ليعلم الله عزوجل أنى أطلب الرزق الحلال». و كان النبى عليه الصلاة و السلام يتناوب ركوب راحلته و يقول لزميليه فى السفر (على و أبى‌لبابة) حينما أرادا أن يستمر راكبا فى نوبتهما: «ما أنتما بأقوى على المشى منى. و ما أنا بأغنى عن الأجر منكما» و كان ينزل عن بغلته ليركب من يأخذ بزمامها معه. و يقول لمن يريد حمل شىء بدلا منه: «صاحب الشىء أولى بحمله». أما أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) فيحمل لأهله التمر و البلح فى ثوبه و يقول: لا ينقص الكامل من كماله ماجر من نفع إلى عياله ويروى «على» أن الزهراء أجرت الرحى حتى أثرت الرحى بيدها. و قمت البيت [صفحه ۳۴۰] حتى اغبرت ثيابها. و أو قدت القدر حتى اسودت ثيابها، و أصابها من ذلك ضر. و يقول عطاء: إن كانت فاطمة لتعجن حتى أن قصتها لتصيب الجفنة. و أى عظمة فى الدنيا كعظمة اليد العليا، و هى تعمل لبناية الدنيا فتعطى. لقد قبل رسول الله اليد التى تحمل المسحاة يوم أقبل من تبوك. فلقيه سعد الأنصارى فنظر إلى يد سعد و قال: «ما هذا الذى أكتب يديك»؟ فقال: يا رسول الله أضرب بالمر و المسحاة فأنفقه على عيالى، فقبل رسول الله يده و قال: «هذه يد لا تمسها النار». و لما أعطى الرسول اليد العاملة أمانا من النار، جعل العمل عبادة، و إن ورد النص على العمل البدنى، فما هى إلا إشارة لكل عمل. و هو عليه الصلاة و السلام القائل «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى الجبل فيجىء بحزمة حطب على ظهره فيبيعها، و يستغنى، خير له من أن يسأل الناس؛ أعطوه أو منعوه». و هو عليه الصلاة و السلام – و على آله – ينبه على قيمة الوقت و الالتزام بالواجب، و البدء بالعمل النافع فيقول: «إن قامت الساعة و فى يد أحدكم فسيلة فليغرسها. و إن استطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها». و أى جلال كجلال رسول الله و هو يعمل بيده. من أجل تحرير شيخ من أشياخ الشيعة العظماء. ليحفظ الشيعة لأنفسهم و للدنيا معهم، ذلك الدرس العظيم: أن العمل و الحرية صنوان. و أن كلا منهما وسيلة للآخر. أرسل النبى صلى الله عليه و آله و سلم على بن أبى‌طالب إنى خليسة مولاة سلمان الفارسى، و كانت قد اشترته بثلثمائه درهم من أعراب حملوه إلى يثرب. و مكث معها ستة عشر شهرا حتى قدم النبى يثرب، فسميت المدينة، فأتاه سلمان فأرسل النبى عليا إلى خليسة، بعد إذ أسلمت، لتعتق سلمان. قالت: قل للنبى إن شئت أعتقته، و إن شئت فهو لك. قال صلى الله عليه و آله و سلم: «أعتقيه أنت» فأعتقته. فغرس لها رسول الله ثلثمائة فسيلة. [صفحه ۳۴۱] و كان عليه الصلاة و السلام يقول: «سلمان منا أهل‌البيت». [۱۲۰] . مع أن الإمام الصادق يرى إنفاق المال فى البر تجارة مربحة فيقول: «إنى لأملق أحيانا فأتاجر مع الله بالصدقة فيربحنى و أتسع» أى أنه يوجب الإنفاق فى حالى اليسر و الإملاق، و يرى علاجا للفقر أن يتعامل

مع الله بعطائه للفقراء، فهو فى الوقت ذاته يشجع الناس على العمل. و المجتمع الشيعى مجتمع العاملين لا- يتسع للمتسولين؛ و الإمام الصادق - من جراء ذلك - يؤثر عطاء الذين لا يسألون الناس على الذين يسألون. ولو قام أهل الإسلام بواجب الإنفاق لما افتقر مسلم واحد. فالعمل بكل أموال الأمة [صفحه ۳۴۲] يجعل الحبة الواحدة مائة حبة؛ ذلك تقدير العزيز الحكيم فى تشريعه. و الصدقة تربى أو على الأقل لا- تنقص. يقول عليه الصلاة و السلام: «ما نقصت صدقة من مال» بل يقول: «إنما ترزقون بضعفائكم». و العمل فى الصناعة و التجارة مدرسة الدنيا، و وسيلة لعمارتها بالكسب الحلال، و أداء حق المال؛ و هو محل إكبار المسلمين أجمعين... يتراءى فى كثير من أسماء جلة الفقهاء. [۱۲۱] . و الصادق هو القائل: «الشاخص فى طلب الحلال كالمجاهد فى سبيل الله» و القائل: «إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا (لا) سقط من عينى». و يقول الإمام الباقر: «الصدقة لا تحل لمحترف و لا لذى مرة سوى». فالمحترف غنى بحرفته، و ذو القوة غنى باقتداره على العمل. و الرسول عليه الصلاة و السلام يقول: «ملعون من ألقى كله على الناس». سأل إبراهيم بن أدهم (۱۶۲) تلميذه شقيق البلخى (۱۹۵)؛ و هما الزاهدان الشهيران: ما بدء أمرك الذى أبلغك هذا؟ قال شقيق: مررت ببعض الفلوات فرأيت طائرا مكسور الجناحين فى فلاة من الأرض، فقلت أنظر من أين يرزق هذا. فقعدت بحذائه، فإذا بطير أقبل و فى منقاره جرادة، فوضعها فى منقار الطير مكسور الجناحين. فقلت فى نفسى: إن الذى قيض هذا لهذا قادر أن يرزقنى حيث كنت. فتركت التكسب و اشتغلت بالعبادة. [صفحه ۳۴۳] قال إبراهيم: و لم لا تكون أنت الطير الصحيح الذى أطعم الطير العليل حتى تكون أفضل منه؟ أما سمعت عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن «اليد العليا خير من اليد السفلى». و خرج الإمام الصادق يسعى للرزق فى يوم صائف شديد الحر، فقالوا: يابن رسول الله هذه حالك عند الله عزوجل، و قرابتك من رسول الله، و أنت تجهد نفسك فى هذا اليوم! فقال لمن استنكر ذلك: «خرجت فى طلب الرزق لأستغنى عن مثلك». و لما أخبروه يوما عن رجل يقول: لأقعدن و لأصلين و لأعبدن الله قال: «هذا أحد الذين لا يستجاب لهم». و لا بأس أن يجد العامل فى عمله بعض مشقة. فما هى إلا زيادة فى الفضيلة فيه أو الهناءة به. جاءه من يرجوه ليدعو الله ألا يجعل رزقه على أيدى العباد، فأجابه: «أبى الله عليك ذلك. آلى الله الا- أن يجعل رزق العباد بعضهم من بعض، ولكن ادع الله أن يجعل رزقك على أيدى خيار خلقه. فإنه من السعادة. و لا يجعله على أيدى شرار خلقه. فإنه من الشقاوة». و الصادق بهذا التنبيه، يلفت النظر إلى أن التعامل يقتضى وجود طرفين، و السعيد من صلح طرفه الآخر. و هو فوق ذلك، يكمل نقصا لدى كثير من الصالحين الذين يفوتهم أن خوض الغمرات للرزق، مع النجاة من ارتكاب الإثم فى تحصيله، درجة أعلى فى الفضل - بل هو يبصرهم بالمكروه الذى يلقاه الناس، إذ يبتغون غضارة العيش أو نضارة الحياة. يقول: «ليس من أحد و إن ساعدته الدنيا بمستخلص غضارة عيش إلا من خلال مكروه». و الغضارة نضارة و وضاءة و صلاح بال... لا يمكن أن تكون بمعدى عن المكاره، و منها الإيجابى الذى يستوجب النضال، و منها سلبى، يتراءى فيما يفقده المرء من ذات نفسه بإضعاف قدرته على التحمل، أو منعها من العلم، أو مصير ذاته إلى الترهل. و منها [صفحه ۳۴۴] ما يتقاضاه الناس من أعراض الناضرين إذ يمسون أغراضا لسهام الكلام. و إنما ينضر الله عبد سمع مقال الرسول و وعاه أسلوبا فى الحياة، و ما هو إلا الجد و أداء الواجب، و الاقتصاد فى مظاهر الرفاه؛ و هو أقوم و أسلم. و ينضر الإمام وجه العمل ذاته ليزيد العامل قوة، و يزيد الأداء أناقة، و صلات المتعاملين وثاقة، حيث يقول: «كل ذى صناعة مضطر إلى ثلاث خصال يجتلب بها الكسب: أن يكون حاذقا بعمله؛ مؤديا للأمانة؛ مستميلا لمن استعمله». و لما ختم الخصال الثلاث بالاستمالة، كان يوجه من استعمل غيره أو استعمله غيره؛ ليدخل قلب عميله فى حسابه. فهذا درس إسلامى اجتماعى فى المحبة، مثلما أنه درس اقتصادى فى إحسان الصناعة و وثاقة العلاقة و لباقة الأخذ و لياقة العطاء. و الحياة كلها أخذ و عطاء.

التجارة

روى المعلى بن خنيس تابع الإمام: [۱۲۲] رآنى أبو عبدالله، و قد تأخرت عن السوق فقال: اغد إلى عزك. قال معاذ: قلت لأبى عبدالله

هممت أن أدع السوق قال: «إذن يسقط رأيك و لا يستعان بك على شيء». و قال لمن ترك التجارة: «لا تتركها فإن تركها مذهبة للعقل. اسع على عيالك. و إياك أن يكونوا هم السعاة عليكم». و سأل عن تلميذ له: ما حبسه عن الحج؟ فقيل: قل شيئه. فاستوى جالسا - و كان [صفحه ۳۴۵] متكئا - و قال: «لا تدعوا التجارة فتهونوا». و كسب المال من حله و إنفاقه فى محله واجبان على المسلم. و التجارة ممارسة و تعامل، أى مران على الشؤون العامة و الخاصة. و التاجر أعلى عينا بالأمور، و أقدر على مديد العون الآخرين - و فى الاضطراب فى الأسواق إثراء للجماعة، و تخطيط مشترك للمعايش، و هو قبل ذلك امتحان مستمر للنزاهة و البعد عن المحرمات. و عناية الشيعة بتوضيح الحلال و الحرام فى التجارة ظاهرة فى نصوص الفقه. فالمحرم مما يكتسب به، أنواع: ۱ - الأعيان النجسة كالخمر. ۲ - الآلات المحرمة... كآلات القمار. ۳ - ما يقصد به المساعدة على المحرم كبيع السلاح لأعداء الدين. ۴ - ما لا ينتفع به كالمسوخ. ۵ - الأعمال المحرمة كالغناء عدا المغنية لزف العرايس، إذا لم تغن بالباطل و يدخل عليها الرجال، و النوح بالباطل، أما بالحق فجائز، و هجاء المؤمنين، و تعليم السحر و الكهانة. ۶ - الأجرة على القدر الواجب من تغسيل الأموات. و لا بأس بالرزق من بيت المال، و كذا على الأذان. أما جوائز الظالم فمحرمة إن علمت بعينها، و الولاية من العادل جائزة... و ربما وجبت. و الولاية من الجائر محرمة، إلا مع الخوف، - فلو تيقن التخلص من المأثم و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر استحبت. و كما يعمل الإمام بيده ليتعلم الناس، يتجر بماله ليعلمهم دروسا فى التجارة - بالتطبيق العملى الذى تشهده الملايين فتتعلم. و هو أجدى عليها من أن تعطى ملايين تنفقها و لا تتعلم. دعا يوما مولاه مصادف، فأعطاه ألف دينار و قال له: تجهز حتى تخرج إلى مصر فإن [صفحه ۳۴۶] عيالى قد كثروا. فتجهز بمتاع، و خرج مع التجار حتى إذا دنوا من مصر، استقبلتهم عير خارجة منها، فسألوهم عن المتاع الذى يحملونه ما حاله فى مصر، و ما متاع العامة؟ فعلموا منهم أن ليس بمصر منه شيء. فتحالفوا على ألا ينقصوا من ربح دينار دينار... و وسع عليهم فى الربح. ثم فصلت العير عن مصر إلى المدينة بالكسب العميم. و دخل مصادف على مولاه و معه كيسان فى كل منهما ألف دينار. و قال: جعلت فداك. هذا رأس المال و هذا الربح. قال الصادق: سبحان الله تحلفون بالله على قوم ألا تبيعوا أو يربح الدينار دينارا! ثم أخذ واحدا من الكيسين فقال: هذا رأس مالى و لا حاجة لنا فى الربح. ثم قال: «يا مصادف. مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال». هكذا بورك لمصر فى متاع الإمام. لكن الإمام يقبض درهما من أموال مصر... أن قد أساء البيع الوكلاء.. مذ كانوا محتكرين. و لا «يحتكر إلا خاطئ». و هذا أول الدروس. و هى كثيرة؛ منها: أن زيادة الجهد واجبة عند كثرة العيال. و أن ترك ما فيه شبهة هو الحق، و أن النظر إلى الأمة كلها واجب؛ و هو أوجب على العلماء و الرعاة. كان إذا جاع الناس صنع صنيع آبائه، فأخذ جرابا فيه الخبز و اللحم و الدراهم على عاتقه، فذهب إلى ذوى الحاجات من أهل المدينة فقسمها فيهم و هم لا يعرفونه. حتى إذا مات افتقدوه فعلموا أنه «الإمام الصادق عليه‌السلام». و ما جاع قادر إلا ذكر البطون الخاوية. و فى سعة أرزاق الحمقى عبرة للعقلاء. يقول الإمام: «إن الله تعالى وسع أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء و يعلموا أن الدنيا لا ينال ما فيها بعمل و لا حيلة». و «كم من طالب للدنيا لم يدركها. و مدرك لها قد فارقها. فلا يشغلنك طلبها عن عملك. و التمسها من معطيها و مالكها. فكم من حريص على الدنيا قد صرعت... ما الدنيا؟ هل الدنيا إلا اكل أكلته أو ثوب لبسته أو مركب ركبته؟». و لا تعاب القلة، و إنما تعاب الرذيلة. و منها التظاهر و الإعلان الكاذب. و الصدق صفة المتعاملين مع الله. و القليل مع الصدق كثير. و من ثمة بركات الله فى النفس [صفحه ۳۴۷] و العقل و المال، للصادقين. و الصادق، يعد بهذا كله فى كلمته الجامعة «من أراد الله بالقليل من عمله أظهر الله منه أكثر مما أراد». يقول لمن ساعد - بغير أجر - فى عمل لم يجد صاحبه ما لا ليكرى من يساعده فيه «أما أنك إن تساعد أخاك أحب إلى من طواف أسبوع فى البيت». و ترى من ذلك بروز «العمل الصالح» فى أبواب العبادة، و تقديمه بين النوافل. و الصادق يخصص بعض ماله للإصلاح أيا كان وجهه. تشاجر رجلان على ميراث فمر بهما المفضل بن عمر - صاحب الإمام - فدعاهما إلى منزله، فأصلح بينهما بأربعمائة دينار من جيبه، حتى إذا استوثق كل منهم من صاحبه، قال المفضل: إنها ليست من مالى، إن الإمام أمرنى إذا رأيت اثنين من أصحابنا يتنازعان أن أصلح بينهما من ماله.

المال

هذه القوة الكبرى للإنتاج و هى العمل، تعاونها قوة أخرى هى المال، شريطة أن يستعمل. فإذا لم يستعمل تنقصته الزكاة عاما بعد عام حتى تقضى عليه. و من أجل ذلك صار مباحا الاتجار فى مال اليتيم لحسابه حتى لا يأكله الزمن - و إنما يستعمل المال فى التجارة و فى الصناعة و الزراعة و سائر الوجوه. فلا يكنز و لا يؤخذ عليه ربا، بل يتواصل المسلمون فيه بالمعروف. سئل الصادق: لم حرم الله الربا؟ و أجاب: «لئلا يتمانع الناس المعروف». و المعروف مطلوب فى العلاقات العادية و المالية و بين جميع المتعاملين، فى القروض و نظرة الميسرة أو المشاركة فى مخاطر الاتجار أو الاستصناع و المزارعة و الخدمات، وسواها، لتجرى الأرزاق لهم، من الله، على أيديهم. و أول الواجبات فى المال أن يكون أداة تعمير للدنيا باستثماره، و للأنفس بمشاركة المحتاجين إليه، سواء للعمل به أو للعيش منه، و ألا يكون وسيلة للاستعلاء، و إنما [صفحه ۳۴۸] وسيلة للتواصل... يتأدى بها المسلم إلى العمل الصالح. و من الأوليات فى هذه الواجبات الاقتصاد و الترفق: يقول الإمام (عليه‌السلام): «أيما أهل‌بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم فى الرزق. و الرفق فى تقدير المعيشة خير من السعة فى المال». و الرفق لا يعجز عن شىء. و التبذير لا يبقى معه شىء. و فى القليل كفاية من القناعة. و الكثير لا يغنى مع السرف... و فى المعنى ذاته يقول الصادق: «ضمنت لمن اقتصد الا يفتقر» و إنما يفتقر من يتجاوز الحدود، و يبعثر قواه، و يخسر أشياءه. و بالرفق فى الأمور تجرى الحياة بين الناس على نسق مقبول. يقول الإمام عليه‌السلام: «من كان رفيقا فى أمره نال ما يريده من الناس». و الله تعالى يحب الرفق فى الأمر كله.

العبادة و انفاق المال

يكاد أكثر ما جمع من تعاليم الإمام فى الأبواب الاجتماعية و الاقتصادية، يتجه بفحواه شطر هذا الوجه من وجوه العبادة. و الله تعالى يصف المتقين فى محكم كتابه، فى أول صفحاته ، بأنهم «الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون». و كل نعمة رزق. يقول الرسول الاكرم (صلى الله عليه و آله و سلم): «نعمتان مغبون فيهما أكثر الناس. الصحة و الفراغ». فهاتان نعمتان يسأل عنهما الإنسان. و الإمام (عليه‌السلام) يقول: «المعروف زكاة النعم». فالمعروف زكاة واجبة لمجرد الفراغ من التبعات و السلامة من المرض. و من التطبيق الإسلامى للإنفاق و وجوهه المادية و المعنوية يظهر أنه العبادة الإسلامية الشاملة لكل الناس، و لكل شىء ولكل ساعة فى الحياة يتاح فيها مديد [صفحه ۳۴۹] بالمودة للغير، باعطاء أو قبول العطاء، و الإقراض أو الاقتراض، و دفع الأذى، أو مجرد المعونة، بالفعل أو القول، أو العمل المادى، أو بمجرد الكف عن الأذى، و ما إلى ذلك من أبواب التعاون بين أفراد المجتمع... سواء بالمال أو بالسعى أو بالجاه أو بمجرد الاهتمام. و اهتمام المسلم بما أهم المسلم هو الذى يهب المقرور دفئا، و المكروب برءا، و المنكوب طمأنينة. يقول صاحب الشريعة: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم». و لما حصرت الشريعة الفرائض رحمة من الله بعباده المكلفين، أطلقت المندوبات، لتتيح لهم أن يتطوعوا بالعمل الصالح كيفما قدروا و حيثما وفقوا - و بخاصة فى إنفاق المال - ثم أكثرت الحض عليه، ثم جعلته ممكنا للجميع، و فى وجوه النشاط الإنسانى جميعها. يقول الإمام للصادق (عليه‌السلام): «ليعن بعضكم بعضا فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كان يقول: «إن معونة المسلم خير و أعظم أجرا من صيام شهر و اعتكافه شهرا فى المسجد الحرام» و إياكم و إعسار أحد من إخوانكم المسلمين فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كان يقول «ليس لمسلم أن يعسر مسلما. و من أنظر مسلما أظله الله يوم القيامة بظله حيث لا ظل إلا ظله...». و ذات يوم قال رجل: إن بينى و بين رجل منازعة فى أمر و إنى أريد أن أتركه فيقال لى إن تركك ذلة. فقال الإمام: «إن الذليل هو الظالم». فهو لا يرى الترك عيبا، إنما العيب بالظلم، أيا كان مصدره، التارك أو المتروك له. و دخل عليه عمار الساباطى فقال له: يا عمار إنك رب مال كثير فتؤدى ما افترض عليك الله من الزكاة؟ قال: نعم. قال: فتخرج الحق المعلوم من مالك؟ قال: نعم. قال: فتصل قرابتك؟ قال: نعم. قال: فتصل إخوانك. قال: نعم.

قال: «يا عمار إن المال يفنى. و البدن يبلى. و العمل يبقى. و الديان حى لا يموت. يا عمار. ما قدمت فلم يسبقك. و ما أخرت فلن يلحقك». [صفحه ۳۵۰] و الأيادى قروض، و الإمام يعد بالرد المضاعف ، و يعلن فضل من أعطى، و يؤثر عليه فضل الآخذ. و العرف لا يذهب بين الله و الناس. قال له تلميذ: إنى لا أتغدى أو أتعشى إلا و معى اثنان أو ثلاثة، أو أكثر. فأرضاه الإمام بالجزاء الموعود، و أعلن له أن فضلهم يفوق فضله. قال: «فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم. إذا دخلوا عليك دخلوا بالرزق الكثير». [۱۲۳] . و الإمام يحض على دوام التواصل، إذ يجعل النعمة التى يخولها المعطى للآخذ نعمة تتكرر إذ تشكر، لتتكرر. يقول «اشكر من أنعم عليك. و أنعم على من شكرك. فإنه لا إزالة لها إذا شكرت و لا إقالة لها إذا كفرت». و البخل قبض القادر يده عن العطاء و نفسه عن الأمل. فذلك داء البخلاء. و الإمام الذى يوجب السخاء عند إقبال الدنيا و حين يفيض الخير، يوجب الرجاء و الصبر عند إدبارها. فالدنيا تدور. يقول (عليه‌السلام): «عجبت لمن يبخل بالدنيا و هى مقبلة عليه أو يبخل بها و هى مدبرة عنه. فلا الإنفاق مع الإقبال يضره. و لا الإمساك مع الإدبار ينفعه». ففيم يقف البخلاء دورة المال أو نعمة الرجاء! و الصادق يروى عن جده أميرالمؤمنين (عليهماالسلام): «قيل يا نبى الله. أفى المال حق سوى الزكاة! قال: نعم؛ بر الرحم إذا أدبرت، وصلة الجار المسلم. فما أقر بى شبعان و جاره المسلم جائع. ثم قال: مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». و فى كل مشاركة فضل. يقول صفوان بن يحيى - من أصحاب الإمام الكاظم (عليه‌السلام) - جاءنى عبدالله بن سنان، قال: هل عندك شىء؟ قلت: نعم، فبعثت ابنى يشترى لحما بدرهم، فقال: أين أرسلت ابنك، فأخبرته، فقال: رده. عندك زيت؟ قلت: نعم. قال: هات [صفحه ۳۵۱] فإنى سمعت أبا عبدالله «الصادق» يقول: «هلك امرؤ احتقر لأخيه ما يحضره. و هلك امرؤ احتقر لأخيه ما قدمه إليه». و الجود بالموجود جود. و فى التكليف رهق. و فى كل إرهاق أذى. و السمح لا يؤذى، و لا يحس الأذى فيما هو طبيعى. و من السماحة فى الأخذ و العطاء ينتشر التواصل، بأى شىء و فى كل شىء. فالإمام (عليه‌السلام) لا يتكلف لأحد، و يعلن فضل الطاعم على صاحب الطعام. قال هشام بن سالم: دخلنا على أبى عبدالله و نحن جماعة، فتغدينا و تغدى معنا، و كنت أحدث القوم سنا، فكنت أقصر و اتآكل، فقال لى: «كل. أما علمت أنه تعرف مودة الرجل لأخيه بأكله طعامه». يقول الإمام لأضيافه: «أشدهم حبا لنا أكثرهم أكلا عندنا». و كانت «عين زياد» ضيعة له فجعلها له و للناس... يأمر وكيله بأن يثلم فى كل حيطان الضيعة ثلما ليدخل الناس فيأكلوا، و يأمر كل يوم بعشر ثبنات يقعد على كل واحدة منها عشرة يطعمون... كلما قام عشرة جاء عشرة... يلقى لكل منهم بعض الرطب. أما الذين لا يجيئون من جيران الضيعة فلكل منهم مد يرسل إليه، حتى إذا جاء أوان قطع الثمار أعطى الوكلاء العمال أجورهم عنه، و أمر الإمام بالباقى فحمل إلى المدينة ففرق فى أهلها، كل حسب استحقاقه. يقول ابن أبى‌طيفور: رأيت عند أبى عبدالله ضيفا، فقام يوما فى بعض حوائجه فنهاه و قام بنفسه إلى هذه الحاجة و قال: «نهى رسول الله عن استخدام الضيف».

اداء حقوق الآخرين فى المال

و إذا واسى الصادق أعطى فأغنى: سأله فقير فأعطاه ألف درهم، فلما مضى الرجل أمر خادمه ليرجعه. قال الخادم: يا سيدى سئلت فأعطيت. فماذا بعد العطاء؟ قال: قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «خير الصدقة ما أبقت غنى»، و قال للرجل: «إنالم نغنك، فخذ هذا الخاتم فقد أعطيت فيه عشرة آلاف درهم». [صفحه ۳۵۲] و لا مرية فى أنه لم يغن الرجل ليأكل، و إنما أغناه بالمال ليعمل. فالعطاء ليس طعاما يعطى، و إنما هو فرصة عمل بالتعبير الاقتصادى المعاصر... أى تمكين من اداة إنتاج تحفظ إنسانية الإنسان و تزيد ثراء الجماعة. و العطاء وفاء بحقوق، و ليس مجرد أريحية. فأميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) هو القائل «إن الله فرض على الأغنياء فى أموالهم ما يكفى الفقراء فإن جاعوا أو عروا فبظلم الأغنياء» و القائل: «الفقر هو الموت الأكبر». و سئل الباقر عن الزكاة تجب فى مواضع لا يتمكن السائل من أدائها فيها فأجاب: «اعزلها فإن اتجرت بها فأنت لها ضامن. و لها الربح». و يقول الصادق: «إن الله عزوجل فرض للفقراء فى مال الأغنياء ما يسعهم - ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم. إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عزوجل... و لكن أتوا

من منعهم حقهم. ولو أن الناس أدوا حقوقهم كانوا عايشين بخير». و بنص عنه: «إن الله تبارك و تعالى شرك بين الفقراء الأغنياء فى الأموال. فليس لهم أن يصرفوا إلى غير شركائهم». و على أساس هذه النصوص يتساءل الفقهاء: هل الفقير شريك فى ملك العين (فى خصوص الزكاة)، أو أن له (مجرد حق) فيها. فالبعض على أنه شريك بمقدار حصته، و البعض على أنه صاحب حق فيها؛ و هو مقدار نصيبه. و صاحب النصيب من لا يملك مؤنة سنة له و لعياله. و الأغنياء من يملكون ذلك المقدار. يقول الإمام الصادق: «تحرم الزكاة على من يملك قوت سنة». و لا يدع الإمام الناس - فقراء أو أغنياء - دون تنبيههم على أصل الداء، و هو الطمع. فيعالنهم بمقولة من مقولاته التى تتناقلها الأجيال: «إن كان ما يكفيك لا يغنيك فكل ما فيها لا يغنيك». و لحقوق الفقراء على الأغنياء عند الشيعة مصدر آخر زاخر، فوق مصدر الزكاة، و هو خمس المكاسب. و الله تعالى يقول: «واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن لله [صفحه ۳۵۳] خمسه و للرسول و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن‌السبيل». و الشيعة تفسر الآية تفسيرا يسع أكثر مال يكتسب، إذ يدخل فيه خمس أرباح التجارات و الصناعات و الإجارات و العمل و الوظائف و الهدية و الوصية و أرباح مالك المنجم و المدخرات من الكسب الحرام إذا اختلط بالحلال و لم يتميز، فإن تميز أخرج كله، و اللؤلؤ المستخرج و المواريث التى لم يؤد عنها الخمس... و ذلك بعد أن يستنزل المكلف مؤنة الحفظ و مؤنة الذين يعولهم و مركبه و مسكنه و نفقات أضيافه لمدة سنة كاملة، و مازاد عن ذلك ففيه الخمس. كتب رجل إلى الإمام الباقر: أخبرنى عن الخمس أهو على جميع ما يستفيده الرجل من قليل أو كثير... و كيف ذلك؟ فكتب الإمام بخطه: «الخمس بعد المؤنة». و لا يحمل الخمس إلى غير بلده إلا مع عدم وجود المستحق فيه. و يجوز أن تخص به طائفة واحدة. و الأحوط قسمته. و الفقهاء يقررون أن للإمام نصف الخمس و أن نصفه الباقى ليتامى آل النبى و مساكينهم و فقرائهم و أبناء السبيل منهم. و الآن - حيث الإمام غائب - فالأقوال كثيرة فى توزيع حق الإمام. و ربما جاز من تعددها اختيار الإنفاق على المصالح التى تحفظ للأمة دينها و شريعتها. و الرسول عليه الصلاة و السلام يكلف المسلمين أن يقصدوا بالبر الفقراء، و أن يتطهروا بين الفقراء، و يتقوا الله تقوى الفقراء. يقول (صلى الله عليه و آله و سلم): «من اراد الله فليطلبه عند الفقراء».

كنز المال

أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) هو الذى ذكر عمر بخثور نفس رسول الله حتى وزع مالا كان عنده (صلى الله عليه و آله و سلم)... و أعلن ساعة استخلافه أن الدولة ليس لها فى المال إلا أن تقسمه فى المسلمين متساويين - فرقى المنبر يقو للمسلمين عن نفسه: «... إلا و إنه ليس لى دونكم إلا مفاتيح أموالكم معى. و ليس لى أن آخذ درهما دونكم». [صفحه ۳۵۴] جىء ذات مساء بمال افاءه الله على المسلمين، فأشار إليه و قال: اقسموه. قالوا: أمسينا فأجرجه إلى غد. قال: تقبلون لى أن أعيش إلى غد؟ قالوا ما بأيدينا ذلك. قال: فلا تؤخروه. فقسموه من فورهم. و لما بعث أبوموسى إلى عمر من العراق ألف ألف درهم فرقها ففضلت فضلة فاختلفوا أين يضعها، خطب عمر الناس قائلا: أيها الناس قد فضلت لكم فضلة بعد حقوق الناس، فقال صعصعة - و هو بعد غلام شاب، أسلم فى حياة النبى و لم يره - و قال: «يا أميرالمؤمنين إنما يتشاور الناس فيما لم ينزل فيه قرآن. و أما ما نزل به قرآن فضعه مواضعه التى وضعه الله عزوجل فيها». فقال عمر: «صدقت. أنت منى و أنا منك». فقسمه بين المسلمين. و صعصعة - كما أسلفنا - بطل «يوم الجمل» إلى جوار أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام). استشهد أخواه و هما يحملان الراية، ثم حملها صعصعة و انتصر. و أبوذر أب من آباء الشيعة العظماء، و سيرته درس تحتفى به مجالسهم و أمالى كبرائهم... ينبه الناس من قديم على خطر الفقر و اقترانه بالكفر، و تعريضهما العقيدة و الوطنية و وحدة الجماعة للدمار؛ فيقول: «إذا ذهب الفقر إلى بلد، قال الكفر خذنى معك». و لقد حرم كنز المال بحبسه عن المسلمين فى بيوت الأموال، أو حرمانهم منه و تعريضهم للافتقار، فأوجب على الدولة توزيع المال فى أصحاب الحق فيه من الرعية، و حرم النعيم على من يعيش بين الجياع. فإذا كان اخوة المسلم فى عيشة راضية فالنعيم يباح. و لما أرسل إليه عثمان مائتى دينار مع رسول يقول: هذه من مال عثمان، و هو يقول لك إنها من صلب ماله ما خالطها حرام. قال أبوذر: هل أعطى أحدا من المسلمين مثلما

أعطانى؟ قال: كلا. قال: قال: اذهب أنت و الدراهم. إنما أنا رجل من المسلمين يسعنى ما يسعهم، و لست فى حاجة إلى المال. قال الرسول: اصلحك الله إنى لا أرى فى بيتك قليلا و لا كثيرا. فرفع أبوذر الوسادة، و أراه قرصين من خبز الشعير و قال: بل عندى [صفحه ۳۵۵] هذان و إنى لغنى بهما و ثقتى بالله. و مر أبوذر بمعاوية و هو يبنى قصر الخضراء فصاح به: «من أين لك هذا؟ إن كنت بنيتها من مال المسلمين فهى الخيانة، و إن كنت بنيتها من مالك فهى الإسراف». فشكاه معاوية إلى عثمان. و ظاهر من هذا النهج، النحو الاقتصادى الذى ينحوه الشيعة من تداول المال و عدم كنزه عن الأمة ولو كان فى يد الدولة، و وجوب تقسيمه فى المسلمين أو العمل به لهم، و الاستكثار من طرحه فى التداول [۱۲۴] . [صفحه ۳۵۶]

التعاون

العنصر الثالث فى الاقتصاد - كما هو ظاهر من تعاليم الإمام فى فصول هذا الباب - هو التعاون. و ليس كمثله «منظم داخلى» أو «محرك ذاتى» للنشاط الفردى أو القومى. و لقد مر بنا أنه واجب «قانونى» يخرج من الإيمان من بات شبعان و جاره جائع. كما أسلفنا القواعد الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية التى شرعها الإسلام و شرحها الإمام، ليخلف للأمة منهاجه الذى اعتزت به الأمة فبلغت شأوها العالى بالمنهج العلمى، العصرى أبدا، و المنهج الاجتماعى الذى جعلها كالبنيان المرصوص، و المنهج الاقتصادى الذى يستعمل العلم و العمل و المال فى تعاون مأمور به، أى فى تكافل كامل. و لئن مرت بها فترات مظلمة، إن مردها إلى الخروج على قواعد المنهج. و إنما عصمتها فى الرجوع إلى الأمر الأول. [صفحه ۳۵۷]

الخاتمه (إلى الرفيق الأعلى

اشاره

«الحمد لله لم يخرجنى من الدنيا حتى بينت للناس جميع ما تحتاج إليه». (الإمام جعفر الصادق عليه‌السلام) [صفحه ۳۵۹] كان الإمام فى لقاءاته الأخيرة مع الخليفة (أبى‌جعفر المنصور) يقول له: «لا تعجل، لقد بلغت الرابعة و الستين و فيها مات أبى و جدى». فلقد كان يحس باقتراب يومه، و يلتمس من ذلك قوة عند اللقاء... تؤيده فى الصدام معه و الثبات فى وجهه ، و الدفاع عن حقوق الله و الناس عنده، و تذكيره بالآخرة. و هو إلى ذلك يهيئ الدولة، و الناس، لما بعد موته. و الناس الذين يتساءلون متى نصر الله، يولون وجوههم شطر الإمام عليه‌السلام، مذ قطع المنصور أسباب الأمل فى الأمان و الاطمئنان، بالنكال يصبه على من عارضه، و خص أهل‌البيت بكفل زاخر من عذابه. فما الكثيرون عنه إليهم. و لم يكن باقيا من مشيختهم إلا الإمام الصادق... تهوى إليه الأفئدة من بعيد و قريب، و يتزاحم عليه التلامذة من أشياخ العلماء. و مضت الأيام، و الناس بين البأساء و النعماء، و الفزع و الرجاء... و الإمام فى دروسه و مجالسه يرسى مبادئه للأجيال القادمة، و يهدى بالقول و العمل، و بمجرد أن به حياة. و جاء ذلك اليوم الذى قال فيه، و هو رخى البال: «الحمد لله الذى لم يخرجنى من الدنيا حتى بينت للناس جميع ما تحتاج إليه». و هو إفصاح عن اكتمال المذهب الشيعى فى تعاليمه، و نظام الدولة الشيعية، إن أمكن أن تظهر، و المجتمع الشيعى فى كل حال. و إن شئت قلت مقاله (المجتمع الجعفرى)، أو مقال الفقهاء: مجتمع «الشيعة الإمامية». و جاءت ساعة الموت... و هو فى تمام صحوه، و أهل‌البيت حافون من حوله: قالت زوجه «حميدة» أم الإمام موسى الكاظم، و كانت من البربر، لرجل من اصحابه: [صفحه ۳۶۰] لو رأيت أبا عبدالله عند الموت، لرأيت عجبا: فتح عينيه ثم قال: «إن شفاعتنا لا تنال مستخفا بالصلاة». أما رواية الإمام موسى الكاظم فنصها: لما حضرت أبى‌الوفاة قال لى «يا بنى لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة». فهذا إمام تنتهى إمامته، يعهد لإمام تبدأ أيامه... فينبهه و الناس... على حقهم فى شفاعة أهل‌البيت، و واجبهم لينالوها، بإقامة عمود الدين. و تضيف مولاته «سالمة» ساعة الموت حسنات فتقول: «اغمى عليه. فلما أفاق قال: أعطوا الحسن بن على

(بن على بن الحسين) سبعين دينارا، و أعطوا فلانا كذا، و فلانا كذا. قلت: أتعطى رجلا حمل عليك بالشفرة يريد أن يقتلك؟ قال: أتريدون ألا أكون من الذين قال عنهم الله عزوجل «و الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل و يخشون ربهم و يخافون سوء الحساب»؟ نعم، يا سالمة. إن الله خلق الجنة و طيب ريحها، و لا يجد ريحها عاق و لا قاطع رحم. أجل؛ كان الإمام قطعة من صميم الإسلام. جده عليه الصلاة و السلام «خلقه القرآن»، أما هو فخلقه «سنة جده». وجده يعلن سنته حيث يقول: «أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح». و يقول إن أول الواجبات فى المال بعد الزكاة: «بر الرحم إذا أدبرت». فالإمام فى ساعة الموت يوصى لمن يليه، و يذكر الشفاعة... و الصلاة... و صلة الرحم... و هو يريح رائحة الجنة. صعدت روح الإمام إلى الرفيق الأعلى فى شوال ۱۴۸، لتترك المنصور فى الفزع الأكبر. فلقد غابت عن الدنيا أسباب سلام يثق بها، ولاح فى السماء نجم جديد... بإمام جديد... ليس له به عهد. و المنصور ليس الرجل الذى ينتظر حتى ينكشف له أمر فيه غرر، بل هو يبتدر الخطر. قال أبوأيوب الجوزى: بعث إلى أبوجعفر المنصور فى جوف الليل، فدخلت عليه [صفحه ۳۶۱] و هو جالس على الكرسى و بين يديه شمعة، و فى يده كتاب. فلما سلمت عليه رمى الكتاب إلى، و هو يبكى، و قال: «هذا ابن‌سليمان (والى المدينة) يخبرنا أن جعفر بن محمد قد مات. فإنا لله و إنا إليه راجعون». قالها ثلاثا، ثم قال: و أين مثل جعفر؟ ثم قال: اكتب. فكتبت صدر الكتاب، ثم قال: «اكتب إن كان قد أوصى إلى رجل بعينه فقدمه و اضرب عنقه». هكذا يأمر بقتل من يجهله، و يحرمه حق المحاكمة، لمجرد أن من فحوى الوصية لرجل بعينه أنها رسالة للأمة تعلن الإمام الجديد! لكن الله كف بطش المنصور. فرجع الجواب إليه أن الإمام أوصى إلى خمسة هم: أبوجعفر المنصور و ابن‌سليمان، و عبدالله و موسى و حميدة. و الأخيرون ولدا الإمام و زوجه. فليس هنا وصى بعينه. و الأولان أبوجعفر ذاته، و واليه. و ليس إلى قتل هؤلاء من سبيل! و ما كانت وصية «الصادق» للمنصور و واليه إلا توصية لهما بالأمة، و تذكيرا لهما بأنهما ملاقيا الله مثله. و المنصور أجدر خلق الله بأن يذكره الناس بالموت، و أن يذكروه عند الموت، إن محبين له و إن مبغضين. و لما قرن الإمام أباجعفر بابنيه و زوجه، كان يذكره أن يخاف الله فيهم و فى ذوى رحمه. كان المنصور يسابق الموت إلى من تتم الوصية إليه وحده. ففوتت عليه وصية الإمام بغيا، لم يمنعه من مقارفته تساقط دمعه، أو أن يسترجع الله مرات ثلاث، و كأنه يجعل الدمع مدادا لأمر يهتبل الفرصة لإصداره، ليقطع رأس إمام جديد من أهل‌البيت يطاف بها فى المدائن. و أنسته شياطين الفزع و الطمع أن يذكر ما علمه الصادق من صلة الرحم، و ازداد نسيانا يوم لا أحد ينسى! و جرى المهدى و الرشيد فى أثر المنصور يهتدون به، و يدسون الجواسيس ليعرفوا [صفحه ۳۶۲] من يجتمع إليه الناس بعد موت الإمام. سأل سائل موسى الكاظم، فقال (عليه‌السلام): «إذا هدأت الرجل و انقطعت الطريق فأقبل» و سأله آخر فقال له: «سل تخبر. و لا تذع. فإن أذعت فإنه الذبح». بل كان هشام بن سالم ينبه زملاءه الشيعة حتى لا يقعوا فى حبائل المنصور. و ظاهر من ذلك أن المجالس العظيمة. التى كانت تنعقد فى حياة الإمام الصادق، قد ولى زمانها. ولى الإمامة موسى الكاظم بعد أبيه فتتابع فى حياته عهد الهادى ثم عهد الرشيد. و اقتصر - كما سيقتصر الأئمة من بعده - على العلم و إمامة الدين، دون أن يمدوا عينا أو فكرا إلى الخلافة الدنيوية. و مع هذا حبس الرشيد الإمام الكاظم حتى سنة ۱۸۳. ثم أمر فأدخل الناس السجن ليروه ميتا... ليس به آثار قتل. و الشيعة يقولون: مات مسموما. و خلف الكاظم فى الإمامة ابنه على الرضا. حتى إذا صار المأمون خليفة ولاه عهده... على رغمه، سنة ۲۰۱، و أمر ابنه و بنى‌العباس بمبايعته... فصنعوا، و زوجه من بنته «أم‌حبيب» فى سنة ۲۰۲. كما زوج ابنه محمدا الجواد بنته «أم‌الفضل». إلا أن عليا الرضا مات سنة ۲۰۳ فجأة! مسموما... فى أكلة عنب - كما يقولون - فى أثناء عودته فى ركب المأمون من مرو إلى بغداد! و فى رحلة العودة هذه، و فى ركب المأمون ذاته، قتل وزيره الذى دبر له كل أمره (الفضل بن سهل)، و كان شديد التشيع. و توجه محمد الجواد بزوجته إلى المدينة - بعيدا من بغداد. فلما ولى المعتصم أشخصه إليها. فقدمها لليلتين بقيتا من المحرم سنة ۲۲۰. و فى نهاية السنة مات. و الناس تقول فى موته ماقالوه عن موت أبيه وجده و ما سيقولونه فى موت ابنه على الهادى. بعد أن صار إمام استقدمه الخليفة إلى العسكر فى «سر من رأى» حيث قصر الخلافة. فلما مات الهادى سنة ۲۵۴، قام بالإمامة ابنه الحسن الخالص (العسكرى) حتى سنة ۲۶۰... عام وفاته، ليخلفه ابنه محمد آخر الأئمة الأثنى عشر... الذى اختفى عن الانظار، و الناس ينتظرون

ظهوره... و هو عند الشيعة الإمامية [صفحه ۳۶۳] «المهدى المنتظر». [۱۲۵] . بهذا التاريخ يختم الأئمة الاثنا عشر حقبة من الزمن علموا فيها المسلمين العلم الذى آل إليهم عن آبائهم - عن طريق الإمام الصادق عليه‌السلام - بعيدين عن السلطة، مدركين جلال ما يقدمون للأمة، من تراث جدهم (صلى الله عليه و آله و سلم)... يعضون عليه بالنواجذ، و يطهرونه من الزيف، و يتبرأون ممن غلوا فيهم. [۱۲۶] . أقامت الأمم الإسلامية الدول تترى... فى القارات الثلاث فى العالم المعروف، [صفحه ۳۶۴] منتسبة إلى أهل‌البيت من أبناء الحسين أو أبناء عمومتهم، و مجتمعات مزدهرة، و حضارات يضرب بها الأمثال... فى العراق، و اليمن، و خراسان، و إيران و أفغانستان، و باكستان، و الهند، و لبنان، و سورية، و الكويت، و البحرين، و شرق أفريقية، و كثير سواها. ففى المغرب أقام الدولة الإدريسية إدريس بن إدريس بن عبدالله (أخى الشهداء الثلاثة محمد و إبراهيم و يحيى أبناء عبدالله بن الحسن) و كان قد فر إلى المغرب الأقصى عن طريق مصر سنة ۱۷۲ هاربا من بطش الرشيد. و قد بعث إليه الرشيد من سمه. و فى المشرق قامت دولة أخرى على يد الحسن بن زيد بن... الحسن (۲۷۰ - ۲۵۰) و أعقبه فيها أخوه؛ و هما فقيهان زيديان. و قامت الدولة الساسانية بخراسان؛ عاصمتها بخارى. و أقام أئمة الشيعة الاسماعيلية دولة كبرى فى أفريقية و آسيا (الدولة الفاطمية). ثم قامت الدولة الإمامية الكبرى فى إيران حيث بقيت العقيدة الإمامية و الفقه الإمامى عقيدة و شريعة حتى اليوم. و سيطرت الدولة البويهية (۴۴۷ - ۳۲۴) على الخلافة العباسية بتمامها، و وضعت مراسم التشيع و أعياده... فجعلت يوم كربلاء مأتما قوميا، و يوم الغدير عيدا إسلاميا. و أمر معز الدولة بن بويه، فكتب على المساجد فى بغداد: «لعن الله معاوية ابن أبى‌سفيان، و لعن من غصب فدكا، و من منع أن يدفن الحسن فى قبر جده عليه‌السلام، و من نفى أباذر الغفارى. و من أخرج العباس من الشورى» فحكه الناس. فاكتفى بأن أمر أن يكتب على المساجد: «لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم» و أمر ألا يذكر فى اللعن إلا معاوية. و تحول بنو بويه عن زيديتهم، و سلكوا مسلكا إماميا. و ولوا الشريف أباأحمد نقابة الطالبيين و إمارة الحج، بل ولوا ابنه الشريف الرضى النيابة عن الخلافة العباسية. و مع ذلك كان بين حين و آخر، يشعر بالسخط، فيجرى على لسانه الشعر الذى يمجد [صفحه ۳۶۵] الخلافة الاسماعيلية: أإلى المجد إن ذل غلام فى غمده المشرفى ألبس الذل فى ديار الأعادى و بمصر الخليفة العلوى! فهذا زعيم إمامى يفاخر بخليفة اسماعيلى. و هو فى الوقت ذاته قد ولى نيابة الخليفة السنى.

عدالة السماء

و الدول - كالكائنات الحية و كالأفراد و المجتمعات - تشتق قانونها من أسباب وجودها، و تلتزمه قتبقى و تسلم، أو تخرج عليه فتفقد سببا أو أكثر من أسباب تقدمها و نمائها، و ربما فقدت سبب بقائها. و كلما أصابها السقم رجعت إلى سبب وجودها تلتمس السلامة. لقد نشأت الدولة الإسلامية و المجتمع الإسلامى على قواعد الإسلام فى السنة الأولى للهجرة، فأخضعت دول العالم المعروف فى بضعة عشر عاما، من حياة النبى و أصحابه، و أقامت المجتمع الأفضل الذى صنع على يد الرسول و على عينه... و كلما أبعد المسلمون من هذا الفضل، قل الشبه فى الصورة عنه فى الأصل. و كلما فكروا فى العودة إلى الأمر الأول ولوا وجوههم شطره. و ما هو إلا عمل النبى و آله و صحبه. فكل عمل أو بحث لإقامة الدولة المثلى لمجتمع مسلم، يتجه بالطبيعة إلى أيام النبوة، و العمل بالقرآن و السنة. و آل النبى هم أقرب الرجال إلى الصميم من ذلك و إلى قلوب الأمة. و هم أرفع شعار يمكن تحريك الجموع به... فهم أهل النبى و القرآن و السنة جميعا؛ لا بالعرف وحده، و إنما بسيرتهم التى ليس لها فى التاريخ نظير. و الإمام الصادق (عليه‌السلام) يتوهج كالنجم الثاقب فى هذه السماء. فهو مدرسة العلم مع الزهادة فى السلطة. و هو إمام فقه فى الدين و العلم... و صاحب مناهج للدنيا، و معلم [صفحه ۳۶۶] للإصلاح و التشريع و السياسة و الاقتصاد؛ و هى الوسائل المحركة للتقدم فى جميع الأمم. فلا عجب أن كانت دعوات الإصلاح، و دعاءات الرجاء، فى كل العصور، تتلمس فى علمه المدون، و سيرته التى يمجدها المسلمون، ذكريات فضائل تمشى على الأرض، و تطبيقات مفلحة، لتعاليم كفيلة بإقامة حكم صالح يرد الحكام إلى الدين، و يعيد الدين غضا فى أنفس الناس كما كان فى

أفئدة السلف الصالح. و يتراءى مصداق هذه الحقيقة «للقانون الطبيعى» للإسلام، أو للطبيعة الدينية للمجتمع المسلم، فى قيام الدولة العباسية بدعوى «تصحيح التاريخ» و بشعار «الدعوة إلى الرضا من آل محمد». فلما أجهضت هذه الدولة مبادئها بخعت نفسها. فصارت ملكا عضوضا خيراته للملوك. فلم يك معدى عن إعادة التصحيح بالعودة إلى رسالة النبى و تعاليمه و آله. و إنما انحرفت الدولة الإسلامية فى تجاربها التى أقامتها الدول الأموية و المروانية و العباسية لغصبها حقوق أهل‌البيت، و نصبها العداء لهم، فى موجة انصراف الحكام، عن مصالح الأمة و شريعتها، إلى شهواتهم. فتصحيح التاريخ يبدأ بإقرار حق على و أبناء النبى و العمل بالشريعة. و التاريخ خاضع لقانون الطبيعة أو قانون الحركة (لكل فعل رد فعل... مساوله فى المقدار، و مضاد له فى الاتجاه). و الحقائق الكبرى فى التاريخ، كالظواهر العظمى فى الطبيعة، لا تخفى. و الذى يخفى الحرارة أو البرودة لا يبغته الغليان أو التجمد، أو رعدة الحمى أو رعشة البرد. و الذى يخفى الضغط الجوى لا يأخذه الأنفجار أخذ الفجاءة. «و عمر بن عبدالعزيز» «و المأمون» هما الانفجاران المحتومان فى دولتى بنى‌مروان و بنى‌العباس، لأنهما الممثلان الصادقان للضمير الإسلامى، فى الدولة أو الجماعة أو الأفراد، أو فى العلم أو الحكم أو العدل أو الجهاد، على رأس المائة الأولى و رأس المائة الثانية. [صفحه ۳۶۷] أما عمر فنما فى أكناف بيت طالما حاول طمس فضائل على. فلما شب عن الطوق أصبح يعلن للناس إسرار أبيه له أن الناس لو عرفوا فضائل على لانصرفوا إليه عن دولتهم، حتى إذا ولى إمرة المدينة أبطل سب على على المنابر. و كان عمر يرزح تحت الرقابة الشديدة من الخليفة الوليد، و السباق المجنون من الحجاج لظلم بنى‌على، مع استرضاء بنى‌مروان للحجاج، حتى ليعزل الوليد عمر بن عبدالعزيز (رضى الله عنه)، لإرضاء الحجاج بن يوسف الثقفى!! فلما ولى عمر الخلافة، أقسم أن يتخذها طريقا إلى الجنة... فرد لأهل‌البيت مظالمهم، و أعاد لهم «فدكا». و بعث إليهم عشرة آلاف دينار ليعوضهم عما سلبهم سابقوه. و كانت الشهور الثلاثون - مدة خلافته - تلقى على كاهل رجل هزل الورع جسده، أعباء الدين و الدنيا... يدرك أن أيامه معدودات، و يتهمه أهله بأنه يوشك أن يخرج الخلافة منهم إلى بنى‌على. [۱۲۷] . بل أعلن عمر أنه لو استطاع لعهد بالخلافة لمن كان مثله، فقال: «لو كان لى من الأمر شىء لاستخلفت أعيمش بنى تيم القاسم بن محمد بن أبى‌بكر». و هو العليم أن محمدا ترعرع فى حجر «على» قبل أن يستخلف، و أنه حارب معه معاوية. فلما ولاه مصر، باء بدمه رجال معاوية. فهو عدو بنى‌أمية من كل وجه. و أن «القاسم» همزة الوصل بين أبى‌بكر و بين «أهل‌البيت»... بنته أمفروة تحت جناح الباقر، و ابنهما «جعفر الصادق» فى عنفوان صباه، أمل تتجه الأبصار تلقاءه. و أما «المأمون» فعبقرى العلم، سواء العلم الدينى، من أصول و فقه و دين و حديث، أو العلم العام، و فيه التاريخ و الفلسفة و العلوم التطبيقية و الرياضية و الفلكية حيث له فى [صفحه ۳۶۸] جوار قصره مرصد يرصد فيه النجوم. و هو بطل حروب و «رجل دولة» كبير؛ لا يعرف التاريخ - من عهد اليونان و الرومان حتى الآن - ملكا بلغ مبالغه فى كل أولئك مجتمعا... و هو يقف فى القمة من الدولة العباسية... فمن بعده بدأ الانحدار. و كانت الأعوام السبعون التى انصرفت من عمرها و انحرفت فى إبانها تشير إلى الحاجة إلى عقل عبقرى فيه إنصاف؛ ليحدث عودا على بدء. فأعلن تشيعه... بل عهد من بعده لإمام الشيعة فى عصره... بل زوجه و ابنه من بنتين له. [۱۲۸] . و لقد كان حقيقا أن يبلغ غرضه لو لا أن الإمام «عليا الرضا» مات فجأة... كمثل ما كان السياسيون فى العهد العباسى يموتون فجأة! ولو لا أن المأمون رأى أن يأمن فى سربه انتقاضات أهله... بعد إذ حاربوه بجيوشهم لمدة عامين، من جراء تشيعه، لكان قد ولى عهده، بعد على الرضا، زوج بنته الأخرى، الإمام التاسع محمدا الجواد. و كانت خلافة المأمون تمثل حكما يحاول أن يستقر على «أساس دينى». و هذا ظاهر فى عهده لعلى الرضا... و على «أساس علمى»، و هذا ظاهر فى عمله لإلزام الناس برأى المعتزلة... و على «سند سياسى»، ليقدر على مقاومة تيارات تتناوشه من شتى الجهات - سياسية كالوافدة من الفرس و الروم، أو عائلية كنزاعات أهله، أو فكرية كالقضايا التى آلت إلى المسلمين من مواريث اليهودية و المسيحية. يحمل ألوية الجدال فيها المعتزلة... و المأمون من كبرائهم. و لما فقد الذين جاءوا بعده قدرتهم على التوازن بين الزوابع، آلت الدولة إلى الترك. و تتابع تقسيمها أقاليم و دولا. و لم يعد للدين فى الدول الجديدة الكلمة العليا. بل أصبحت للمعايش و الأرزاق و مداراة الحكام. و بهذا دب التدهور فى الأفراد، [صفحه ۳۶۹] و المجتمعات و الدولة، و أفسدت الدولة الفرد و أفسد الفرد - بدوره - الدولة.

و من تصحيح التاريخ للأشياء، كانت أول دولة استقلت عن بنى‌العباس فى القرن الثانى دولة إدريس بن إدريس بن عبدالله فى المغرب، فدولة الحسن بن زيد فى المشرق. و تتابعت الدول فى القرن الثالث بخراسان، و مصر، و أفريقيا، و فى اليمن، حيث ملك القاسم بن إبراهيم (۲۸۶ - ۲۴۶)، و إليه تنسب الزيدية القاسمية. ثم الهادى بن القاسم، و إليه ينسب الهادوية. و بقيت دولة الشيعة باليمين حتى إعلان الجمهورية سنة ۱۹۶۲ للميلاد. و فى القرن الرابع قامت دولة بنى‌بويه ۱۰۵۵ - ۹۴۵ - ۴۴۷ - ۳۲۴ و هى شيعة زيدية فى العراق و فارس حيث عاصمتهم شيراز. و قام الحمدانيون فى العراق و الشام ۳۵۸ - ۳۱۷. و هم شيعة إمامية يذكر الإسلام لهم الدفاع عنه ضد غزوات الإمبراطورية الرومانية من بيزنطة. و تدين لهم الأمة العربية بأحسن أشعار أبى‌الطيب المتنبى، و بشعر أبى‌فراس الحمدانى، و فلسفة الفارابى فيلسوف المسلمين - المعلم الأول عند العرب - أو المعلم الثانى فى العالم، حيث أرسطو هو المعلم الأول. و فى القرن الخامس، كان بنو حمود بالأندلس (۴۴۷ - ۴۰۷)، و هم من أبناء الأدارسة - و فى القرن السادس، كان ابن‌تومرت (... بن عبدالرحمن... بن محمد بن الحسن بن على) مؤسس دولة الموحدين، و كانت خطبة الجمعة عندهم تشتمل على الصلاة عليه باعتباره (الإمام المرحوم المهدى المعلوم)، و إن كانت دولته و دولة الأدارسة أو بنى‌حمود، أو الدولة الفاطمية، تحكم شعوبا سنية. و لا شك أن كبرى الدول التى أقامها الشيعة كانت الدولة الفاطمية (الاسماعيلية). [صفحه ۳۷۰]

الاسماعيلية

[و يلقبون - فى مراجع أهل السنة - القابا أخرى؛ أهمها «الباطنية».] قامت الدولة الفاطمية (نسبة إلى فاطمة الزهراء) فى المغرب ثم مصر منتسبة إلى «اسماعيل» ابن‌الإمام جعفر الصادق، و كانت قد مات فى حياة الصادق (عليه‌السلام). و الاسماعيلية ينفون ذلك. و منهم من يقول إن أباه ادعى موته اتقاء لأذى أبى‌جعفر المنصور له. و فى أواخر القرن، كان عبدالله بن ميمون القداح (۱۹۸) من أتباع الخطابية، ينشر دعوة لنفسه بالبلاد. فأجابه حمدان بن الأشعث - قرمط - ثم مات القداح، فخلفه أبناؤه و دعوا لأنفسهم باعتبار أنهم من ولد عقيل. ثم هرب أحفاده إلى المغرب فى أفريقية. و بجهدهم أو جهد (منصور اليمن - ابن‌حوشب - ۲۶۶) فى بلاد المغرب ظهر عبيدالله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية سنة ۲۹۸ لتبقى دولة عظمى حتى سنة ۵۶۷. فتحت جيوشها فسطاط مصر فى ۱۷ شعبان سنة ۳۵۸ (۹۶۹ - ۷ - ۷) . و فى ليلة الفتح وضع جوهر الصقلى قائد الجيش حجر الأساس لمدينة القاهرة. و تم بناؤها فى رمضان سنة ۳۷۱. افتتح الأزهر للصلاة فى الشهر ذاته و هو يوافق يونيو - يوليو سنة ۹۷۲. و فى صفر سنة ۳۶۵ عقد القاضى ابوعلى الحسن بن النعمان أول حلقاته فى الجامع الأزهر، فكان أول مدرس فيه - فدرس للناس مختصر أبيه فى فقه آل البيت (عليهم‌السلام). و فى سنة ۳۶۶ عين أبوعلى بن النعمان قاضيا للقضاة. فعرفت مصر هذه الوظيفة لأول مرة. هكذا نشأ الأزهر معهدا شيعيا. ثم صار جامعة لكل علوم الإسلام. و هكذا نشرت الدولة الفاطمية ألوية الإسلام و علوم الشيعة فى مصر و الشام و الحجاز و وسط آسيا، و أقامت مدينه القاهرة، و أنشأت الجامع الأزهر، و خطب لها فى مكة و المدينة على المنابر. [صفحه ۳۷۱] و فى سنة ۴۵۰ خطب لها الخطباء على منابر بغداد مدة عام تقريبا. [۱۲۹] . و عليها خرجت طائفة الدروز التى ألهت «الحاكم بأمر الله» فقاتلهم المصريون فهربوا إلى الشام سنة ۴۰۸. أما «الحاكم بأمر الله» فقد شاركت فى قتله أخته «ست الملك» لاضطهاده رعيته و فساد آرائه - كما قيل. و كانت أمها جارية رومية قبطية من سرارى الخليفة العزيز بالله. و كان التسامح الدينى من تقاليد هذه الدولة حتى صار حديث التاريخ. و لقد عين العزيز بالله أرسانيوس، و أريسطيس، «خالى ست الملك» بطريقين للأسكندرية و لبيت المقدس. فقوى نفوذ النصارى فى الدولة. و كان وزيره يعقوب بن كلس يهوديا اسلم. و هو الذى نظم التدريس فى الأزهر. [۱۳۰] . أما الاسماعيلية فى المشرق، فعلا نجمهم على يد الحسن بن الصباح. و قد أمضى [صفحه ۳۷۲] سنوات بمصر اتصل فى إبانها بالخليفة المستنصر، فدعا له بعد إذ عاد إلى إقليم فارس. ثم دعا من بعده لابنه نزار. و فى سنة ۱۴۸۳ استولى على قلعة آلموت. ثم اشتد ساعده باصفهان. و سيطر الحسن بن الصباح بأساليب السياسة العادية و غير العادية على أقاليم كبيرة فى فارس. فقتل أتباعه الوزير نظام الملك (۴۸۵ - ۴۰۸) - منشئ المدرسة النظامية فى

بغداد [۱۳۱] - و فی سنهٔ ۵۰۰ قتلوا الوزیر فخرالدین کما قتلوا من فقهائها الشافعیهٔ المشهورین: أباالمظفر الخجندی سنهٔ ۴۹۶، و تلمیذه أباجعفر المشاط سنهٔ ۴۹۸، و أباالمحاسن ابن‌إسماعیل الرویانی سنهٔ ۵۰۲. و کان یقول: «لو احترقت کتب الشافعی لأملیتها». و لا مراء فی أن الخلاف بین الاسماعیلیهٔ و بین المدرسهٔ النظامیهٔ راجع إلی الخصومهٔ الشدیدهٔ التی تتبدی فی الصحیفهٔ ۶۷ من کتاب «سیاسهٔ نامه» الذی یدین بوجوده «لنظام الملک»، و فیها وجوب الطعن فی «الروافض» و وصفهم بأنهم مارقون عن الدین. و لما صار الحسن بن الصباح داعی الدعاهٔ للنزاریهٔ الفاطمیهٔ، أبی أن یدعی الإمامهٔ، حتی توفی سنهٔ ۵۱۸. فخلفه آخرون؛ انتسب واحد منهم إلی نسل «نزار» الفاطمی... [۱۳۲] . [صفحه ۳۷۳] و فی سنهٔ ۶۵۴ استولی هولاکو علی معاقلهم فقصدوا إلی الشام و الهند. و فی الشام حالفوا الرهبان الصلیبیین فترهٔ، و خالفوا صلاح‌الدین فترهٔ، و دخل أتباعهم خیمته فی عسکره و طعنوه بخناجرهم. و منهم الفدائیون الذین قتلوا أمیر طرابلس الصلیبی (الکونت ریمون). و یمتاز الاسماعیلیهٔ بالتنظیم و الدعایهٔ السریین. و أنهم یطورون أمورهم. و من التطور، و مراعاهٔ مقتضی الحال، وجد التباین فی تعالیمهم من وقت لآخر، لکن الأصل الأصیل عندهم هو أن الإمام المعصوم من نسل محمد بن اسماعیل بن جعفر الصادق. و عندهم أن من قام بالطهارهٔ و الصلاهٔ و الزکاهٔ و الصوم و الحج و الجهاد و الولایهٔ، لکنه عصی الإمام، فطاعته غیر مقبولهٔ. [۱۳۳] . و هم یذهبون إلی أن لکل ظاهر «باطنا»، و أن تأویل الباطن من عند الله، اختص به علی بن أبی‌طالب. و من ذلک یقولون بمشارکهٔ علی للنبی. و یستدلون بقصهٔ موسی مع الرجل الصالح، فی «سورهٔ الکهف». و یفسرون القرآن بطریقهٔ خاصهٔ. و یقولون إن نور [صفحه ۳۷۴] الله حل بالإمام. و من تعالیمهم ما تأثر بفلسفات الأقدمین. و للشیعهٔ الاسماعیلیهٔ فی العصور الحدیثهٔ مواقف مشهورهٔ فی الدفاع عن الإسلام و نشره. کانت الدولهٔ الفاطمیهٔ أکبر دول العالم، قوهٔ عسکریهٔ و فکریهٔ، فی العصور الوسطی. تتمثل فیها وحده المسلمین و سماحهٔ الدین. [۱۳۴] . و فیها أثبتت وحدهٔ القاعدهٔ القانونیهٔ فی الأمهٔ، بل وحدهٔ الدین فی المذاهب، اقتدارها علی أن تجمع المسلمین فی دولهٔ واحدهٔ، هی أعظم الدول حضارهٔ فی القارات المعروفهٔ فی ذلک الزمان، عاصمتها مصر - القاهرهٔ، و جامعتها الأزهر. سعد فیها المسلمون و المسیحیون و الیهود و الذمیون، حتی غزاها من الداخل انقسام شعوبها، و قیام إمارات شتی، وسفه الوزراء، و ضعف الخلفاء. [صفحه ۳۷۵] و أغری غزو شعوبها أنفسهم فی داخلها، بانقسامهم و تفککهم، الصلیبیین، لیقوموا بالغزو الخارجی. و صدهم المسلمون مرات، حتی إذا ادلهم الخطب، استعانت الدولهٔ الشیعیهٔ فی مصر بالدولهٔ السنیهٔ فی دمشق و علی رأسها السلطان نورالدین محمود (۵۶۹) استاذ صلاح الدین (۵۸۹) لیثبت أهل مصر و الشام أن الإسلام واحد و إن اختلفت المذاهب. و لما وحد صلاح الدین إمارات المسلمین فی بضع سنین من الموصل إلی حلب و دمشق و القاهرهٔ، استقام له المحور القوی، فنهد للقاء الصلیبیین. و نصره الله فی حطین. و هذا درس فی الوحدهٔ مطلوب إلی المسلمین أن یتدارسوه. و المجتمع الإسلامی یمتاز علی المجتمعات المعاصرهٔ بأنه مجتمع دینی الاساس بأطوار تاریخه و طبیعته، و بأن تعالیم القرآن و السنهٔ هی غذاؤه الیومی، و هواؤه النقی، الذی یتنفسه المسلمون: العائلهٔ فیه محکومهٔ بقوانین دینیهٔ و تقالید إسلامیهٔ، فی الزواج و الطلاق و الأبوهٔ و البنوهٔ و النفقهٔ و الحضانهٔ و سائر علاقات الأسرهٔ. و الفرد فیه واقف بین یدی الله علی مدار ساعات النهار و زلفا من اللیل. و المجتمع کله مفروض علیه - فرض وجوب - و الفرد مفروض علیه - فرض کفایهٔ - أن یأمر بالمعروف و ینهی عن المنکر... أی یتکافل فی دفع کل خروج علی الدین. بهذا صار الحفاظ علی الإسلام و قیمه مسؤولیهٔ قانونیهٔ و عامهٔ، و أصبح التمییز بین الحلال و الحرام حجر الأساس فی المجتمع، و فی علاقات الأفراد و الأسرهٔ. و أمسی لزاما علی کل دولهٔ إسلامیهٔ أن تتأخی أواخی الدین، و هی تنظر إلی المصالح المادیهٔ و السیاسیهٔ، لها، و الناس. و لقد بقی الأمر کذلک طوال القرون العشرهٔ التی کانت فیها الدول الإسلامیهٔ مستقلهٔ، تتعلم علومها الحضارهٔ الغربیهٔ، حتی إذا اضمحلت، ران الظلام السیاسی و الرکود الاقتصادی علی القلوب. فانتقلت شمس الحضارهٔ من الشرق إلی الغرب فی [صفحه ۳۷۶] أوربا، و بدأت العصور الحدیثهٔ و حضارتها الأوربیهٔ فی الظهور، منذ ختام القرن الخامس عشر للمیلاد. و لم یکن مصادفهٔ، و إنما کان لزاما للتحلل و التقاطع و التخاذل، أن یبدأ طرد العرب - فی ذلک القرن - من اسبانیا، و أن تکون محاولات طردهم معاصرهٔ للثورات الدینیهٔ فی المسیحیهٔ، و للإرهاب الدینی فی دولها، و أن یکون نصیب المسلمین من هذا الإرهاب فوق ما

يتصور البشر، من العذاب و التقتيل و التحريق و التنصير، بل قتل من يتنصر بدعوى عدم الإخلاص فى التنصر!! و فى ظلمات الجهالة و التخلف بهرت المقهورين حضارة أوربا، فلم تبق لهم ذاتهم، و لم يصيروا أوربيين، و عجزوا عن صد الغزو الأوربى، فى حين قدر آباؤهم على دفع الغزو الصليبى لأنهم كانوا أقرب إلى القيم الإسلامية. و تلاحق التدهور حتى بداية النهضة الحديثة للمسلمين... حتى إذا أخذت الشعوب الإسلامية بأسباب العلم، نظرت إلى داخلها تلتمس القوة من ذاتها. فاستشعرت حقائق القوة فى طاقاتها. و عادت تلتمس الأسباب فى صميم حضارتها، و فى تمسكها بعقيدتها، التى اشتقت منها منهجها العلمى؛ و هو الذى صار «المنهج العلمى العالمى» الذى نقلته عنها أوربا منذ القرون الوسطى. [۱۳۵] . و التاريخ معلم كبير. و أول علومه؛ أن كثيرا من صفحاته تتكرر، و أنه خطاب مستمر، مفتوح السجل لكل ذى بصر. و يعلمنا التاريخ أن الوحدة هى التى تصنع النصر - سواء أكانت وحدة شاملة، كمثل ما كان الأمر فى الصدر الأول، أم كانت وحدة للحرب، كما صنع الخليفة الفاطمى «الشيعى»، و سلطان دمشق «السنى»، لرد غائلة الصليبيين، أم وحدة القوى كما صنع صلاح الدين ليعيد بيت المقدس للمسلمين.... [صفحه ۳۷۷] كل أولئك صيحات عالية بأن الإسلام واحد، كلما جد خطر. و أن الاعتصام به مصدر الظفر. و لما اتحد العرب، و تجمع المسلمون، بعد العاشر من رمضان سنة ۱۳۹۳ حنى العالم هاماته لهم. و يعلمنا التاريخ أن أمتنا بلغت شأوها كلما استمسكت بعقيدتها و التزمت تعاليمها، و أن التقصير فى جانب الدين كالخرق الواسع، لا يبقى على شىء مهما يجمع الناس. و المصلحون الاجتماعيون و السياسيون، الذين تعمى أبصارهم عن هذه الحقيقة، يضربون فى حديد بارد. إنه تعالى يقول: «و يريكم آياته. فأى آيات الله تنكرون. أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم». و العمل بالقيم الإسلامية داع إلى سن القانون الاسلامى الموحد لتجرى أمور المسلمين، و معاملاتهم كافة، و عقوباتهم إذا انحرفوا عن الجادة، على نسق واحد، يسموبهم فى معاملاتهم كل يوم، و يمنع الجريمة، و ينتشل الهلكى من أعماق السجون. و يصون المعنى التعبدى فى كل حكم فقهى، و الجانب الإنسانى، فى كل حكم جنائى. و لا جرم إن تقنين الفقه الإسلامى و العمل به هو الإسهام الأعظم منا فى الحضارة المعاصرة، و بأعظم ما نملك من القيم، و نحن قادرون على ذلك باستعمال مصادرنا العلمية. و أين من شرع الله قوانين البشر! و الخطر اليوم يملأ الأفق: لقد تطرقت إلى الأرض العربية و الإسلامية الدعوات الإلحادية و المادية المدمرة للقوى الذاتية للأمة، يؤيدها امتياز القوة، و المال المبذول بسخاء، و التكنولوجيا التى تخطف البصر، و رفع الاستعمار الفكرى و السياسى و الاقتصادى أعلامه عالية! [صفحه ۳۷۸] و ما التبشير الدينى، الأوربى و الأمريكى فى بلدان المسلمين إلا وجه واحد من وجوهه. أما الغزو الداخلى للاسلام - من داخل مجتمعات المسلمين - فشر مكانا و أنفذ أثرا. و الأوربيون - من كل معسكر - يسلطون علينا أسبابه. إن التاريخ يعلمنا أن وجود إسرائيل فى الأرض التى كان الصليبيون يحتلونها - بالذات - ليس مصادفة؛ بل هو فكر غربى قديم... أقام بالفعل، و بالقوة، دولة صليبية، - هنا - فى هذا المكان. و إنما يكرر الفكر الأوربى نفسه، بعد سبعة قرون، بغرس دولة «يهودية»، بدلا من دولة «صليبية»، فى القلب، من جسم العرب. و إسرائيل دولة «دينية» مد الغرب إلينا بها مخالبه. و الدفاع ضد دولة دينية يهودية يقتضى الالتجاء إلى القيم الدينية، و إن لم يستلزم إقامة دولة دينية. و لقد طالما استعملت أوربا الأسلحة الدينية ضد المسلمين. [۱۳۶] . إن الحضارة الأوربية - من شرق و غرب - تحسب حساب «قوة عربية إسلامية» فى مفترق الطرق إلى العالم، و فى ملتقى المصالح للدول العظمى، و أنها قوة بشرية هائلة. يزخر ارضها بأسباب القوة، و تنصع صحاريها بالمعادن، فتضىء فى صور الأقمار الصناعية الدائرة حول الأرض ليل نهار. و الحضارة الأوربية تحسب حسابا آخر لاجتماع المسلمين على «المبادئ» التى [صفحه ۳۷۹] سادوا بها كلما اجتمعوا. و الحضارة الأوربية، أو الأمريكية، و إن كانت ذات منهاج وثنى، راسخة الجذور فى الفكر الدينى. [۱۳۷] لقد كانت «الحرب الصليبية» صيحة التجمع لشعوب أوربا المشتتة فى العصور الوسطى، و كانت معاهدة «و ستفاليا» راسمة حدود دولها الحالية من (۱۶۴۸)... و هى نصفان: نصف «دينى» لإرضاء البروتستانت - و نصف سياسى «لمنع الحروب الدينية» - بعد منح حرية العقيدة. و هذه المجتمعات و الدول فى أوروبا و أمريكا، آخذة الآن فى العودة إلى الدين، و إلى التكتل تحت أسماء أو صور مختلفة، كالحلف أو المعاهدة أو المنظمة أو المؤتمر؛ و منها السياسى و الاقتصادى و

العلمی و الاجتماعی. فما أحرانا أن نتحد علی تسامح الإسلام و قیمه العالیة... لنبقی و نقوی. ألا و «إن هذا الأمر لا یصلح آخره إلا بما صلح به أوله».

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹